مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

الدكتور أحمد فريد رفاعي

مدير إدارة الصحافة والنشر والثقافة المصرية

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة احمد المقرى المغربى المالكى الأشعرى

مضبوطة ومشروحة ومعلقا عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الخامس

اهداءات ٢٠٠٠

مهندس/ راداميس اللقانى

مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب

الدكتور أحمد فريد رفاعي

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

مدير إدارة الصحافة والنشر والثقافة المصرية

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة أحمد المقري المغربي المالكي الأشعري

مضبوطة ومشروحة ومعلقا عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الخامس

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد

فقد قال العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

العماد الأصفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

***

« وَأَمَّا » مَسْجِدُ قُرْطُبَةَ فَشُهْرَتُهُ تُغْنِي عَنْ كَثْرَةِ الْكَلَامِ فِيهِ ، وَلَكِنْ نَذْكُرُ مِنْ أَوْصَافِهِ ، وَنَنْشُرُ(١) مِنْ أَحْوَالِهِ مَالَا بُدَّمِنْهُ ، فَنَقُولُ : قَالَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ : لَيْسَ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِنْهُ وَلَا أَعْجَبُ بِنَاءً ، وَأَتْقَنُ صَنْعَةً وَكُلَّمَا اجْتَمَعَتْ مِنْهُ أَرْبَعُ سَوَارِي(٢) كَانَ رَأْسُهَا وَاحِدًا ثُمَّ صَفُّ رُخَامٍ مَنْقُوشٍ بِالذَّهَبِ وَاللَّازَوَرْدِ فِي أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ . انْتَهَى . وصف قرطبة

---

(١) فى بعض النسخ « ولنشر من أحواله الى مالا بد منه » (٢) الأولى : أربع سوار « أحمد يوسف نجاتى »

وَكَانَ ٱلَّذِى ٱبْتَدَأَ بِنَاءَ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ ٱلْعَظِيمِ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنُ مُعَاوِيَةَ ٱلْمَعْرُوفُ بِالدَّاخِلِ ، وَلَمْ يَكْمُلْ فِى زَمَانِهِ وَكَمَّلَهُ ٱبْنُهُ هِشَامٌ ، ثُمَّ تَوَالَى ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِى أُمَيَّةَ عَلَى ٱلزِّيَادَةِ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱلْمَثَلُ مَضْرُوبًا بِهِ . وَٱلَّذِى ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ كُلُّ خَلِيفَةٍ يَزِيدُ فِيهِ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ إِلَى أَنْ كَمَلَ عَلَى يَدِ نَحْوِ ٱلثَّمَانِيَةِ مِنَ ٱلْخُلَفَاءِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ : إِنَّ عَبْدَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلَ لَمَّا ٱسْتَقَرَّ أَمْرُهُ وَعَظُمَ بَنَى ٱلْقَصْرَ بِقُرْطُبَةَ ، وَبَنَى ٱلْمَسْجِدَ ٱلْجَامِعَ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَبَنَى بِقُرْطُبَةَ ٱلرُّصَافَةَ تَشْبِيهًا بِرُصَافَةِ جَدِّهِ هِشَامٍ بِدِمَشْقَ . وَقَالَ بَعْضٌ : إِنَّهُ أَنْفَقَ عَلَى ٱلْجَامِعِ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَٱشْتَرَى مَوْضِعَهُ ـ إِذْ كَانَ كَنِيسَةً ـ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَاللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِى تَرْجَمَةِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلِ مَا صُورَتُهُ : إِنَّهُ لَمَّا تَمَهَّدَ مُلْكُهُ شَرَعَ فِى تَعْظِيمِ قُرْطُبَةَ ،

فَجَدَّدَ مَغَانِيَهَا(١) ، وَشَيَّدَ مَبَانِيَهَا ، وَحَصَّنَهَا بِالسُّورِ ، وَابْتَنَى قَصْرَ الْإِمَارَةِ وَالْمَسْجِدَ الْجَامِعَ وَوَسَّعَ فِنَاءَهُ ، وَأَصْلَحَ مَسَاجِدَ الْكُوَرِ ، ثُمَّ ابْتَنَى مَدِينَةَ الرُّصَافَةِ مُتَنَزَّهًا لَهُ . وَاتَّخَذَ بِهَا قَصْرًا حَسَنًا وَجِنَانًا وَاسِعَةً ، نَقَلَ إِلَيْهَا غَرَائِبَ الْغِرَاسِ وَكَرَائِمَ الشَّجَرِ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَقْطَارِ . انْتَهَى

وَكَانَتْ أُخْتُهُ أُمُّ الْأَصْبَغِ تُرْسِلُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّامِ بِالْغَرَائِبِ مِثْلَ الرُّمَّانِ الْعَجِيبِ الَّذِي أَرْسَلَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ دِمَشْقِ الشَّامِ كَمَا مَرَّ . وَسَيَأْتِي كَلَامُ ابْنِ سَعِيدٍ بِمَا هُوَ أَتَمُّ مِنْ هٰذَا . وَلَمَّا ذَكَرَ ابْنُ بَشْكُوَالَ زِيَادَةَ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ قَالَ : وَمِنْ أَحْسَنِ مَا عَايَنَهُ النَّاسُ فِي بُنْيَانِ هٰذِهِ الزِّيَادَةِ الْعَامِرِيَّةِ أَعْلَاجُ النَّصَارَى مُصَفَّدِينَ(٢) فِي الْحَدِيدِ مِنْ أَرْضِ قَشْتَالَةَ وَغَيْرِهَا ، وَهُمْ

(١) جمع مغنى: اسم مكان من غنى بالمكان « كرضى » اذا أقام به

(٢) صفده : وأصفده وصفده اذا شده وقيده وأوثقه فى الحديد وغيره

كَانُوا يَتَصَرَّفُونَ فِي الْبُنْيَانِ عِوَضًا مِنْ رَجَّالَةِ الْمُسْلِمِينَ إِذْلَالًا لِلشِّرْكِ وَعِزَّةً لِلْإِسْلَامِ . وَلَمَّا عَزَمَ عَلَى زِيَادَتِهِ هٰذِهِ جَلَسَ لِأَرْبَابِ الدُّورِ الَّتِي نَقَلَ أَصْحَابَهَا عَنْهَا بِنَفْسِهِ ، فَكَانَ يُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَنْزِلِ فَيَقُولُ لَهُ : إِنَّ هٰذِهِ الدَّارَ الَّتِي لَكَ يَا هٰذَا أُرِيدُ أَنْ أَبْتَاعَهَا لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَالِهِمْ وَفَيْئِهِمْ لِأَزِيدَهَا فِي جَامِعِهِمْ وَمَوْضِعِ صَلَاتِهِمْ ، فَشَطِّطْ[1] وَاطْلُبْ مَا شِئْتَ ، فَإِذَا ذَكَرَ لَهُ أَقْصَى الثَّمَنِ أَمَرَ أَنْ يُضَاعَفَ لَهُ وَأَنْ تُشْتَرَى لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ دَارٌ عِوَضًا مِنْهَا ، حَتَّى أُتِيَ بِامْرَأَةٍ لَهَا دَارٌ بِصَحْنِ الْجَامِعِ فِيهَا نَخْلَةٌ ، فَقَالَتْ: لَا أَقْبَلُ عِوَضًا إِلَّا دَارًا بِنَخْلَةٍ ، فَقَالَ: تُبْتَاعُ لَهَا دَارٌ بِنَخْلَةٍ وَلَوْ ذَهَبَ فِيهَا بَيْتُ الْمَالِ ، فَاشْتُرِيَتْ لَهَا دَارٌ بِنَخْلَةٍ وَبُولِغَ فِي الثَّمَنِ . وَحَكَى ذٰلِكَ ابْنُ حَيَّانَ أَيْضًا . وَقِيلَ: إِنَّ إِنْفَاقَ الْحَكَمِ فِي زِيَادَةِ

(١) كذا بالأصل ،والأولى أن تكون : فأشطط يقال شط فى سلعته يشط شططا اذا جاوز القدر المحدود وتباعد عن الحق ، وشط عليه فى السوم وأشط اذا أبعد ، وتجاوز الحد فى بيع أو طلب أو احتكام أو غير ذلك ، مشتق من شطت الدار اذا بعدت « أحمد يوسف نجاتى »

اُلْجَامِعِ كَانَ مِائَةَ أَلْفٍ وَوَاحِدًا وَسِتِّينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَنَيِّفًا ، وَكُلُّهُ مِنَ اُلْأَخْمَاسِ . وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ «مَجْمُوعِ اُلْمُفْتَرِقِ» وَكَانَ سَقْفُ اُلْبَلَاطِ مِنَ اُلْمَسْجِدِ اُلْجَامِعِ مِنَ اُلْقِبْلَةِ إِلَى اُلْجَوْفِ قَبْلَ اُلزِّيَادَةِ مِائَتَيْنِ وَخَمْسًا وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا ، وَاُلْعَرْضُ مِنَ اُلشَّرْقِ إِلَى اُلْغَرْبِ قَبْلَ اُلزِّيَادَةِ مِائَةَ(١) ذِرَاعٍ وَخَمْسَةَ أَذْرُعٍ(٢)، ثُمَّ زَادَ اُلْحَكَمُ فِي طُولِهِ مِائَةَ ذِرَاعٍ وَخَمْسَةَ أَذْرُعٍ ، فَكَمَلَ اُلطُّولُ ثَلَثَمِائَةِ ذِرَاعٍ وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا . وَزَادَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ بِأَمْرِ هِشَامِ بْنِ اُلْحَكَمِ فِي عَرْضِهِ مِنْ جِهَةِ اُلْمَشْرِقِ ثَمَانِينَ ذِرَاعًا ، فَتَمَّ اُلْعَرْضُ مِائَتَيْ ذِرَاعٍ وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا . وَكَانَ عَدَدُ بَلَاطِهِ أَحَدَ عَشَرَ بَلَاطًا عَرْضُ أَوْسَطِهَا سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ

---

(١) بالأصل «مائتا» ويعلم أن صوابها «مائة» مما يأتى بعد كما مر

(٢) لعل الأصل مائة ذراع وخمسون ذراعا ـ فسيأتى أنه لما زيد فيه ثمانون ذراعا صار عرضه ٢٣٠ ذراعا، والذراع يؤنث ويذكر، وهو هنا فى ألفاظ الأعداد يراعى الأمران وان كان التأنيث أفصح وأكثر بل لم يعرف الأصمعى فيها التذكير، فالأحسن أن يقال خمس أذرع «أحمد يوسف نجاتى»

ٱللَّذَيْنِ يَلِيَانِهِ غَرْبًا وَٱللَّذَيْنِ يَلِيَانِهِ شَرْقًا أَرْبَعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلسِّتَّةِ ٱلْبَاقِيَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ ذِرَاعًا . وَزَادَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ فِيهِ ثَمَانِيَةً عَرْضُ كُلٍّ وَاحِدٍ عَشْرُ أَذْرُعٍ . وَكَانَ ٱلْعَمَلُ فِي زِيَادَةِ ٱلْمَنْصُورِ سَنَتَيْنِ وَنِصْفًا ، وَخَدَمَ فِيهِ بِنَفْسِهِ . وَطُولُ ٱلصَّحْنِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ مِائَةُ ذِرَاعٍ وَثَمَانٍ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُهُ مِنَ ٱلْقِبْلَةِ إِلَى ٱلْجَوْفِ مِائَةُ ذِرَاعٍ وَخَمْسُ أَذْرُعٍ وَعَرْضُ كُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسَّقَائِفِ ٱلْمُسْتَدِيرَةِ بِصَحْنِهِ عَشْرُ أَذْرُعٍ ، فَتَكْسِيرُهُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَمِائَةٌ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا . وَعَدَدُ أَبْوَابِهِ تِسْعَةٌ : ثَلَاثَةٌ فِي صَحْنِهِ غَرْبًا وَشَرْقًا وَجَوْفًا ، وَأَرْبَعَةٌ فِي بَلَاطَاتِهِ ٱثْنَانِ شَرْقِيَّانِ وَٱثْنَانِ غَرْبِيَّانِ . وَفِي مَقَاصِيرِ ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلسَّقَائِفِ بَابَانِ . وَجَمِيعُ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْأَعْمِدَةِ أَلْفُ عَمُودٍ وَمِائَتَا عَمُودٍ وَثَلَاثَةٌ وَتِسْعُونَ عَمُودًا رُخَامًا كُلُّهَا ، وَبَابُ مَقْصُورَةِ ٱلْجَامِعِ ذَهَبٌ ، وَكَذَلِكَ جِدَارُ ٱلْمِحْرَابِ وَمَا يَلِيهِ ، قَدْ أُجْرِيَ فِيهِ

الذَّهَبُ عَلَى الْفُسَيْفِسَاءِ(١) ، وَثُرَيَّاتُ الْمَقْصُورَةِ فِضَّةٌ مَحْضَةٌ وَارْتِفَاعُ الصَّوْمَعَةِ الْيَوْمَ — وَهِيَ مِنْ بِنَاءِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ مُحَمَّدٍ — ثَلاثٌ وَسَبْعُونَ ذِرَاعًا إِلَى أَعْلَى الْقُبَّةِ الْمُتَفَتِّحَةِ الَّتِي يَسْتَدْبِرُهَا(٢) الْمُؤَذِّنُ ، وَفِي رَأْسِ هٰذِهِ الْقُبَّةِ تَفَافِيحُ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، وَدَوْرُ كُلِّ تُفَّاحَةٍ ثَلاثَةُ أَشْبَارٍ وَنِصْفٌ ، فَاثْنَتَانِ مِنَ التَّفَافِيحِ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ وَوَاحِدَةٌ فِضَّةٌ ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَفَوْقَهَا سَوْسَنَةٌ قَدْ هُنْدِسَتْ بِأَبْدَعِ صَنْعَةٍ ، وَرُمَّانَةٌ ذَهَبٍ صَغِيرَةٌ عَلَى رَأْسِ الزُّجِّ ، وَهِيَ إِحْدَى غَرَائِبِ الْأَرْضِ . وَكَانَ بِالْجَامِعِ الْمَذْكُورِ فِي بَيْتِ مِنْبَرِهِ مُصْحَفُ

---

(١) هى ألوان من الخرز يؤلف بعضها الى بعض ثم تركب فى حيطان البيوت من داخل كأنه نقش مصور ، وهذه الكلمة رومية الأصل Psephosis وقد كانت وجهة المحراب مصنوعة من الفسيفساء الدقيقة المتقنة الصنع قد أحكمتها يد حاذقة صناع من قطع رخامية ذات ألوان مختلفة فى أثنائها قطع صدفية وأخرى ذهبية ، وصيغت على شكل عجيب يتألف منه صورة بديعة اذا نظرت اليها من جهة اليمين رأيت مشاهد غير التى تبصرها جهة الشمال لانعكاس أشعة الضوء فيها ، فكانت آية فى الفن واتقان الصنع، تأخذ بمجامع العقول ، وتستولى بجمالها على الأفئدة

(٢) فى بعض المراجع « يستدير بها » « أحمد يوسف نجاتى »

أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ـ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ ٱلَّذِي خَطَّهُ بِيَدِهِ(١) ، وَعَلَيْهِ حِلْيَةُ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٌ بِالدُّرِّ وَٱلْيَاقُوتِ وَعَلَيْهِ أَغْشِيَةُ ٱلدِّيبَاجِ ، وَهُوَ عَلَى كُرْسِيِّ ٱلْعُودِ ٱلرَّطْبِ بِمَسَامِيرِ ٱلذَّهَبِ

***

منارة المسجد « رَجْعٌ إِلَى ٱلْمَنَارَةِ » وَٱرْتِفَاعُ ٱلْمَنَـارَةِ إِلَى مَكَانِ ٱلْأَذَانِ أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا ، وَطُولُ كُلِّ حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِهَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ثَمَانَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا . انْتَهَى بِحُرُوفِهِ .

وَفِيهِ بَعْضُ مُخَالَفَةٍ لِمَا ذَكَرَهُ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ وَبَعْضُهُمْ إِذْ قَالَ فِي تَرْجَمَةِ ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ مَا صُورَتُهُ : وَكَانَ مِنْ أَخْبَارِ ٱلْمَنْصُورِ الدَّاخِلَةِ فِي أَبْوَابِ ٱلْبِرِّ وَٱلْقُرَبِ بُنْيَانُ

(١) هذا محل نظر، ولى فيه وقفة شك ـ ولما استولى الموحدون على الأندلس نقل هذا المصحف الى مراكش سنة ٥٥٢ عبد المؤمن بن على واحتفل بدخوله الى المغرب احتفالا عظيما ، و بقى هذا المصحف الشريف موضع اجلال لدى ملوك المغرب يتبركون به و يأخذونه معهم فى غزواتهم حتى وصل الى بنى مرين ، و بينما كان السلطان أبو الحسن المرينى عائدا من مدينة تونس فى سفينة بالبحر الأبيض سنة ٧٥٠ غرقت سفنه وابتلعها الماء وكان فيها هذا المصحف الكريم فكان ذلك آخر العهد به « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ وَٱلزِّيَادَةُ فِيهِ سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا زَادَ ٱلنَّاسُ بِقُرْطُبَةَ، وَٱنْجَلَبَ إِلَيْهَا قَبَائِلُ ٱلْبَرْبَرِ مِنَ ٱلْعُدْوَةِ وَإِفْرِيقِيَةَ، وَتَنَاهَى حَالُهَا فِي ٱلْجَلَالَةِ، ضَاقَتِ ٱلْأَرْبَاضُ وَغَيْرُهَا، وَضَاقَ ٱلْمَسْجِدُ ٱلْجَامِعُ عَنْ حَمْلِ(١) ٱلنَّاسِ فَشَرَعَ ٱلْمَنْصُورُ فِي ٱلزِّيَادَةِ بِشَرْقِيِّهِ حَيْثُ تَتَمَكَّنُ ٱلزِّيَادَةُ -لِاتِّصَالِ ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ بِقَصْرِ ٱلْخِلَافَةِ- فَبَدَأَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ فِي هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةِ عَلَى بَلَاطَاتٍ تَمْتَدُّ طُولًا مِنْ أَوَّلِ ٱلْمَسْجِدِ إِلَى آخِرِهِ، وَقَصَدَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ فِي هَذِهِ ٱلزِّيَادَةِ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي ٱلْإِتْقَانِ وَٱلْوَثَاقَةِ دُونَ ٱلزَّخْرَفَةِ، وَلَمْ يُقَصِّرْ مَعَ هَذَا عَنْ سَائِرِ ٱلزِّيَادَاتِ جَوْدَةً- مَا عَدَا زِيَادَةَ ٱلْحَكَمِ- وَأَوَّلُ مَا عَمِلَهُ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ تَطْيِيبُ نُفُوسِ أَرْبَابِ ٱلدُّورِ ٱلَّذِينَ ٱشْتُرِيَتْ مِنْهُمْ لِلْهَدْمِ لِهٰذِهِ ٱلزِّيَادَةِ بِإِنْصَافِهِمْ مِنَ ٱلثَّمَنِ، وَصَنَعَ فِي صَحْنِهِ ٱلْجُبَّ ٱلْعَظِيمَ قَدْرُهُ ٱلْوَاسِعَ فِنَاؤُهُ. وَهُوَ -أَعْنِي ٱبْنَ أَبِي عَامِرٍ- هُوَ ٱلَّذِي رَتَّبَ إِحْرَاقَ ٱلشَّمْعِ بِٱلْجَامِعِ زِيَادَةً لِلزَّيْتِ، فَتَطَابَقَ بِذَلِكَ ٱلنُّورَانِ. وَكَانَ عَدَدُ

---

(١) في بعض النسخ «جمل» وكأنه جمع جملة أي جميع. «أحمد يوسف نجاتي»

سَوَارِى اُلْجَامِعِ اُلْحَامِلَةِ لِسَمَائِهِ(١) وَاُللَّاصِقَةِ بِمَبَانِيهِ وَقِبَابِهِ وَمَنَارِهِ بَيْنَ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ أَلْفَ سَارِيَةٍ وَأَرْبَعمِائَةِ سَارِيَةٍ وَسَبْعَ عَشْرَةَ سَارِيَةً ، وَقِيلَ أَكْثَرَ . وَعَدَدُ ثُرَيَّاتِ اُلْجَامِعِ مَا بَيْنَ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ مِائَتَانِ وَثَمَانُونَ ثُرَيَّا ، وَعَدَدُ اُلْكُؤُوسِ سَبْعَةُ آلَافِ كَأْسٍ وَأَرْبَعُمِائَةِ كَأْسٍ وَخَمْسٌ وَعِشْرُونَ كَأْسًا ، وَقِيلَ عَشَرَةُ آلَافٍ وَثَمَانُمِائَةٍ وَخَمْسُ كُؤُوسٍ ، وَزِنَةُ مَشَاكِى(٢) اُلرَّصَاصِ لِلْكُؤُوسِ اُلْمَذْكُورَةِ عَشَرَةُ أَرْبَاعٍ أَوْ نَحْوُهَا ، وَزِنَةُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ اُلْكَتَّانِ لِلْفَتَائِلِ فِى كُلِّ شَهْرِ رَمَضَانَ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ اُلْقِنْطَارِ ، وَجَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ اُلْجَامِعُ مِنَ اُلزَّيْتِ فِى اُلسَّنَةِ خَمْسُمِائَةِ رُبْعٍ أَوْ نَحْوُهَا ، يُصْرَفُ مِنْهُ فِى رَمَضَانَ خَاصَّةً نَحْوُ نِصْفِ اُلْعَدَدِ ،

---

(١) أى سقفه (٢) جمع مشكاة ، واختلف فى معناها ، والمراد بها هنا الحديدة أو الرصاصة التى يكون فيها الفتيل ، أو العمود الذى يكون المصباح على رأسه ، أو قصبة الزجاجة التى يستصبح فيها وهى موضع الفتيلة، أو الحديدة التى يعلق بها القنديل — والمشكاة فى قوله تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » المراد بها — والله أعلم — الكوة فى الحائط غير النافذة ، وهى أجمع للضوء، والمصباح فيها يكون أكثر انارة وأعظم اضاءة منه فى غيرها . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَمِمَّا كَانَ يَخْتَصُّ بِهِ رَمَضَانُ ٱلْمُعَظَّمُ ثَلاثَةُ قَنَاطِيرَ مِنَ ٱلشَّمَعِ ، وَثَلاثَةُ أَرْبَاعِ ٱلْقِنْطَارِ مِنَ ٱلْكَتَّانِ ٱلْمُقَطَّنِ لِإِقَامَةِ ٱلشَّمَعِ ٱلْمَذْكُورِ ، وَٱلْكَبِيرَةُ مِنَ ٱلشَّمَعِ ٱلَّتِي تُؤْخَذُ بِجَانِبِ ٱلْإِمَامِ يَكُونُ وَزْنُهَا مِنْ خَمْسِينَ إِلَى سِتِّينَ رِطْلاً يَحْتَرِقُ بَعْضُهَا بِطُولِ ٱلشَّهْرِ . وَيَعُمُّ ٱلْحَرْقُ لِجَمِيعِهَا لَيْلَةَ ٱلْخَتْمَةِ . وَكَانَ عَدَدُ مَنْ يَخْدُمُ ٱلْجَامِعَ ٱلْمَذْكُورَ بِقُرْطُبَةَ فِي دَوْلَةِ ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ وَيَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ أَئِمَّةٍ وَمُقْرِئِينَ وَأُمَنَاءَ وَمُؤَذِّنِينَ وَسَدَنَةٍ(١) وَمُوقِدِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُتَصَرِّفِينَ مِائَةً وَتِسْعَةً وَخَمْسِينَ شَخْصًا ، وَيُوقَدُ مِنَ ٱلْبَخُورِ لَيْلَةَ ٱلْخَتْمَةِ أَرْبَعُ أَوَاقٍ مِنَ ٱلْعَنْبَرِ ٱلْأَشْهَبِ ، وَثَمَانِي أَوَاقٍ مِنَ ٱلْعُودِ ٱلرَّطْبِ . ٱنْتَهَى .

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ : كَانَ لِلْجَامِعِ كُلَّ لَيْلَةِ(٢) جُمُعَةٍ رِطْلُ عُودٍ وَرُبُعُ رِطْلِ عَنْبَرٍ يُتَبَخَّرُ بِهِ . ٱنْتَهَى .

---

(١) جمع سادن وهو من يقوم بخدمة المسجد ويتولى أمره ويفتح أبوابه ويغلقها (٢) فى بعض المراجع « كل جمعة » بدل « كل ليلة جمعة »

وَقَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ نَقْلًا عَنِ ٱبْنِ بَشْكُوَالَ: طُولُ جَامِعِ قُرْطُبَةَ ٱلْأَعْظَمِ ٱلَّذِى هُوَ بِدَاخِلِ مَدِينَتِهَا مِنَ ٱلْقِبْلَةِ إِلَى ٱلْجَوْفِ ثَلْثُمِائَةٍ وَثَلَاثُونَ ذِرَاعًا، ٱلصَّحْنُ ٱلْمَكْشُوفُ مِنْهُ ثَمَانُونَ ذِرَاعًا، وَغَيْرُ ذَلِكَ مُقَرْمَدٌ(١)، وَعَرْضُهُ مِنَ ٱلْغَرْبِ إِلَى ٱلشَّرْقِ مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا، وَعَدَدُ أَبْهَائِهِ(٢) عِنْدَ ٱكْتِمَالِهَا بِالشَّمَالِيَّةِ ٱلَّتِى زَادَهَا ٱلْمَنْصُورُ بْنُ أَبِى عَامِرٍ بَعْدَ هَذَا تِسْعَةَ عَشَرَ بَهْوًا، وَتُسَمَّى ٱلْبَلَاطَاتِ. وَعَدَدُ أَبْوَابِهِ ٱلْكِبَارِ وَٱلصِّغَارِ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ بَابًا. فِى ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ تِسْعَةُ أَبْوَابٍ؛ مِنْهَا وَاحِدٌ كَبِيرٌ لِلنِّسَاءِ يُشْرَعُ إِلَى مَقَاصِيرِهِنَّ، وَفِى ٱلْجِهَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ تِسْعَةُ أَبْوَابٍ؛ مِنْهَا لِدُخُولِ ٱلرِّجَالِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، وَفِى ٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ثَلَاثَةُ أَبْوَابٍ، مِنْهَا لِدُخُولِ ٱلرِّجَالِ بَابَانِ كَبِيرَانِ وَبَابٌ لِدُخُولِ ٱلنِّسَاءِ إِلَى مَقَاصِيرِهِنَّ، وَلَيْسَ لِهَذَا ٱلْجَامِعِ فِى ٱلْقِبْلِيِّ سِوَى بَابٍ

(١) بناء مقرمد أى مبنى بالآجر والحجارة (٢) جمع بهو وهو البيت المقدم أمام البيوت

وَاحِدٍ بِدَاخِلِ الْمَقْصُورَةِ الْمُتَّخَذَةِ فِي قِبْلَتِهِ مُتَّصِلٍ بِالسَّابَاطِ[١] الْمُفْضِي إِلَى قَصْرِ الْخِلَافَةِ، مِنْهُ كَانَ السُّلْطَانُ يَخْرُجُ مِنَ الْقَصْرِ إِلَى الْجَامِعِ لِشُهُودِ الْجُمُعَةِ، وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَبْوَابِ مُلَبَّسَةٌ بِالنُّحَاسِ الْأَصْفَرِ بِأَغْرَبِ صَنْعَةٍ، وَعَدَدُ سَوَارِي هَذَا الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ الْحَامِلَةِ لِسَمَائِهِ وَاللَّاصِقَةِ بِمَبَانِيهِ وَقِبَابِهِ وَمَنَارِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِ بَيْنَ كِبَارٍ وَصِغَارٍ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةِ سَارِيَةٍ وَتِسْعُ سَوَارٍ، مِنْهَا بِدَاخِلِ الْمَقْصُورَةِ مِائَةٌ وَتِسْعَ عَشْرَةَ سَارِيَةً.

وَذَكَرَ الْمَقْصُورَةَ الْبَدِيعَةَ الَّتِي صَنَعَهَا الْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ فِي هَذَا الْجَامِعِ فَقَالَ: إِنَّهُ خَطَرَ بِهَا عَلَى خَمْسِ بَلَاطَاتٍ مِنَ الزِّيَادَةِ الْحَكَمِيَّةِ، وَأَطْلَقَ حِفَافَيْهَا[٢] عَلَى السِّتَّةِ الْبَاقِيَةِ ثَلَاثَةٍ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَصَارَ طُولُهَا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ خَمْسًا وَسَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَعَرْضُهَا مِنْ جِدَارِ الْخَشَبِ إِلَى سُورِ الْمَسْجِدِ بِالْقِبْلَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا، وَارْتِفَاعُهَا فِي السَّمَاءِ إِلَى حَدِّ شُرُفَاتِهَا ثَمَانِي أَذْرُعٍ،

(١) تقدم القول فى الساباط (٢) الحفاف: الجانب، وجمعه أحفة

وَٱرْتِفَاعُ كُلِّ شُرْفَةٍ ثَلَاثَةُ أَشْبَارٍ ، وَلِهَذِهِ ٱلْمَقْصُورَةِ ثَلَاثَةُ أَبْوَابٍ بَدِيعَةِ ٱلصَّنْعَةِ عَجِيبَةِ ٱلنَّقْشِ شَارِعَةٌ[١] إِلَى ٱلْجَامِعِ شَرْقِيٌّ وَغَرْبِيٌّ وَشَمَالِيٌّ . ثُمَّ قَالَ : وَذَرْعُ ٱلْمِحْرَابِ فِي ٱلطُّولِ مِنَ ٱلْقِبْلَةِ إِلَى ٱلْجَوْفِ ثَمَانِي أَذْرُعٍ وَنِصْفٌ ، وَعَرْضُهُ مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ سَبْعُ أَذْرُعٍ وَنِصْفٌ ، وَٱرْتِفَاعُ قَبْوِهِ فِي ٱلسَّمَاءِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَنِصْفٌ ، وَٱلْمِنْبَرُ إِلَى جَنْبِهِ مُؤَلَّفٌ مِنْ أَكَارِمِ ٱلْخَشَبِ مَا بَيْنَ آبَنُوسٍ وَصَنْدَلٍ وَنَبْعٍ وَبَقَّمٍ وَشَوْحَطٍ[٢] وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَمَبْلَغُ ٱلنَّفَقَةِ فِيهِ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ وَسَبْعِمِائَةِ دِينَارٍ وَخَمْسَةُ دَنَانِيرَ وَثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَعَدَدُ دَرَجِهِ تِسْعُ دَرَجَاتٍ . صَنَعَهُ ٱلْحَكَمُ ٱلْمُسْتَنْصِرُ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ .

---

(١) أى نافذة ومفتوحة اليه (٢) النبع من أشجار الجبال ينبت فى قلتها وهو أصفر العود رزينه ثقيله فى اليد، واذا طال عليه العهد احمر ،تصنع منه القسى الجيدة التى تكرم كل ما اتخذ من غيرها لشدة النبع ولينه ، ولا يكون العود كريما حتى يكون كذلك ، وتتخذ السهام من أغصانه ، والبقم خشب شجر عظام، وورقه كورق اللوز ، وساقه أحمر يصبغ بطبيخه ، والبقم شجرة جوز مائل،والشوحط ضرب من شجر الجبال «جبال السراة» تتخذ منه القسى ـ أو هو ضرب من شجر النبع ينبت فى سفح الجبل

وَذُكِرَ أَنَّ عَدَدَ ثُرَيَّاتِ الْجَامِعِ الَّتِي تُسْرَجُ فِيهَا الْمَصَابِيحُ بِدَاخِلِ الْبَلاطَاتِ خَاصَّةً سِوَى مَا مِنْهَا عَلَى الْأَبْوَابِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ ثُرَيًّا جَمِيعُهَا مِنْ لَاطُونٍ(١) مُخْتَلِفَةُ الصَّنْعَةِ، مِنْهَا أَرْبَعُ ثُرَيَّاتٍ كِبَارٍ مُعَلَّقَةٍ فِي الْبَلَاطِ الْأَوْسَطِ، أَكْبَرُهَا الضَّخْمَةُ الْمُعَلَّقَةُ فِي الْقُبَّةِ الْكُبْرَى الَّتِي فِيهَا الْمَصَاحِفُ حِيَالَ الْمَقْصُورَةِ، وَفِيهَا مِنَ السُّرُجِ ـ فِيمَا زَعَمُوا ـ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ. تُسْتَوْقَدُ هٰذِهِ الثُّرَيَّاتُ الضِّخَامُ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، تُسْقَى كُلُّ ثُرَيَّا مِنْهَا سَبْعَةَ أَرْبَاعٍ فِي اللَّيْلَةِ، وَكَانَ مَبْلَغُ مَا يُنْفَقُ مِنَ الزَّيْتِ عَلَى جَمِيعِ الْمَصَابِيحِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ فِي السَّنَةِ أَيَّامَ تَمَامِ وَقُودِهِ فِي مُدَّةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ مُكَمَّلَةً بِالزِّيَادَةِ الْمَنْسُوبَةِ أَلْفَ رُبْعٍ، مِنْهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَبْعُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ رُبْعًا. قَالَ: وَفِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ الْقَدِيمَةِ: كَانَ عَدَدُ الْقَوَمَةِ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِقُرْطُبَةَ فِي زَمَنِ الْخُلَفَاءِ

(١) اللاطون: هو النحاس الأصفر

وَفِي زَمَنِ ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ ثَلَثَمِائَةٍ . انْتَهَى ، وَفِيهِ مُخَالَفَةٌ لِبَعْضِ مَا تَقَدَّمَ .

وَذَكَرَ بَعْضُهُمُ ٱلزَّيْتَ ـ وَلٰكِنَّ قَوْلَهُ أَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ لِنَقْلِهِ عَنِ ٱبْنِ بَشْكُوَالَ ، وَلِمَعْرِفَةِ ٱبْنِ سَعِيدٍ بِمِثْلِ هٰذَا وَتَحْقِيقِهِ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ ، ـ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ ـ فَقَالَ : أَلْفُ رُبْعٍ وَثَلَاثُونَ رُبْعًا ، مِنْهَا فِي رَمَضَانَ خَمْسُمِائَةِ رُبْعٍ ، وَفِي ٱلثُّرَيَّاتِ ٱلَّتِي مِنَ ٱلْفِضَّةِ ـ وَهِيَ ثَلَاثَةٌ ـ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ رِطْلًا ، لِكُلِّ وَاحِدَةٍ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ فِي لَيْلَةِ وَقْدِهَا ، وَقَالَ فِي ٱلْمِنْبَرِ : إِنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ وُصْلٍ(١) ، قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِسَبْعَةِ دَرَاهِمَ فِضَّةٍ ، وَسُمِّرَتْ بِمَسَامِيرِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، وَفِي بَعْضِهَا نَفِيسُ ٱلْأَحْجَارِ ، وَٱتَّصَلَ ٱلْعَمَلُ فِيهِ تِسْعَةً(٢) . ثُمَّ قَالَ : وَدَوْرُ ٱلثُّرَيَّا ٱلْعَظِيمَةِ خَمْسُونَ شِبْرًا ، وَتَحْتَوِي عَلَى أَلْفِ كَأْسٍ وَأَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ ، كُلُّهَا مُوَشَّاةٌ بِالذَّهَبِ ، إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْغَرَائِبِ .

---

(١) الوصل « بكسر الواو وضمها » المفصل وجمعه أوصال (٢) لعلها « تسع سنين »

***

وصف ابراهيم الولبي لجامع قرطبة

«وَكَتَبَ ٱلْفَقِيهُ ٱلْكَاتِبُ أَبُو مُحَمَّدٍ إِبْرَاهِيمُ بْنُ صَاحِبِ ٱلصَّلَاةِ ٱلْوَلْبِيُّ» يَصِفُ جَامِعَ قُرْطُبَةَ بِمَا نَصُّهُ: عَمَّرَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ بِشُمُولِ ٱلسَّعَادَةِ رَسْمَكَ، وَوَفَّرَ مِنْ جَزِيلِ ٱلْكَرَامَةِ قِسْمَكَ. وَلَا بَرِحَتْ سَحَائِبُ ٱلْإِنْعَامِ تَهْمِي عَلَيْكَ ثَرَّةً[1]، وَأَنَامِلُ ٱلْأَيَّامِ تُهْدِي إِلَيْكَ كُلَّ مَسَرَّةٍ. لَئِنْ كَانَ - أَعَزَّكَ ٱللَّهُ - طَرِيقُ ٱلْوِدَادِ بَيْنَنَا عَامِرًا، وَسَبِيلُ ٱلْمَحَبَّةِ غَامِرًا[2]، لَوَجَبَ أَنْ نَفُضَّ خَتْمَهُ، وَنَرْفُضَ كَتْمَهُ، وَلَاسِيَّمَا فِيمَا يُدِرُّ أَخْلَافَ ٱلْفَضَائِلِ، وَيَهُزُّ أَعْطَافَ ٱلشَّمَائِلِ، وَإِنِّي شَخَصْتُ إِلَى حَضْرَةِ قُرْطُبَةَ - حَرَسَهَا ٱللَّهُ تَعَالَى - مُنْشَرِحَ ٱلصَّدْرِ، لِحُضُورِ لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ، وَٱلْجَامِعُ - قَدَّسَ ٱللَّهُ تَعَالَى بُقْعَتَهُ وَمَكَانَهُ، وَثَبَّتَ

---

(١) همى المطر اذا سال متتابعا، وثرة: غزيرة (٢) يريد الغمر المملوء - وقد كانت له مندوحة عن استعمال هذه الكلمة لولا الشغف بالسجع والجناس، فان الطريق الغامر أكثر مايستعمل فى الخراب ضد العامر

أَسَاسَهُ وَأَرْكَانَهُ ـ قَدْ كُسِيَ بِبُرْدَةِ الِازْدِهَاءِ ، وَجُلِيَ[1] فِي مِعْرَضِ الْبَهَاءِ ، كَأَنَّ شُرُفَاتِهِ فُلُولٌ[2] فِي سِنَانٍ ، أَوْ أُشُرٌ[3] فِي أَسْنَانٍ ، وَكَأَنَّمَا ضُرِبَتْ عَلَى سَمَائِهِ كِلَلٌ[4] ، أَوْ خُلِعَتْ عَلَى أَرْجَائِهِ حُلَلٌ ، وَكَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ خَلَّفَتْ فِيهِ ضِيَاءَهَا ، وَنَسَجَتْ[5] عَلَى أَقْطَارِهِ أَفْيَاءَهَا ، فَتَرَى نَهَارًا قَدْ أَحْدَقَ بِهِ لَيْلٌ ، كَمَا أَحْدَقَ بِرَبْوَةٍ سَيْلٌ ، لَيْلٌ دَامِسٌ ، وَنَهَارٌ شَامِسٌ ، وَلِلذُّبَالِ تَأَلُّقٌ كَنَضْنَضَةِ[6]

---

(١) « جلى » أبرز وأظهر كما تجلى العروس ، المعرض الثوب الذى تجلى فيه ، وفى الأصل « وحل » محرفة (٢) جمع فل وهو الثلم والكسر فى حد السنان ، وهو دليل الشجاعة كما قال النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهن فلول من قراع الكتائب

(٣) أشر الأسنان التحزيز الذى فيها، وهو تحديد أطرافها ، يكون ذلك خلقة و يكون مصنوعا ، وانما يكون الأشر فى أسنان الأحداث (٤) جمع كلة :ستر رقيق يخاط كالبيت يتوقى به من البعوض « الناموسية » (٥) قد يكون محرفا عن «نسخت» والعرب تقول نسخت الشمس الظل أى أزالته وحلت محله (٦) الذبالة : الفتيلة التى تسرج ، ونضنضت الحية : أخرجت لسانها وحركته ـ والجملتان من قول الشاعر « أبى جعفر البنى »

وقنديل كأن الضوء منه　　سناوجه الحبيب اذا تجلى

أشار الى الدجا بلسان أفعى　　فشمر ذيله هربا وولى

اُلْحَيَّاتِ ، أَوْ إِشَارَةِ اُلسَّبَّابَاتِ[١] فِي اُلتَّحِيَّاتِ ، قَدْ أُتْرِعَتْ مِنَ اُلسَّلِيطِ[٢] كُؤُوسُهَا ، وَوُصِلَتْ بِمَحَاجِنِ[٣] اُلْحَدِيدِ رُءُوسُهَا ، وَنِيطَتْ بِسَلَاسِلَ كَالْجُذُوعِ اُلْقَائِمَةِ ، أَوْ كَالثَّعَابِينِ اُلْعَائِمَةِ ، عُصِبَتْ بِهَا تُفَّاحٌ مِنَ اُلصُّفْرِ ، كَاللِّقَاحِ[٤] اُلصُّفْرِ ، بُولِغَ فِي صَقْلِهَا وَجَلَائِهَا ، حَتَّى بَهَرَتْ بِحُسْنِهَا وَلَأْلَائِهَا[٥] ، كَأَنَّمَا جُلِيَتْ بِاللَّهَبِ، وَأُشْرِبَتْ مَاءَ اُلذَّهَبِ ، إِنْ سَمَتَّهَا[٦] طُولًا رَأَيْتَ مِنْهَا سَبَائِكَ عَسْجَدٍ ، أَوْ قَلَائِدَ زَبَرْجَدٍ ، وَإِنْ أَتَيْتَهَا عَرْضًا رَأَيْتَ مِنْهَا أَفْلَاكًا وَلَكِنَّهَا غَيْرُ دَائِرَةٍ ، وَنُجُومًا وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ بِسَائِرَةٍ ، تَتَعَلَّقُ

(١) من قول أبي الحسن محمد بن عمران الأنباري البغدادي وقد اقترح عليه عضد الدولة وصف شموع موقدة بين يديه :

كأن الشموع وقد أظهرت　　من النار في كل رأس سنانا
أصابع أعدائك الخائفين　　تضرع تطلب منك الأمانا

(٢) أي الزيت (٣) جمع محجن يريد به هنا ما تعلق به المصابيح (٤) عدل عن « كأنها جمالة صفر » الى اللقاح لترصيع السجع وموازنته وفي بعض المراجع « كالأفاح » (٥) الضياء واللمعان والاشراق

(٦) من السمت وهو قصد الشيء والطريق ، وهو يسمت سمته أي ينحو نحوه ، وسمت الطريق :قصده، وسمت يسمت ،وتسمته : اذا قصد نحوه وتعمده «أحمد يوسف نجاتي »

تَعلُّقَ ٱلْقُرْطِ مِنَ ٱلذِّفْرَى(١) ، وَتَبْسُطُ شُعَاعَهَا بَسْطَ ٱلْأَدِيمِ حِينَ يُفْرَى(٢) ، وَٱلشَّمعُ قَدْ رُفِعَتْ عَلَى ٱلْمَنَارِ رَفْعَ ٱلْبُنُودِ ، وَعُرِضَتْ عَلَيْهَا عَرْضَ ٱلْجُنُودِ ، لِيَجْتَلِيَ طَلَاقَةَ رُوَائِهَا(٣) ٱلْقَرِيبُ وَٱلْبَعِيدُ ، وَيَسْتَوِيَ فِي هِدَايَةِ ضِيَائِهَا ٱلشَّقِيُّ وَٱلسَّعِيدُ ، وَقَدْ قُوبِلَ مِنْهَا مُبْيَضٌّ بِمُحْمَرٍّ ، وَعُورِضَ مُخْضَرٌّ بِمُصْفَرٍّ ، تَضْحَكُ بِبُكَائِهَا وَتَبْكِي بِضَحِكِهَا ، وَتَهْلِكُ بِحَيَاتِهَا وَتَحْيَا بِهُلْكِهَا ، وَٱلطِّيبُ تَفْغَمُ(٤) أَفْوَاحُهُ ، وَتَتَنَسَّمُ أَرْوَاحُهُ ، وَقُتَارُ ٱلْأَلَنْجُوجِ(٥) وَٱلنَّدِّ ، يَسْتَرْجِعُ مِنْ رُوحِ ٱلْحَيَاةِ مَا نَدَّ(٦) ، وَكُلَّمَا تَصَاعَدَ وَهُوَ مُحَاصَرٌ ، أَطَالَ مِنَ ٱلْعُمُرِ مَا كَانَ تَقَاصَرَ ، فِي صُفُوفِ مَجَامِرَ ، كَكُعُوبِ(٧)

(١) القرط : الحلق ، والذفرى أصل الأذن (٢) الأديم: الجلد أو الأحمر منه ، وجمعه آدمة ، وفراه يفريه أى شقه وقطعه (٣) الرواء : حسن المنظر (٤) فغمه الطيب «كمنع» سد خياشيمه وملأه، وفاح المسك فوحا: انتشرت رائحته ، وفى الأصل «تفعم » (٥) القتار ــ بضم القاف ــ ريح البخور وهذه الكلمة مكتوبة فى الأصل هكذا: «فتام» محرفة ناقصة ، والألنجوج: عود الطيب وهو البخور ، وكذلك الند (٦) أى بعد وغاب (٧) الكعب الذى يلعب به هو فص النرد ، وأكثر ما يجمع على كعاب ، وجمعه هنا على فعول لموازنة صفوف فى الفقرة قبلها . « أحمد يوسف نجاتى »

مُقَامِرٍ ، وَظُهُورُ الْقِبَابِ[1] مُؤَلَّلَةً ، وَبُطُونُهَا مُهَلَّلَةً[2] كَأَنَّهَا تِيجَانٌ، رُصِّعَ فِيهَا يَاقُوتٌ وَمَرْجَانٌ ، قَدْ قُوِّسَ مِحْرَابُهَا أَحْكَمَ تَقْوِيسٍ ، وَوُشِمَ بِمِثْلِ رِيشِ الطَّوَاوِيسِ[3] ، حَتَّى كَأَنَّهُ بِالْمَجَرَّةِ مُقَرْطَقٌ[4] ، وَبِقَوْسِ قُزَحَ مُمَنْطَقٌ . وَكَأَنَّ اللَّازَوَرْدَ حَوْلَ وُشُومِهِ ، وَبَيْنَ رُسُومِهِ ، نُتَفٌ مِنْ قَوَادِمِ

---

(١) مؤللة أى محددة الطرف ، وألل الشيء : حدد طرفه وحرفه ، وأذن مؤللة أى محددة منصوبة ملطفة (٢) أى مقوسة محنية كالهلال .

(٣) أى بألوان مختلفة جميلة زاهية (٤) قرطقه فتقرطق فهو مقرطق أى ألبسه القرطق ، وهو لباس قصير شبيه بالقباء «معرب عن كرته بالفارسية» والعامة تسميه شاية ، والمولدون يسمونه حنيني ، قال ابن نباتة :

لما تبدى فى حنيني تحار با قلبى وعينى
فاعجب لها من غزوة جاءت ببدر فى حنينى

وقد صرف المولدون لفظ القرطق فى أشعارهم كثيرا ، ومنه قول ابن المعتز :

ومقرطق يسعى الى الندماء بعقيقة فى درة بيضاء

وأخطأ عمر الوداعى « أو ابن الوردى » فظن أن المقرطق ذو القرط فى قوله :

قلت لهم لما بدا مقرطق يحكى القمر
هـذا أبو لؤلؤة منه خذوا ثار عمر

وكان حقه أن يقول مقرط ، وأراد باللؤلؤة القرط ، وورى عن ذى القرط اللؤلؤ باسم أبى لؤلؤة المجوسى قاتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وفى « عمر » كذلك تورية . « أحمد يوسف نجاتى » .

اُلْحمَامِ ، أَوْ كِسَفٌ[١] مِنْ ظُلَلِ اُلْغمَامِ ، وَاُلنَّاسُ أَخْيَافٌ[٢] فِي دَوَاعِيهِمْ ، وَأَوْزَاعٌ[٣] فِي أَغْرَاضِهِمْ وَمَرَامِيهِمْ ، بَيْنَ رُكَّعٍ وَسُجَّدٍ ، وَأَيْقَاظٍ وهُجَّدٍ ، وَمُزْدَحِمٍ عَلَى اُلرِّقَابِ يَتَخطَّاهَا ، وَمُقْتَحِمٍ عَلَى اُلظُّهُورِ يَتَمطَّاهَا ، كَأَنَّهُمْ بَرَدٌ خِلَالَ قَطْرٍ ، أَوْ حُرُوفٌ عَلَى عُرْضِ سَطْرٍ ، حَتَّى إِذَا قَرَعَتْ أَسْمَاعَهُمْ رَوْعَةُ اُلتَّسْلِيمِ[٤] ، تَبَادَرُوا بِالتَّكْلِيمِ ، وَتَجَاذَبُوا بِالْأَثْوَابِ ، وَتَسَاقَوْا بِالْأَكْوَابِ ، كَأَنَّهُمْ حُضُورٌ طَالَ عَلَيْهِمْ غِيَابٌ ، أَوْ سَفْرٌ أُتِيحَ لَهُمْ إِيَابٌ . وَصَفِيُّكَ مَعَ إِخْوَانِ صِدْقٍ ، تَنْسَكِبُ اُلْعُلُومُ بَيْنَهُمْ اُنْسِكَابَ اُلْوَدْقِ ، فِي مَكَانٍ كَوَكْرِ اُلْعُصْفُورِ ـ أَسْتَغْفِرُ اُللهَ ـ أَوْ كَكِنَاسِ اُلْيَعْفُورِ[٥] ، كَأَنَّ إِقْلِيدِسَ قَدْ قَسَّمَ بَيْنَنَا مِسَاحَتَهُ بِالْمَوَازِينِ

(١) جمع كسفة أى قطعة ، ومنه قوله تعالى : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا » ـ وظلل: جمع ظلةوهى السحابة التى تظل ـ وهو من قوله تعالى : « هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » أى يأتيهم عذابه(٢) أى مختلفون، والأخياف: الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال (٤) الأوزاع : الفرق من الناس والجماعات (٣) أى التسليم الذى تختم به الصلاة (٥) اليعفور : الظبي ، أو ولد البقرة الوحشية ، وكناسه : مأواه ومنزله الذى يكنس فيه أى يقيم ويختفى . « أحمد يوسف نجاتى »

وَارْتَبَطْنَا فِيهِ ارْتِبَاطَ الْبَيَادِقِ[1] بِالْفَرَازِينِ ، حَتَّى صَارَ عِقْدُنَا لَا يُحَلُّ ، وَحَدُّنَا لَا يُفَلُّ ، بِحَيْثُ نَسْمَعُ سُوَرَ التَّنْزِيلِ كَيْفَ تُتْلَى ، وَنَتَطَلَّعُ صُوَرَ التَّفْصِيلِ كَيْفَ تُجْلَى ، وَالْقَوَمَةُ حَوَالَيْنَا يَجْهَدُونَ فِي دَفْعِ الضَّرَرِ . وَيَعْمِدُونَ إِلَى قَرْعِ

(١) من اصطلاحات الشطرنج — والبيدق فى الشطرنج معروف ، وأصل معناه الراجل وجمعه بيادقة « تعريب بياده » قال الفرزدق :

منعتك ميراث الملوك وتاجهم　　وأنت لدرعى بيدق فى البيادق

أى وأنت راجل تعدو لدى — و يطلق البيدق على أصغر أصناف البازى و يصيد العصافير ، قال أبو الفتح كشاجم :

حسبى من البزاة والبيادق　　بيدق يصيد صيد الباشق
مؤدب مدرب الخلائق　　أصيد من معشوقة لعاشق
يسبق فى السرعة كل سابق　　ليس له فى صيده من عائق
ربيته وكنت غير واثق　　أن الفرازين من البيادق

وفرزان الشطرنج كذلك أعجمى معرب فرزين ، ومن المجاز تفرزنت البيادق ، وما ألطف قول الشاعر :

وفتية زهر الآداب بينهم　　أبهى وأنضر من زهر الرياحين
راحوا الى الراح مشى الرخ وانصرفوا
والراح تمشى بهم مشى الفرازين

أى أنهم راحوا اليها صاحين مستقيمى السير ،وعادوا ثملين تتقاذفهم الطرق ويتلوى سيرهم فى كل جهة . « أحمد يوسف نجاتى » .

وقال آخر :

يقولون ساد الأرذلون بأرضنا　　وصار لهم مال وخيل سوابق
فقلت لهم شاخ الزمان وانما　　تفرزن فى أخرى الدسوت البيادق

الْعُمُدِ بِالدِّرَرِ[١] ، فَإِذَا سَمِعَ بِهَا الصِّبْيَانُ قَدْ طَبَّقَتِ الْخَافِقَيْنِ وَسَرَتْ نَحْوَهُمْ سُرَى الْقَيْنِ[٢] ، تَوَهَّمُوا أَنَّهَا إِلَى أَعْطَافِهِمْ وَاصِلَةٌ ، وَفِي أَقْحَافِهِمْ حَاصِلَةٌ ، فَفَرُّوا بَيْنَ الْأَسَاطِينِ ، كَمَا تَفِرُّ مِنَ النُّجُومِ الشَّيَاطِينُ ، كَأَنَّمَا ضَرَبَهُمْ أَبُو جَهْمٍ[٣] بِعَصَاهُ ، أَوْ حَصَبَهُمْ عُمَيْرُ بْنُ ضَابِئٍ بِحَصَاهُ[٤] ، فَأَكْرِمْ بِهَا

(١) جمع درة وهى مايضرب به كالسوط والمقرعة (٢) يريد سرى موهوما خيله الخوف ، وهو من المثل « اذا سمعت بسرى القين فاعلم أنه مصبح » يضرب مثلا للرجل يعرف بالكذب حتى يرد صدقه ـ وأصله أن القين أى الحداد ينتقل فى مياه البادية فيقيم بالموضع أياما فيكسد عليه عمله فيشيع فى أهل الماء انه مرتحل الليلة وهو ينوى الاقامة ليستخدمه من له حاجة اليه ، فكثر ذلك منه حتى صار لا يصدق ، وضرب به المثل ، قال نهشل بن حرى

وعهد الغانيات كعهد قين ... ونت عنه الجعائل مستذاق

كبرق لاح يعجب من بعيد ... ولا يشفى الحوائم من لماق

ونت عنه الجعائل أى قصرت فلم تبلغه . والجعائل جمع جعالة أى أجرة عمله ، والمستذاق : المجرب ، والحوائم : العطاش ، ومن لماق أى من شىء « أحمد يوسف نجاتى » .

(٣) هو أبو جهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب القرشى العدوى ، قيل اسمه عامر ، وقيل عبيد ابن حذيفة ، أسلم عام الفتح وصحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان معظما فى قريش مقدما فيهم ، وكان مهيبا مرهوبا فيه وفى بنيه شدة وعرامة ، وقوة وشهامة وتوفى زمن سيدنا معاوية عن عمر طويل ، ووفد ابنه اسمعيل على هشام ابن عبد الملك وكان أكبر القوم سنا ـ وقتل ابنه محمد بن أبى الجهم يوم الحرة . « أحمد يوسف نجاتى » . (٤) فى الأصل «عين بن صاف»

مِنْ مَسَاعٍ تَسُوقُ إِلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ ، وَتَهُونُ فِي السَّعْيِ إِلَيْهَا الطَّوَارِفُ وَالتِّلْدُ ، تَعْظِيماً لِشَعَائِرِ اللّٰهِ ، وَتَنْبِيهاً لِكُلِّ سَاهٍ وَلَاهٍ . حِكْمَةٌ تَشْهَدُ لِلّٰهِ تَعَالَى بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَطَاعَةٌ تَذِلُّ بِهَا كُلُّ نَفْسٍ أَبِيَّةٍ . فَلَمْ أَرَ — أَدَامَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ عِزَّكَ — مَنْظَرًا مِنْهَا أَبْهَى ، وَلَا مَخْبَرًا أَشْهَى ، وَإِذَا لَمْ تَتَأَمَّلْهُ عِيَانًا ، فَتَخَيَّلْهُ بَيَانًا . وَإِنْ كَانَ حَظُّ مَنْطِقِي مِنَ الْكَلَامِ ، حَظَّ السَّفِيحِ (١)

بدل « عمير بن ضابئ » وهو تحريف ضال ، وتصحيف خاطئ . وعمير ابن ضابي بن الحرث البرجمي التميمي أدرك أبوه النبي صلى الله عليه وسلم ثم جنى جناية في زمن سيدنا عثمان فحبسه ، فجاء ابنه عمير وأرادالفتك بعثمان رضي الله عنه ثم جبن عنه ، وفي ذلك يقول :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ترکت على عثمان تبكي حلائله

ثم لما قتل عثمان يوم الدار وثب عليه عمير هذا فكسر ضلعين من أضلاعه ولما ولي الحجاج بن يوسف الكوفة وقدمها أميرا وصعد المنبر ليخطب مكث ساعة لايتكلم ، فقال عمير بن ضابئ ألا أحصبه لكم ؟ فقالوا أمهل حتى ننظر ، ثم خطبهم الحجاج خطبته القاسية المشهورة التي تقطر عباراتها دما ، ثم نزل فأقبل عليه عمير وهو شيخ يرعش كبرا يستأذنه أن يأخذ ابنه مكانه في حرب الخوارج فقبل ، فلما علم أنه ممن حضر قتل عثمان وأنه وطىء بطنه وهو مقتول وكسر ضلعين من أضلاعه قتله ، وأمر أن يرمى برأسه الى البراجم وكانوا قدأقبلواولهم ضوضاء يريدون نصرته فولوا هار بين

(١) السفيح : قدح من قداح الميسر ممالانصيب له ، وهو الرابع من القداح الغفل التي ليست لها فروض ولا أنصباء ، فليس لها غنم وليس عليها غرم

مِنَ الْأَزْلَامِ ، لٰكِنَّ مَا بَيْنَنَا مِنْ مَوَدَّةٍ أَكَّدْنَا وَسَائِلَهَا ، وَذِمَّةٍ تَقَلَّدْنَا حَمَائِلَهَا(١) ، يُوجِبُ قَبُولَ إِتْحَافِي سَمِينًا وَغَثًّا(٢) وَلُبْسَ إِلْطَافِي جَدِيدًا وَرَثًّا(٣) لَا زِلْتَ لِزِنَادِ النُّبْلِ مُورِيًا(٤) وَإِلَى آمَادِ الْفَضْلِ مُجْرِيًا ، وَالتَّحِيَّةُ الْعَبِقَةُ الرَّيَّا(٥) ، الْمُشْرِقَةُ

وانما يثقل بها القداح و يتكثر بها اتقاء الهمة ، وأولها المصدر ، ثم المضعف ثم المنيح ، ثم السفيح ، والزلم قدح لا ريش له ، والأزلام سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية ، وكانت لقريش مكتوب عليها أمر ، ونهى ، وافعل ، ولا تفعل ، وقد زلمت أى سويت و وضعت فى الكعبة يقوم بها سدنة البيت فاذا أراد الرجل سفرا أو زواجا أو غير ذلك أتى السادن وقال أخرج لى زلما ، فيخرجه و ينظر اليه ، فاذا خرج قدح الأمر مضى على ماعزم عليه ، وان خرج قدح النهى قعد عما أراد ، وقد حرم الاسلام أن يستقسموا بالأزلام :

لم يزجر الطير أن مرت به سنحا ولا يفيض على قسم بأزلام

(١) الذمة : العهد والحرمة ، والحمائل جمع حمالة وهى علاقة السيف ، شبه مابينهما من الصلة والعهد بسيف لأنه يقى من النكث ويمنع من الخيانة (٢) الغث : المهزول ضد السمين ، وفعله غث يغث « كفرح وضرب » غثاثة وغثوثة (٣) اللطفة واللطف : التحفة والهدية وجمعه ألطاف ، وألطفه بكذا الطافا اذا أتحفه به و بره ــ والرث : القديم الخلق البالى (٤) ورى الزند : خرجت ناره واتقد ، أوراه و وراه ، واستوراه اذا أوقده ، والزند الوارى الذى تخرج ناره سريعا (٥) عبق الطيب : لزق و بقى ، وفاح وانتشر ، ورجل عبق وامرأة عبقة اذا تطيبا بأدنى طيب لم يذهب عنهما أياما و بقى شذاهما أرجا عاطرا ، والريا : الرائحة ــ والمحيا الوجه « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْمُحَيَّا ، عَلَيْكَ مَا طَلَعَ قَمَرٌ ، وَأَيْنَعَ ثَمَرٌ ، وَرَحْمَةُ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ . ٱنْتَهَى .

***

« وَذَكَرَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ » أَنَّ ٱلْحَكَمَ ٱلْمُسْتَنْصِرَ هَدَمَ ٱلْمِيضَأَةَ ٱلْقَدِيمَةَ ٱلَّتِي كَانَتْ بِفِنَاءِ ٱلْجَامِعِ وَٱلَّتِي (١) يُسْتَسْقَى لَهَا ٱلْمَاءُ مِنْ بِئْرِ ٱلسَّانِيَةِ (٢) ، وَبَنَى مَوْضِعَهَا أَرْبَعَ مِيضَآتٍ ، فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَانِبَيِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلشَّرْقِيِّ وَٱلْغَرْبِيِّ مِنْهَا ٱثْنَتَانِ ، كُبْرَى لِلرِّجَالِ وَصُغْرَى لِلنِّسَاءِ ، أَجْرَى فِي جَمِيعِهَا ٱلْمَاءَ مِنْ قَنَاةٍ ٱجْتَلَبَهَا مِنْ سَفْحِ جَبَلِ قُرْطُبَةَ إِلَى أَنْ صَبَّتْ مَاءَهَا فِي أَحْوَاضِ رُخَامٍ لَا يَنْقَطِعُ جَرَيَانُهُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ، وَأَجْرَى فَضْلَ هٰذَا ٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ إِلَى سِقَايَاتٍ (٣) ٱتَّخَذَهُنَّ عَلَى أَبْوَابِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ بِجِهَاتِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَٱلْغَرْبِيَّةِ وَٱلشَّمَالِيَّةِ ، أَجْرَاهَا هُنَالِكَ إِلَى ثَلَاثِ جَوَابٍ (٤) مِنْ حِيَاضٍ

(١) فى الأصل « الذى » محرفة وحذفها هنا حسن (٢) السانية: الغرب « الدلو العظيمة » وأداته ، وسنى القوم يسنون اذا استقوا .

(٣) السقاية : الاناء يسقى به (٤) جمع جابية وهى الحوض الضخم يجبى

ٱلرُّخَامِ ٱسْتَقْطَعَهَا بِمَقْطَعِ ٱلْمُنَسْتِيرِ(١) بِسَفْحِ جَبَلِ قُرْطُبَةَ بِالْمَالِ ٱلْكَثِيرِ ، وَأَنْتَقَاهُ ٱلرُّخَامِيُّونَ هُنَالِكَ ، وَٱحْتَفَرُوا أَجْوَافَهَا بِمَنَاقِيرِهِمْ فِي ٱلْمُدَّةِ ٱلطَّوِيلَةِ حَتَّى ٱسْتَوَتْ فِي صُوَرِهَا ٱلْبَدِيعَةِ لِأَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ، فَخَفَّفَ ذَلِكَ مِنْ ثِقَلِهَا ، وَأَمْكَنَ مِنْ إِهْبَاطِهَا إِلَى أَمَاكِنِ نَصْبِهَا بِأَكْنَافِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ ، وَأَمَدَّ ٱللهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِمَعُونَتِهِ ، فَتَهَيَّأَ حَمْلُ ٱلْوَاحِدَةِ مِنْهَا فَوْقَ عَجَلَةٍ كَبِيرَةٍ ٱتُّخِذَتْ مِنْ ضِخَامِ خَشَبِ ٱلْبَلُّوطِ عَلَى فَلَكٍ(٢) مُوثَقَةٍ بِالْحَدِيدِ ٱلْمُثَقَّفِ(٣) مَحْفُوفَةٍ

---

(١) Al-Monastir اسم لهذا المقطع بسفح جبل قرطبة اليه الماء و يجمع فيه Monastére معناه بالفرنسية الدير . ومنستير أيضا : موضع بين المهدية وسوسة بافريقية بينه و بين كلتيهما مرحلة كانت خمسة قصور يحيط بها سور واحد يسكنها قوم من أهل العلم والعبدة والزهد، وفيه جماعة من الصالحين المرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والوطن — والمنستير أيضا فى شرقى الأندلس بين لقنت وقرطاجنة، وحصن من حصون اشبيلية كان يقرئ به أبو بكر محمد بن عبيد بن ملطون الأموى المقرى الشنتريني سكن اشبيلية وتوفى فى نواحيها فى نحو سنة ٦٠٠ هـ « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) فى الأصل « فلل » وهو تحريف فاسد ، والعجلة هذه الآلة التى تجرها الدواب ، سميت بذلك لسرعة مرها ، وخشب تؤلف تحمل عليها الأثقال وهى المسماة « عربة » وأفلاكها مايسمى « عجلاتها » (٣) ثقفه اذا سواه وعدله وقومه « أحمد يوسف نجاتى »

بِوِثَاقِ(١) الْحِبَالِ قُرِنَ(٢) لِجَرِّهَا سَبْعُونَ دَابَّةً مِنْ أَشَدِّ الدَّوَابِّ ، وَسُهِّلَتْ قُدَّامَهَا الطُّرُقُ وَالْمَسَالِكُ . وَسَهَّلَ اللهُ تَعَالَى حَمْلَهَا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فِي مُدَّةِ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا ، فَنُصِبَتْ فِي الْأَقْبَاءِ الْمَعْقُودَةِ لَهَا . قَالَ : وَابْتَنَى الْمُسْتَنْصِرُ فِي غَرْبِيِّ الْجَامِعِ دَارَ الصَّدَقَةِ . وَاتَّخَذَهَا مَعْهَدًا لِتَفْرِيقِ صَدَقَاتِهِ الْمُتَوَالِيَةِ ، وَابْتَنَى لِلْفُقَرَاءِ الْبُيُوتَ قُبَالَةَ بَابِ الْمَسْجِدِ الْكَبِيرِ الْغَرْبِيِّ . انْتَهَى .

***

اعتماد عمل قرطبة بالمغرب

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لِعِظَمِ أَمْرِ قُرْطُبَةَ كَانَ عَمَلُهَا حُجَّةً بِالْمَغْرِبِ حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي الْأَحْكَامِ : هَذَا مِمَّا جَرَى بِهِ عَمَلُ قُرْطُبَةَ . وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نِزَاعٌ كَثِيرٌ ، وَلَا بَأْسَ أَنْ

(١) جمع وثيق أي متين محكم مبرم (٢) قرن بين الدابتين اذا جمعهما في حبل واحد ، والقرن : حبل يجمع بين البعيرين ، والبعير المقرون بآخر كالقرين ، وخيط من سلب يشد في عنق الفدان يفتل ويوثق على عنق كل واحد من الثورين ثم توثق في وسطهما الناقومة «وهي جماعة آلة الفدان حديدها وعيدانها » والفدان اسم لهذه الآلة وجمعه أفدنة ، والفدان ، والفدان اسم للثور الذي تحرث به الأرض أيضا كما تسمى بهما الآلة ، ثم استعير هذا اللفظ لجزء من الأرض معلوم مقداره ٢٤ قيراطا

نَذْكُرَ مَالَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ ؛ قَالَ ٱلْإِمَامُ ٱبْنُ عَرَفَةَ[1] ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ـ فِي ٱشْتِرَاطِ ٱلْإِمَامِ عَلَى ٱلْقَاضِي ٱلْحُكْمَ بِمَذْهَبٍ مُعَيَّنٍ وَإِنْ خَالَفَ مُعْتَقَدَ ٱلْمُشْتَرِطِ ٱجْتِهَادًا أَوْ تَقْلِيدًا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ ؛ ٱلصِّحَّةُ لِلْبَاجِيِّ[2] وَلِعَمَلِ أَهْلِ قُرْطُبَةَ

---

(١) ابن عرفة هو الامام أبوعبدالله محمد بن محمد بن عرفة التونسى المالكى ولد بتونس سنة ٧٣٢ كان عالما جليل القدر ضليعا فى علوم الشريعة واللغة وآدابها مع الزهدوالورع والاشتغال بالعلم والتعليم، ولم يكن فى زمنه بالمغرب من يجرى مجراه فى التحقيق ولا من اجتمع له من العلوم مااجتمع له، وله مؤلفات ممتعة مفيدة ، ولماملك تونس السلطان أبوالحسن المرينى سنة ٧٤٨ كان الامام ابن عرفة ممن تلقاه بظاهر تونس مع وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى فآنوه طاعتهم ، وكان قدم فى حملة السلطان أبى الحسن جماعة من أعلام المغرب، وتوفى ابن عرفة سنة ٧٨٣ (٢) هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجى القاضى فقيه محدث امام عالم متكلم جليل القدر ، روى عن جماعة من الأندلس ثم رحل الى المشرق سنة ٤٢٦ وروى فأكثر وتفقه ففقه ، وأقام ببغداد مدة يدرس الفقه ويروى الحديث، ثم عاد الى الأندلس وقد نال حظا وافرا من العلم وروى عنه جماعة من الأئمة منهم الحافظ أبو بكر الطرطوشى وغيره ، وكان علم عصره علما وفقها وديانة توفى سنة ٤٧٤ رحمه الله ــ وأبو محمد عبد الله بن محمد بن على بن شريعة المعروف بالباجى ، أصله من باجة القيروان لاباجة الأندلس وسكن اشبيلية ، وهو فقيه محدث جليل، توفى سنة ٣٧٨ « أحمد يوسف نجاتى »

وَلِظَاهِرِ شَرْطِ سُحْنُونَ[١] عَلَى مَذْهَبِ مَنْ وَلَّاهُ الْحُكْمَ بِمَذْهَبِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ـ قَالَ الْمَازِرِيُّ[٢] : مَعَ احْتِمَالِ كَوْنِ الرَّجُلِ مُجْتَهِدًا ـ الثَّانِي الْبُطْلَانُ لِلطَّرْطُوشِيِّ[٣] إِذْ قَالَ فِي شَرْطِ أَهْلِ قُرْطُبَةَ : هَذَا جَهْلٌ عَظِيمٌ ، الثَّالِثُ تَصِحُّ التَّوْلِيَةُ وَيَذْهَبُ الشَّرْطُ تَخْرِيجًا عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ فِي الشَّرْطِ الْفَاسِدِ فِي الْبَيْعِ ـ لِلْمَازِرِيِّ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ . انْتَهَى مُخْتَصَرًا .

قَالَ ابْنُ غَازِي : إِنَّ ابْنَ عَرَفَةَ نَسَبَ لِلطَّرْطُوشِيِّ الْبُطْلَانَ مُطْلَقًا ، وَابْنُ شَاسٍ إِنَّمَا نَسَبَ لَهُ التَّفْصِيلَ . انْتَهَى .

وَلَمَّا ذَكَرَ مَوْلَايَ الْجَدُّ الْإِمَامُ قَاضِي الْقُضَاةِ بِالْأَنْدَلُسِ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْمَغْرِبِ بِفَاسَ ـ سَيِّدِي أَبُو عَبْدِ اللهِ

(١) سحنون هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي الافريقي من أئمة المالكية. صحب الامام مالكا مدة ثم قدم بمذهبه الى افريقية فأظهره فيها، وتوفى سنة ٢٤١ وسحنون اسم طائر بالمغرب حديد الذهن ، لقب الامام عبد السلام به لشدة ذكائه وقوة ذهنه (٢) هو الامام أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري أحد أئمة المالكية وشارح صحيح مسلم المسمى « المعلم » وهو من شيوخ القاضي عياض ، توفى سنة ٥٣٦ وهو منسوب الى مازر بلد بالمغرب بجزيرة صقلية ، ينسب اليها أيضا أبو عبد الله محمد بن مسلم المازري الأصولي (٣) تقدمت ترجمته وهو الامام المشهور صاحب الضريح بالاسكندرية توفى سنة ٥٢٥ . « أحمد يوسف نجاتي »

اُلْمَقَّرِىُّ(١) اُلتِّلِمْسَانِىُّ فِى كِتَابِهِ اُلْقَوَاعِدِ شَرْطَ أَهْلِ قُرْطُبَةَ اُلْمَذْكُورَ قَالَ بَعْدَهُ مَا نَصَّهُ : وَعَلَى هَذَا اُلشَّرْطِ تَرَتَّبَ عَمَلُ اُلْقُضَاةِ بِالْأَنْدَلُسِ ثُمَّ اُنْتَقَلَ إِلَى اُلْمَغْرِبِ ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نُنَازِعُ اُلنَّاسَ فِى عَمَلِ اُلْمَدِينَةِ ، وَنَصِيحُ بِأَهْلِ اُلْكُوفَةِ مَعَ كَثْرَةِ مَنْ نَزَلَ بِهَا مِنْ عُلَمَاءِ اُلْأُمَّةِ كَعَلِىٍّ وَاُبْنِ مَسْعُودٍ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا

* لَيْسَ اُلتَّكَحُّلُ فِى اُلْعَيْنَيْنِ كَالْكَحَلِ *

سَنَحَ لَنَا بُغْضُ اُلْمَجْهُودِ وَمَوَدَّةُ اُلتَّقْلِيدِ(٢)

اَللهُ أَخَّرَ مُدَّتِى فَتَأَخَّرَتْ

حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ اُلزَّمَانِ عَجَائِبَا

(١) هو القاضى الجليل محمد بن محمد بن أحمد كان من أعيان قضاة السلطان أبى عنان المرينى المتوفى سنة ٧٥٩ (٢) هذه الجملة جواب بينما وقد كانت هذه العبارة فى الأصل هكذا (سنح لى بعض الجمود ومعدن التقليد) ومن هذا وأمثاله تعرف كيف كان التصحيف يشوه الكتاب ، ويشوك طريق القارئ الى الاستفادة منه ، و يسدل حجابا كثيفا دون فهم المعانى المقصودة والأغراض المرادة المستترة فى ظلمات تلك العبارات المصحفة والألفاظ المحرفة ، حتى آذن الله بهتك هذه الحجب فأسفرت المعانى مشرقة الطلعة واضحة الجبين تأنس النفوس اليها وترتاح الأفهام لها ، وذلك بمعونة المراجع المختلفة ومنها القطعة المطبوعة بأوربة « وهى ذات قيمة على ما بها »

يَا لَلّٰهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ ! ذَهَبَتْ قُرْطُبَةُ وَأَهْلُهَا ، وَلَمْ يَبْرَحْ مِنَ ٱلنَّاسِ جَهْلُهَا ! مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَسْعَى فِي مَحْوِ ٱلْحَقِّ فَيُنْسِيهِ ، وَٱلْبَاطِلُ لَا زَالَ يُلَقِّنُهُ وَيُلْقِيهِ ، أَلَا تَرَى خِصَالَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ كَالنِّيَاحَةِ وَٱلتَّفَاخُرِ وَٱلتَّكَاثُرِ وَٱلطَّعْنِ وَٱلتَّفْضِيلِ وَٱلْكَهَانَةِ وَٱلنُّجُومِ وَٱلْخَطِّ (١) وَٱلتَّشَاؤُمِ وَمَا

وغيرها من كتب التراجم والتواريخ الأندلسية وسواها ـ هذا الى بذل الجهد المضنى والامعان فى النظر والتفكير وتقليب كثير من الكلمات على كل وجوهها الممكنة واستنطاق العبارات عما يراد منها وحسن التأتى لما يمكن به أن تبوح بأسرارها ، ولايعلم الا الله كم أنفقنا فى ذلك من وقت ثمين وجهد كبير أحيينا به الليالى الطوال سهرا وتنقيبا وبحثا ومراجعة فتجافت جنوبنا فيها عن المضاجع ولم نطعم الغمض بها الا غرارا أو مضمضة ، وقد نام الخلى ملء جفونه حتى أعان الله بتوفيقه وأثمر الاخلاص فى العمل لوجهه ، ومنه تعالى نستمد دوام المعونة ونسأله أن يمدنا بروح من عنده وهداية ترافقنا حتى التمام ، وصواب يحالفنا الى النهاية والكمال .
« أحمد يوسف نجاتى » .

(١) كان الزاجر فى الجاهليه يخط فى الأرض خطا بأصبعه ثم يزجر ، قال البعيث :

ألا انما أزرى بجارك عامدا   سويع كخطاط الخطيطة أسحم

الخطيطة هنا هى الرملة التى يخط عليها الزاجر ، وأسحم : اسم خط من خطوط الزاجر ،وهو علامة الخيبة عندهم، وذلك أن يأتى الى أرض رخوة وله غلام معه ميل فيخط الأستاذ خطوطا كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين، فان بقى من الخطوط خطان فهما

أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَأَسْمَاءِهَا كَالْعَتَمَةِ(١) وَيَثْرِبَ(٢) ، وَكَذَا التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ وَغَيْرُهُ مِمَّا نُهِيَ عَنْهُ(٣) ، وَحُذِّرَ مِنْهُ ، كَيْفَ لَمْ تَزُلْ مِنْ أَهْلِهَا ، وَانْتَقَلَتْ إِلَى غَيْرِهِمْ مَعَ تَيَسُّرِ أَمْرِهَا ؟ حَتَّى كَأَنَّهُمْ لَا يَرْفَعُونَ بِالدِّينِ رَأْسًا ، بَلْ يَجْعَلُونَ الْعَادَاتِ الْقَدِيمَةَ أُسًّا ، وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ الشِّعْرِ وَالتَّلْحِينِ وَالنَّسَبِ(٤) ، وَمَا انْخَرَطَ فِي هٰذَا السِّلْكِ ثَابِتَةُ الْمَوْقِعِ مِنَ

علامة النجح وقضاء الحاجة ، وان بقى خط واحد فهو علامة الخيبة — ويقال فلان يخط فى الأرض ، اذا كان يفكر فى أمره ويدبره (١) كان الأعراب فى الجاهلية يسمون وقت العشاء بالعتمة « وهى ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق أو وقت صلاة العشاء الآخرة » ، وفى الحديث : « لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء فان اسمها فى كتاب الله العشاء وانما يعتم بحلاب الابل » أى لا تسموا صلاة العشاء بالعتمة كما يسميها الأعراب كانوا يحلبون ابلهم اذا أعتموا ولكن سموها كما سماها الله تعالى ، وفيه النهى عن الاقتداء بهم فيما يخالف السنة ، أو أراد لا يغرنكم فعلهم هذا فتؤخروا صلاتكم ولكن صلوها اذا حان وقتها ، والتأويل الأول أظهر « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) يثرب اسم — كان — للناحية التى منها المدينة ، أو اسم للمدينة نفسها وقد نهى فى الحديث عن تسمية المدينة يثرب وسماها طيبة ، كأنه كره الثرب لأنه فساد فى كلام العرب ، أو كراهة التثريب وهو اللوم والتعيير (٣) قال تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب » (٤) قد تكون محرفة عن النسيب أو مراده التفاخر بالنسب

اْلقُلُوبِ ، وَاْلشَّرْعُ فِينَا مُنْذُ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ وَسَبْعٍ وَسِتِّينَ سَنَةً ، لَانَحْفَظُهُ إِلَّا قَوْلًا ، وَلَا نَحْمِلُهُ إِلَّا كَلًّا(١) . اْنْتَهَى

وَقَالَ اْلْحَافِظُ اْبْنُ غَازِي - بَعْدَ ذِكْرِ كَلَامِ مَوْلَايَ اْلْجَدِّ مَا نَصُّهُ : وَحَدَّثَنِي ثِقَةٌ مِمَّنْ لَقِيتُ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ مَدِينَةَ فَاسَ اْلعَلَّامَةُ أَبُو يَحْيَي اْلشَّرِيفُ اْلتِّلِمْسَانِيُّ ، وَتَصَدَّى لِإِقْرَاءِ اْلتَّفْسِيرِ بِاْلبَلَدِ اْلْجَدِيدِ ، وَأَمَرَ اْلسُّلْطَانُ أَبُو سَعِيدٍ اْلْمَرِينِيُّ(٢) اْلْحَفِيدُ أَعْيَانَ اْلْفُقَهَاءِ بِحُضُورِ مَجْلِسِهِ كَانَ مِمَّا أَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ مَنْزَعُ اْلْمَقَّرِيِّ هٰذَا ، فَبَالَغُوا فِي إِنْكَارِهِ ، وَرَأَوْا أَنَّهُ لَا مَعْدِلَ عَمَّا عَوَّلَ عَلَيْهِ زُعَمَاءُ اْلْفُقَهَاءِ كَابْنِ رُشْدٍ وَأَصْحَابُ اْلْوَثَائِقِ

---

(١) الكل: أي الثقل ، وفي حديث البخاري: « انك لتحمل الكل » أي الثقل من كل ما يتكلف (٢) تقدم التعريف به وأنه ولي الأمر سنة ٧١٠ وهو السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق . وفي سنة ٧٢٠ أمر السلطان أبو سعيد ببناء المدرسة التي بفاس الجديد فبنيت أحسن بناء وأتقنه ورتب فيها الطلبة والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والوظائف الكافية في كل شهر ، وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء وجه الله ورغبة فيما عنده . وفي سنة ٧٢٣ أمر أيضا ببناء المدرسة العظمى بازاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة بمدرسة العطارين . وحضر السلطان حفلة الشروع في تأسيسها بنفسه فجاءت من أعظم الأبنية وأفخم المصانع ، وعني بأمرها ووقف

كَالْمتيطِي(١) مِنَ اُعْتِمَادِ عَمَـلِ أَهْلِ قُرْطُبَةَ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ . انْتَهَى .

***

مدن قرطبة

« وَقَالَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ » حِينَ ذَكَرَ قُرْطُبَةَ مَامُلَخَّصُهُ هِيَ قَاعِدَةُ بِلادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَدَارُ الْخِلافَةِ الْإِسْلامِيَّةِ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَهْلُهَا أَعْيَانُ الْبِلَادِ وَسَرَاةُ النَّاسِ فِي حُسْنِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَرَاكِبِ وَعُلُوِّ الْهِمَمِ ، وَبِهَا أَعْلَامُ الْعُلَمَاءِ ، وَسَادَاتُ الْفُضَلَاءِ ، وَأَجْلَادُ(٢) الْغُزَاةِ وَأَنْجَادُ الْحُرُوبِ . وَهِيَ فِي تَقْسِيمِهَا خَمْسُ مُدُنٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالْمَدِينَةِ سُورٌ عَظِيمٌ حَصِينٌ حَاجِزٌ ، وَكُلُّ مَدِينَةٍ مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسِهَا . وَفِيهَا مَا يَكْفِي أَهْلَهَا مِنَ الْحَمَّامَاتِ وَالْأَسْوَاقِ وَالصِّنَاعَاتِ ، وَطُولُ قُرْطُبَةَ ثَلَاثَةُ

مايكفي النفقة على طلبتها والقائمين بالدراسة من العلماء فيها (١) انظر فلعل الكلمة محرفة عن « المتيجي » نسبة الى متيجة Mattiga بلد في أواخر افريقية من أعمال بني حماد ، ينسب اليها أبو محمد عبدالله بن ابراهيم بن عيسى المتيجي

(٢) أجلاد : جمع جلد وهو القوي الشديد ذو الصبر والصلابة . والأنجاد جمع نجد ، وهو الشجاع الشديد البأس السريع الاجابة الى مايدعى اليه .

أَمْيَالٍ فِي عَرْضِ مِيلٍ وَاحِدٍ ، وَهِيَ فِي سَفْحِ جَبَلٍ مُطِلٍّ عَلَيْهَا ، وَفِي مَدِينَتِهَا الثَّالِثَةِ ـ وَهِيَ الْوُسْطَى ـ الْقَنْطَرَةُ وَالْجَامِعُ الَّذِي لَيْسَ فِي مَعْمُورِ الْأَرْضِ مِثْلُهُ ، وَطُولُهُ مِائَةُ ذِرَاعٍ فِي عَرْضِ ثَمَانِينَ ، وَفِيهِ مِنَ السَّوَارِي الْكِبَارِ أَلْفُ سَارِيَةٍ . وَفِيهِ مِائَةٌ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ ثُرَيَّا لِلْوُقُودِ ، أَكْبَرُهَا تَحْمِلُ أَلْفَ مِصْبَاحٍ . وَفِيهِ مِنَ النُّقُوشِ وَالرُّقُومِ مَا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى وَصْفِهِ ، وَبِقِبْلَتِهِ صِنَاعَاتٌ تُدْهِشُ الْعُقُولَ . وَعَلَى فُرْجَةِ الْمِحْرَابِ سَبْعُ قِسِيٍّ قَائِمَةٍ عَلَى عُمُدٍ ، طُولُ كُلِّ قَوْسٍ فَوْقَ الْقَامَةِ ، قَدْ تَحَيَّرَ الرُّومُ وَالْمُسْلِمُونَ فِي حُسْنِ وَضْعِهَا . وَفِي عِضَادَتَيِ(١) الْمِحْرَابِ أَرْبَعَةُ أَعْمِدَةٍ اثْنَانِ أَخْضَرَانِ وَاثْنَانِ لَازَوَرْدِيَّانِ ، لَيْسَ لَهَا قِيمَةٌ لِنَفَاسَتِهَا ، وَبِهِ مِنْبَرٌ لَيْسَ عَلَى مَعْمُورِ الْأَرْضِ أَنْفَسُ مِنْهُ وَلَا مِثْلُهُ فِي حُسْنِ صَنْعَتِهِ ، وَخَشَبُهُ سَاجٌ وَآبَنُوسٌ وَبَقَّمٌ وَعُودٌ قَاقُلِيٌّ ، وَيُذْكَرُ

(١) العضادتان : الناحيتان ، وعضادتا الباب : الخشبتان المنصوبتان عن يمين الداخل منه وشماله .

فِي تَارِيخِ بَنِي أُمَيَّةَ أَنَّهُ أُحْكِمَ عَمَلُهُ وَنَقْشُهُ فِي سَبْعِ سِنِينَ، وَكَانَ يَعْمَلُ فِيهِ ثَمَانِيَةُ صُنَّاعٍ، لِكُلِّ صَانِعٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ نِصْفُ مِثْقَالٍ مُحَمَّدِيٍّ. فَكَانَ جُمْلَةُ مَا صُرِفَ عَلَى الْمِنْبَرِ لَا غَيْرُ عَشَرَةَ آلَافِ مِثْقَالٍ وَخَمْسِينَ مِثْقَالًا، وَفِي الْجَامِعِ حَاصِلٌ كَبِيرٌ مَلْآنُ مِنْ آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ لِأَجْلِ وَقُودِهِ. وَبِهَذَا الْجَامِعِ مُصْحَفٌ يُقَالُ إِنَّهُ عُثْمَانِيٌّ. وَلِلْجَامِعِ عِشْرُونَ بَابًا مُصَفَّحَاتٌ بِالنُّحَاسِ الْأَنْدَلُسِيِّ مُخَرَّمَةٌ تَخْرِيمًا عَجِيبًا يُعْجِزُ الْبَشَرَ وَيَبْهَرُهُمْ، وَفِي كُلِّ بَابٍ حَلْقَةٌ فِي نِهَايَةِ الصَّنْعَةِ وَالْحِكْمَةِ. وَبِهِ الصَّوْمَعَةُ الْعَجِيبَةُ الَّتِي ارْتِفَاعُهَا مِائَةُ ذِرَاعٍ بِالْمَكِّيِّ الْمَعْرُوفِ بِالرَّشَاشِيِّ، وَفِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الصَّنَائِعِ الدَّقِيقَةِ مَا يَعْجِزُ الْوَاصِفُ عَنْ وَصْفِهِ وَنَعْتِهِ. وَبِهَذَا الْجَامِعِ ثَلَاثَةُ أَعْمِدَةٍ حُمْرٍ مَكْتُوبٌ عَلَى الْوَاحِدِ اسْمُ مُحَمَّدٍ، وَعَلَى الْآخَرِ صُورَةُ عَصَا مُوسَى وَأَهْلِ الْكَهْفِ. وَعَلَى الثَّالِثِ صُورَةُ غُرَابِ نُوحٍ، وَالْجَمِيعُ خِلْقَةٌ رَبَّانِيَّةٌ.

***

وَأَمَّا ٱلْقَنْطَرَةُ ٱلَّتِي بِقُرْطُبَةَ فَهِيَ بَدِيعَةُ ٱلصَّنْعَةِ عَجِيبَةُ ٱلْمَرْأَى . فَاقَتْ قَنَاطِرَ ٱلدُّنْيَا حُسْنًا ، وَعِدَّةُ قِسِيِّهَا سَبْعَ عَشْرَةَ قَوْسًا ، سَعَةُ كُلِّ قَوْسٍ مِنْهَا خَمْسُونَ شِبْرًا ، وَبَيْنَ كُلِّ قَوْسَيْنِ خَمْسُونَ شِبْرًا . وَبِالْجُمْلَةِ فَمَحَاسِنُ قُرْطُبَةَ أَفْضَلُ ٱلْمَحَاسِنِ ، وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ نُحِيطَ بِهَا وَصْفًا . قنطرة قرطبة

ٱنْتَهَى مُلَخَّصًا ، وَهُوَ وَإِنْ تَكَرَّرَ بَعْضُهُ مَعَ مَا قَدَّمْتُهُ فَلَا يَخْلُو مِنْ فَائِدَةٍ زَائِدَةٍ ، وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ . وَمَا ذَكَرَهُ فِي طُولِ ٱلْمَسْجِدِ وَعَرْضِهِ مُخَالِفٌ لِمَا مَرَّ ، وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ بِأَنَّ هَذَا ٱلذِّرَاعَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ ـ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ هُوَ فِي أَمْرِ ٱلصَّوْمَعَةِ ـ وَكَذَا مَا ذَكَرَهُ فِي عَدَدِ ٱلسَّوَارِي ، إِلَّا أَنْ يُقَالَ مَا تَقَدَّمَ بِٱعْتِبَارِ ٱلصِّغَارِ وَٱلْكِبَارِ ، وَهَذَا ٱلْعَدَدُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُنَا إِنَّمَا هُوَ لِلْكِبَارِ فَقَطْ ـ كَمَا صَرَّحَ بِهِ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . وَأَمَّا ٱلثُّرَيَّاتُ فَقَدْ خَالَفَ فِي عَدِّهَا مَا تَقَدَّمَ ، مَعَ أَنَّ ٱلْمُتَقَدِّمَ هُوَ قَوْلُ ثِقَاتِ مُؤَرِّخِي ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَنَحْنُ جَلَبْنَا ٱلنَّقْلَ مِنْ مَوَاضِعِهِ وَإِنِ ٱخْتَلَفَتْ طُرُقُهُ وَمَضْمُونَاتُهُ . وَقَالَ فِي ٱلْمُغْرِبِ ـ عِنْدَ تَعَرُّضِهِ لِذِكْرِ جَامِعِ

قُرْطبَةَ مَا نَصُّهُ : اُعْتَمَدْتُ فِيما نَقَلْتُهُ فِي هَذَا اُلْفَصْلِ عَلَى كِتَابِ اُبْنِ بَشْكُوَالَ ، فَقَدِ اُعْتَنَى بِهَذَا اُلشَّأْنِ أَتَمَّ اُعْتِنَاءٍ وَأَغْنَى عَنِ اُلِاسْتِطْلَاعِ إِلَى كَلَامِ غَيْرِهِ : عَنِ اُلرَّازِيِّ أَنَّهُ لَمَّا اُفْتَتَحَ اُلْمُسْلِمُونَ اُلْأَنْدَلُسَ اُمْتَثَلُوا مَا فَعَلَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ اُلْجَرَّاحِ وَخَالِدُ بْنُ اُلْوَلِيدِ عَنْ رَأْيِ عُمَرَ - رَضِيَ اُللهُ تَعَالَى عَنْهُ - بِالشَّامِ مِنْ مُشَاطَرَةِ اُلرُّومِ فِي كَنَائِسِهِمْ مِثْلِ كَنِيسَةِ دِمَشْقَ وَغَيْرِهَا مِمَّا أَخَذَهُ صُلْحًا . فَشَاطَرَ اُلْمُسْلِمُونَ أَعَاجِمَ قُرْطُبَةَ كَنِيسَتَهُمُ اُلْعُظْمَى اُلَّتِي كَانَتْ دَاخِلَ مَدِينَتِهَا تَحْتَ اُلسُّورِ - وَكَانُوا يُسَمُّونَهَا بِسَنْتْ بِنْجَنْتْ[1] وَاُبْتَنَوْا فِي ذَلِكَ اُلشَّطْرِ مَسْجِدًا جَامِعًا . وَبَقِيَ اُلشَّطْرُ اُلثَّانِي بِأَيْدِي اُلنَّصَارَى ، وَهُدِّمَتْ عَلَيْهِمْ سَائِرُ اُلْكَنَائِسِ بِحَضْرَةِ قُرْطُبَةَ ، وَاُقْتَنَعَ اُلْمُسْلِمُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ إِلَى أَنْ كَثُرُوا ، وَتَزَيَّدَتْ عِمَارَةُ قُرْطُبَةَ . وَنَزَلَهَا أُمَرَاءُ اُلْعَرَبِ ، فَضَاقَ عَنْهُمْ ذَلِكَ اُلْمَسْجِدُ ، وَجَعَلُوا يُعَلِّقُونَ مِنْهُ سَقِيفَةً بَعْدَ سَقِيفَةٍ

---

(١) فى الأصل « سنت نتجنت » وأراها محرفة عن « سنت بنجنت Saint-Benjamites أى القديس بنيامين . « أحمد يوسف نجاتى »

يَسْتَكِنُّونَ بِهَا ، حَتَّى كَانَ ٱلنَّاسُ يَنَالُونَ فِي ٱلْوُصُولِ إِلَى دَاخِلِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَعْظَمِ مَشَقَّةً لِتَلَاصُقِ تِلْكَ ٱلسَّقَائِفِ وَقِصَرِ أَبْوَابِهَا وَتَطَامُنِ سَقْفِهَا ، حَتَّى مَا يُمْكِنُ أَكْثَرَهُمُ ٱلْقِيَامُ عَلَى ٱعْتِدَالٍ لِتَقَارُبِ سَقْفِهَا مِنَ ٱلْأَرْضِ . وَلَمْ يَزَلِ ٱلْمَسْجِدُ عَلَى هَذِهِ ٱلصِّفَةِ إِلَى أَنْ دَخَلَ ٱلْأَمِيرُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنُ مُعَاوِيَةَ ٱلْمَرْوَانِيُّ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَٱسْتَوْلَى عَلَى إِمَارَتِهَا وَسَكَنَ دَارَ سُلْطَانِهَا قُرْطُبَةَ وَتَمَدَّنَتْ بِهِ . فَنَظَرَ فِي أَمْرِ ٱلْجَامِعِ ، وَذَهَبَ إِلَى تَوْسِعَتِهِ وَإِتْقَانِ بُنْيَانِهِ . فَأَحْضَرَ أَعَاظِمَ ٱلنَّصَارَى وَسَامَهُمْ بَيْعَ مَا بَقِيَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ كَنِيسَتِهِمْ لِصْقَ ٱلْجَامِعِ لِيُدْخِلَهُ فِيهِ . وَأَوْسَعَ لَهُمُ ٱلْبَذْلَ وَفَاءً بِالْعَهْدِ ٱلَّذِي صُولِحُوا عَلَيْهِ ، فَأَبَوْا مِنْ بَيْعِ مَا بِأَيْدِيهِمْ ، وَسَأَلُوا بَعْدَ ٱلْجِدِّ بِهِمْ أَنْ يُبَاحُوا بِنَاءَ كَنِيسَتِهِمُ ٱلَّتِي هُدِّمَتْ عَلَيْهِمْ بِخَارِجِ ٱلْمَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَتَخَلَّوْا لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ هَذَا ٱلشَّطْرِ ٱلَّذِي طُولِبُوا بِهِ ، فَتَمَّ ٱلْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَمَائَةٍ ، فَٱبْتَنَى عِنْدَ ذَلِكَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ

اَلْمَسْجِدَ اَلْجَامِعَ عَلَى صِفَةٍ ذَكَرَهَا لَا حَاجَةَ إِلَى تَفْسِيرِ اَلزِّيَادَةِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا اَلْحَاجَةُ فِي وَصْفِهِ بِكَمَالِهِ . وَفِي بِنَائِهِ لِهَذِهِ اَلزِّيَادَةِ يَقُولُ دِحْيَةُ بْنُ مُحَمَّدٍ اَلْبَلَوِيُّ مِنْ قَصِيدَةٍ :

وَأَنْفَقَ فِي دِينِ اَلْإِلَهِ وَوَجْهِهِ
ثَمَانِينَ أَلْفاً مِنْ لُجَيْنٍ وَعَسْجَدِ
تَوَزَّعَهَا فِي مَسْجِدٍ أُسُّهُ اَلتُّقَى
وَمَنْهَجُهُ دِينُ اَلنَّبِيِّ مُحَمَّدِ
تَرَى اَلذَّهَبَ اَلنَّارِيَّ فَوْقَ سُمُوكِهِ
يَلُوحُ كَبَرْقِ الْعَارِضِ اَلْمُتَوَقِّدِ

قَالَ : وَكَمَلَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَةٍ . ثُمَّ ذَكَرَ زِيَادَةَ اَبْنِهِ هِشَامٍ اَلرِّضَا وَمَا جَدَّدَهُ فِيهِ وَأَنَّهُ بَنَاهُ مِنْ خُمْسِ فَيْءِ أَرْبُونَةَ ، ثُمَّ زِيَادَةَ اَبْنِهِ عَبْدِ اَلرَّحْمٰنِ اَلْأَوْسَطِ لَمَّا تَزَايَدَ اَلنَّاسُ ، قَالَ : وَهَلَكَ قَبْلَ أَنْ يُتِمَّ اَلزَّخْرَفَةَ فَأَتَمَّهَا وَلَدُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اَلرَّحْمٰنِ . ثُمَّ رَمَّ اَلْمُنْذِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ مَا وَهَى مِنْهُ . وَذَكَرَ مَا جَدَّدَهُ خَلِيفَتُهُمُ اَلنَّاصِرُ وَنَقْضَهُ

لِلصَّوْمَعَةِ الْأُولَى وَبُنْيَانَهُ لِلصَّوْمَعَةِ الْعَظِيمَةِ . قَالَ : وَلَمَّا وَلِيَ الْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ بْنُ النَّاصِرِ — وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُ قُرْطُبَةَ وَكَثُرَ أَهْلُهَا ، وَتَبَيَّنَ الضِّيقُ فِي جَامِعِهَا — لَمْ يُقَدِّمْ شَيْئًا عَلَى النَّظَرِ فِي الزِّيَادَةِ ، فَبَلَغَ الْجُهْدَ وَزَادَ الزِّيَادَةَ الْعُظْمَى ، قَالَ : وَبِهَا كَمُلَتْ مَحَاسِنُ هَذَا الْجَامِعِ . وَصَارَ فِي حَدٍّ يَقْصُرُ الْوَصْفُ عَنْهُ . وَذَكَرَ حُضُورَهُ لِمُشَاوَرَةِ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْرِيفِ الْقِبْلَةِ إِلَى نَحْوِ الْمَشْرِقِ حَسْبَمَا فَعَلَهُ وَالِدُهُ النَّاصِرُ فِي قِبْلَةِ جَامِعِ الزَّهْرَاءِ — لِأَنَّ أَهْلَ التَّعْدِيلِ يَقُولُونَ بِانْحِرَافِ قِبْلَةِ الْجَامِعِ الْقَدِيمَةِ إِلَى نَحْوِ الْغَرْبِ — فَقَالَ لَهُ الْفَقِيهُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ (١) : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ قَدْ صَلَّى إِلَى هَذِهِ الْقِبْلَةِ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ أَجْدَادِكَ الْأَئِمَّةِ وَصُلَحَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَائِهِمْ مُنْذُ افْتُتِحَتِ الْأَنْدَلُسُ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ

(١) أظنه أبا ابراهيم اسحق بن ابراهيم بن مسرة من أهل قرطبة «وأصله من طليطلة وهو من موالى بعض أهلها» كان من أئمة الفقهاء المالكية مشاورا فى الأحكام صدرا فى الفتيا وقورا مهيبا جليلا توفى — رحمه الله — سنة ٣٥٢ بطليطلة عن ٧٥ سنة وكان قد خرج غازيا مع الخليفة المستنصر بالله . « أحمد يوسف نجاتى » .

مُتَأَسِّينَ بِأَوَّلِ مَنْ نَصَبَهَا مِنَ ٱلتَّابِعِينَ كَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَحَنَشٍ ٱلصَّنْعَانِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ ـ رَحِمَهُمُ ٱللّٰهُ تَعَالَى ـ ، وَإِنَّمَا فَضُلَ مَنْ فَضُلَ بِالِاتِّبَاعِ ، وَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ بِالِابْتِدَاعِ . فَأَخَذَ ٱلْخَلِيفَةُ بِرَأْيِهِ وَقَالَ : نِعْمَ مَا قُلْتَ ! وَإِنَّمَا مَذْهَبُنَا ٱلِاتِّبَاعُ . قَالَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ : وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْمُسْتَنْصِرِ أَنَّ ٱلنَّفَقَةَ فِي هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةِ وَمَا ٱتَّصَلَ بِهَا ٱنْتَهَتْ إِلَى مائَتَيْ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَحَدٍ وَسِتِّينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ وَسَبْعَةٍ وَثَلَاثِينَ دِينَارًا وَدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ ٱلصَّوْمَعَةَ نَقْلًا عَنِ ٱبْنِ بَشْكُوَالَ فَقَالَ : أَمَرَ ٱلنَّاصِرُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بِهَدْمِ ٱلصَّوْمَعَةِ ٱلْأُولَى سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَثَلثِمِائَةٍ ، وَأَقَامَ هٰذِهِ ٱلصَّوْمَعَةَ ٱلْبَدِيعَةَ ، فَحَفَرَ فِي أَسَاسِهَا حَتَّى بَلَغَ ٱلْمَاءَ مُدَّةً مِنْ ثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَلَمَّا كَمَلَتْ رَكِبَ ٱلنَّاصِرُ إِلَيْهَا مِنْ مَدِينَةِ ٱلزَّهْرَاءِ ، وَصَعِدَ فِي ٱلصَّوْمَعَةِ مِنْ أَحَدِ دَرَجَيْهَا وَنَزَلَ مِنَ ٱلثَّانِي ، ثُمَّ خَرَجَ ٱلنَّاصِرُ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ فِي ٱلْمَقْصُورَةِ وَٱنْصَرَفَ . قَالَ : وَكَانَتْ ٱلْأُولَى

ذَاتَ مَطْلَعٍ وَاحِدٍ ، فَصَيَّرَ لِهٰذِهِ مَطْلَعَيْنِ فَصَلَ بَيْنَهُمَا ٱلْبِنَاءُ فَلَا يَلْتَقِي ٱلرَّاقُونَ فِيهَا إِلَّا بِأَعْلَاهَا ، تَزِيدُ مَرَاقِي كُلِّ مَطْلَعٍ مِنْهَا عَلَى مِائَةٍ سَبْعًا . قَالَ : وَخَبَرُ هٰذِهِ ٱلصَّوْمَعَةِ مَشْهُورٌ فِي ٱلْأَرْضِ ، وَلَيْسَ فِي مَسَاجِدِ ٱلْمُسْلِمِينَ صَوْمَعَةٌ تَعْدِلُهَا . قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : قَالَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ هٰذَا لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ صَوْمَعَةَ مُرَّاكِشَ وَلَا صَوْمَعَةَ إِشْبِيلِيَةَ ٱللَّتَيْنِ بَنَاهُمَا ٱلْمَنْصُورُ مِنْ بَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ ، فَهُمَا أَعْظَمُ وَأَطْوَلُ لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ طُولَ صَوْمَعَةِ قُرْطُبَةَ إِلَى مَكَانِ مَوْقِفِ ٱلْمُؤَذِّنِ أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا ، وَإِلَى أَعْلَى ٱلرُّمَّانَةِ ٱلْأَخِيرَةِ بِأَعْلَى ٱلزُّجِّ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُهَا فِي كُلِّ تَرْبِيعٍ مِنْهَا ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَذَلِكَ ٱثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ ذِرَاعًا ، قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : وَطُولُ صَوْمَعَةِ مُرَّاكِشَ مِائَةٌ وَعَشْرُ أَذْرُعٍ ، وَذَكَرَ أَنَّ صَوْمَعَةَ قُرْطُبَةَ بِضِخَامِ ٱلْحِجَارَةِ ٱلْقَطِيعَةِ(١) مُنَجَّدَةً غَايَةَ ٱلتَّنْجِيدِ ،

(١) كذا بالأصل ولعله يريد الهائلة التي جاوزت الحد في العظم والضخامة وفي بعض النسخ « القطعية » و « القطيعة » أي المقطوعة من الجبال — ونجده اذا سواه وحسنه وصقله « أحمد يوسف نجاتي »

وَفِي أَعْلَى ذِرْوَتِهَا ثَلَاثُ شَمَسَاتٍ[1] يُسَمُّونَهَا رُمَّانَةً ـ مُلْصَقَةٌ فِي السَّفُّودِ[2] الْبَارِزِ فِي أَعْلَاهَا مِنَ النُّحَاسِ ، الثِّنْتَانِ مِنْهَا ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ ، وَالثَّالِثَةُ مِنْهَا وُسْطَى بَيْنَهُمَا مِنْ فِضَّةٍ إِكْسِيرٍ[3] وَفَوْقَهَا سَوْسَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ مُسَدَّسَةٌ ، فَوْقَهَا رُمَّانَةُ ذَهَبٍ صَغِيرَةٌ فِي طَرَفِ الزُّجِّ الْبَارِزِ بِأَعْلَى الْجَوِّ ، وَكَانَ تَمَامُ هٰذِهِ الصَّوْمَعَةِ فِي ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَهْرًا . وَذَكَرَ ابْنُ بَشْكُوَالَ فِي رِوَايَةٍ أَنَّ مَوْضِعَ الْجَامِعِ الْأَعْظَمِ بِقُرْطُبَةَ كَانَ حُفْرَةً عَظِيمَةً يَطْرَحُ فِيهَا أَهْلُ قُرْطُبَةَ قُمَامَتَهُمْ وَغَيْرَهَا ، فَلَمَّا قَدِمَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ ـ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا ـ وَدَخَلَ قُرْطُبَةَ قَالَ لِلْجِنِّ : أَرْدِمُوا هٰذَا الْمَوْضِعَ وَعَدِّلُوا مَكَانَهُ ، فَسَيَكُونُ فِيهِ بَيْتٌ يُعْبَدُ اللهُ فِيهِ ، فَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، وَبُنِيَ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْجَامِعُ الْمَذْكُورُ . قَالَ : وَمِنْ فَضَائِلِهِ أَنَّ الدَّارَاتِ[4]

---

(١) جمع شمس شبهت الرمانة بها فى الاشراق والضوء (٢) السفود فى الأصل حديدة ذات شعب معقفة يشوى بها اللحم أطلقه هنا على ما يشبهه .

(٣) يريد الفضة الخالصة النقية ، والذهب الابريز أيضا هو الخالص (٤) الدارة هى الدائرة ، والماثلة أى الشاخصة البارزة .

الْمَاثِلَةَ فِي تَزَاوِيقِ سَمَائِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا بِالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ إِلَى غَيْرِهِ بِأَحْكَمِ صَنْعَةٍ . انْتَهَى .

***

وَذَكَرَ مُصْحَفَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ — رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ — الَّذِي كَانَ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ وَصَارَ إِلَى بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ فَقَالَ : هُوَ مُصْحَفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ — رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ — مِمَّا خَطَّهُ بِيَمِينِهِ ، وَلَهُ عِنْدَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ شَأْنٌ عَظِيمٌ . انْتَهَى . وَسَنَذْكُرُ فِيهِ زِيَادَةً عَلَى هَذَا . مصحف عثمان رضى الله عنه

***

وَأَمَّا الزَّهْرَاءُ فَهِيَ مَدِينَةُ الْمُلْكِ الَّتِي اخْتَرَعَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ النَّاصِرُ لِدِينِ اللهِ — وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ — وَهِيَ مِنَ الْمُدُنِ الْجَلِيلَةِ الْعَظِيمَةِ الْقَدْرِ . قَالَ ابْنُ الْفَرَضِيِّ وَغَيْرُهُ : كَانَ يَعْمَلُ فِي جَامِعِهَا حِينَ شُرِعَ فِيهِ مِنْ حُذَّاقِ الْفَعَلَةِ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفُ نَسَمَةٍ : مِنْهَا ثَلَاثُمِائَةِ بَنَّاءٍ وَمِائَتَا نَجَّارٍ وَخَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْأُجَرَاءِ وَسَائِرِ الصَّنَائِعِ ، فَاسْتَتَمَّ بُنْيَانَهُ وَإِتْقَانَهُ فِي مُدَّةٍ مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَجَاءَ فِي غَايَةِ مدينة الزهراء ومسجدها

ٱلْإِتْقَانِ مِنْ خَمْسَةِ أَبْهَاءٍ عَجِيبَةِ ٱلصَّنْعَةِ ، وَطُولُهُ مِنَ ٱلْقِبْلَةِ إِلَى ٱلْجَوْفِ ـ حَاشَا ٱلْمَقْصُورَةَ ـ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُ ٱلْبَهْوِ ٱلْأَوْسَطِ مِنْ أَبْهَائِهِ مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُ كُلِّ بَهْوٍ مِنَ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلْمُكْتَنِفَةِ لَهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، وَطُولُ صَحْنِهِ ٱلْمَكْشُوفِ مِنَ ٱلْقِبْلَةِ إِلَى ٱلْجَوْفِ ثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُهُ مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ إِحْدَى وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا ، وَجَمِيعُهُ مَفْرُوشٌ بِالرُّخَامِ ٱلْخَمْرِيِّ ، وَفِي وَسَطِهِ فَوَّارَةٌ يَجْرِي فِيهَا ٱلْمَاءُ ، فَطُولُ هَذَا ٱلْمَسْجِدِ أَجْمَعَ مِنَ ٱلْقِبْلَةِ إِلَى ٱلْجَوْفِ سِوَى ٱلْمِحْرَابِ سَبْعٌ وَتِسْعُونَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُهُ مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا ، وَطُولُ صَوْمَعَتِهِ فِي ٱلْهَوَاءِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا ، وَعَرْضُهَا عَشْرُ أَذْرُعٍ فِي مِثْلِهَا . وَأَمَرَ ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللّٰهِ بِاتِّخَاذِ مِنْبَرٍ بَدِيعٍ لِهَذَا ٱلْمَسْجِدِ ، فَصُنِعَ فِي نِهَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ ، وَوُضِعَ فِي مَكَانِهِ مِنْهُ ، وَحُظِرَتْ(١) حَوْلَهُ

(١) من الحظيرة وهى كل ما أحاط بالشىء خشبا أو قصبا أو غيرهما ، والحظار كل ما حال بينك و بين الشىء ، وكل حاجز بين شيئين

مَقْصُورَةٌ عَجِيبَةُ الصَّنْعَةِ ، وَكَانَ وَضْعُ هَـذَا الْمِنْبَرِ فِي مَـكَانِهِ مِنْ هَـذَا الْمَسْجِدِ عِنْدَ إِكْمَالِهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ . قَالَ: وَفِي صَدْرِ هَذِهِ السَّنَةِ كَمَلَ لِلنَّاصِرِ بُنْيَانُ الْقَنَاةِ الْغَرِيبَةِ الصَّنْعَةِ الَّتِي أَجْرَاهَا ، وَجَرَى فِيهَا الْمَاءُ الْعَذْبُ مِنْ جَبَلِ قُرْطُبَةَ إِلَى قَصْرِ النَّاعُورَةِ غَرْبِيَّ قُرْطُبَةَ فِي الْمَنَاهِرِ (١) الْمُهَنْدَسَةِ وَعَلَى الْحَنَايَا الْمَعْقُودَةِ ، يَجْرِي مَاؤُهَا بِتَدْبِيرٍ عَجِيبٍ وَصَنْعَةٍ مُحْـكَمَةٍ إِلَى بِرْكَةٍ عَظِيمَةٍ عَلَيْهَا أَسَدٌ عَظِيمُ الصُّورَةِ بَدِيعُ الصَّنْعَةِ شَدِيدُ الرَّوْعَةِ ، لَمْ يُشَاهَدْ أَبْهَى مِنْهُ فِيمَا صَوَّرَ الْمُلُوكُ فِي غَابِرِ الدَّهْرِ ، مَطْلِيٌّ بِذَهَبٍ إِبْرِيزٍ ، وَعَيْنَاهُ جَوْهَرَتَانِ لَهُمَا وَبِيصٌ (٢) شَدِيدٌ ، يَجُوزُ هَذَا الْمَاءُ إِلَى عَجُزِ هَذَا الْأَسَدِ فَيَمُجُّهُ فِي تِلْكَ الْبِرْكَةِ مِنْ فِيهِ ، فَيَبْهَرُ النَّاظِرَ بِحُسْنِهِ وَرَوْعَةِ مَنْظَرِهِ وَثَجَاجَةِ (٣) صَبِّهِ ، فَتُسْقَى مِنْ مُجَاجِهِ (٤) جِنَانُ

(١) أصل المنهر موضع فى النهر يحتفره الماء ، وموضع النهر (٢) وبص البرق وغيره يبص وبيصا اذا لمع وبرق ، والوباص البراق اللون . وفى بعض النسخ « وميض » وهو مثله (٣) ثج الماء : أساله ، وثج الماء اذا كثر صبه وسيله (٤) مج الماء من فيه اذا لفظه وألقاه ، والمجاج اسم لهذا الماء الذى يرمى من الفم

هَذَا ٱلْقَصْرِ عَلَى سَعَتِهَا ، وَيَسْتَفِيضُ عَلَى سَاحَاتِهِ وَجَنَبَاتِهِ ، وَيَمُدُّ ٱلنَّهْرَ ٱلْأَعْظَمَ بِمَا فَضَلَ مِنْهُ ، فَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْقَنَاةُ وَبِرْكَتُهَا وَٱلتِّمْثَالُ ٱلَّذِي يَصُبُّ فِيهَا مِنْ أَعْظَمِ آثَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي غَابِرِ ٱلدَّهْرِ ؛ لِبُعْدِ مَسَاقَتِهَا ، وَٱخْتِلَافِ مَسَالِكِهَا ، وَفَخَامَةِ بُنْيَانِهَا وَسُمُوِّ أَبْرَاجِهَا ٱلَّتِي يَتَرَقَّى ٱلْمَاءُ مِنْهَا ، وَيَتَصَوَّبُ[1] مِنْ أَعَالِيهَا ، وَكَانَتْ مُدَّةُ ٱلْعَمَلِ فِيهَا مِنْ يَوْمِ ٱبْتُدِئَتْ مِنَ ٱلْجَبَلِ إِلَى أَنْ وَصَلَتْ — أَعْنِي ٱلْقَنَاةَ — إِلَى هَذِهِ ٱلْبِرْكَةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ ٱنْطِلَاقُ ٱلْمَاءِ فِي هَذِهِ ٱلْبِرْكَةِ ٱلِانْطِلَاقَ ٱلَّذِي ٱتَّصَلَ وَٱسْتَمَرَّ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ غُرَّةَ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلسَّنَةِ ، وَكَانَتْ لِلنَّاصِرِ فِي هَذَا ٱلْيَوْمِ بِقَصْرِ ٱلنَّاعُورَةِ دَعْوَةٌ حَسَنَةٌ ، أَفْضَلَ فِيهَا عَلَى عَامَّةِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، وَوَصَلَ ٱلْمُهَنْدِسِينَ وَٱلْقُوَّامَ بِٱلْعَمَلِ بِصِلَاتٍ حَسَنَةٍ جَلِيلَةٍ جَزِيلَةٍ .

وَأَمَّا مَدِينَةُ ٱلزَّهْرَاءِ فَٱسْتَمَرَّ ٱلْعَمَلُ فِيهَا مِنْ عَامِ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ إِلَى آخِرِ دَوْلَةِ ٱلنَّاصِرِ وَٱبْنِهِ ٱلْحَكَمِ وَذَلِكَ نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَلَمَّا فُرِغَ مِنْ بِنَاءِ مَسْجِدِ

(١) صاب الشيء وتصوب اذا نزل من علو الى سفل وانحدر .

الزَّهْرَاءِ عَلَى مَا وُصِفَ كَانَتْ أَوَّلُ جَمَاعَةٍ صُلِّيَتْ فِيهِ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ مِنْ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ لِثَمَانٍ بَقِينَ مِنْ شَعْبَانَ، وَكَانَ الْإِمَامُ الْقَاضِيَ أَبَا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي عِيسَى (١)،

(١) هو محمد بن عبد الله بن يحي بن يحي بن كثير الليثى « وجده يحي ابن يحي الليثى توفى سنة ٣٠٣ » ولى قضاء الجماعة بقرطبة وكان فقيها جليلا موصوفا بالعقل والعدل والصلابة فى الحق والاعتصام بحبل الدين حسن التهذيب قويم الثقافة، يجمع الى العلم أدبا وظرفا ، والى الدين مروءة وبلاغة والى الفقه والقضاء كتابة وشعرا، مع رقة حاشية، ودماثة طبع ،ولين كنف ناهيك منه بطبع ألطف من الهواء ، وشمائل أعذب من زلال الماء، وخلق أرق من نسمات الأسحار ، اذا غازلت عذبات الأشجار ، تغرد فوقها بلابل الأطيار. ناهيك بقاض عدل، وفقيه أديب كان عذب الروح خفيف الظل. اذا أقبل لم تر بين الناس – مع هيبتهم له – الافؤادا راقصا ، وطرفا شاخصا حدث القاضى أبو الوليد يونس بن عبد الله قاضى الجماعة بقرطبة عن أبيه عبد الله بن محمد بن مغيث أنه شاهد قاضى الجماعة محمد بن أبى عيسى فى دار رجل من بنى حدير مع أخيه أبى عيسى فى ناحية مقابر قريش وقد خرجوا لحضور جنازة وجارية للحدير تغنى بهذه الأبيات :

طابت بطيب لثاتك الأقداح ... وزهت بحمرة خدك التفاح
واذا النسيم تنسمت أرواحه ... طابت بطيب نسيمك الأرواح
واذا الحنادس ألبست ظلماءها ... فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضى فى يده ثم خرجوا ، قال يونس بن عبد الله فلقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة والأبيات مكتوبة على باطن كفه وتوفى سنة ٣٣٧، رحمه الله . قلت هذا وربك يسر الدين يتجلى فى معرض الأدب ، والعلم الغزير ينمو بالدأب على الطلب ، وهذا هو الصلاح الجم يبسم فى طلاقة وبشر ، ويرى أن الدين متين ليس فيه عسر ، وكذلك كان ابن عباس

وَمِنَ ٱلْغَدِ صَلَّى ٱلنَّاصِرُ فِيهِ ٱلْجُمُعَةَ ، وَأَوَّلُ مَنْ خَطَبَ بِهِ ٱلْقَاضِي ٱلْمَذْكُورُ .

***

قصر الزهراء

وَلَمَّا بَنَى ٱلنَّاصِرُ قَصْرَ ٱلزَّهْرَاءِ ٱلْمُتَنَاهِيَ فِي ٱلْجَلَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ أَطْبَقَ ٱلنَّاسُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُبْنَ مِثْلُهُ فِي ٱلْإِسْلَامِ ٱلْبَتَّةَ ، وَمَا دَخَلَ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ سَائِرِ ٱلْبِلَادِ ٱلنَّائِيَةِ وَٱلنِّحَلِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ مِنْ مَلِكٍ وَارِدٍ وَرَسُولٍ وَافِدٍ وَتَاجِرٍ جِهْبِذٍ(١) ـ وَفِي هَذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ مِنَ ٱلنَّاسِ تَكُونُ ٱلْمَعْرِفَةُ وَٱلْفِطْنَةُ ـ إِلَّا وَكُلُّهُمْ قَطَعَ أَنَّهُ لَمْ يَرَ لَهُ شِبْهًا ، بَلْ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ ، بَلْ لَمْ يَتَوَهَّمْ كَوْنَ مِثْلِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ أَعْجَبَ مَا يُؤَمِّلُهُ(٢) ٱلْقَاطِعُ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ فِي تِلْكَ ٱلْعُصُورِ ٱلنَّظَرُ إِلَيْهِ وَٱلتَّحَدُّثُ عَنْهُ . وَٱلْأَخْبَارُ عَنْ هَذَا تَتَّسِعُ جِدًّا ، وَٱلْأَدِلَّةُ عَلَيْهِ تَكْثُرُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا ٱلسَّطْحُ ٱلْمُمَرَّدُ(٣) ٱلْمُشْرِفُ عَلَى ٱلرَّوْضَةِ ٱلْمُبَاهِي بِمَجْلِسِ ٱلذَّهَبِ ، وَٱلْقُبَّةُ وَعَجِيبُ

حبر هذه الأمة وغيره ممن فهم حقيقة الدين ، لاما يسوم الناس تجشمه من عابسي المتنطعين ، والمتجهمين من غلاة المتزمتين «أحمد يوسف نجاتى»

(١) فى الأصل « وجهيد » وهو تحريف ـ والجهبذ هو النقاد الخبير بغوامض الأمور البارع العارف بطرق النقد « وهو لفظ معرب » (٢) فى الأصل « يوصله » وهو تحريف (٣) بناء ممرد أى مطول مسوى مملس

مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ إِتْقَانِ ٱلصَّنْعَةِ وَفَخَامَةِ ٱلْهِمَّةِ وَحُسْنِ ٱلْمُسْتَشْرَفِ وَبَرَاعَةِ ٱلْمَلْبَسِ وَٱلْحِلْيَةِ. مَا بَيْنَ مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ[1]، وَذَهَبٍ مَوْضُونٍ[2] وَعُمُدٍ كَأَنَّمَا أُفْرِغَتْ فِي ٱلْقَوَالِبِ، وَنُقُوشٍ كَالرِّيَاضِ، وَبِرَكٍ عَظِيمَةٍ مُحْكَمَةِ ٱلصَّنْعَةِ وَحِيَاضٍ، وَتَمَاثِيلَ عَجِيبَةِ ٱلْأَشْخَاصِ. لَا تَهْتَدِي ٱلْأَوْهَامُ إِلَى سَبِيلِ ٱسْتِقْصَاءِ ٱلتَّعْبِيرِ عَنْهَا لَكَفَى. فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي أَقْدَرَ هٰذَا ٱلْمَخْلُوقَ ٱلضَّعِيفَ عَلَى إِبْدَاعِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْحَلَّةِ. كَيْمَا يُرِيَ ٱلْغَافِلِينَ عَنْهُ مِنْ عِبَادِهِ مِثَالًا لِمَا أَعَدَّهُ لِأَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ فِي دَارِ ٱلْمُقَامَةِ ٱلَّتِي لَا يَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا ٱلْفَنَاءُ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى ٱلرَّمِّ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْكَرَمِ

---

(١) المسنون أى المملس، قال عبدالرحمن بن حسان بن ثابت :

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ ... ـراء تمشى فى مرمر مسنون

«وتروى هذه الأبيات لأبى دهبل الجمحى» (٢) فى الأصل «مصون» محرفة ـ وضن الشيء يضنه «كوعد» إذا ضاعفه ونضده، والدرع الموضونة المنسوجة بالجواهر، والوضن: نسج السرير أو الثياب بالدر، وسرير موضون مضاعف النسج، ومنه قوله تعالى: «على سرر موضونة».

« وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُ » أَبُو مَرْوَانَ بْنُ حَيَّانَ[1] صَاحِبُ الشُّرْطَةِ أَنَّ مَبَانِيَ الزَّهْرَاءِ اشْتَمَلَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ سَارِيَةٍ مَا بَيْنَ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ وَمَحْمُولَةٍ ـ وَنَيِّفٍ عَلَى ثَلَثِمَائَةِ سَارِيَةٍ هُوَ سِتَّ عَشْرَةَ[2] . قَالَ : مِنْهَا مَا جُلِبَ مِنْ مَدِينَةِ رُومَةَ ، وَمِنْهَا مَا أَهْدَاهُ صَاحِبُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ـ وَأَنَّ مَصَارِيعَ أَبْوَابِهَا صِغَارَهَا وَكِبَارَهَا كَانَتْ تُنِيفُ عَلَى خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ بَابٍ ، وَكُلُّهَا مُلْبَسَةٌ بِالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ الْمُمَوَّهِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَهْوَلِ مَا بَنَاهُ الْإِنْسُ وَأَجَلِّهِ خَطَرًا وَأَعْظَمِهِ شَأْنًا . انْتَهَى

قُلْتُ : فَسَّرَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ النَّيِّفَ فِي كَلَامِهِ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ[3] . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

---

(١) هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، من أهل قرطبة وصاحب التاريخ الكبير فى أخبار الأندلس كان ذا حظ عظيم من العلم والأدب والمعرفة والبيان والبراعة والبلاغة وصدق الايراد والتحرى للصواب فيما ينقله ويكتبه ، ولد سنة ٣٧٧ وتوفى سنة ٤٦٩ (٢) كانت هذه العبارة فى الأصل مشوهة مهوشة بالتحريف والتقديم والتأخير ، والذى يقصده أن عدد السوارى كان ٤٣١٦ سارية (٣) فيكون مجموع عدد السوارى على ذلك ٤٣١٣ سارية « أحمد يوسف نجاتى »

« وَقَالَ بَعْضُ مَنْ أَرَّخَ الْأَنْدَلُسَ » : كَانَ عَدَدُ الْفِتْيَانِ بِالزَّهْرَاءِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ فَتًى وَسَبْعَمِائَةٍ وَخَمْسِينَ فَتًى ، وَدِخَالَتُهُمْ مِنَ اللَّحْمِ كُلَّ يَوْمٍ — حَاشَا أَنْوَاعِ الطَّيْرِ وَالْحُوتِ — ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ ، وَعِدَّةُ النِّسَاءِ بِقَصْرِ الزَّهْرَاءِ الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ وَخَدَمِ الْخِدْمَةِ سِتَّةُ آلَافٍ وَثَلَثُمِائَةِ امْرَأَةٍ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ . انْتَهَى .

وَقِيلَ إِنَّ عَدَدَ الصِّبْيَانِ(١) الصَّقَالِبَةِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ . وَجَعَلَ بَعْضُ مَكَانَ الْخَمْسِينَ سَبْعَةً وَثَمَانِينَ . « وَقَالَ آخَرُ » سِتَّةُ آلَافِ صَقْلَبِيٍّ وَسَبْعَةٌ وَثَمَانُونَ ، وَالْمُرَتَّبُ مِنَ الْخُبْزِ لِحِيتَانِ بُحَيْرَةِ الزَّهْرَاءِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ خُبْزَةٍ كُلَّ يَوْمٍ ، وَيُنْقَعُ لَهَا مِنَ الْحِمَّصِ الْأَسْوَدِ سِتَّةُ أَقْفِزَةٍ كُلَّ يَوْمٍ . انْتَهَى .

ثُمَّ قَالَ الْأَوَّلُ : وَكَانَ لِهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّحْمِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ ، تُقَسَّمُ مِنْ عَشَرَةِ أَرْطَالٍ لِلشَّخْصِ إِلَى مَادُونَ ذَلِكَ

(١) فى بعض النسخ « الفتيان » وهو المألوف المعروف .

سِوَى ٱلدَّجَاجِ وَٱلْحَجَلِ وَصُنُوفِ ٱلطَّيْرِ وَضُرُوبِ ٱلْحِيتَانِ . ٱنْتَهَى .

« وَقَالَ ٱبْنُ حَيَّانَ » : أَلْفَيْتُ بِخَطِّ ٱبْنِ دَحُّونَ[1] ٱلْفَقِيهِ: قَالَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْعَرِيفُ ٱلْمُهَنْدِسُ : بَدَأَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللّٰهِ بِعِمَارَةِ ٱلزَّهْرَاءِ أَوَّلَ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ ، وَكَانَ مَبْلَغُ مَا يُنْفَقُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنَ ٱلصَّخْرِ ٱلْمَنْحُوتِ ٱلْمَنْجُورِ ٱلْمُعَدَّلِ سِتَّةَ آلَافِ صَخْرَةٍ سِوَى ٱلصَّخْرِ ٱلْمُنْصَرِفِ فِي ٱلتَّبْلِيطِ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي هٰذَا ٱلْعَدَدِ ، وَكَانَ يَخْدُمُ فِي ٱلزَّهْرَاءِ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةِ

---

(١) فى الأصل « دجون » وهو تحريف - وأرى أن ابن دحون هذا من ذرية أبى سليمان حبيب بن الوليد بن حبيب « الداخل الى الأندلس » ابن عبد الله بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، من أهل قرطبة ويلقب بدحون ، كان فقيها عالما وشاعرا محسنا فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وابنه بشر بن حبيب كان فقيها عالما ، وجده حبيب والد جماعة الحبيبيين من قريش بالأندلس ، ومنهم محمد بن سليمان ابن أحمد بن حبيب بن الوليد بن عمر بن حبيب بن عبد الملك بن عمر ابن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم المعروف بالحبيبى توفى سنة ٣٢٨ وسوف نوفى هؤلاء الجماعة حقهم من البيان ، فقد كان لهم ولذريتهم أثر حميد فى العلم والفقه والأدب بالأندلس . « أحمد يوسف نجاتى »

بَغْلٍ ، وَقِيلَ أَكْثَرُ ، مِنْهَا أَرْبَعُمِائَةِ زَوَامِلُ[1] النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ ، وَمِنْ دَوَابِّ الْأَكْرِيَةِ[2] الرَّاتِبَةِ لِلْخِدْمَةِ أَلْفُ بَغْلٍ . لِكُلٍّ مِنْهَا ثَلَاثَةُ مَثَاقِيلَ فِي الشَّهْرِ ، يَجِبُ لَهَا فِي الشَّهْرِ ثَلَاثَةُ آلَافِ مِثْقَالٍ . وَكَانَ يَرِدُ الزَّهْرَاءَ مِنَ الْجِيرِ وَالْجِصِّ فِي كُلِّ ثَالِثٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَلْفٌ وَمِائَةُ حِمْلٍ ، وَكَانَ فِيهَا حَمَّامَانِ وَاحِدَةٌ لِلْقَصْرِ[3] وَثَانِيَةٌ لِلْعَامَّةِ . وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ

(١) جمع زاملة وهى التى يحمل عليها الطعام والشراب والزاد والمتاع فى السفر من الابل وغيرها ، من الزمل وهو الحمل (٢) الأكرية جمع كراء وهو أجرة المستأجر ، وفى بعض النسخ « أكرياء » جمع كرى وهو المكارى الذى يكرى دابته « ولعل هذه النسخة أصح ، فان جمع كرى أولى من جمع كراء لأن كراء مصدر كارى مكاراة وكراء ، وفى جمع المصدر مافيه — والراتب : الثابت المقيم . ورتب الشىء « كقعد » اذا ثبت ودام ولزم ، ورتبه ترتيبا: أثبته (٣) أنث الحمام والمعروف أنه مذكر « وهو أحد ماجاء من الأسماء على وزن فعال نحو قذاف وجبان » قال سيبويه : جمعوه بالألف والتاء « حمامات » وان كان مذكرا حين لم يكسر جعلوا ذلك عوضا عن التكسير ، اه ومما يدل على تذكيره قول عبيد الله بن القرط الأسدى

نهيتهما عن نورة أحرقتهما   وحمام سوء ماؤه يتسعر

وأنشد أبو العباس المبرد لرجل من مزينة:

خليلى بالبوباة عوجا فلا أرى   بها منزلا الا جديب المقيد
نذق برد نجد بعد مالعبت بنا   تهامة فى حمامها المتوقد

وذكر أبو محمد بن برى تأنيثه فى بيت زعم الجوهرى أنه يصف حماماوهو

فاذا دخلت سمعت فيهارجة   لغط المعاول فى بيوت هداد

الْخِدْمَةِ فِي الزَّهْرَاءِ أَنَّهُ قَدَّرَ النَّفَقَةَ فِيهَا فِي كُلِّ عَامٍ بِثَلَثِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ مُدَّةَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ دَوْلَةِ النَّاصِرِ مِنْ حِينَ ابْتَدَأَهَا لِأَنَّهُ تُوُفِّيَ سَنَةَ خَمْسِينَ فَحَصَّلَ جَمِيعَ الْإِنْفَاقِ فِيهَا فَكَانَ مَبْلَغُهُ خَمْسَةَ عَشَرَ بَيْتَ مَالٍ . قَالَ: وَجَلَبَ إِلَيْهَا الرُّخَامَ مِنْ قَرْطَاجَنَّةَ وَإِفْرِيقِيَّةَ وَتُونُسَ ، وَكَانَ الَّذِينَ يَجْلِبُونَهُ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ يُونُسَ عَرِيفُ الْبَنَّائِينَ وَحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَعَلِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ الْإِسْكَنْدَرَانِيُّ ، وَكَانَ النَّاصِرُ يَصِلُهُمْ عَلَى كُلِّ رُخَامَةٍ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ بِعَشَرَةِ دَنَانِيرَ . انْتَهَى .

وَقَالَ بَعْضُ ثِقَاتِ الْمُؤَرِّخِينَ : إِنَّهُ كَانَ يَصِلُهُمْ عَلَى كُلِّ رُخَامَةٍ صَغِيرَةٍ بِثَلَاثَةِ دَنَانِيرَ، وَعَلَى كُلِّ سَارِيَةٍ بِثَمَانِيَةِ دَنَانِيرَ ، قِيلَ : وَكَانَ عَدَدُ السَّوَارِي الْمَجْلُوبَةِ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ أَلْفَ سَارِيَةٍ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سَارِيَةً ، وَمِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجِ تِسْعَ عَشْرَةَ سَارِيَةً ، وَأَهْدَى إِلَيْهِ مَلِكُ الرُّومِ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ سَارِيَةً ، وَسَائِرُهَا مِنْ مَقَاطِعِ الْأَنْدَلُسِ : تَرَّكُونَةَ وَغَيْرِهَا ، فَالرُّخَامُ الْمُجَزَّعُ مِنْ رَيَّةَ ، وَالْأَبْيَضُ مِنْ غَيْرِهَا ،

وَالْوَرْدِيُّ وَالْأَخْضَرُ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ مِنْ كَنِيسَةِ سَفَاقُسَ . وَأَمَّا الْحَوْضُ الْمَنْقُوشُ الْمُذَهَّبُ الْغَرِيبُ الشَّكْلِ الْغَالِي الْقِيمَةِ فَجَلَبَهُ إِلَيْهِ أَحْمَدُ الْيُونَانِيُّ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مَعَ رَبِيعٍ الْأُسْقُفِّ الْقَادِمِ مِنْ إِيلِيَاءَ ، وَأَمَّا الْحَوْضُ الصَّغِيرُ الْأَخْضَرُ الْمَنْقُوشُ بِتَمَاثِيلِ الْإِنْسَانِ فَجَلَبَهُ أَحْمَدُ مِنَ الشَّامِ وَقِيلَ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مَعَ رَبِيعٍ الْأُسْقُفِّ أَيْضًا ، وَقَالُوا إِنَّهُ لَا قِيمَةَ لَهُ لِفَرْطِ غَرَابَتِهِ وَجَمَالِهِ ، وَحُمِلَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى وَصَلَ فِي الْبَحْرِ ، وَنَصَبَهُ النَّاصِرُ فِي بَيْتِ الْمَنَامِ فِي الْمَجْلِسِ الشَّرْقِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْمُؤْنِسِ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ اثْنَيْ عَشَرَ تِمْثَالًا مِنَ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ مُرَصَّعَةً بِالدُّرِّ النَّفِيسِ الْغَالِي مِمَّا عُمِلَ بِدَارِ الصِّنَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ : صُورَةُ أَسَدٍ إِلَى جَانِبِهِ غَزَالٌ إِلَى جَانِبِهِ تِمْسَاحٌ ، وَفِيمَا يُقَابِلُهُ ثُعْبَانٌ ، وَعُقَابٌ وَفِيلٌ ، وَفِي الْمُجَنَّبَتَيْنِ(١) حَمَامَةٌ وَشَاهِينٌ وَطَاوُوسٌ وَدَجَاجَةٌ وَدِيكٌ وَحِدَأَةٌ وَنَسْرٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ ذَهَبٍ مُرَصَّعٍ بِالْجَوْهَرِ

---

(١) أى فى الجانبين الأيمن والأيسر ـ والمجنب « كمنبر » الستر .

ٱلنَّفِيسِ ، وَيَخْرُجُ ٱلْمَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهَا ، وَكَانَ ٱلْمُتَوَلِّي لِهَذَا ٱلْبُنْيَانِ ٱلْمَذْكُورِ ٱبْنُهُ ٱلْحَكَمُ ، لَمْ يَتَّكِلْ فِيهِ ٱلنَّاصِرُ عَلَى أَمِينٍ غَيْرِهِ ، وَكَانَ يُخْبَزُ فِي أَيَّامِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِرَسْمِ حِيتَانِ ٱلْبُحَيْرَاتِ ثَمَانِمِائَةِ خُبْزَةٍ ـ وَقِيلَ أَكْثَرُ ـ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ تَتَبُّعُهُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ كَمَا قَدَّمْنَا قَسَّمَ ٱلْجِبَايَةَ أَثْلَاثًا : ثُلُثٌ لِلْجُنْدِ ، وَثُلُثٌ لِلْبِنَاءِ ، وَثُلُثٌ مُدَّخَرٌ ، وَكَانَتْ جِبَايَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ يَوْمَئِذٍ مِنَ ٱلْكُوَرِ وَٱلْقُرَى خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفٍ[١] وَأَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَمِنَ ٱلسُّوقِ[٢] وَٱلْمُسْتَخْلَصِ سَبْعَمِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسَةً وَسِتِّينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَأَمَّا أَخْمَاسُ ٱلْغَنِيمَةِ فَلَا يُحْصِيهَا دِيوَانٌ . وَقَدْ سَبَقَ هَذَا كُلُّهُ ، وَإِنَّمَا كَرَّرْتُهُ لِقَوْلِ بَعْضِهِمْ إِثْرَ حِكَايَتِهِ لَهُ مَا صُورَتُهُ : وَقِيلَ : إِنَّ مَبْلَغَ تَحْصِيلِ ٱلنَّفَقَةِ فِي بِنَاءِ ٱلزَّهْرَاءِ مِائَةُ مُدْيٍ مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ ٱلْقَاسِمِيَّةِ بِكَيْلِ

(١) فى الأصل كلمة ألف زائدة أى مكررة ثلاث مرات فجعلت العدد كأنه غير معقول ولا مقبول (٢) فى الأصل « السنوق » محرفة .

قُرْطُبَةَ ؛ وَقِيلَ إِنَّ مَبْلَغَ ٱلنَّفَقَةِ فِيهَا بِالْكَيْلِ ٱلْمَذْكُورِ ثَمَانُونَ مُدْيًا وَسَبْعَةُ (١) أَقْفِزَةٍ مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ ٱلْمَذْكُورَةِ ، وَٱتَّصَلَ بُنْيَانُ ٱلزَّهْرَاءِ أَيَّامَ ٱلنَّاصِرِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً شَطْرَ خِلَافَتِهِ ، ثُمَّ ٱتَّصَلَ بَعْدَ وَفَاتِهِ خِلَافَةَ ٱبْنِهِ ٱلْحَكَمِ كُلَّهَا - وَكَانَتْ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا وَأَشْهُرًا - فَسُبْحَانَ ٱلْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ ٱلْخَلْقِ ، لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ . ٱنْتَهَى .

***

« وَقَالَ ٱبْنُ أَصْبَغَ ٱلْهَمْدَانِيُّ (٢) وَٱلْفَتْحُ فِي ٱلْمَطْمَحِ »

كَانَ ٱلنَّاصِرُ كَلِفًا بِعِمَارَةِ ٱلْأَرْضِ وَإِقَامَةِ مَعَالِمِهَا وَٱسْتِنْبَاطِ مِيَاهِهَا (٣) وَٱسْتِجْلَابِهَا مِنْ أَبْعَدِ بِقَاعِهَا ، وَتَخْلِيدِ

(١) فى بعض النسخ «ستة» (٢) فى الأصل « البديع الهمذانى » وهو تصحيف بديع - وابن أصبغ الهمدانى هو أبو بكر عباس بن أصبغ بن عبد العزيز بن غصن الهمدانى من أهل قرطبة ، كان عالما فاضلا ثقة ذا دين وعفة وصيانة ولد سنة ٣٠٦ وتوفى سنة ٣٨٦ . « أحمد يوسف نجاتى ».
(٣) فى الأصل « وانبساط مجاهلها » والقصد يأباه وان وجد الطباق بين المعالم والمجاهل ، وفى بعض النسخ «وانبساط مياهها » ولا بأس به ، وانبسط يعنى اتسع ، وأرى أن خيرا منهما أن تكون « وانباط مياهها » أو «استنباط - » يقال أنبط البئر اذا استخرج ماءها ، وأنبط الحافر واستنبط اذا بلغ الماء ، وكل ما أظهر بعد اخفاء فقد أنبط واستنبط - ومنه استنبط

ٱلْآثَارِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى قُوَّةِ ٱلْمُلْكِ وَعِزَّةِ ٱلسُّلْطَانِ وَعُلُوِّ ٱلْهِمَّةِ ، فَأَفْضَى بِهِ ٱلْإِغْرَاقُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنِ ٱبْتَنَى مَدِينَةَ ٱلزَّهْرَاءِ ٱلْبِنَاءِ ٱلشَّائِعَ ذِكْرُهُ ، ٱلذَّائِعَ خَبَرُهُ ، ٱلْمُنْتَشِرَ فِي ٱلْأَرْضِ أَثَرُهُ[1] وَٱسْتَفْرَغَ جُهْدَهُ فِي تَنْمِيقِهَا ، وَإِتْقَانِ قُصُورِهَا ، وَزَخْرَفَةِ مَصَانِعِهَا ، وَٱنْهَمَكَ فِي ذَلِكَ حَتَّى عَطَّلَ شُهُودَ ٱلْجُمُعَةِ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ ٱلَّذِي ٱتَّخَذَهُ ثَلَاثَ جُمَعٍ مُتَوَالِيَاتٍ ، فَأَرَادَ ٱلْقَاضِي مُنْذِرٌ أَنْ يَغُضَّ مِنْهُ بِمَا يَتَنَاوَلُهُ مِنَ ٱلْمَوْعِظَةِ بِفَصْلِ ٱلْخِطَابَةِ ، وَٱلْحِكْمَةِ وَٱلتَّذْكِيرِ بِٱلرُّجُوعِ وَٱلْإِنَابَةِ[2] ، فَٱبْتَدَأَ فِي خُطْبَتِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[3]

الفقيه ، أي استخرج الفقه الباطن بفهمه واجتهاده ، قال تعالى : «لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . أي يستخرجونه، وأصله من النبط وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ماتحفر .وفي المطمح : وتكثير مياهها (١) في الأصل « الزائد المنتشر صيته في الأرض » والزائد محرف عن الذائع ، والباقي لاغبار عليه، غير أن مانقلناه عن المطمح للفتح ابن خاقان أولى بالاتباع لحسن العبارة عليه و وفائها بحق السجع الذي يتحراه مثل الكاتب مع انارة المعنى و وضوحه . « أحمد يوسف نجاتي » .

(٢) أناب الى الله أي رجع وعاد الى طاعته وأقبل عليه تائبا (٣) الريع : المرتفع من الأرض ، أو كل فج أو طريق، أو الطريق المنفرج عن الجبل

إِلَى قَوْلِهِ مِنَ الْوَاعِظِينَ » ثُمَّ وَصَلَهُ بِقَوْلِهِ « قُلْ مَتَاعُ الدُّنيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ لِمَنِ اتَّقَى » وَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ وَمَكَانُ الْجَزَاءِ ، وَمَضَى فِي ذَمِّ تَشْيِيدِ الْبُنْيَانِ وَالاسْتِغْرَاقِ فِي زَخْرَفَتِهِ وَالْإِسْرَافِ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ بِكُلِّ كَلَامٍ جَزْلٍ وَقَوْلٍ فَصْلٍ [1] ، فَجَرَى فِيهِ طَلَقاً [2] وَانْتَزَعَ فِيهِ قَوْلَهُ تَعَالَى « أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ » إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَأَتَى بِمَا يُشَاكِلُ الْمَعْنَى مِنَ التَّخْوِيفِ بِالْمَوْتِ ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ فَجْأَتِهِ ، وَالدُّعَاءِ إِلَى الزُّهْدِ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ ، وَالْحَضِّ عَلَى اعْتِزَالِهَا ، وَالرَّفْضِ لَهَا ، وَالنَّدْبِ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهَا ، وَالْإِقْصَارِ عَنْ طَلَبِ اللَّذَّاتِ ، وَنَهْيِ النَّفْسِ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ، فَأَسْهَبَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَا يُطَابِقُهُ ، وَجَلَبَ مِنَ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ مَا يُشَاكِلُهُ وَيُوَافِقُهُ ، حَتَّى أَذْكَرَ مَنْ حَضَرَهُ مِنَ النَّاسِ وَخَشَعُوا وَرَقُّوا ، وَاعْتَرَفُوا وَبَكَوْا وَضَجُّوا ، وَدَعَوْا وَأَعْلَنُوا

---

(١) فى المطمح بعد ذلك : جاش به صدره ، وقذف به على لسانه بحره

(٢) الطلق بفتح اللام : الشوط والغاية التى يجرى اليها الفرس .

اُلتَّضَرُّعَ إِلَى اُللهِ تَعَالَى فِي اُلتَّوْبَةِ وَاُلِابْتِهَالَ فِي اُلْمَغْفِرَةِ ، وَأَخَذَ خَلِيفَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِأَوْفَرِ حَظٍّ ـ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ اُلْمَقْصُودُ بِهِ ـ فَبَكَى وَنَدِمَ عَلَى مَا سَلَفَ لَهُ[1] مِنْ فَرَطِهِ وَاُسْتَعَاذَ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ[2] عَلَى مُنْذِرٍ لِغِلَظِ مَا قَرَّعَهُ[3] بِهِ ، فَشَكَا ذَلِكَ لِوَلَدِهِ اُلْحَكَمِ بَعْدَ اُنْصِرَافِ مُنْذِرٍ وَقَالَ : وَاُللهِ لَقَدْ تَعَمَّدَنِي مُنْذِرٌ بِخُطْبَتِهِ ، وَمَا عَنَى بِهَا غَيْرِي ، فَأَسْرَفَ عَلَيَّ وَأَفْرَطَ فِي تَقْرِيعِي ، وَأَسْرَفَ فِي تَفْزِيعِي وَتَرْوِيعِي ، وَلَمْ يُحْسِنْ اُلسِّيَاسَةَ فِي وَعْظِي ، فَزَعْزَعَ قَلْبِي وَكَادَ بِعَصَاهُ يَقْرَعُنِي ، وَاُسْتَشَاطَ غَيْظاً عَلَيْهِ ، فَأَقْسَمَ أَلَّا يُصَلِّيَ خَلْفَهُ صَلَاةَ اُلْجُمُعَةِ خَاصَّةً ، فَجَعَلَ يَلْتَزِمُ صَلَاتَهَا وَرَاءَ

---

(١) فى الأصل : على مانا له — وفرط فى الأمر فرطا اذاقصرفيه ، والفرط الاسم من الأفراط وهو مجاوزة الحد فى الأمر ، والفرط: تجاوز الحد فى الأمر أيضا ومنه قوله تعالى : « وكان أمره فرطا » (٢) أى غضب وحقد (٣) فى الأصل تقرعه ، وهو تحريف ، فليس هناك تقرعه ، والتقريع التعنيف واللوم والتثريب والايجاع فى ذلك ، ويقال النصح بين الملأ تقريع. وقرعه اذا وبخه وخذله ، ويقال قرعنى فلان بلومه فلم أرتقع به ، أى لم أكترث به . «أحمد يوسف نجاتى»

أَحْمَدَ بْنِ مُطَرِّفٍ(١) صَاحِبِ ٱلصَّلَاةِ بِقُرْطُبَةَ وَيُجَانِبُ ٱلصَّلَاةَ بِالزَّهْرَاءِ ، وَقَالَ لَهُ ٱلْحَكَمُ : فَمَا ٱلَّذِي يَمْنَعُكَ مِنْ عَزْلِ مُنْذِرٍ عَنِ ٱلصَّلَاةِ بِكَ وَأَنْ تَسْتَبْدِلَ غَيْرَهُ(٢) مِنْهُ إِذْ كَرِهْتَهُ ؟ فَزَجَرَهُ وَٱنْتَهَرَهُ وَقَالَ لَهُ : أَمِثْلُ مُنْذِرِ بْنِ سَعِيدٍ فِي فَضْلِهِ وَخَيْرِهِ وَعِلْمِهِ — لَا أُمَّ لَكَ — يُعْزَلُ لِإِرْضَاءِ نَفْسٍ نَاكِبَةٍ عَنِ ٱلرُّشْدِ ، سَالِكَةٍ غَيْرَ ٱلْقَصْدِ ؟ هٰذَا مَالَا يَكُونُ ، وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ ٱللهِ أَلَّا أَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي صَلَاةِ ٱلْجُمُعَةِ شَفِيعاً مِثْلَ مُنْذِرٍ فِي وَرَعِهِ وَصِدْقِهِ ، وَلٰكِنَّهُ أَحْرَجَنِي فَأَقْسَمْتُ ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أَجِدُ سَبِيلًا إِلَى كَفَّارَةِ يَمِينِي بِمُلْكِي ، بَلْ يُصَلِّي بِالنَّاسِ حَيَاتَهُ وَحَيَاتَنَا إِنْ شَاءَ ٱللهُ

---

(١) هو أبو عمر أحمد بن مطرف بن عبد الرحمن بن قاسم بن علقمة بن جابر بن بدر الأزدى من أهل قرطبة و يعرف بابن المشاط ، كان فقيها محدثا وعالما جليلا فاضلا ذا منزلة رفيعة لدى أولى الأمر يشاورونه فيمن يصلح لتقلد شؤون الأعمال والقضاء و يرجعون اليه فى ذلك لسداد رأيه وصدوره فيه عن اخلاص ومراعاة للمصلحة العامة والدين مع زهده وورعه وعدله وولى الصلاة بجامع قرطبة بعد الامام محمد بن عبد الله بن أبى عيسى المتقدم ذكره الى أن توفى سنة ٣٥٣ رحمه الله ، وكان جده قد رحل مع عبد الرحمن بن معاوية الداخل فى الجند الشاميين . « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) فى الأصل : والاستبدال بغيره منه ، وهو استعمال يعدل عنه فصيح اللغة

تَعَالَى ـ فَمَا أَظُنُّنَا نَعتَاضُ مِنْهُ أَبدًا . وَقِيلَ إِنَّ ٱلْحَكَمَ اُعْتَذَرَ عَمَّا قَالَ مُنْذِرٌ وَقَالَ: يَاأَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ وَمَاأَرَادَإِلَّا خَيْرًا ، وَلَوْ رَأَى مَاأَنفَقْتَ(١) وَحُسْنَ تِلْكَ ٱلْبُنْيَةِ(٢) لَعَذَرَكَ ، فَأَمَرَ حِينَئِذٍ ٱلنَّاصِرُ بِالْقُصُورِ فَفُرِشَتْ ، وَفُرِشَ ذَلِكَ ٱلْمَجْلِسُ بِأَصْنَافِ فُرُشِ ٱلدِّيبَاجِ ، وَأَمَرَ بِالْأَطْعِمَةِ وَقَدْ أُحْضِرَ ٱلْعُلَمَاءُ وَغَصَّ بِهِمُ ٱلْمَجْلِسُ ، فَدَخَلَ مُنْذِرٌ فِي آخِرِهِمْ ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ ٱلنَّاصِرُ أَنْ يَقْعُدَ بِقُرْبِهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يَقْعُدُ ٱلرَّجُلُ حَيْثُ ٱنْتَهَى بِهِ ٱلْمَجْلِسُ وَلَا يَتَخَطَّى ٱلرِّقَابَ ، فَجَلَسَ فِي آخِرِ ٱلنَّاسِ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ رَثَّةٌ . ثُمَّ ذَكَرَ هَذَا ٱلْقَائِلُ بَعْدَ هَذَا كَلَامًا مِنْ كَلَامِ ٱلْمُنْذِرِ يَأْتِي قَرِيبًا . وَقَحَطَ(٣) ٱلنَّاسُ آخِرَ مُدَّةِ ٱلنَّاصِرِ فَأَمَرَ ٱلْقَاضِيَ مُنْذِرًا ٱلْمَذْكُورَ بِالْبُرُوزِ إِلَى ٱلِاسْتِسْقَاءِ بِالنَّاسِ ، فَتَأَهَّبَ لِذَلِكَ وَصَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَيَّامًا ثَلَاثَةً تَنَفُّلًا وَإِنَابَةً وَرَهْبَةً ، وَٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلنَّاسُ فِي مُصَلَّى ٱلرَّبَضِ

(١) قد تكون « ماأتقنت » (٢) البنية مابنيته وجمعه بنى و بنى ـ أما البنية « بالتشديد » فهى الكعبة سميت بذلك لشرفها فأنها أشرف مبنى
(٣) القحط الجدب واحتباس المطر .

بِقُرْطُبَةَ بَارِزِينَ إِلَى اللهِ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ ، وَصَعِدَ الْخَلِيفَةُ النَّاصِرُ فِي أَعْلَى مَصَانِعِهِ الْمُرْتَفِعَةِ مِنَ الْقَصْرِ لِيُشَارِفَ[١] النَّاسَ وَيُشَارِكَهُمْ فِي الْخُرُوجِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَالضَّرَاعَةِ لَهُ ، فَأَبْطَأَ الْقَاضِي حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ وَغَصَّتْ بِهِمْ سَاحَةُ الْمُصَلَّى، ثُمَّ خَرَجَ نَحْوَهُمْ مَاشِياً مُتَضَرِّعًا ، مُخْبِتاً[٢] مُتَخَشِّعاً ، وَقَامَ لِيَخْطُبُ ، فَلَمَّا رَأَى بِدَارَ[٣] النَّاسِ إِلَى ارْتِقَائِهِ وَاسْتِكَانَتَهُمْ مِنْ خِيفَةِ اللهِ وَإِخْبَاتَهُمْ لَهُ وَابْتِهَالَهُمْ إِلَيْهِ رَقَّتْ نَفْسُهُ ، وَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَاسْتَعْبَرَ[٤] وَبَكَى حِيناً ، ثُمَّ افْتَتَحَ خُطْبَتَهُ بِأَنْ قَالَ : يَأَيُّهَا النَّاسُ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ سَكَتَ وَوَقَفَ شِبْهَ الْحَصِرِ[٥] — وَلَمْ يَكُ مِنْ عَادَتِهِ — فَنَظَرَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ لَا يَدْرُونَ مَا عَرَاهُ وَلَا مَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ ، ثُمَّ انْدَفَعَ تَالِياً قَوْلَهُ تَعَالَى « كَتَبَ رَبُّكُمْ

(١) شارفه وأشرف عليه اذا اطلع عليه من فوق ، واسم ذلك المكان مشرف (٢) أخبت : خشع وتواضع ، وأخبتوا الى ربهم أى اطمأنوا اليه وتواضعوا بين يديه (٣) بادر مبادرة و بدارا اذا عجل الى فعل مايرغب فيه (٤) استعبر اذا جرت عبرته « أى انهملت دموعه بدون أن يسمع البكاء » (٥) الحصر : العى فى المنطق ، وأن يحاول المرء الكلام فيستعصى

عَلَى نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ » إِلَى قَوْلِهِ رَحِيمٌ ، ثُمَّ قَالَ « ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا » «ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » وَتَزَلَّفُوا(١) بِالْأَعْمَالِ ٱلصَّالِحَةِ لَدَيْهِ ، قَالَ ٱلْحَاكِي : فَضَجَّ ٱلنَّاسُ بِالْبُكَاءِ ، وَجَأَرُوا(٢) بِالدُّعَاءِ ، وَمَضَى عَلَى تَمَامِ خُطْبَتِهِ ، فَقَرَعَ(٣) ٱلنُّفُوسَ بِوَعْظِهِ ، وَٱنْبَعَثَ ٱلْإِخْلَاصُ بِتَذْكِيرِهِ ، فَلَمْ يَنْقَضِ ٱلنَّهَارُ حَتَّى أَرْسَلَ ٱللهُ ٱلسَّمَاءَ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، رَوَّى ٱلثَّرَى ، وَطَرَدَ ٱلْمَحْلَ ، وَسَكَّنَ ٱلْأَزْلَ(٤) ، وَٱللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ . وَكَانَ لِمُنْذِرٍ فِي خُطَبِ ٱلِاسْتِسْقَاءِ ٱسْتِفْتَاحٌ عَجِيبٌ ، وَمِنْهُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا ـ وَقَدْ سَرَّحَ طَرْفَهُ فِي مَلَإِ ٱلنَّاسِ عِنْدَمَا شَخَصُوا(٥) إِلَيْهِ بِأَبْصَارِهِمْ فَهَتَفَ بِهِمْ كَالْمُنَادِي : أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ـ وَكَرَّرَهَا عَلَيْهِمْ(٦) ـ مُشِيرًا بِيَدِهِ فِي نَوَاحِيهِمْ ـ « أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللهِ » إِلَى بِعَزِيزٍ ، فَاشْتَدَّ وَجْدُ

عليه ، ويدعو القول فينفر منه (١) تقربوا (٢) جأر الداعى « كمنع » اذا رفع صوته بالدعاء ، وجأر الى الله تضرع بالدعاء وضج واستغاث . (٣) أو « ففزع » أى خوف ، وفى المطمح « فأفزع » (٤) الأزل : الضيق والشدة والقحط ، والأزل الداهية أيضا لشدتها (٥) شخص بصره « كمنع » اذا فتح عينيه وجعل لايطرف (٦) فى بعض النسخ « ثلاثا »

ٱلنَّاسِ ، وَٱنْطَلَقَتْ أَعْيُنُهُمْ بِالْبُكَاءِ ، وَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ .

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْخَلِيفَةَ ٱلنَّاصِرَ خَرَجَ مَرَّةً لِلاسْتِسْقَاءِ وَٱشْتَدَّ عَزْمُهُ عَلَيْهِ (١) فَتَسَابَقَ ٱلنَّاسُ لِلْمُصَلَّى ، فَقَالَ لِلرَّسُولِ ـ وَكَانَ مِنْ خَوَاصِّ ٱلنَّاسِ ـ : (٢) لَيْتَ شِعْرِي (٣) مَا ٱلَّذِي يَصْنَعُهُ ٱلْخَلِيفَةُ سَيِّدُنَا ؟ فَقَالَ لَهُ : مَا رَأَيْنَاهُ قَطُّ أَخْشَعَ مِنْهُ فِي يَوْمِنَا هَذَا ، إِنَّهُ مُنْتَبِذٌ (٤) حَائِرٌ مُنْفَرِدٌ بِنَفْسِهِ ، لَابِسٌ أَخَسَّ (٥) ٱلثِّيَابِ ، مُفْتَرِشٌ ٱلتُّرَابَ ، وَقَدْ رَمَى (٦) بِهِ عَلَى رَأْسِهِ وَعَلَى لِحْيَتِهِ وَبَكَى وَٱعْتَرَفَ بِذُنُوبِهِ ـ وَهُوَ يَقُولُ : هٰذِهِ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ أَتُرَاكَ تُعَذِّبُ بِي ٱلرَّعِيَّةَ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ ؟! لَنْ يَفُوتَكَ شَيْءٌ مِنِّي . قَالَ ٱلْحَاكِي : فَتَهَلَّلَ وَجْهُ ٱلْقَاضِي مُنْذِرٍ عِنْدَ مَا سَمِعَ قَوْلَهُ ، وَقَالَ يَا غُلَامُ : ٱحْمِلِ ٱلْمِطَرَ (٧) مَعَكَ فَقَدْ

---

(١) فى بعض المراجع «وقيل ان الخليفة الناصر طلبه مرة للاستسقاء واشتد عزمه عليه الخ» أى ألح فى طلب ذلك منه ، وهو أظهر لقوله بعد : فقال للرسول الخ (٢) فى المطمح وكان من خواص حلفاء الصفاء اليه (٣) أى ليتنى أعلم وأعرف (٤) الانتباذ التنحى والاعتزال ، يقال انتبذ عن قومه اذا تنحى ، وانتبذ فلان الى ناحية أى تنحى منفردا قال تعالى فى قصة مريم : «فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا» (٥) يجوز أن تكون أخشن (٦) فى الأصل «رمد» وهو تحريف ، ولم أجد رمد من الرماد (٧) كذا بكل الأصول

أَذِنَ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِالسُّقْيَا ، إِذَا خَشَعَ جَبَّارُ ٱلْأَرْضِ فَقَدْ رَحِمَ جَبَّارُ ٱلسَّمَاءِ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ ، فَلَمْ يَنْصَرِفِ ٱلنَّاسُ إِلَّا عَنِ ٱلسُّقْيَا . وَكَانَ مُنْذِرٌ شَدِيدَ ٱلصَّلَابَةِ فِي أَحْكَامِهِ ، وَٱلْمَهَابَةِ فِي أَقْضِيَتِهِ ، وَقُوَّةِ ٱلْحُكُومَةِ[1] ، وَٱلْقِيَامِ بِالْحَقِّ فِي جَمِيعِ مَا يَجْرِي عَلَى يَدِهِ ، لَا يَهَابُ فِي ذٰلِكَ ٱلْأَمِيرَ ٱلْأَعْظَمَ فَمَنْ دُونَهُ .

« وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْحَسَنِ ٱلنَّبَاهِيُّ[2] » ـ وَأَصْلُهُ فِي ٱلْمَطْمَحِ وَغَيْرِهِ ـ وَمِنْ أَخْبَارِ مُنْذِرٍ ٱلْمَحْفُوظَةِ لَهُ مَعَ ٱلْخَلِيفَةِ ٱلنَّاصِرِ فِي إِنْكَارِهِ عَلَيْهِ ٱلْإِسْرَافَ فِي ٱلْبِنَاءِ أَنَّ ٱلنَّاصِرَ كَانَ قَدِ ٱتَّخَذَ لِسَطْحِ ٱلْقُبَيْبَةِ ٱلْمُصَغَّرَةِ ٱلِاسْمِ لِلْخُصُوصِيَّةِ ٱلَّتِي

ولعلها محرفة عن المطر وهو ثوب من صوف يلبس فى المطر ليتقى به — كأنه لثقته بنزول الغيث أخذ يستعد لما يتوقى به انهماره فى الطريق . « أحمد يوسف نجاتى » (١) الحكم والقضاء ، وفى المطمح « وقوة القلب فى القيام بالحق » (٢) أبو على الحسن بن محمد بن الحسن النباهى الجذامى من أهل مالقة ومن ذوى أحسابها وأهل المكانة والمنزلة بها ، ومن أعيانها النابهين وقضاتها العاملين ، وبيته بيت قضاء وعلم ونباهة وجلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابرا عن كابر ، واستقضى المنصور بن أبى عامر جده الحسن وولى هو قضاء غرناطة أيضا ، وكان نبيلا ذا دين وفضل وصلاح وتوفى سنة ٤٧٢ «أحمد يوسف نجاتى»

كَانَتْ مَاثِلَةً عَلَى ٱلصَّرْحِ ٱلْمُمَرَّدِ ٱلْمَشْهُورِ شَأْنُهُ بِقَصْرِ ٱلزَّهْرَاءِ قَرَامِيدَ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ أَنْفَقَ عَلَيْهَا مَالًا جَسِيمًا وَقَرْمَدَ سَقْفَهَا بِهِ ، وَجَعَلَ سُقُفَهَا صَفْرَاءَ فَاقِعَةً ، إِلَى بَيْضَاءَ نَاصِعَةٍ ، تَسْتَلِبُ ٱلْأَبْصَارَ بِأَشِعَّةِ نُورِهَا(١) ، وَجَلَسَ فِيهَا إِثْرَ تَمَامِهَا يَوْمًا لِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، فَقَالَ لِقَرَابَتِهِ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ ٱلْوُزَرَاءِ وَأَهْلِ ٱلْخِدْمَةِ مُفْتَخِرًا عَلَيْهِمْ بِمَا صَنَعَهُ مِنْ ذٰلِكَ مَعَ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ ٱلْبَدَائِعِ ٱلْفَتَّانَةِ : هَلْ رَأَيْتُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ مَلِكًا كَانَ قَبْلِي فَعَلَ مِثْلَ هٰذَا أَوْ قَدَرَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالُوا : لَا وَٱللّٰهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّكَ لَأَوْحَدُ فِي شَأْنِكَ كُلِّهِ ، وَمَا سَبَقَكَ إِلَى مُبْتَدَعَاتِكَ هٰذِهِ مَلِكٌ رَأَيْنَاهُ ، وَلَا ٱنْتَهَى إِلَيْنَا خَبَرُهُ ، فَأَبْهَجَهُ قَوْلُهُمْ وَسَرَّهُ ، وَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ(٢) إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْقَاضِي مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ وَاجِمًا(٣)

(١) فى المطمح : تسلب الأبصار بمطارح أنوارها المشعشعة .

(٢) فى المطمح زيادة « سارضاحك » (٣) فى الأصل « واهما » ، وفى القطعة الأوربية « وهو ناكس الرأس » وفى المطمح « واجما » أما ، وهم « كوجل » فمعناه غلط وسها ، و وهم فى الشيء « كوعد» ذهب وهمه اليه وهو يريد غيره ، وكلا المعنيين غير مناسب هنا ـ أما « وجم» كوعد

نَاكِسَ ٱلرَّأْسِ(١) ، فَلَمَّا أَخَذَ مَجْلِسَهُ قَالَ لَهُ كَالَّذِى قَالَ لِوُزَرَائِهِ مِنْ ذِكْرِ ٱلسَّقْفِ ٱلْمُذَهَّبِ وَٱقْتِدَارِهِ عَلَى إِبْدَاعِهِ ، فَأَقْبَلَتْ(٢) دُمُوعَ ٱلْقَاضِى تَنْحَدِرُ عَلَى لِحْيَتِهِ وَقَالَ لَهُ : وَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا ظَنَنْتَ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ ـ لَعَنَهُ ٱللهُ ـ يَبْلُغُ مِنْكَ هٰذَا ٱلْمَبْلَغَ ، وَلَا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ قِيَادِكَ هٰذَا ٱلتَّمْكِينَ ـ مَعَ مَا آتَاكَ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَفَضَّلَكَ بِهِ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ـ حَتَّى يُنْزِلَكَ مَنَازِلَ ٱلْكَافِرِينَ ، قَالَ فَانْفَعَلَ(٣) عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ لِقَوْلِهِ ، وَقَالَ لَهُ : ٱنْظُرْ مَا تَقُولُ ، وَكَيْفَ أَنْزَلَنِى مَنَازِلَهُمْ ؟ قَالَ: نَعَمْ ؛ أَلَيْسَ ٱللهُ تَعَالَى يَقُولُ «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» ٱلْآيَةَ(٤)

وجما ، ووجوما فهو واجم فمعناه أطرق لشدة الحزن ، والواجم أيضا من أسكنه الهم وعلته كآبة لحزن أو خوف حتى أمسك عن الكلام ، وهذا هو المعنى المناسب الذى أراه وأوثره . «أحمد يوسف نجاتى» . (١) فى المطمح «واجما ناكسا ذقنه» (٢) فى المطمح «فجرت» (٣) فى المطمح «فاقشعر» (٤) هى قوله تعالى فى سورة الزخرف : «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين»

فَوَجَمَ ٱلْخَلِيفَةُ وَأَطْرَقَ مَلِيًّا[1] وَدُمُوعُهُ تَتَسَاقَطُ خُشُوعًا لِلّٰهِ تَعَالَى ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مُنْذِرٍ وَقَالَ لَهُ : جَزَاكَ ٱللّٰهُ يَاقَاضِى عَنَّا وَعَنْ نَفْسِكَ خَيْرًا ، وَعَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْمُسْلِمِينَ أَجَلَّ جَزَائِهِ ، وَكَثَّرَ فِى ٱلنَّاسِ أَمْثَالَكَ . فَالَّذِى قُلْتَ هُوَ ٱلْحَقُّ ، وَقَامَ عَنْ مَجْلِسِهِ ذٰلِكَ وَهُوَ يَسْتَغْفِرُ ٱللّٰهَ تَعَالَى وَأَمَرَ بِنَقْضِ سَقْفِ الْقُبَّةِ ، وَأَعَادَ قَرَامِدَهَا تُرَابًا عَلَى صِفَةِ غَيْرِهَا . ٱنْتَهَى مَا حَكَاهُ ٱبْنُ ٱلْحَسَنِ ٱلنَّبَاهِىُّ ، وَلْنَذْكُرْ هَذِهِ ٱلْحِكَايَةَ وَغَيْرَهَا وَإِنْ خَالَفَ ٱلسِّيَاقُ مَا سَبَقَ - وَهَذَا مَنْقُولٌ مِنْ كَلَامِ ٱلْحِجَارِىِّ فِى « ٱلْمُسْهِبِ فِى أَخْبَارِ ٱلْمَغْرِبِ » فَإِنَّهُ أَتَمُّ فَائِدَةً ، إِذْ قَالَ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ : دَخَلَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ يَوْمًا عَلَى ٱلنَّاصِرِ بَانِى ٱلزَّهْرَاءِ وَهُوَ مُكِبٌّ عَلَى ٱلاشْتِغَالِ بِالْبُنْيَانِ فَوَعَظَهُ ، فَأَنْشَدَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ ٱلنَّاصِرُ :

هِمَمُ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا
مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ ٱلْبُنْيَانِ

(١) الملى : الوقت والساعة الطويلة ، ومنه قوله تعالى : « واهجرنى مليا » أى طويلا . « أحمد يوسف نجاتى » .

أَوَمَا تَرَى ٱلْهَرَمَيْنِ قَدْ بَقِيَا وَكَمْ
مُلْكٍ مَحَاهُ حَوَادِثُ ٱلْأَزْمَانِ ؟
إِنَّ ٱلْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ
أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ ٱلشَّانِ

قَالَ : فَمَا أَدْرِي أَهَذَا شِعْرُهُ أَمْ تَمَثَّلَ بِهِ ؟ فَإِنْ كَانَ شِعْرَهُ فَقَدْ بَلَغَ بِهِ غَايَةَ ٱلْإِحْسَانِ ، وَإِنْ كَانَ تَمَثَّلَ بِهِ فَقَدْ ٱسْتَحَقَّهُ بِالتَّمَثُّلِ بِهِ فِي هَذَا ٱلْمَكَانِ . وَكَانَ مُنْذِرٌ يُكْثِرُ تَعْنِيفَهُ عَلَى ٱلْبُنْيَانِ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ مَرَّةً وَهُوَ فِي قُبَّةٍ قَدْ جَعَلَ قَرْمَدَهَا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، وَٱحْتَفَلَ فِيهَا ٱحْتِفَالًا ظَنَّ أَنَّ أَحَدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ ، فَقَامَ خَطِيباً ـ وَٱلْمَجْلِسُ قَدْ غَصَّ بِأَرْبَابِ ٱلدَّوْلَةِ ـ فَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ » ٱلْآيَةَ وَأَتْبَعَهَا بِمَا يَلِيقُ بِذَلِكَ ، فَوَجَمَ ٱلْمَلِكُ وَأَظْهَرَ ٱلْكَآبَةَ ، وَلَمْ يَسَعْهُ إِلَّا ٱلِاحْتِمَالُ لِمُنْذِرِ بْنِ سَعِيدٍ ، لِعِظَمِ قَدْرِهِ فِي

عَمَلِهِ وَدِينِهِ . وَحَضَرَ مَعَهُ يَوْمًا فِي ٱلزَّهْرَاءِ فَقَامَ ٱلرَّئِيسُ أَبُو عُثْمَانَ بْنُ إِدْرِيسَ[١] ، فَأَنْشَدَ ٱلنَّاصِرَ قَصِيدَةً مِنْهَا :

سَيَشْهَدُ مَا أَبْقَيْتَ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
مُضِيعًا وَقَدْ مَكَّنْتَ لِلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا
فَبِالْجَامِعِ ٱلْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَٱلتُّقَى
وَبِالزَّهْرَةِ ٱلزَّهْرَاءِ لِلْمُلْكِ وَٱلْعُلْيَا

فَاهْتَزَّ ٱلنَّاصِرُ وَٱبْتَهَجَ ، وَأَطْرَقَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ سَاعَةً ، ثُمَّ قَامَ مُنْشِدًا :

يَا بَانِيَ ٱلزَّهْرَاءِ مُسْتَغْرِقًا   أَوْقَاتَهُ فِيهَا أَمَا تُمْهِلُ[١]

(١) هو الوزير أبو عثمان عبد الله بن يحيى بن ادريس كان وافر الأدب كثير الشعر ، ومن شعره فى الورد :

تخلت من الورد الأنيق حدائقه   وبان حميد الأنس والعهد رائقه
أقام كرجع الطرف لم يشف غلة   ولم يرو مشتاق الجوانح شائقه
فما كان الا الطيف زار مسلما   فسر ملاقيه وسيء مفارقه
على الورد من إلف التصابى تحية   وان صدمت إلف التصابى علائقه
ويهنا الخدود الناضرات انفرادها   بورد الحياء المستجد شقائقه

وكان جليل المنزلة ولا سيما فى أيام عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر الملقب بالناصر الأمير بعد أخيه الملك والمتوفى سنة ٣٩٩ . « أحمد يوسف نجاتى »

(١) من المهل والمهلة وهو التؤدة والرفق ، وأمهله اذا انظره ورفق به ولم يعجل عليه ومثل البيت الثانى :

لِلّٰهِ مَا أَحْسَنَهَا رَوْنَقًا لَوْ لَمْ تَكُنْ زَهْرَتُهَا تَذْبُلُ

فَقَالَ النَّاصِرُ : إِذَا هَبَّ عَلَيْنَا نَسِيمُ التَّذْكَارِ وَالْحَنِينِ، وَسَقَتْهَا مَدَامِعُ الْخُشُوعِ ـ يَا أَبَا الْحَكَمِ ـ لَا تَذْبُلُ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى ، فَقَالَ مُنْذِرٌ : اللَّهُمَّ أَشْهَدُ أَنِّي قَدْ بَثَثْتُ مَا عِنْدِي وَلَمْ آلُ نُصْحًا[١] . انْتَهَى .

وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَاضِي مُنْذِرٌ ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى ـ فِيمَا قَالَ فَإِنَّهَا ذَبُلَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي الْفِتْنَةِ ، وَقُلِبَ[٢] مَا كَانَ فِيهَا مِنْ مِنْحَةٍ مِحْنَةً ، وَذٰلِكَ عِنْدَ مَا وَلِيَ الْحِجَابَةَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ ابْنُ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ الْمُلَقَّبُ بِشَنْجُولَ[٣] وَتَصَرَّفَ

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للانسان

ليس فيما علمته فيك عيب كان فى الناس غير أنك فان

(١) ماألوت الشيء ألوا وألوا « كعلو » أى ماتركته وماقصرت فيه ، وماألوت جهدا أى لم أدعه ، ولا آلوك نصحا أى لم أفتر ولم أقصر (٢) فى الأصل « وقلما » وهو تحريف ، والمنحة العطية والهبة والنعمة ، والمحنة مايمتحن به الانسان من بلية « نستجير بكرم الله منها » ومحنه « كمنعه اذاضربه أو اختبره » . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) شنجول ، أو سنجول ، أو سانكول أو سانكو الصغير اسم عرف به فى التاريخ، وذلك لأن أمه كانت ابنة رجل مسيحى من أهل تلك البلاد يسمى «شانجة» أو «سانكو» فلكراهة القوم لعبد الرحمن « الملقب بالمأمون » أطلقوا عليه اسم صهره تهكما وضاعف من بغضهم له سوء أخلاقه وضعف تدبيره وقلة خبرته السياسية وعجزه عن ادارة الملك بكفاية ودراية . « أحمد يوسف نجاتى » .

فِي ٱلدَّوْلَةِ مِثْلَ مَا تَصَرَّفَ أَخُوهُ ٱلْمُظَفَّرُ وَأَبُوهُمَا ٱلْمَنْصُورُ ، فَأَسَاءَ ٱلتَّدْبِيرَ ، وَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ ٱلْفَتِيلِ وَٱلنَّقِيرِ(١) ، فَدَسَّ إِلَى ٱلْمُؤَيَّدِ هِشَامِ بْنِ ٱلْحَكَمِ مَنْ خَوَّفَهُ مِنْهُ حَتَّى وَلَّاهُ عَهْدَهُ ـ كَمَا بَيَّنَّا نَصَّ ٱلْعَهْدِ فِيمَا سَبَقَ ـ فَأَطْبَقَ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ عَلَى بُغْضِهِ وَإِضْمَارِ ٱلسُّوءِ لَهُ ، وَذَٰلِكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ ، فَعِنْدَ ذَٰلِكَ خَرَجَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ بْنِ ٱلنَّاصِرِ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ ، وَتَلَقَّبَ بِالْمَهْدِيِّ ، وَخَلَعَ ٱلْمُؤَيَّدَ وَحَبَسَهُ ، وَأَسْلَمَتِ(٢) ٱلْجُيُوشُ شَنْجُولَ ، فَأُخِذَ وَأُسِرَ وَقُتِلَ .

***

خلافة المهدى وزوال دولة بنى عامر

« قَالَ ٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ » : وَمِنْ أَعْجَبِ مَا رُئِيَ أَنَّهُ مِنْ نِصْفِ نَهَارِ يَوْمِ ٱلثُّلَاثَاءِ لِأَرْبَعٍ بَقِينَ مِنْ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ

(١) الفتيل : السحاة التى تكون فى شق النواة ، وبه فسر قوله تعالى « ولا يظلمون فتيلا » وقال ابن السكيت : النقير النكتة فى ظهر النواة كأن ذلك الموضع نقر منها ، ومنه قوله تعالى : « ولا يظلمون نقيرا » ، والفتيل ما كان فى شق النواة ، والقطمير القشرة الرقيقة على النواة ، وهذه الأشياء يضرب بها المثل للشيء التافه الحقير القليل . وفى بعض المراجع « بين القبيل والدبير » ويأتى شرحهما (٢) أى خذلته ولم تعن بنصرته

إِلَى نِصْفِ نَهَارِ يَوْمِ ٱلْأَرْبِعَاءِ فُتِحَتْ قُرْطُبَــةُ ، وَهُدِمَتِ ٱلزَّهْرَاءِ ، وَخُلِعَ خَلِيفَةٌ وَهُوَ ٱلْمُؤَيَّدُ ، وَوُلِّيَ خَلِيفَةٌ وَهُوَ ٱلْمَهْدِيُّ ، وَزَالَتْ دَوْلَةُ بَنِي عَامِرٍ ٱلْعَظِيمَةُ ، وَقُتِلَ وَزِيرُهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَسْقَلَاجَةَ(١) ، وَأُقِيمَتْ جُيُوشٌ مِنَ ٱلْعَــامَّةِ ، وَنُــكِبَ خَلْقٌ مِنَ ٱلْوُزَرَاءِ، وَوَلِيَ ٱلْوِزَارَةَ آخَرُونَ ، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى يَدِ عَشَرَةِ رِجَالٍ فَحَّامِينَ وَجَزَّارِينَ وَزَبَّالِينَ وَهُمْ جُنْدُ ٱلْمَهْدِيِّ هٰذَا . ٱنْتَهَى .

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ ٱلْــكَلَامِ عَلَى ٱلْمَهْدِيِّ هَذَا ، وَهُوَ ٱلَّذِي قِيلَ فِيهِ لَمَّا قَامَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ :

قَدْ قَامَ مَهْــدِيُّنَا وَلٰــكِنْ ... بِمِلَّةِ ٱلْفِسْقِ وَٱلْمُجُونِ
وَشَارَكَ ٱلنَّاسَ فِي حَرِيمٍ ... لَوْلَاهُ مَا زَالَ بِٱلْمَصُونِ

---

(١) فى الأصل « علاجة » وهو تحريف وسقط . وابن عسقلاجة كان ابن عم المنصور بن أبى عامر ووزيره ، ويكنى أباحفص ، وأباالحكم، وهو أديب شاعر ، أرسله المنصور الى المغرب لمحاربة الحسن بن كنون الأدريسى آخر ملوك الأدارسة بالمغرب ومن معه من قبائل البربر ، فاستولى على مدينة فاس سنة ٣٧٥ وعلى عدوة الأندلس ، وخطب بها لبنى أمية ، وعاد الى الأندلس فكان عونا لابن أبى عامر وابنيه من بعده حتى قتل فى هذه الفتنة . « أحمد يوسف نجاتى » .

مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَا أَجَمًّا   فَالْيَوْمَ قَدْ صَارَ ذَا قُرُونِ

وَمِنْ شِعْرِ ٱلْمَهْدِيِّ هٰـذَا وَقَدْ حَيَّاهُ فِي مَجْلِسِ شَرَابِهِ غُلَامٌ بِقَضِيبِ آسٍ :

أَهْدَيْتَ شِبْهَ قَوَامِكَ ٱلْمَيَّاسِ
غُصْنًا رَطِيبًا نَاعِمًا مِنْ آسِ[1]
وَكَأَنَّمَا يَحْكِيكَ فِي حَرَكَاتِهِ
وَكَأَنَّمَا تَحْكِيهِ فِي ٱلْأَنْفَاسِ

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا سَبَقَ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلثَّالِثِ خَبَرَ ٱلْمَهْدِيِّ هٰـذَا وَقَتْلَهُ ، وَلَقَدْ كَانَ قِيَامُهُ مَشْئُومًا عَلَى ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ فَاتِحُ أَبْوَابِ ٱلْفِتْنَةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَٱلْمَاحِي مَعَالِمَهَا ، حَتَّى تَفَرَّقَتْ ٱلدَّوْلَةُ ، وَٱنْتَثَرَ ٱلسِّلْكُ ، وَكَثُرَ[2] ٱلرُّؤَسَاءُ ، وَتَطَاوَلَ ٱلْعَدُوُّ إِلَيْهَا ، وَأَخَذَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى مُحِيَ ٱسْمُ ٱلْإِسْلَامِ مِنْهَا — أَعَادَهَا ٱللّٰهُ تَعَالَى — وَقَدْ أَلَمَّ ٱلْوَلِيُّ ٱبْنُ خَلْدُونَ فِي

---

(١) ماس يميس ميسا وميسانا اذا تبختر واختال وتهادى فهومائس وميوس ومياس — والآس هذا النبت المعروف، وخضرته دائما أبدا ، وقد ينمو حتى يكون شجرا عظاما (٢) فى الأصل « كسر » وهو تصحيف .

تَارِيخِهِ بِذِكْرِ ٱلزَّهْرَاءِ فِي جُمْلَةِ مَبَانِي ٱلنَّاصِرِ فَقَالَ مَا نَصُّهُ :

***

وصف ابن خلدون لمدينة الزهراء

وَلَمَّا ٱسْتَفْحَلَ مُلْكُ ٱلنَّاصِرِ صَرَفَ نَظَرَهُ إِلَى تَشْيِيدِ ٱلْقُصُورِ وَٱلْمَبَانِي، وَكَانَ جَدُّهُ ٱلْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ وَأَبُوهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْأَوْسَطُ وَجَدُّهُ ٱلْحَكَمُ قَدِ ٱحْتَفَلُوا فِي ذٰلِكَ ، وَبَنَوْا قُصُورَهُمْ عَلَى أَكْمَلِ ٱلْإِتْقَانِ وَٱلضَّخَامَةِ ، وَكَانَ فِيهَا ٱلْمَجْلِسُ ٱلزَّاهِرُ وَٱلْبَهْوُ ،(١) وَٱلْكَامِلُ، وَٱلْمُنِيفُ ، فَبَنَى هُوَ إِلَى جَانِبِ ٱلزَّاهِرِ قَصْرَهُ ٱلْعَظِيمَ وَسَمَّاهُ دَارَ ٱلرَّوْضَةِ ، وَجَلَبَ ٱلْمَاءَ إِلَى قُصُورِهِمْ مِنَ ٱلْجَبَلِ . وَٱسْتَدْعَى عُرَفَاءَ ٱلْمُهَنْدِسِينَ وَٱلْبَنَّائِينَ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ ، فَوَفَدُوا عَلَيْهِ حَتَّى مِنْ بَغْدَادَ وَٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي بِنَاءِ ٱلْمُتَنَزَّهَاتِ ؛ فَٱتَّخَذَ مُنْيَةَ ٱلنَّاعُورَةِ خَارِجَ ٱلْقُصُورِ، وَسَاقَ لَهَا ٱلْمَاءَ مِنْ أَعْلَى ٱلْجَبَلِ عَلَى أَبْعَدِ مَسَافَةٍ ، ثُمَّ ٱخْتَطَّ مَدِينَةَ ٱلزَّهْرَاءِ، وَٱتَّخَذَهَا دَارًا لِنُزُلِهِ وَكُرْسِيًّا لِمُلْكِهِ ، وَأَنْشَأَ فِيهَا مِنَ ٱلْمَبَانِي وَٱلْقُصُورِ وَٱلْبَسَاتِينِ مَا عَفَّى عَلَى مَبَانِيهِمُ ٱلْأُولَى ، وَٱتَّخَذَ فِيهَا مَحَلَّاتٍ

(١) فى الأصل « والبهور » ولعله اسم أخذ من بهره اذا علاه وغلبه ، وبهرت فلانة النساء اذا فاقتهن حسنا ، وبهر الشئ بهورا اذا أضاء .

لِلْوَحْشِ فَسِيحَةَ ٱلْفِنَاءِ ، مُتَبَاعِدَةَ ٱلسِّيَاجِ[1] وَمَسَارِحَ لِلطُّيُورِ مُظَلَّلَةً بِالشِّبَاكِ ، وَٱتَّخَذَ فِيهَا دُورًا لِصِنَاعَةِ ٱلْآلَاتِ مِنْ آلَاتِ ٱلسِّلَاحِ لِلْحَرْبِ وَٱلْحُلِيِّ لِلزِّينَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ ٱلْمِهَنِ ، وَأَمَرَ بِعَمَلِ ٱلظُّلَّةِ عَلَى صَحْنِ ٱلْجَامِعِ بِقُرْطُبَةَ وِقَايَةً لِلنَّاسِ مِنْ حَرِّ ٱلشَّمْسِ . ٱنْتَهَى .

***

وَأَمَّا ٱلزَّاهِرَةُ فَهِيَ مِنْ مَبَانِي ٱلْمَنْصُورِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ مدينة الزهراء « قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ » فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ عَلَى ٱلْمَنْصُورِ مَا صُورَتُهُ : وَٱبْتَنَى لِنَفْسِهِ مَدِينَةً لِنُزُلِهِ سَمَّاهَا ٱلزَّاهِرَةَ وَنَقَلَ إِلَيْهَا جُزْءًا مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَسْلِحَةِ . ٱنْتَهَى .

« وَقَالَ غَيْرُهُ » ـ وَأَظُنُّهُ صَاحِبَ ٱلْمَطْمَحِ ـ : وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلَثِمِائَةٍ أَمَرَ ٱلْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ بِبِنَاءِ ٱلزَّاهِرَةِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ مَا تَكَامَلَ وَٱسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ ، وَٱتَّقَدَ جَمْرُهُ[2] ، وَظَهَرَ ٱسْتِبْدَادُهُ ، وَكَثُرَ حُسَّادُهُ ، وَأَضْدَادُهُ وَأَنْدَادُهُ ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ فِي ٱلدُّخُولِ إِلَى قَصْرِ ٱلسُّلْطَانِ ،

(١) السياج : الحائط والسور يحيط بالمبانى أو نحوها ، وجمعه أسوجة وسوج (٢) مجاز عن رفعة شأنه وعلو أمره وظهوره مثل : شبت ناره . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَخَشِيَ أَنْ يَقَعَ فِي أَشْطَانٍ[1] ، فَتَوَثَّقَ لِنَفْسِهِ[2] ، وَكُشِفَ لَهُ مَا سُتِرَ عَنْهُ فِي أَمْسِهِ ، مِنَ الاعْتِزَازِ عَلَيْهِ ، وَرَفْعِ الاسْتِنَادِ[3] إِلَيْهِ ، وَسَمَا إِلَى مَا سَمَتْ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ مِنِ اخْتِرَاعِ قَصْرٍ يَنْزِلُ فِيهِ ، وَيَحُلُّهُ بِأَهْلِهِ وَذَوِيهِ ، وَيَضُمُّ إِلَيْهِ رِيَاسَتَهُ ، وَيُتِمُّ بِهِ تَدْبِيرَهُ وَسِيَاسَتَهُ ، وَيَجْمَعُ فِيهِ فِتْيَانَهُ ، وَغِلْمَانَهُ ، فَارْتَادَ[4] مَوْضِعَ مَدِينَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ بِالزَّاهِرَةِ ، الْمَوْصُوفَةِ بِالْقُصُورِ الْبَاهِرَةِ ، وَأَقَامَهَا بِطَرَفِ الْبَلَدِ عَلَى نَهْرِ قُرْطُبَةَ الْأَعْظَمِ ، وَنَسَّقَ[5] فِيهَا كُلَّ اقْتِدَارٍ مُعْجِزٍ وَنَظَّمَ ، وَشَرَعَ فِي بِنَائِهَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْمُؤَرَّخَةِ ، وَحَشَدَ الصُّنَّاعَ وَالْفَعَلَةَ ، وَجَلَبَ إِلَيْهَا الْآلَاتِ الْجَلِيلَةَ ، وَسَرْبَلَهَا بَهَاءً يَرُدُّ الْأَعْيُنَ كَلِيلَةً[6] وَتَوَسَّعَ فِي اخْتِطَاطِهَا ، وَتَوَلَّعَ بِانْتِشَارِهَا فِي الْبَسِيطَةِ وَانْبِسَاطِهَا ، وَبَالَغَ فِي رَفْعِ أَسْوَارِهَا ، وَثَابَرَ عَلَى تَسْوِيَةِ أَنْجَادِهَا وَأَغْوَارِهَا[7] ، فَاتَّسَعَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ فِي

(١) جمع شطن وهو الحبل الطويل الشديد الفتل ، وشطنه اذا شده به يريد أنه خشى أن تنصب له حبائل المكايد (٢) أى أخذها بالثقة وحسن الحزم والحيطة (٣) أى ازالة الاعتماد عليه والثقة به (٤) أى طلب واختار (٥) أى نظم ورتب (٦) كل بصره كلولا اذا نبا وتعب ولم يحقق المنظور اليه فهو كليل (٧) النجد فى الأصل : المكان المرتفع ضد الغور

ٱلْمُدَّةِ ٱلْقَرِيبَةِ ، وَصَارَ بِنَاؤُهَا مِنَ ٱلْأَنْبَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ ، وَبَنَى مُعْظَمَهَا فِي عَامَيْنِ .

***

نزول المنصور بالزاهرة واستبداده بالحكم

وَفِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ ٱنْتَقَلَ ٱلْمَنْصُورُ إِلَيْهَا وَنَزَلَهَا بِخَاصَّتِهِ وَعَامَّتِهِ ، فَتَبَوَّأَهَا(١) وَشَحَنَهَا بِجَمِيعِ أَسْلِحَتِهِ وَأَمْوَالِهِ وَأَمْتِعَتِهِ ، وَٱتَّخَذَ فِيهَا ٱلدَّوَاوِينَ وَٱلْأَعْمَالَ ، وَعَمِلَ فِي دَاخِلِهَا ٱلْأَهْرَاءَ(٢) وَأَطْلَقَ بِسَاحَتِهَا ٱلْأَرْحَاءَ ، ثُمَّ أَقْطَعَ مَا حَوْلَهَا لِوُزَرَائِهِ وَكُتَّابِهِ ، وَقُوَّادِهِ وَحُجَّابِهِ ، فَٱبْتَنَوْا بِهَا كِبَارَ ٱلدُّورِ ، وَجَلِيلَاتِ ٱلْقُصُورِ ، وَٱتَّخَذُوا خِلَالَهَا ٱلْمُسْتَغَلَّاتِ ٱلْمُفِيدَةَ ، وَٱلْمَنَازِهَ ٱلْمَشِيدَةَ ، وَقَامَتْ بِهَا ٱلْأَسْوَاقُ ، وَكَثُرَتْ فِيهَا ٱلْأَرْفَاقُ(٣) ، وَتَنَافَسَ ٱلنَّاسُ بِٱلنُّزُولِ بِأَكْنَافِهَا ، وَٱلْحُلُولِ بِأَطْرَافِهَا ، لِلدُّنُوِّ مِنْ صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَتَنَاهَى ٱلْغُلُوُّ(٤) فِي ٱلْبِنَاءِ حَوْلَهُ ، حَتَّى ٱتَّصَلَتْ أَرْبَاضُهَا بِأَرْبَاضِ قُرْطُبَةَ ، وَكَثُرَتْ بِحَوْزَتِهَا

(١) سكنها وأقام فيها (٢) الأهراء جمع هرى « بضم الهاء وكسر الراء وتشديد الياء » وهو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان وتخزن فيه الحبوب
(٣) أى المرافق وهى المنافع وما يستعان به من لوازم الحياة ومطالب العيش
(٤) أو « العلو بالعين المعجمة » « أحمد يوسف نجاتى »

اُلْعِمَارَةُ ، وَاُسْتَقَرَّتْ فِى بُحْبُوحَتِهَا[١] الْإِمَارَةُ، وَأَفْرَدَ[٢] اُلْخَلِيفَةَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِلَّا مِنْ اُلِاسْمِ اُلْخَلَافِىِّ ، وَصَيَّرَ ذٰلِكَ هُوَ اُلرَّسْمَ[٣] اُلْعَافِى ، وَرَتَّبَ فِيهَا جُلُوسَ وُزَرَائِهِ ، وَرُؤُوسَ أُمَرَائِهِ ، وَنَدَبَ إِلَيْهَا كُلَّ ذِى خُطَّةٍ بِخُطَّتِهِ ، وَنَصَبَ بِبَابِهَا كُرْسِىَّ شُرْطَتِهِ ، وَأَجْلَسَ عَلَيْهِ وَالِيًا عَلَى رَسْمِ كُرْسِىِّ اُلْخَلِيفَةِ ، وَفِى صِفَةِ تِلْكَ اُلْمَرْتَبَةِ اُلْمُنِيفَةِ[٤] ، وَكَتَبَ إِلَى اُلْأَقْطَارِ بِالْأَنْدَلُسِ وَاُلْعُدْوَةِ بِأَنْ تُحْمَلَ إِلَى مَدِينَتِهِ تِلْكَ أَمْوَالُ اُلْجِبَايَاتِ ، وَيَقْصِدَهَا أَصْحَابُ اُلْوِلَايَاتِ ، وَيَنْتَابَهَا[٥] طُلَّابُ اُلْحَوَائِجِ ، وَحَذَّرَ أَنْ يَعُوجَ عَنْهَا إِلَى دَارِ اُلْخَلِيفَةِ عَائِجٌ[٦] ، فَاقْتُضِيَتْ لَدَيْهَا اُللُّبَانَاتُ[٧] وَاُلْأَوْطَارُ ، وَاُنْحَشَدَ اُلنَّاسُ إِلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ اُلْأَقْطَارِ ، وَتَمَّ لِمُحَمَّدِ اُبْنِ أَبِى عَامِرٍ مَا أَرَادَ ، وَاُنْتَظَمَ بِلَبَّةِ[٨] أَمَانِيهِ اُلْمُرَادُ ،

---

(١) أى سعتها و وسطها ، وتبحبح الرجل اذا تمكن فى المقام والحلول ، وتوسط المنزل (٢) الضمير فى أفرد راجع الى المنصور محمد بن أبى عامر (٣) رسم الدار أثرها أو بقية الأثر منها ــ وعفا الرسم اذا محى و زالت معالمه (٤) الرفيعة العالية ذات القدر والشرف (٥) يقصدها و يتردد عليها (٦) عاج بالمكان اذا مر به وقصده ، وفى بعض النسخ « باب » بدل « دار » (٧) اللبانة : الحاجة والغرض كالوطر (٨) اللبة : موضع القلادة من الصدر

وَعَطَّلَ قَصْرَ الْخَلِيفَةِ مِنْ جَمِيعِهِ ، وَصَيَّرَهُ بِمَعْزِلٍ مِنْ سَامِعِهِ وَمُطِيعِهِ ، وَسَدَّ بَابَ قَصْرِهِ عَلَيْهِ ، وَجَدَّ فِي خَبَرٍ أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَ فِيهِ ثِقَةً مِنْ صَنَائِعِهِ يَضْبِطُ الْقَصْرَ ، وَيَبْسُطُ فِيهِ النَّهْيَ وَالْأَمْرَ ، وَيُشْرِفُ مِنْهُ عَلَى كُلِّ دَاخِلٍ ، وَيَمْنَعُ مَا يَحْذَرُهُ مِنَ الدَّوَاخِلِ[1] ، وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْحُرَّاسَ وَالْبَوَّابِينَ ، وَالسُّمَّارَ[2] وَالْمُنْتَابِينَ ، يُلَازِمُونَ حِرَاسَةَ مَنْ فِيهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَيُرَاقِبُونَ حَرَكَاتِهِمْ سِرًّا وَجِهَارًا ، وَقَدْ حَجَرَ عَلَى الْخَلِيفَةِ كُلَّ تَدْبِيرٍ ، وَمَنَعَهُ مِنْ تَمَلُّكِ قَبِيلٍ أَوْ دَبِيرٍ[3] ، وَأَقَامَ الْخَلِيفَةُ هِشَامٌ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ[4] ، مَحْجُورَ الْغَنَاءِ[5] ، خَفِيَّ الذِّكْرِ ، عَلِيلَ الْفِكْرِ ، مَسْدُودَ الْبَابِ ،

---

(١) الدواخل جمع داخلة بمعنى دخيلة : وهى الدسيسة والخديعة أو الفساد والشر

(٢) سمر يسمر سمرا وسمورا : لم ينم فهو سامر ، وهم السمار والسامرة . والسمر أيضا : حديث الليل خاصة (٣) القبيل القطن والدبير الكتان ، أو القبيل ما أقبلت به المرأة من غزلها حين تفتله ، والدبير ما أدبرت به ، والغرض أنه لا يملك كثيرا ولا قليلا (٤) من قول أبى عطاء السندى :

فان تمس مهجور الفناء فربما ... أقام به بعد الوفود وفود

(٥) فى الأصل « معجوز » ورأينا أنه تصحيف وتحريف ، فجعلنا مكانها كلمة « محجور » أى ممنوع ، فاستقام المعنى وتم له السجع المرصع والجناس وازدوج الكلام . والغناء : النفع والكفاية . « أحمد يوسف نجاتى »

مَحْجُوبَ ٱلشَّخْصِ عَنِ ٱلْأَحْبَابِ ، لَا يَرَاهُ خَاصٌّ وَلَا عَامٌّ ، وَلَا يُخَافُ مِنْهُ بَأْسٌ وَلَا يُرْجَى إِنْعَامٌ ، وَلَا يُعْهَدُ مِنْهُ إِلَّا ٱلِاسْمُ ٱلسُّلْطَانِيُّ فِي ٱلسِّكَّةِ وَٱلدَّعْوَةِ ، وَقَدْ نَسَخَهُ وَلَبِسَ أُبَّهَتَهُ ، وَطَمَسَ بَهْجَتَهُ ، وَأَغْنَى ٱلنَّاسَ عَنْهُ ، وَأَزَالَ أَطْمَاعَهُمْ مِنْهُ ، وَصَيَّرَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ ، وَأَمَرَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَهُ .

وَٱشْتَدَّ مُلْكُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ مُنْذُ نَزَلَ قَصْرَ ٱلزَّاهِرَةِ وَتَوَسَّعَ مَعَ ٱلْأَيَّامِ فِي تَشْيِيدِ أَبْنِيَتِهَا ، حَتَّى كَمَلَتْ أَحْسَنَ كَمَالٍ ، وَجَاءَتْ فِي نِهَايَةِ ٱلْجَمَالِ : نَقَاوَةَ(١) بِنَاءٍ ، وَسَعَةَ فِنَاءٍ ، وَٱعْتِدَالَ هَوَاءٍ رَقَّ أَدِيمُهُ(٢) ، وَصَقَالَةَ(٣) جَوٍّ ٱعْتَلَّ(٤) نَسِيمُهُ ، وَنَضْرَةَ بُسْتَانٍ ، وَبَهْجَةً لِلنُّفُوسِ فِيهَا ٱفْتِتَانٌ ، وَفِيهَا يَقُولُ صَاعِدٌ ٱللُّغَوِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلْمَنْصُورُ مِنْ يَمَنٍ ... وَٱلْمُبْتَنِي نَسَبًا غَيْرَ ٱلَّذِي ٱنْتَسَبَا
بِغَزْوَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلشِّرْكِ رَائِعَةٍ ... بَيْنَ ٱلْمَنَايَا تُنَاغِي(٥) ٱلسُّمْرَ وَٱلْقُضُبَا

(١) في الأصل « تفاوت » وهو تصحيف (٢) الأديم من السماء والأرض ماظهر منهما (٣) صقل الشيء: جلاه (٤) في الأصل « اعتدل » (٥) ناغاه حادثه وناجاه، وكلمه بمايهواه، وناغى المرأة: غازلها بالمحادثة والملاطفة ، وأراد

أَمَا تَرَى الْعَيْنَ تَجْرِى فَوْقَ مَرْمَرِهَا

زَهْوًا فَتُجْرِى عَلَى أَحْفَافِهَا الطَّرَبَا(١)

أَجْرَيْتَهَا فَطَمَا الزَّاهِى بِجَرْيَتِهَا

كَمَا طَمَوْتَ فَسُدْتَ الْعُجْمَ وَالْعَرَبَا(٢)

تَخَالُ فِيهِ جُنُودَ الْمَاءِ رَافِلَةً

مُسْتَلْئِمَاتٍ تُرِيكَ الدِّرْعَ وَالْيَلَبَا(٣)

تَحُفُّهَا مِنْ فُنُونِ الْأَيْكِ زَاهِرَةٌ

قَدْ أَوْرَقَتْ فِضَّةً أَوْ أَوْرَقَتْ ذَهَبَا(٤)

بالسمر الرماح ، والقضب السيوف ــ وفى بعض المراجع « رائعة » آخر صدر البيت بدل رائعة « وهو مجاز حسن » . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) كان عجز البيت فى الأصل محرفا هكذا « هوى فيجرى على أخفافها .. » والزهو الاعجاب والحسن والاشراق ، والزهو الكبر والتيه والعظمة والفخر ، والأحفاف جمع « غير قياسى » مفرده حفاف أى جانب أو أثر (٢) طمى الماء اذا علا وارتفع ، وطمى النبت: طال وعلا (٣) رفل فى ثيابه « كنصر » اذا جر ذيله وتبختر ــ واستلأم اذا لبس اللأمة «وهى عدة السلاح كاملة ، أو الدرع الحصينة ــ واليلب الترس أو الدرق (٤) الفنون: الغصون، والأيك: الشجر الملتف الكثير واحده أيكة ،وفى بعض المراجع : قد أورقت فضة أذ أثمرت ذهبا . وهو ألطف من الأصل وأرق، أذ يرسم صورة أجمل وأبدع، ويخيل تعليلا أحسن وأروع . «أحمد يوسف نجاتى »

بَدِيعَةُ ٱلْمُلْكِ مَا يَنْفَكُّ نَاظِرُهَا
يَتْلُو عَلَى ٱلسَّمْعِ مِنْهَا آيَةً عَجَبَا
لا يُحْسِنُ ٱلدَّهْرُ أَنْ يُنْشِي لَهَا مَثَلاً
وَلَوْ تَعَنَّتَ[١] فِيهَا نَفْسَهُ طَلَبَا

***

وصف قصر العامرية

وَدَخَلَ عَلَيْهِ ٱبْنُ أَبِي ٱلْحُبَابِ فِي بَعْضِ قُصُورِهِ مِنَ ٱلْمُنْيَةِ ٱلمعْرُوفَةِ بِالْعَامِرِيَّةِ ، وَٱلرَّوْضُ قَدْ تَفَتَّحَتْ أَنْوَارُهُ، وَتَوَشَّحَتْ أَنْجَادُهُ[٢] وَأَغْوَارُهُ، وَتَصَرَّفَ فِيهَا ٱلدَّهْرُ مُتَوَاضِعاً، وَوَقَفَ بِهَا ٱلسَّعْدُ خَاضِعًا ، فَقَالَ :

لَا يَوْمَ كَالْيَوْمِ فِي أَيَّامِكَ ٱلْأُوَلِ
بِالْعَامِرِيَّةِ ذَاتِ ٱلْمَاءِ وَٱلظُّلَلِ[٣]
هَوَاؤُهَا فِي جَمِيعِ ٱلدَّهْرِ مُعْتَدِلٌ
طِيبًا وَإِنْ حَلَّ فَصْلٌ غَيْرُ مُعْتَدِلِ

---

(١) أى كلفها مشقة شديدة وطلب منها مافوق الجهد . (٢) أى عمها النبت وازدانت به حتى كان لها كالوشاح (٣) الظلة وهو بناء كالصفة يستتر به من الحر والبرد ، وما أظل المرء من شجر وماستره من فوقه، وفى بعض النسخ «والقلل» وماهنا أحسن « أحمد يوسف نجاتى »

مَا إنْ يُبَالِي ٱلَّذِي يَحْتَـلُّ سَاحَتَهَا

بالسَّعْدِ أَلَّا تَحُلَّ ٱلشَّمْسُ بِالْحَمَلِ(١)

وَمَا زَالَتْ هَذِهِ ٱلْمُنْيَةُ(٢) رَائِقَةً ، وَٱلسُّعُودُ بِلَبَّتِهَا مُتَنَاسِقَةً تُرَاوِحُهَا ٱلْفُتُوحُ وَتُغَادِيهَا ، وَتُجْلَبُ إِلَيْهَا مُنْكَسِرَةً أَعَادِيهَا لَا تَزْحَفُ عَنْهَا رَايَةٌ إِلَّا إِلَى فَتْحٍ ، وَلَا يَصْدُرُ عَنْهَا تَدْبِيرٌ إِلَّا إِلَى نُجْحٍ ، إِلَى أَنْ حَانَ يَوْمُهَا ٱلْعَصِيبُ(٣) ، وَقُيِّضَ(٤) لَهَا مِنَ ٱلْمَكْرُوهِ أَوْفَرُ نَصِيبٍ ، فَتَوَلَّتْ فَقِيدَةً . وَحُلَّتْ مِنْ بَهْجَتِهَا كُلُّ عَقِيدَةٍ(٥) . أنْتَهَى .

« وَقَدْ حَكَى ٱلْحُمَيْدِيُّ(٦) فِي جَذْوَةِ ٱلْمُقْتَبَسِ » هَذِهِ

---

(١) تحل الشمس فى الحمل أول فصل الربيع شباب الزمان وحين يرق الجو وتأخذ الأرض زخرفها وتزين، وتظهر بدائع الطبيعة وعجائب صنع الله فى خلقه

(٢) فى بعض النسخ « المدينة » (٣) أى الشديد، من عصب الشىء اذا شده، أو من العصب وهو جفاف الريق و يبسه فى الفم (٤) هيىء وسبب وقدر (٥) أى معقودة، والجملة مجاز عن زوال البهجة وانتقاض الأمور ، وفى بعض المراجع « وخلت » بدل « حلت » (٦) هو أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح ابن عبد الله الأزدى الحميدى من أهل جزيرة ميورقة وأصله من قرطبة من ربض الرصافة منها، رحل الى المشرق سنة ٤٤٨ وجال فى بلاده وأخذ عن علمائه واستوطن بغداد، وكان ذا دين و ورع وفضل ونباهة ومعرفة واتقان ، وله كتاب ممتع فى تاريخ علماء الأندلس وتوفى سنة ٤٨٨ .
« أحمد يوسف نجاتى » .

الْحِكَايَةَ الْوَاقِعَةَ لِابْنِ أَبِي الْحُبَابِ بِزِيَادَةٍ فَقَالَ ـ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الْمُنْيَةَ الْعَامِرِيَّةَ، وَهِيَ إِلَى جَانِبِ الزَّهْرَاءِ ـ إِنَّ أَبَا الْمُطَرِّفِ بْنَ أَبِي الْحُبَابِ الشَّاعِرَ دَخَلَ إِلَى الْمَنْصُورِ فِي هَذِهِ الْمُنْيَةِ، فَوَقَفَ عَلَى رَوْضَةٍ فِيهَا ثَلَاثُ سَوْسَنَاتٍ(١) : ثِنْتَانِ مِنْهَا قَدْ تَفَتَّحَتَا، وَوَاحِدَةٌ لَمْ تَتَفَتَّحْ، فَقَالَ :

لَا يَوْمَ كَالْيَوْمِ فِي أَيَّامِنَا الْأُوَلِ
بِالْعَامِرِيَّةِ ذَاتِ الْمَاءِ وَالظُّلَلِ
هَوَاؤُهَا فِي جَمِيعِ الدَّهْرِ مُعْتَدِلٌ
طِيبًا وَإِنْ حَلَّ فَصْلٌ غَيْرُ مُعْتَدِلِ
مَا إِنْ يُبَالِي الَّذِي يَحْتَلُّ سَاحَتَهَا
بِالسَّعْدِ أَلَّا تَحُلَّ الشَّمْسُ فِي الْحَمَلِ
كَأَنَّمَا غُرِسَتْ فِي سَاعَةٍ وَبَدَا السَّوْ
سَانُ مِنْ حِينِهِ فِيهَا عَلَى عَجَلِ

(١) سبق وصف السوسن وماقيل فى لفظه، ومما قيل فى وصفه :

وسوسن راق مرآه ومخبره وجل فى أعين الرائين منظره
كأنه أكؤس البلور قد وضعت مسدسات تعالى الله مظهره
وبينها ألسن قد طرقت ذهبا من بينها قائم بالملك تؤثره

أَبْدَتْ ثَلاثًا مِنَ السَّوْسَانِ مَائِلَةً
أَعْنَاقُهُنَّ مِنَ الإِعْيَاءِ وَالْكَسَلِ
فَبَعْضُ نُوَّارِهَا لِلْبَعْضِ[1] مُنْفَتِحٌ
وَالْبَعْضُ مُنْغَلِقٌ عَنْهُنَّ فِي شُغُلِ
كَأَنَّهَا رَاحَةٌ ضَمَّتْ أَنَامِلَهَا
مِنْ بَعْدِ مَا مُلِئَتْ مِنْ جُودِكَ الْخَضِلِ[2]
وَأُخْتُهَا بَسَطَتْ مِنْهَا أَنَامِلَهَا
تَرْجُو نَدَاكَ كَمَا عَوَّدْتَهَا فَصِلِ

انتهى

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ سَعِيدٍ أَنَّ ابْنَ الْعَرِيفِ النَّحْوِيَّ[3] دَخَلَ عَلَى الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَعِنْدَهُ صَاعِدٌ اللُّغَوِيُّ الْبَغْدَادِيُّ

---

(١) فى بعض النسخ «بالحسن» (٢) الخضل فى الأصل الندى الرطب. شبه جوده بنبت ريان خضل قد كثرت أو راقه — وتقول هم فى خضلة من العيش أى نعمة ورفاهية وخصب ونضارة عيش، ونزلنا فى خضلة من العشب اذا كان أخضر ناعما رطبا (٣) هو أبو القاسم الحسين بن الوليد، كان اماما فى العربية والآداب مقدما فى الشعراء ذا منزلة ومكانة لدى المنصور بن أبى عامر وممن يحضر مجالسه ويقربه، رحل الى المشرق وأقام بمصر أعواما ثم عاد الى الأندلس فأدب أولاد المنصور بن أبى عامر وتوفى بمدينة طليطلة سنة ٣٩٠ .

فَأَنْشَدَهُ وَهُوَ بِالْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِالْعَامِرِيَّةِ مِنْ أَبْيَاتٍ :

فَالْعَامِرِيَّةُ تُزْهَى عَلَى جَمِيعِ الْمَبَانِي
وَأَنْتَ فِيهَا كَسَيْفٍ[1] قَدْ حَلَّ فِي غُمْدَانِ

فَقَامَ صَاعِدٌ ـ وَكَانَ مُنَاقِضًا لَهُ ـ فَقَالَ : ـ أَسْعَدَ اللهُ تَعَالَى الْحَاجِبَ الْأَجَلَّ وَمَكَّنَ سُلْطَانَهُ ـ هَذَا الشِّعْرُ الَّذِي قَدْ أَعَدَّهُ وَرَوَّى فِيهِ أَقْدِرُ أَنْ أَقُولَ أَحْسَنَ مِنْهُ ارْتِجَالًا ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : قُلْ لِيَظْهَرَ صِدْقُ دَعْوَاكَ ، فَجَعَلَ يَقُولُ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ طَوِيلَةٍ :

يَأَيُّهَا الْحَاجِبُ الْمُعْ تَلِي عَلَى كِيوَانِ[2]
وَمَنْ بِهِ قَدْ تَنَاهَى فَخَارُ كُلِّ يَمَانِ
الْعَامِرِيَّةُ أَضْحَتْ كَجَنَّةِ الرِّضْوَانِ
فَرِيدَةً لِفَرِيدٍ مَا بَيْنَ أَهْلِ الزَّمَانِ

(١) يريد سيف بن ذى يزن ، من مشهورى ملوك اليمن . وغمدان القصر المعروف باليمن ، والبيت يشير الى قول أمية بن أبى الصلت من أبيات يمدح بها ذا يزن :

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا في رأس غمدان دارا منك محلالا

(٢) تقدم القول فيه . « أحمد يوسف نجاتى » .

ثُمَّ مَرَّ فِي ٱلشِّعْرِ إِلَى أَنْ قَالَ فِي وَصْفِهَا :

أُنْظُرْ إِلَى ٱلنَّهْرِ فِيهَا ... يَنْسَابُ كَالثُّعْبَانِ
وَٱلطَّيْرُ يَخْطُبُ شُكْرًا ... عَلَى ذُرَا ٱلْأَغْصَانِ
وَٱلْقَضْبُ[1] يَلْتَفُّ سُكْرًا ... بِمُيَّسِ[2] ٱلْقُضْبَانِ
وَٱلرَّوْضُ يَفْتَرُّ[3] زَهْوًا ... عَنْ مَبْسِمِ ٱلْأُقْحُوَانِ
وَٱلنَّرْجِسُ ٱلْغَضُّ يَرْنُو ... بِوَجْنَةِ ٱلنُّعْمَانِ[4]
وَرَاحَةُ ٱلرِّيحِ تَمْتَا ... رُ نَفْحَةَ ٱلرَّيْحَانِ[5]
فَدُمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ فِيهَا ... فِي غِبْطَةٍ وَأَمَانِ

فَاسْتَحْسَنَ ٱلْمَنْصُورُ ٱرْتِجَالَهُ ، وَقَالَ لِابْنِ ٱلْعَرِيفِ : مَالَكَ فَائِدَةٌ فِي مُنَاقَضَةِ مَنْ هَذَا ٱرْتِجَالُهُ ، فَكَيْفَ تَكُونُ

---

(١) القضب كل شجرة طالت وسبطت أغصانها ، والقضب أيضا شجر سهلى ينبت فى مجامع الشجر له ورق كورق الكمثرى الا أنه أرق وأنعم وترعى الابل ورقه وأطرافه ـ والقضبان جمع قضيب وهو الغصن (٢) جمع مائس أى متثن متبختر (٣) أى يضحك اعجابا (٤) شقائق النعمان سبق وصفها (٥) تمتار : مجاز من الميرة وهى جلب الطعام ، وهو يمتار لأولاده أى يجلب لهم أقواتهم ـ جعل ما يعلق بالريح من طيب رائحة الريحان امتيارا لها . وفى بعض المراجع « تمتاز » « أحمد يوسف نجاتى »

رَوِيَّتُهُ ؟ فَقَالَ ٱبْنُ ٱلْعَرِيفِ: إِنَّمَا أَنطَقَهُ وَقَرَّبَ عَلَيْهِ ٱلْمَأْخَذَ إِحْسَانُكَ ، فَقَالَ لَهُ صَاعِدٌ : فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا أَنَّ قِلَّةَ إِحْسَانِهِ لَكَ أَسْكَتَتْكَ وَبَعَّدَتْ عَلَيْكَ ٱلْمَأْخَذَ ، فَضَحِكَ ٱلْمَنْصُورُ وَقَالَ : غَيْرُ هَـذِهِ ٱلْمُنَازَعَةِ أَلْيَقُ بِأَدَبِكُمَا

« قُلْتُ » قَدْ ذَكَرَ مُؤَرِّخُو ٱلْأَنْدَلُسِ مُنًى كَثِيرَةً بِهَا . مِنْهَا مُنْيَةُ ٱلنَّاعُورَةِ ٱلسَّابِقَةُ ، وَمُنْيَةُ ٱلْعَامِرِيَّةِ هَذِهِ ، وَمُنْيَةُ ٱلسُّرُورِ ، وَمُنْيَةُ ٱلزُّبَيْرِ ـ مَنْسُوبَةٌ إِلَى ٱلزُّبَيْرِ بْنِ عُمَرَ ٱلْمُلَثَّمِ مَلِكِ قُرْطُبَةَ

« قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ » ٱبْنُ سَعِيدٍ أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ قَالَ خَرَجَ مَعِي إِلَى هَذِهِ ٱلْمُنْيَةِ فِي زَمَانِ فَتْحِ نُوَّارِ ٱللَّوْزِ أَبُو بَكْرِ بْنُ بَقِيٍّ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمَشْهُورُ ، فَجَلَسْنَا تَحْتَ سَطْرِ لَوْزٍ قَدْ نَوَّرَ ، فَقَالَ ٱبْنُ بَقِيٍّ :

سَطْرٌ مِنَ ٱللَّوْزِ فِي ٱلْبُسْتَانِ قَابَلَنِي
مَازَادَ شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ وَلَا نَقَصَا
كَأَنَّمَا كُلُّ غُصْنٍ كُمُّ جَارِيَةٍ
إِذَا ٱلنَّسِيمُ ثَنَى أَعْطَافَهُ رَقَصَا

ثُمَّ قَالَ :

عَجِبْتُ لِمَنْ أَبْقَى عَلَى خَمْرِ دَنِّهِ
غَدَاةَ رَأَى لَوْزَ الْحَدِيقَةِ نَوَّرَا

انْتَهَى .

« وَذَكَرَ » بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْأَنْدَلُسِ أَنَّ الْمَنْصُورَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ كَانَ يَزْرَعُ كُلَّ سَنَةٍ أَلْفَ مُدْيٍ[1] مِنَ الشَّعِيرِ قَصَلًا لِدَوَابِّهِ الْخَاصَّةِ بِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ غَزْوَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِ لَا يَحُلُّ عَنْ نَفْسِهِ حَتَّى يَدْعُوَ صَاحِبَ الْخَيْلِ فَيَعْلَمَ مَا مَاتَ مِنْهَا وَمَا عَاشَ . وَصَاحِبَ الْأَبْنِيَةِ لِمَا وَهَى مِنْ أَسْوَارِهِ وَمَبَانِيهِ وَقُصُورِهِ وَدُورِهِ ، قَالَ : وَكَانَ لَهُ دُخَالَةُ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ مِنَ اللَّحْمِ ـ حَاشَا الصَّيْدَ وَالطَّيْرَ وَالْحِيتَانَ ـ وَكَانَ يَصْنَعُ فِي كُلِّ عَامٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ تُرْسٍ عَامِرِيَّةٍ لِقَصْرِ الزَّاهِرَةِ وَالزَّهْرَاءِ ، قَالَ وَابْتَنَى عَلَى طَرِيقِ الْمُبَاهَاةِ وَالْفَخَامَةِ مَدِينَةَ الْعَامِرِيَّةِ ذَاتَ الْقُصُورِ وَالْمُتَنَزَّهَاتِ الْمُخْتَرَعَةِ ؛ كَمُنْيَةِ السُّرُورِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَنَاشِئِهِ

---

(١) المدى: مكيال ضخم اختلف فى تقديره ولعله نحو ثلث اردب ــ والقصل والقصالة ماعزل من البر اذا نقى فيرمى به .وفى الأصل « قصيلا »

ٱلْبَدِيعَةِ . ٱنْتَهَى . وَمِنَ ٱلْمَطْمَحِ : إِنَّ ٱلْمَنْصُورَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ ٱلزَّاهِرَةِ غَزَا غَزْوَةً وَأَبْعَدَ فِيهَا ٱلْإِيغَالَ (١) ، وَغَالَ فِيهَا مِنْ عُظَمَاءِ ٱلرُّومِ مَنْ غَالَ (٢) ، وَحَلَّ مِنْ أَرْضِهِمْ مَا لَمْ يُطْرَقْ ، وَرَاعَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُرَعْ قَطُّ وَلَمْ يَفْرَقْ (٣) ، وَصَدَرَ صَدَرًا سَمَا بِهِ (٤) عَلَى كُلِّ حَسْنَاءَ عَقِيلَةٍ ، وَجَلَا بِهِ كُلَّ صَفْحَةٍ لِلْحُسْنِ صَقِيلَةٍ ، وَدَخَلَ قُرْطُبَةَ دُخُولًا لَمْ يُعْهَدْ ، وَشُهِدَ لَهُ فِيهَا يَوْمٌ مِثْلُهُ لَمْ يُشْهَدْ ، وَكَانَ ٱبْنُ شُهَيْدٍ مُتَخَلِّفًا عَنْ هَذِهِ ٱلْغَزْوَةِ لِنِقْرِسٍ (٥) عَدَاهُ عَائِدُهُ ، وَحَدَاهُ مُنْتَجِعُهُ وَرَائِدُهُ — وَٱبْنُ شُهَيْدٍ هَذَا أَحَدُ حُجَّابِ ٱلنَّاصِرِ ، وَلَهُ عَلَى ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ أَيَادٍ مُحْكَمَةُ ٱلْأَوَاصِرِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي نَهَضَ بِهِ أَوَّلَ ٱنْبِعَاثِهِ ، وَشَفَى أَمْرَهُ زَمَنَ ٱلْتِيَاثِهِ ،

(١) أوغل فى البلاد ونحوها وتوغل اذا ذهب فيها وسار فأبعد وبالغ ، وأوغلوا فى سيرهم داخلين بين ظهرانى الجبال أو فى أرض العدو (٢) غاله : أهلكه وأخذه من حيث لم يدر (٣) راعه يروعه أفزعه وخوفه ، وفرق منه « كفرح » اذا جزع وخاف وفزع (٤) صدر أى عاد من غزوته وفى الأصل « وصدر صدر رأسمائه » وهو تحريف مفسد وتصحيف عجيب (٥) النقرس ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، وقد يكون فى غيرهما « وأظنه الروماتيزم ، والمرجع للأطباء » وعداه اذا عاقه ومنعه

وَخَاصَمَ ٱلْمُصْحَفِيَّ عَنْهُ بِلِسَانٍ مِنَ ٱلْحِمَايَةِ أَلَدَّ ، وَتَوَخَّاهُ بِإِحْسَانٍ قَلَّدَهُ مِنَ ٱلرِّعَايَةِ مَا قَلَّدَ ، وَأَسْمَى رُتْبَتَهُ ، وَحَلَّى بِأَعْظَمِ جَاهٍ جِيدَهُ وَلَبَّتَهُ[1] ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُتْحِفُهُ ، وَيَصِلُهُ وَيُلْطِفُهُ ـ فَلَمَّا صَدَرَ ٱلْمَنْصُورُ مِنْ غَزْوَتِهِ هَذِهِ وَقَفَلَ ، نَسِيَ مُتَاحَفَتَهُ أَوْ غَفَلَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱبْنُ شُهَيْدٍ :

أَنَا شَيْخٌ وَٱلشَّيْخُ يَهْوَى ٱلصَّبَايَا
وَبِنَفْسِي أَقِيكَ كُلَّ ٱلرَّزَايَا
وَرَسُولُ ٱلْإِلٰهِ أَسْهَمَ فِي ٱلْفَيْ
ءِ لِمَنْ لَمْ يُخِبَّ فِيهِ ٱلْمَطَايَا

وحداه أى ساقه ، والمنتجع : طالب النجعة ، والرائد طالب الكلأ ، جعل من مرض النقرس ـ الذى عاق ابن شهيد عن الغزو ـ منتجعا ورائدا « وليس الا الأجسام موضع انتجاعه وارتياده » يحدو الشاعر ليصل به الى غرض من النجعة ، وهو مجاز فيه بعض تكلف حمله عليه خيال الشعر المنثور وقصد السجع والازدواج والترصيع فيه ، فوازن عداه بحداه ، وزاوج بين عائده ورائده ، فكان من ذلك جناس مقصود أيضا ـ وأصل هذه العبارة فى الأصل هكذا « لتفرس عداة عائده ، وحداة منتجعة ورائدة » فزاد نقط بعض الحروف فأفسدها ، وجعل العبارة قلقة غير مفهومة . « أحمد يوسف نجاتى » (١) كانت هذه العبارة فى الأصل هكذا « وحلى باعظام جاهه لبته » ولا بأس به أيضا ، وكلا المعنيين ظاهر :

فَاجْعَلَنِيّ - فُدِيتَ - أَشْكُرُ مَعْرُو
فَكَ وَأَبْعَثْ بِهَا عِذَابَ أُلثَّنَايَا

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِعَقِيلَةٍ مِنْ عَقَائِلِ اُلرُّومِ يَكْنُفُهَا ثَلَاثُ جَوَارٍ ، كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ سَوَارٍ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ :

قَدْ بَعَثْنَا بِهَا كَشَمْسِ اُلنَّهَارِ
فِي ثَلَاثٍ مِنَ اُلْمَهَا أَبْكَارِ
فَاتَّئِدْ وَاُجْتَهِدْ فَإِنَّكَ شَيْخٌ
سَلَخَ اُللَّيْلَ عَنْ بَيَاضِ اُلنَّهَارِ
صَانَكَ اُللّٰهُ عَنْ كَلَالِكَ فِيهَا
فَمِنَ اُلْعَارِ كَلَّةُ اُلْمِسْمَارِ

فَكَتَبَ إِلَيْهِ اُبْنُ شُهَيْدٍ :

قَدْ فَضَضْنَا خِتَامَ ذَاكَ اُلسِّوَارِ
وَاُصْطَبَغْنَا مِنَ اُلنَّجِيعِ اُلْجَارِي
وَنَعِمْنَا فِي ظِلِّ أَنْعَمِ لَيْلٍ
وَلَهَوْنَا بِالْبَدْرِ ثُمَّ اُلدَّرَارِي

وَقَضَى ٱلشَّيْخُ مَا قَضَى بِحُسَامٍ
ذِي مَضَاءٍ عَضْبِ ٱلظُّبَا بَتَّارِ
فَاصْطَنِعْهُ فَلَيْسَ يَجْزِيكَ كُفْرًا
وَٱتَّخِذْهُ سَيْفًا عَلَى ٱلْكُفَّارِ

ٱنْتَهَى

وَقَدْ قَدَّمْنَا هَذِهِ ٱلْحِكَايَةَ فِي أَخْبَارِ ٱلْمَنْصُورِ مِنَ ٱلْبَابِ ٱلثَّالِثِ ، وَلَكِنَّا أَعَدْنَاهَا هُنَا بِلَفْظِ ٱلْمَطْمَحِ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْعُذُوبَةِ وَٱلْفَائِدَةِ ٱلزَّائِدَةِ . وَمِمَّنْ كَانَ فِي أَيَّامِ ٱلْمَنْصُورِ مِنَ ٱلْوُزَرَاءِ ٱلْمَشْهُورِينَ ٱلْوَزِيرُ ٱلْكَاتِبُ أَبُو مَرْوَانَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ إِدْرِيسَ(١) ٱلْخَوْلَانِيُّ ، قَالَ فِي ٱلْمَطْمَحِ : عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ ٱلزَّمَانِ ، وَعَيْنٌ مِنْ أَعْيَانِ ٱلْبَيَانِ ، بَاهِرُ ٱلْفَصَاحَةِ ، طَاهِرُ ٱلْجَنَابِ وَٱلسَّاحَةِ ، تَوَلَّى ٱلتَّحْبِيرَ أَيَّامَ ٱلْمَنْصُورِ وَٱلْإِنْشَاءَ ، وَأُشْعِرَ بِدَوْلَتِهِ ٱلْأَفْرَاحَ وَٱلِانْتِشَاءَ ، وَلَبِسَ ٱلْعِزَّةَ مُدَّةً صَافِيَةَ ٱلْبُرُودِ ، وَوَرَدَ بِهَا ٱلنِّعْمَةَ صَافِيَةَ ٱلْوُرُودِ ،

(١) هو المعروف بابن الجزيرى الأزدى ،وتقدمت ترجمته، وتوفى بالمطبق « سجن المنصور بن أبى عامر » فى سخطة المظفر عبد الملك بن أبى عامر فى ذى القعدة سنة ٣٩٤ « أحمد يوسف نجاتى »

وَٱمْتَطَى مِنْ جِيَادِ ٱلتَّوْجِيهِ(١)، أَعْنَقَ مِنْ لَاحِقٍ وَٱلْوَجِيهِ(٢)،

(١) التوجيه أى التشريف ، تقول وجه الأمير فلانا وأوجهه أى صيره وجيها ، قال امرؤ القيس :

ونادمت قيصر فى ملكه فوجهنى وركبت البريدا

هـذا ولايخفى مافى « لاحق ، والوجيه » من التورية والتوجيه .
« أحمد يوسف نجاتى » (٢) فى الأصل وفى كل المراجع « وأعنق » أو « وأعتق » ونرى فى الرواية الثانية تصحيفا وزيادة ، وفى الأولى زيادة فحسب الا أنها مفسدة ، لأنا نرى أن « أعنق » انما هو مفعول «امتطى» وأعنق أى أسرع من العنق وهو ضرب من السير فيه سرعة واستمرار ومنه قول أبى النجم :

ياناق سيرى عنقافسيحا الى سليمان فنستريحا

« وفعله كفرح » وأعنق - وعنقت السحابة اذا خرجت من معظم الغيم هذا ولاحق والوجيه اسما فرسين جوادين معروفين ، ولاحق الأكبر كان لغنى بن أعصر ، ولاحق أيضا اسم فرس لعيينة بن الحرث بن شهاب ولاحق الأصغر لبنى أسد ، وهو من بنانه ، قال النابغة :

فيهم بنات العسجدى ولاحق ورق مراكلها من الاضمار

وقال الكميت :

نجائب من آل الوجيه ولاحق تذكرنا أحقادنا حين تصهل

وقال طفيل الغنوى :

بنات الغراب والوجيه ولاحق وأعوج تنمى نسبة المتنسب

« العسجدى» فى بيت النابغة نسبة الى عسجد وهو اسم فحل من فحول الابل ، أو هى ابل كانت تزين للنعمان بن المنذر ، والأورق من الابل مافى لونه بياض الى سواد ، والورقة سواد فى غبرة، ومراكل الدابة ماتصيبه رجل الراكب منها ، واضمارها : اعدادها للسباق فى المضمار « وغراب » اسم

وَتَمَادَى طَلْقُهُ(١) ، وَلَا أَحَدَ يَلْحَقُهُ ، إِلَى أَيَّامِ الْمُظَفَّرِ فَمَشَى عَلَى سَنَنِهِ(٢) ، وَتَمَادَى السَّعْدُ يَتَرَنَّمُ عَلَى فَنَنِهِ ، إِلَى أَنْ قَتَلَ الْمُظَفَّرُ صِهْرَهُ عِيسَى بْنَ الْقَطَّاعِ ، صَاحِبَ دَوْلَتِهِ وَأَمِيرَهَا الْمُطَاعَ ، وَكَانَ أَبُو مَرْوَانَ قَدِيمَ الِاصْطِنَاعِ لَهُ وَالِانْقِطَاعِ ، فَاتُّهِمَ مَعَهُ ، وَكَادَ أَنْ يَذُوقَ حِمَامَهُ وَمَصْرَعَهُ(٣) ، إِلَّا أَنَّ إِحْسَانَهُ شَفَعَ ، وَبَيَانَهُ نَفَعَ(٤) وَدَفَعَ ، فَحُطَّ عَنْ تِلْكَ الرُّتَبِ ، وَحُمِلَ إِلَى طُرْطُوشَةَ عَلَى الْقَتَبِ(٥) ، فَبَقِيَ هُنَالِكَ مُعْتَقَلًا فِي بُرْجٍ مِنْ أَبْرَاجِهَا نَائِي الْمُنْتَهَى ، كَأَنَّمَا يُنَاجِي السُّهَا(٦) قَدْ بَعُدَ سَاكِنُهُ عَنِ

فرس كانت للبراء بن قيس ، واسم أخرى كانت لغنى ابن أعصر ، وكذا « أعوج » سمى أعوج لأنهم حملوه فى خرج وهو صغير وهربوا به لنفاسته عندهم وهم فى غارة شنت عليهم فاعوج فى ذلك الخرج ، ولهم فى سيرة أعوج وأخباره أمور قد تستبعد . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) الطلق: الشوط والغاية التى يجرى اليها الفرس ـ ولا يخفى مراعاة النظير فى الجمل الثلاث (٢) سنن الطريق نهجه وجهته ومحجته ، يقال أقام فلان على سنن واحد ، وامض على سننك أى على وجهتك التى أنت عليها (٣) فى بعض المراجع : وكاد أن يذوق الحمام ويجرعه (٤) فى نسخة « منع » بدل « نفع » وهى أليق مما بعدها (٥) القتب للجمل كالا كاف لغيره ، أو هو عام للابل وغيرها وهو الظاهر هنا (٦) السها كوكب بعيد خفى الضوء يكون مع الكوكب الأوسط من بنات نعش . « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْأَنِيسِ ، وَقَعَدَ مِنَ ٱلنَّجْمِ بِمَنْزِلَةِ ٱلْجَلِيسِ ، تَمُرُّ ٱلطُّيُورُ دُونَهُ وَلَا تَجُوزُهُ(١) ، وَيَرَى مِنْهُ ٱلثَّرَى وَلَا يَكَادُ يَحُوزُهُ ، فَبَقِيَ فِيهِ دَهْرًا لَا يَرْتَقِي إِلَيْهِ رَاقٍ ، وَلَا يُرْجَى لِبَثِّهِ مِنْ رَاقٍ(٢) ، إِلَى أَنْ أُخْرِجَ مِنْهُ إِلَى ثَرَاهُ(٣) ، وَٱسْتَرَاحَ مِمَّا عَرَاهُ . فَمِنْ بَدِيعِ نَظْمِهِ قَوْلُهُ يَصِفُ ٱلْمَعْقِلَ ، ٱلَّذِي فِيهِ ٱعْتُقِلَ :

يَأْوِي إِلَيْــهِ كُلُّ أَعْوَرَ نَاعِقٍ
وَتَهُبُّ فِيهِ كُلُّ رِيحٍ صَرْصَرِ(٤)

(١) كناية عن شدة علوه الشاهق ، وجاز المكان: تعداه وفاته (٢) البث الحال والحزن الشديد والغم الذى يفضى به المرء الى صاحبه — و «راق» هنا « فاعل » من الرقية أى العوذة التى يرقى بها صاحب الآفة ، وقوله تعالى : « وقيل من راق » أى لاراقى يرقيه فيحميه و يصرف السوء عنه ولا بأس أن يكون « راق »مشددا اسم فاعل من رق يرق رقة « بل لعله أنسب » . « أحمد يوسف نجاتى »(٣) كناية عن موته ودفنه(٤) من معانى الأعور الضعيف الجبان البليد الذى لايدل على خير ولا يهتدى اليه ولا خير فيه ، والدليل السيء الدلالة — والأعور الغراب « وهو يناسب كلمة ناعق » سمى بذلك على التشاؤم به لأن الأعور عندهم مشئوم أو لأنه اذا أراد أن يصيح أغمض عينيه أو احداهما — ونعق الغراب اذا صاح ، والأفصح أن يقال فى الغراب « نعق » بالغين المعجمة « من بابى ضرب ومنع » نعيقا ونعاقا اذا صاح ، أو يقال « نعق » فى الخير و« نعب»

وَيَكَادُ مَنْ يَرْقَى إِلَيْـــهِ مَرَّةً
مِنْ عُمْرِهِ يَشْكُو انْقِطَاعَ الْأَبْهَرِ (١)

وَدَخَلَ لَيْلَةً عَلَى الْمَنْصُورِ وَالْمَنْصُورُ قَدِ اتَّكَأَ وَارْتَفَقَ (٢) ، وَتَحَلَّى بِمَجْلِسِهِ ذَلِكَ الْأُفُقُ ، وَالدُّنْيَا بِمَجْلِسِهِ ذَلِكَ مَسُوقَةٌ (٣) وَأَحَادِيثُ الْأَمَانِيِّ بِهِ مَنْسُوقَةٌ ، فَأَمَرَهُ بِالنُّزُولِ عِنْدَهُ فَنَزَلَ فِي جُمْلَةِ الْأَصْحَابِ . وَالْقَمَرُ يَظْهَرُ وَيَحْتَجِبُ فِي السَّحَابِ ، وَالْأُفُقُ يَبْدُو بِهِ أَغَرَّ ثُمَّ يَعُودُ مُبْهَمًا (٤) ، وَاللَّيْلُ يَتَرَاءَى مِنْهُ أَشْقَرَ ثُمَّ يَعُودُ أَدْهَمَ (٥) ،

فى الشر ، ويقال أيضا نغق فى الشر — وريح صرصر أى شديدة الصوت أو قارسة البرد (١) الأبهر : عرق يستبطن الصلب والقلب ، فإذا انقطع لم تكن معه حياة ، أو هو الأكحل ، وهما أبهران يخرجان من القلب ثم يتشعب منهما سائر الشرايين (٢) أى اعتمد على مرفق يده متكئا أو على مخدة مثلا (٣) هذه الجملة فى الأصل هكذا : فكم أمانيا بمجلسه ذلك مسوقة . وهى ان خلت من التحريف لا تسلم من التكرار مع بعدها مع خلوها من المبالغة و وصف الملك بالأمر والنهى والتصرف فى أمور الدنيا ، وبصح أن تكون «مشوقة» (٤) من قولهم : ليل بهيم أى أسود ضد الأغر « الأبيض »ومن أمثالهم : هذا أمر لا أغر ولا بهيم : اذا كان مشكلا لم تتضح جهته واستقامته ومعرفته ، وطريق مبهم خفى لا يستبين (٥) الشقرة بياض تعلوه حمرة صافية — والدهمة : السواد . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَأَبُو مَرْوَانَ قَدِ ٱنْتَشَى ، وَجَالَ فِي مَيْدَانِ ٱلْأُنْسِ وَمَشَى ، وَبُرْدُ خَاطِرِهِ قَدْ دَبَّجَهُ[1] ٱلسُّرُورُ وَوَشَى ، فَأَقْلَقَهُ ذٰلِكَ ٱلْمَغِيبُ وَٱلِالْتِيَاحُ[2] ، وَأَنْطَقَهُ ذٰلِكَ ٱلسُّرُورُ وَٱلِارْتِيَاحُ . فَقَالَ :

أَرَى بَدْرَ ٱلسَّمَاءِ يَلُوحُ حِيناً
فَيَبْدُو ثُمَّ يَلْتَحِفُ ٱلسَّحَابَا

وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا تَبَدَّى
وَأَبْصَرَ وَجْهَكَ ٱسْتَحْيَا فَغَابَا

مَقَالٌ لَوْ نَمَى عَنِّي[3] إِلَيْهِ
لَرَاجَعَنِي بِذَا حَقًّا جَوَابَا

وَلَهُ فِي مُدَّةِ ٱعْتِقَالِهِ ، وَتَرَدُّدِهِ فِي قِيلِهِ وَقَالِهِ[4] :

---

(١) أى نقشه وزينه ، ووشى الثوب نقشه وحسنه (٢) من لاح النجم وألاح اذا بدا وأضاء وتلألأ قال المتلمس :

وقد ألاح سهيل بعد ماهجعوا كأنه ضرم بالكف مقبوس

(٣) فى الأصل « عندى » وهو تحريف غير مناسب ، وفى البيتين الأولين حسن تعليل بديع ، والبيت الثالث أحفظه هكذا :

مقال لو نمى عنى اليه لراجعنى بتصديق جوابا

ونمى الحديث الى فلان اذا ارتفع اليه وبلغه . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٤) فى بعض المراجع « وتردده فى قيده وعقاله »

شَحَطَ الْمَزَارُ فَلَا مَزَارَ وَنَافَرَتْ
عَيْنِي الْهُجُوعَ فَلَا خَيَالٌ يَعْتَرِى (١)
أَزْرَى بِصَبْرِى وَهُوَ مَشْدُودُ الْعُرَا
وَالْآنَ عُودِى وَهُوَ صُلْبُ الْمَكْسِرِ (٢)
وَطَوَى سُرُورِى كُلَّهُ وَتَلَذُّذِى
بِالْعَيْشِ طَىَّ صَحِيفَةٍ لَمْ تُنْشَرِ
هَا إِنَّمَا أَلْقَى الْحَبِيبَ تَوَهُّمًا
بِضَمِيرِ تَذْكَارِى وَعَيْنِ تَذَكُّرِى
عَجَبًا لِقَلْبِي يَوْمَ رَاعَتْنِى النَّوَى
وَدَنَا وَدَاعٌ كَيْفَ لَمْ يَتَفَطَّرِ؟

(١) شحط المزار «كمنع» اذا بعد ، تقول لاأنساك على بعد الدار وشحط المزار ، وقال النابغة :

وكل قرينة ومقر ألف مفارقه الى الشحط الفرين

(٢) أزرى به أى قصر به أو عابه. ورجل صلب المكسر أى قوى شديد، والمكسر موضع الكسر أو المخبر ، ويقال فلان طيب المكسر أو ردىء المكسر ، وأصله من كسرك العود لتخبره أصلب هو أم رخو؟ يقول : ان بعده عن أحبابه لاعتقاله وسجنه أوهى قوة صبره بعد أن كان جلدا وأخضع نفسه وقد كان ممتنعا أبيا ، وكسر من سورته بعد أن كان لاتلينه الشدائد، والسجن قبر الأحياء، وشماتة الأعداء «أحمد يوسف نجاتى»

« رَجْعٌ إِلَى ٱلْمَنْصُور » وَكَانَ ٱلْمَنْصُورُ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا مُهِمًّا شَاوَرَ أَرْبَابَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْأَكَابِرَ مِنْ خُدَّامِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ ، فَيُشِيرُونَ عَلَيْهِ بِالْوَجْهِ ٱلَّذِى عَرَفُوهُ وَجَرَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْأُمَوِيَّةُ عَلَيْهِ ، فَيُخَالِفُهُمْ إِلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلَّذِى ٱبْتَدَعَهُ فَيَقْضُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ بِالْهَلَاكِ فِى ٱلطَّرِيقِ ٱلَّذِى سَلَكَهُ وَٱلْمَهْيَعِ [1] ٱلَّذِى ٱخْتَرَعَهُ ، فَتُسْفِرُ ٱلْعَاقِبَةُ عَنِ ٱلسَّلَامَةِ ٱلتَّامَّةِ ٱلَّتِى ٱقْتَضَاهَا سَعْدُهُ ، فَيُكْثِرُونَ ٱلتَّعَجُّبَ مِنْ مَوَارِدِ أُمُورِهِ وَمَصَادِرِهَا . وَقِيلَ لَهُ مَرَّةً : إِنَّ فُلَانًا مَشْئُومٌ فَلَا تَسْتَخْدِمْهُ ، فَقَالَ : أَفٍّ لِسَعْدٍ لَا يُغَطِّى عَلَى شُؤْمِهِ ! فَاسْتَخْدَمَهُ وَلَمْ يَنَلْهُ مِنْ شُؤْمِهِ ٱلَّذِى جَرَتْ بِهِ ٱلْعَادَةُ شَيْءٌ . وَحُكِىَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ فِى قَصْرِهِ ٱلَّذِى بِالزَّاهِرَةِ ، فَتَأَمَّلَ مَحَاسِنَهُ وَنَظَرَ إِلَى مِيَاهِهِ ٱلْمُطَّرِدَةِ ، وَأَنْصَتَ لِأَطْيَارِهِ ٱلْمُغَرِّدَةِ ، وَمَلَأَ

---

(١) طريق مهيع : واسع بين منبسط « وهو مفعل من التهيع وهو الانبساط والاتساع » ومن كلام سيدنا علي : « اتقوا البدع والزموا المهيع » وقال الشاعر :

ان الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق مهيع

عَيْنَهُ مِنَ الَّذِي حَوَاهُ مِنْ حُسْنٍ وَجَمَالٍ ، وَالْتَفَتَ فِي الزَّاهِرَةِ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الشِّمَالِ ، فَانْحَدَرَتْ دُمُوعُهُ وَتَجَهَّمَ(١) وَقَالَ : وَيْلٌ لَكِ يَا زَاهِرَةُ ! فَلَيْتَ شِعْرِي مَنِ الْخَائِنُ الَّذِي يَكُونُ خَرَابُكِ عَلَى يَدَيْهِ عَنْ قَرِيبٍ ؟ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ خَاصَّتِهِ : مَا هٰذَا الْكَلَامُ الَّذِي مَا سَمِعْنَاهُ مِنْ مَوْلَانَا قَطُّ ؟ وَمَا هٰذَا الْفِكْرُ الرَّدِيءُ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِمِثْلِهِ شَغْلُ الْبَالِ ؟ فَقَالَ : وَاللهِ لَتَرَوُنَّ مَا قُلْتُ ، وَكَأَنِّي بِمَحَاسِنِ الزَّاهِرَةِ قَدْ مُحِيَتْ ، وَبِرُسُومِهَا قَدْ غُيِّرَتْ ، وَبِمَعَانِيهَا قَدْ هُدِّمَتْ وَنُحِّيَتْ . وَبِخَزَائِنِهَا قَدْ نُهِبَتْ ، وَبِسَاحَاتِهَا قَدْ أُضْرِمَتْ بِنَارِ الْفِتْنَةِ وَأُلْهِبَتْ .

***

وفاة المنصور وقيام سنجول بالأمر

« قَالَ الْحَاكِي » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ تُوُفِّيَ الْمَنْصُورُ وَتَوَلَّى الْمُظَفَّرُ ، فَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ ، فَقَامَ بِالْأَمْرِ أَخُوهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ الْمُلَقَّبُ بِشَنْجُولَ ، فَقَامَ عَلَيْهِ الْمَهْدِيُّ وَالْعَامَّةُ

(١) تجهم له اذا عبس واستقبله بوجه باسر كريه . « أحمد يوسف نجاتي »

وَكَانَتْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ الطَّامَّةُ(١) ، وَانْقَرَضَتْ دَوْلَةُ آلِ عَامِرٍ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ آمِرٌ :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا
أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ(٢)

---

(٢) الطامة: الداهية تطم أى تعلو وتغلب ماسواها (٢) الحجون جبل بمعلاة مكة على أقل من فرسخين من مكة، وكان عنده مدافن أهلها قال الأعشى:

فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا ولا لك حق الشرب فى ماء زمزم

والبيتان من أبيات قالها عمرو بن الحرث بن مضاض الجرهمى « جاهلى قديم » يتأسف على البيت و يتشوق مكة : لما أجلتهم عنها خزاعة، وقبلهما:

وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
وصاهرنا من أكرم الناس والدا فأبناؤه منا ونحن الأصاهر

ونابت هو ابن سيدنا اسمعيل، وهو أكرم الناس والدا الذى صاهر قبيلة جرهم كما هو معروف . و بعدهما :

فأخرجنا منها المليك بقدرة كذلك يا للناس تجرى المقادر
فصرنا أحاديثا وكنا بغبطة كذلك عضتنا السنون الغوابر
وبدل لنا كعب بها دار غربة بها الذئب يعوى والعدو المكاشر
فسحت دموع العين تجرى لبلدة بها حرم أمن وفيها المشاعر

وعثر جده اذا ساء حظه وانقلب سعده نحسا، وصروف الليالى : حوادثها المتغيرة وكانت جرهم قد غلبت على ولاية البيت الحرام بعد اسماعيل وابنه، ثم بغت بمكة واستحلوا أموال الكعبة وانتهكوا حرمتها فسلط الله عليهم الآفات وأجلت خزاعة من بقى منهم، فذلك معنى الأبيات بايجاز «أحمد يوسف نجاتى»

بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا
صُرُوفُ اللَّيَالِى وَالْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ

وَخُرِّبَتَ الزَّاهِرَةُ وَمَضَتْ كَأَمْسِ الدَّابِرِ، وَخَلَتْ مِنْهَا الدُّسُوتُ[١] الْمُلُوكِيَّةُ وَالْمَنَابِرُ[٢] ، وَاسْتَوْلَى النَّهْبُ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْعُدَّةِ وَالذَّخَائِرِ وَالسِّلَاحِ ، وَتَلَاشَى أَمْرُهَا فَلَمْ يُرْجَ لِفَسَادِهَا صَلَاحٌ ، وَصَارَتْ قَاعًا[٣] صَفْصَفًا ، وَبُدِّلَتْ

---

(١) الدسوت : جمع دست، وهو لفظ معرب عن « دشت » أو عن « دستى » ويطلق فى العربية على أربعة معان؛ وهى اللباس والرياسة والحيلة ودست القهار « واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان ومجلس الوزارة والرياسة » وقد جمع معانيها الحريرى فى المقامة الثالثة والعشرين فى قوله : ناشدتك الله ألست الذى أعاره الدست ، فقات لا والذى أجلسك فى هذا الدست ، ماأنا بصاحب ذلك الدست ، بل أنت الذى تم عليه الدست . فالدست الأول اللباس ، والثانى صدر المجلس ، والثالث اللعبة والحيلة ، وهم يقولون لمن غلب : تم عليه الدست ، وانقلب عليه الدست ، ومن الأخير دست الشطرنج ، ويقال فلان حسن الدست ، أى شطرنجى حاذق. ويسلى نفسى قول الشاعر :

يقولون ساد الأرذلون بأرضنا   وصار لهم مال وخيل سوابق
فقلت لهم شاخ الزمان وإنما   تفرزن فى أخرى الدسوت البيادق

ويطلق الدست على التمكن فى المناصب ، وأنسب المعانى هنا صدر المجلس وديوان الرياسة . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) فى الأصل « الدساكر » والمنابر أولى لفظا ومعنى (٣) القاع : أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية لاحزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط قد

أَيَّامَ ٱلتَّرَحِ بِأَيَّامِ ٱلْفَرَحِ وَٱلصَّفَا(١)

« وَيُرْوَى » أَنَّ بَعْضَ أَوْلِيَاءِ ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ مَرَّ بِهَا وَنَظَرَ إِلَى مَصَانِعِهَا(٢) ٱلسَّامِيَةِ ٱلْفَائِقَةِ ، وَمَبَانِيهَا ٱلْعَالِيَةِ ٱلرَّائِقَةِ ، فَقَالَ : يَادَارُ فِيكِ مِنْ كُلِّ دَارٍ ، فَجَعَلَ ٱللهُ مِنْكِ فِي كُلِّ دَارٍ .

« قَالَ ٱلْحَاكِي » فَلَمْ تَكُنْ بَعْدَ دَعْوَةِ ذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ إِلَّا أَيَّامٌ يَسِيرَةٌ حَتَّى نُهِبَتْ ذَخَائِرُهَا ، وَعَمَّ بِالْخَرَابِ سَائِرُهَا ، فَلَمْ تَبْقَ دَارٌ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَّا دَخَلَهَا مِنْ فَيْئِهَا حِصَّةٌ كَثِيرَةٌ أَوْ قَلِيلَةٌ ، وَحَقَّقَ ٱللهُ تَعَالَى دُعَاءَ ذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي هِمَّتُهُ مَعَ رَبِّهِ جَلِيلَةٌ .

« وَلَقَدْ حُكِيَ » أَنَّ بَعْضَ مَانُهِبَ مِنْهَا بِيعَ بِبَغْدَادَ

انفرجت عنها الجبال والآكام، ولاحصى فيها ولا حجارة، ولاتنبت الشجر، وماحواليها أرفع منها — أو هو مااستوى من الأرض وصلب ولم يكن فيه نبات. والصفصف: المستوى من الأرض لانبات فيه، ومنه قوله تعالى: « فيذرها قاعاصفصفا » (١) فى الأصل « و بدلت بأيام الترح عن أيام » الخ وهو خلاف الاستعمال العربى الذى اذا اتبع — واتباعه واجب — أدى الى ضد المقصود « أحمد يوسف نجاتى » (٢) المصانع: المبانى والقصور جمع مصنع أو مصنعة

وَغَيْرِهَا مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلْمَشْرِقِيَّةِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَزُولُ سُلْطَانُهُ وَلَا يَنْقَضِي مُلْكُهُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ .

« وَتَذَكَّرْتُ » هُنَا مَا رَآهُ فِي ٱلْمَنَامِ بَعْضُ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ بِاللَّيْلَةِ ٱلَّتِي ٱنْقَرَضَ فِيهَا مُلْكُ ٱلْمُوَحِّدِينَ أَنَّ شَخْصًا يُنْشِدُهُ :

مُلْكُ بَنِي مُؤْمِنٍ تَوَلَّى
وَكَانَ فَوْقَ ٱلسِّمَاكِ سَمْكُهُ(١)
فَاعْتَبِرُوا وَٱنْظُرُوا وَقُولُوا
سُبْحَانَ مَنْ لَا يَبِيدُ مُلْكُهُ

« لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ »

وَكَانَ ٱلْمَهْدِيُّ ٱلْقَائِمُ عَلَى ٱلْعَامِرِيِّينَ مَاجِنًا فَاتِكًا ، قَالَ وَقَدْ حَيَّاهُ فِي مَجْلِسِ شَرَابِهِ غُلَامٌ بِقَضِيبِ آسٍ :

أَهْدَيْتَ شِبْهَ قَوَامِكَ ٱلْمَيَّاسِ
غُصْنًا رَطِيبًا نَاعِمًا مِنْ آسِ

(١) يريد بنى عبد المؤمن بن على ــ وسمك البناء : ارتفاعه وعلوه ، والسمك أيضا : السقف ، أو هو من أعلى البيت الى أسفله . « أحمد يوسف نجاتى »

وَكَأَنَّمَا يَحْكِيكَ فِي حَرَكَاتِهِ
وَكَأَنَّمَا تَحْكِيهِ فِي ٱلْأَنْفَاسِ

وَكَانَ ٱلْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ حِينَ تَغَلَّبَ عَلَى مُلْكِ ٱلْأُمَوِيِّينَ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِمِثْلِ ٱلْمَهْدِيِّ ٱلْمَذْكُورِ، فَسَلَّطَهُ ٱللهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ مَا أَسَّسَهُ ٱلْمَنْصُورُ حَتَّى هَدَّمَهُ، وَأَخَّرَ كُلَّ مَا قَدَّمَهُ، وَلَمْ يَنْفَعْ فِي ذٰلِكَ ٱحْتِيَاطٌ وَلَا حَزْمٌ، وَلَا رَادَّ لِلْقَضَاءِ ٱلْمُبْرَمِ ٱلْجَزْمِ.

وَٱللهُ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ فَلَا تَكُنْ مُتَعَرِّضًا

وَقَدْ قَدَّمْنَا شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ ٱلْمَنْصُورِ، وَلَا بَأْسَ أَنْ نُلِمَّ(١) هُنَا بِبَعْضِهَا وَإِنْ حَصَلَ مِنْهُ نَوْعُ تَكْرَارٍ فِي نُبْذَةٍ مِنْهَا لِارْتِبَاطِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ

***

طرف من أخبار المنصور

« قَالَ بَعْضُ ٱلْمُحَقِّقِينَ مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ » حَجَرَ ٱلْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى هِشَامٍ ٱلْمُؤَيَّدِ بِحَيْثُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مُنْذُ وَلِيَ ٱلْحِجَابَةَ، وَرُبَّمَا أَرْكَبَهُ بَعْضَ(٢) سِنِينَ

(١) فى الأصل « تتكلم » والأولى ما أثبتناه (٢) فى بعض المراجع « بعد »

وَجعلَ عليْهِ بُرْنُسًا وَعَلَى جوَارِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ فَلَا يُعْرَفُ مِنْهُنَّ ، وَيَأْمُرُ مَنْ يُنَحِّي ٱلنَّاسَ مِنْ طَرِيقِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ ٱلْمُؤَيَّدُ إِلَى مَوْضِعِ تَنَزُّهِهِ ثُمَّ يَعُودَ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَرْكَبَهُ بِأُبَّهَةِ ٱلْخِلَافَةِ فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ لِغَرَضٍ لَهُ كَمَا أَلْمَعْنَا بِهِ فِيمَا سَبَقَ . وَكَانَ ٱلْمَنْصُورُ إِذَا سَافَرَ وَكَّلَ بِالْمُؤَيَّدِ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ ذَلِكَ ، فَكَانَ هَذَا مِنْ فِعْلِهِ سَبَبًا لِانْقِطَاعِ مُلْكِ بَنِي أُمَيَّةَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَأَخَذَ مَعَ ذَلِكَ فِي قَتْلِ مَنْ يَخْشَى مِنْهُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ خَوْفًا أَنْ يَثُورُوا بِهِ ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ شَفَقَةً عَلَى ٱلْمُؤَيَّدِ ، حَتَّى أَفْنَى مَنْ يَصْلُحُ مِنْهُمْ لِلْوِلَايَةِ ، ثُمَّ مَزَّقَ بَاقِيَهُمْ فِي ٱلْبِلَادِ ، وَأَدْخَلَهُمْ زَوَايَا ٱلْخُمُولِ عَارِينَ مِنَ ٱلطِّرَافِ وَٱلتِّلَادِ ، وَرُبَّمَا سَكَنَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَادِيَةَ ، وَتَرَكَ مَجْلِسَ ٱلْأُبَّهَةِ وَنَادِيَهُ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ مَنْ يَنْقِمُ عَلَى ٱلْمَنْصُورِ ذَلِكَ ٱلْفِعْلَ مِنْ قَصِيدَةٍ :

أَبَنِي أُمَيَّةَ أَيْنَ أَقْمَارُ ٱلدُّجَى
مِنْكُمْ وَأَيْنَ نُجُومُهَا وَٱلْكَوْكَبُ ؟!

غَابَتْ أُسُــودٌ مِنْــكُمُ عَنْ غَابِهَا
فَلِذَاكَ حَازَ ٱلْمُلْكَ هَذَا ٱلثَّعْلَبُ

مَعَ أَنَّ لِلْمَنْصُورِ مَفَاخِرَ ، بَذَّ(١) بِهَا ٱلْأَوَائِلَ وَٱلْأَوَاخِرَ ، مِنَ ٱلْمُثَابَرَةِ عَلَى جِهَادِ ٱلْعَـدُوِّ ، وَتَـكْرَارِ ٱلذَّهَابِ بِنَفْسِهِ فِي ٱلرَّوَاحِ وَٱلْغُدُوِّ ، وَلَهُ مَعَ ٱلْمُصْحَفِيِّ وَغَيْرِهِ أَخْبَارٌ مَرَّتْ ، وَيَأْتِي بَعْضُهَا . وَلَا بَأْسَ أَنْ نُلَخِّصَ تَرْجَمَةَ ٱلْمُصْحَفِيِّ فَنَقُولُ(٢) .

***

جعفر المصحفي «قَالَ ٱلْفَتْحُ فِي ٱلْمَطْمَحِ» ٱلْحَاجِبُ جَعْفَرٌ ٱلْمُصْحَفِيُّ : تَجَرَّدَ لِلْعُلْيَا ، وَتَمَرَّدَ فِي طَلَبِ ٱلدُّنْيَا ، حَتَّى بَلَغَ ٱلْمُنَى ، وَتَسَوَّغَ ذَلِكَ ٱلْجَنَى ، فَسَمَا دُونَ سَابِقَةٍ ، وَٱرْتَقَى(٣) إِلَى رُتْبَةٍ لَمْ تَـكُنْ لِبَيْتِهِ(٤)

---

(١) أى غلب وفاق وعـلا ، وفى الأصل « لذ » وهـو تصحيف . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) قد سبقت له ترجمة فى الجزء الثالث ببعض تصرف فى عبارة المطمح هذه (٣) فى الأصل « وارتمى » ومارأيناه أحسن (٤) فى بعض المراجع « لبنيته » وفى أخرى « لنفسه » وهى أبعد الروايات عندى فلم تـكن نفس المصحفى دنيئة ولا وضيعة بهذه الدرجة ، وقد سبقت كلمتنا فيه وفى بعض أهل بيته ، ولعلنا نخصه هو ومن نعرفهم من أسرته بمقال خاص ، فى أثناء كلامنا على الأدب بالأندلس فى كتابنا الجامع « آداب اللغة العربية » ان شاء الله . « أحمد يوسف نجاتى » .

بِمُطَابَقَةٍ ، وَٱلْتَاحَ فِي أَفْيَاءِ (١) ٱلْخِلَافَةِ ، وَٱرْتَاحَ (٢) إِلَيْهَا بِعِطْفِهِ كَنَشْوَانِ ٱلسُّلَافَةِ ، وَٱسْتَوْزَرَهُ ٱلْمُسْتَنْصِرُ ، وَعَنْهُ كَانَ يَسْمَعُ وَبِهِ كَانَ يُبْصِرُ . فَأَدْرَكَ بِذَلِكَ مَا أَدْرَكَ ، وَنَصَبَ لِأَمَانِيِّهِ ٱلْحَبَائِلَ وَٱلشَّرَكَ ، وَٱقْتَنَى وَٱدَّخَرَ ، وَأَزْرَى بِمَنْ سِوَاهُ وَسَخِرَ (٣) ، وَٱسْتَعْطَفَهُ ٱلْمَنْصُورُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَنَجْمُهُ بَعْدُ غَائِرٌ لَمْ يَلُحْ ، وَسِرُّهُ مَكْتُومٌ لَمْ يَبُحْ ، فَمَا عَطَفَ ، وَلَا جَنَى مِنْ رَوْضَةِ دُنْيَاهُ وَلَا قَطَفَ ، فَأَقَامَ فِي تَدْبِيرِ ٱلْأَنْدَلُسِ مَا أَقَامَ وَٱلْأَنْدَلُسُ مُتَغَيِّرَةٌ ، وَٱلْأَذْهَانُ فِي تَكَيُّفِ سَعْدِهِ مُتَحَيِّرَةٌ ، فَنَاهِيكَ مِنْ ذِكْرٍ خَلَّدَ ، وَمِنْ فَخْرٍ تَقَلَّدَ ، وَمِنْ صَعْبٍ رَاضَ (٤) ، وَجَنَاحِ فِتْنَةٍ هَاضَ (٥) ، وَلَمْ يَزَلْ بِنِجَادِ تِلْكَ ٱلْخِلَافَةِ مُعْتَقِلًا (٦) ، وَفِي مَطَالِعِهَا مُنْتَقِلًا ، إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ

(١) كذا بالأصل هنا والمطمح ، وهى فيما تقدم « أفق » وهى أظهر وأحسن (٢) ارتاح الى كذا اذا اهتزله طربا وسرورا ، والارتياح الاختيال (٣) سخر منه « كفرح » هزئ به ، وسخره « كمنعه » قهره وكلفه مالايريد (٤) راض الدابة يروضها : ذللها ووطأها (٥) هاض العظم يهيضه اذا كسره بعدالجبور ، وهو أشد مايكون من الكسر (٦) النجاد : ماوقع

ٱلْحَكَمُ ، فَٱنْتَقَضَ عَقْدُهُ ٱلْمُحْكَمُ ، وَٱنْبَرَتْ إِلَيْهِ ٱلنَّوَائِبُ ، وَتَسَدَّدَتْ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْخُطُوبِ سِهَامٌ صَوَائِبُ ، وَٱتَّصَلَ إِلَى ٱلْمَنْصُورِ ذَلِكَ ٱلْأَمْرُ ، وَٱخْتَصَّ بِهِ كَمَا مَالَ بِيَزِيدَ أَخُوهُ ٱلْغَمْرُ (١) ، وَأَنَافَ فِي تِلْكَ ٱلْخِلَافَةِ : كَمَا شَبَّ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو (٢) ، وَٱنْتَدَبَ لِلْمُصْحَفِيِّ بِصَدْرٍ كَانَ قَدْ أَوْغَرَهُ (٣) ، وَسَاءَهُ وَصَغَّرَهُ ، فَٱقْتَصَّ مِنْ تِلْكَ ٱلْإِسَاءَةِ ، وَأَغَصَّ حَلْقَهُ كَمَا شَاءَهُ (٤) ، فَأَخْمَلَهُ وَنَكَبَهُ ،

---

(١) الحمائل على العاتق من حمائل السيف ، أو هو الحمائل، واعتقله اذا تقلده (١) انما أعرف الغمر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان أخا الخليفة الوليد بن يزيد وكان عونا لأخيه الوليد فى حياته ، ومطالبا بدمه بعد مماته ، ففى سنة ١٢٦ كتب مروان بن محمد الى الغمر بن يزيد أخي الوليد يأمره بالمطالبة بدم أخيه الوليد (٢) هذا مثل وهو شطر بيت وأصله « شب عمر وعن الطوق » يضرب مثلا فى تزيين الكبير بزينة الصغير — والمثل قاله جذيمة فى عمر و بن عدى وكان أبوه عدى ينادم جذيمة ، فولد له عمر و من رقاش أخت جذيمة ، فلما كبر عمر و ونادم جذيمة بعد أبيه مالكا وعقيلا القينيين أرسل عمرا الى أمه فزينته وألبسته طوقا، فقال جذيمة « شب عمر وعن الطوق » فلما كان من أمر جذيمة ما كان قام عمر و مقامه ، فلم يزل هو و ولده وهم آل المنذر بالحيرة من قبل الفرس حتى ملك قباذ فأزالهم (٣) أى ملأه وغرا أى حقدا وضغينة (٤) فى الأصل « بأى اشاءة » وهو تحريف لامعنى له ، والصواب من

وَأَرْجَلَهُ عَمَّا كَانَ الدَّهْرُ أَرْكَبَهُ ، وَأَلْهَبَ جَوَانِحَهُ حَزَنًا ، وَنَهَبَ لَهُ مُدَّخَرًا وَمُخْتَزَنًا ، وَدَمَّرَ عَلَيْهِ مَا كَانَ حَاطَ(١) ، وَأَحَاطَ بِهِ مِنْ مَكْرُوهِهِ مَا أَحَاطَ ، وَغَبَرَ(٢) سِنِينَ فِي مَهْوَى تِلْكَ النَّكْبَةِ ، وَجَوَى(٣) تِلْكَ الْكُرْبَةِ ، يَنْقُلُهُ الْمَنْصُورُ مَعَهُ فِي غَزَوَاتِهِ ، وَيَعْتَقِلُهُ بَيْنَ ضِيقِ الْمُطْبَقِ وَلَهَوَاتِهِ(٤) ،

المطمح ـ وفى بعض المراجع « بأى مساءة » ولا بأس بها لولا تكرار كلمتى « اساءة ، ومساءة » فى فقرتى السجع ، وهما من مادة واحدة فى معنى واحدوان كان الأول من أساء والثانى من ساء (١) حاط الشيء يحوطه اذا حفظه وصانه ، وكلأه و رعاه ، وذب عنه وتوفر على مصالحه وتعهده (٢) غبر « كقعد » أى بقى ومكث (٣) الجوى : الحزن والحرقة وشدة الوجد من هم ، والجوى : تطاول المرض، وداء يأخذ فى الصدر والباطن لايستمرأ معه طعام ، وفعله « كرضى » ـ وفى الأصل « جرائى » ولعلها محرفة عن « جراء » من قولهم فعلته من جرائك أى من أجلك ، ولكن المعنى عليه غير ظاهر والسياق يأباه ، أو لعله محرف عن « حرارة » ـ ومااخترناه هو مافى المطمح ، و به تتوازن « جوى » مع « مهوى » . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٤) المطبق : سجن تحت الأرض ، من قولهم أطبق الشيء اذا غطاه ، ومنه الجنون المطبق الذى يغطى العقل ، والطبق : غطاء كل شيء ـ واللهوات جمع لهاة ، وهى فى الأصل الهنة المطبقة فى أقصى سقف الحلق ، قال الفرزدق يمدح بنى تميم :

ذباب طار فى لهوات ليث ... كذاك الليث يزدرد الذبابا

جعل الكاتب للسجن لهوات تشبيها له بالليث أو الحيوان المفترس الغائل

إِلَى أَنْ تَـكَوَّرَتْ شَمْسُهُ(١) وَفَاظَتْ(٢) بَيْنَ أَثْنَاءِ الْمِحَنِ نَفْسُهُ. وَمِنْ بَدِيعِ مَا حُفِظَ لَهُ فِي نَـكْبَتِهِ، قَوْلُهُ يَسْتَرِيحُ مِنْ كُرْبَتِهِ:

صَبَرْتُ عَلَى الْأَيَّامِ لَمَّا تَوَلَّتِ
وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتِ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى
فَإِنْ طَمِعَتْ تَاقَتْ وَإِلَّا تَسَلَّتِ
فَوَا عَجَبًا لِلْقَلْبِ كَيْفَ اعْتِرَافُهُ(٣)
وَلِلنَّفْسِ بَعْدَ الْعِزِّ كَيْفَ اسْتَذَلَّتِ

---

(١) تـكورت أى سقطت، أو اضمحلت وذهبت، أو جمع ضوءها ولف فمحيت، وبكل ذلك فسر قوله تعالى: «اذا الشمس كورت» (٢) فاظت نفسه: أى خرجت روحه. وفى بعض النسخ «فاضت» (٣) ويروى «اصطباره» اعترافه: أى صبره وذله وانقياده، قال قيس بن ذريح:

فيا قلب صبرا واعترافا لما ترى ويا حبها قع بالذى أنت واقع

وهذا البيت أحفظه من قصيدة كثير عزة التى مطلعها:

خليلى هـذا ربع عزة فاعقلا فلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

وهو مشهور فيها، يعجب كثير من صبره على الذل الذى يتجرعه من هوى عزة، وخنوع نفسه لذلك مع أنفته، فليس البيت من قطعة أبى عثمان المصحفى. «أحمد يوسف نجاتى».

وَكَانَتْ عَلَى ٱلْأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً
فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى ٱلذُّلِّ ذَلَّتِ
فَقُلْتُ لَهَا يَانَفْسُ مُوتِي كَرِيمَةً
فَقَدْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا لَنَا ثُمَّ وَلَّتِ

وَكَانَ لَهُ أَدَبٌ بَارِعٌ ، وَخَاطِرٌ إِلَى نَظْمِ ٱلْقَرِيضِ يُسَارِعُ ، فَمِنْ مَحَاسِنِ نِظَامِهِ وَإِنْشَادِهِ ، ٱلَّتِي بَعَثَهَا إِينَاسُ دَهْرِهِ بِإِسْعَادِهِ ، قَوْلُهُ :

لِعَيْنَيْكَ فِي قَلْبِي عَلَيَّ عُيُونُ
وَبَيْنَ ضُلُوعِي لِلشُّجُونِ فُنُونُ
لَئِنْ كَانَ جِسْمِي مُخْلَقًا(١) فِي يَدِ ٱلْهَوَى
فَحُبُّكَ غَضٌّ فِي ٱلْفُؤَادِ مَصُونُ

« وَلَهُ » وَقَدْ أَصْبَحَ عَاكِفًا عَلَى حُمَيَّاهُ ، هَاتِفًا بِإِجَابَةِ دُنْيَاهُ ، مُرْتَشِفًا ثَغْرَ ٱلْأُنْسِ مُتَنَسِّمًا رَيَّاهُ ، وَٱلْمُلْكُ يُغَازِلُهُ بِطَرْفٍ كَحِيلٍ(٢) ، وَٱلسَّعْدُ قَدْ عُقِدَ عَلَيْهِ مِنْهُ

(١) أخلق الثوب : أبلاه ، وفى الأصل « فحبك عندى » (٢) فى الأصل « كايل » وهو تصحيف مفسد « أحمد يوسف نجاتى »

إِكْلِيلٌ ، يَصِفُ لَوْنَ مُدَامِهِ ، وَمَا تَعَرَّفَ لَهُ مِنْهَا دُونَ نِدَامِهِ[١] :

صَفْرَاءُ تُطْرِقُ فِي الزُّجَاجِ فَإِنْ سَرَتْ
فِي الْجِسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ صِلٍّ لَادِغِ[٢]

(١) الندام : جمع نديم (٢) أطرق اذا سكت وسكن، يشبه الخمر « بصل » أى حية تقتل من ساعتها ، أو الصل هي الدقيقة « الصفراء » لاتنفع فيها الرقية ، وجعلها مطرقة ساكنة عن الأذى مادامت محبوسة فى زجاجها فاذا تمكنت من الجسم سرت فيه ودبت حمياها وسورتها فى كل أجزائه. وأرى البيت مع ظهور الغرض منه و بيان مراده قد يتوهم منه أنه يذم الخمر و ينفر منها ولذا يروى « تشرق » و « تبرق » بدل « تطرق » ـ غير أن بيته الثانى جيد جدا فى معناه ، وخياله رائع فى المبالغة فى وصف الراح بشدة الصفاء ، ومثله قول البحترى :

تخفى الزجاجة لونها فكأنها   فى الكف قائمة بغير اناء

وقول عبد المحسن الصورى :

رقت فكادت لاترى   فى كاسها الا التماسا
لو لا الحباب لخالها   شرابها فى الكاس كاسا

وقول الناشىء :

وصفت فأحدق نورها بزجاجها   فكأنما جعلت اناء انائها
وتكاد ان مزجت لرقة مائها   تمتاز عند مزاجها من مائها

وألطف من هذا كله قول ابن المعتز :

وقد خفيت من لطفها فكأنها   بقايا يقين كاد يذهبه الشك

وقول أبى نواس :

صفت وصفت زجاجتها عليها   كمعنى دق فى ذهن لطيف

وحسبنا هذا خشية من فضولى لايفرق بين الأدب ، والغرام بابنة العنب .
« أحمد يوسف نجاتى » .

خَفِيَتْ عَلَى شُرَّابِهَا فَكَأَنَّمَا
يَجِدُونَ رِيًّا مِنْ إِنَاءٍ فَارِغِ

وَمِنْ شِعْرِهِ الَّذِى قَالَهُ فِى السَّفَرْجَلِ مُشَبِّهًا ، وَغَدَا بِهِ لِنَائِمِ الْبَدِيعِ مُنَبِّهًا ، قَوْلُهُ يَصِفُ سَفَرْجَلَةً ، وَيُقَالُ إِنَّهُ ارْتَجَلَهُ :

وَمُصْفَرَّةٍ تَخْتَالُ فِى ثَوْبِ نَرْجِسٍ
وَتَعْبَقُ عَنْ مِسْكٍ ذَكِىِّ التَّنَفُّسِ
لَهَا رِيحُ مَحْبُوبٍ وَقَسْوَةُ قَلْبِهِ
وَلَوْنُ مُحِبٍّ حُلَّةَ السُّقْمِ مُكْتَسِى
فَصُفْرَتُهَا مِنْ صُفْرَتِى مُسْتَعَارَةٌ
وَأَنْفَاسُهَا فِى الطِّيبِ أَنْفَاسُ مُؤْنِسِى
وَكَانَ لَهَا ثَوْبٌ مِنَ الزُّغْبِ (١) أَغْبَرٌ
عَلَى جِسْمِ (٢) مُصْفَرٍّ مِنَ التِّبْرِ أَمْلَسِ

(١) جمع أزغب أى ذو زغب، وهو فى الأصل الشعيرات الصفر الدقيقة على ريش الفرخ ، أو صغار الشعر والريش ولينه ، وكذا ما يعلو قشر الفاكهة فى أول بروزها من أكمامها، ويروى «أخضر» بدل «أغبر» ويروى عجز البيت:

✡ يرف على جسم من التبر أملس ✡

(٢) متعلق بمحذوف تقديره نسج أو نحو ذلك

فَلَمَّا اُسْتَتَمَّتْ فِي اُلْقَضِيبِ شَبَابَهَا
وَحَاكَتْ لَهَا اُلْأَوْرَاقُ أَثْوَابَ سُنْدُسِ
مَدَدْتُ يَدِي بِاللُّطْفِ أَبْغِي اُجْتِنَاءَهَا
لِأَجْعَلَهَا رَيْحَانَتِي وَسْطَ مَجْلِسِي
فَبَزَّتْ(١) يَدِي غَصْبًا لَهَا ثَوْبَ جِسْمِهَا
وَأَعْرَيْتُهَا بِاللُّطْفِ مِنْ كُلِّ مَلْبَسِ
وَلَمَّا تَعَرَّتْ فِي يَدِي مِنْ بُرُودِهَا
وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا فِي غِلَالَةِ نَرْجِسِ
ذَكَرْتُ لَهَا مَنْ لَا أَبُوحُ بِذِكْرِهِ
فَأَذْبَلَهَا فِي اُلْكَفِّ حَرُّ اُلتَّنَفُّسِ

وَلَهُ ـ وَقَدْ أَعَادَهُ اُلْمَنْصُورُ إِلَى اُلْمُطْبِقِ ، وَاُلشُّجُونُ تُسْرِعُ إِلَيْهِ وَتَسْبِقُ ـ مُعَزِّيًا لِنَفْسِهِ ، وَمُجْتَزِيًا بِإِسْعَادِ أَمْسِهِ :

أُجَازِي اُلزَّمَانَ عَلَى حَالِهِ
مُجَازَاةَ نَفْسِي لِأَنْفَاسِهَا

(١) أى سلبت ، و بزه من ثيابه اذا جرده منها وغلبه عليها ـ يريد أنه قشرها ـ ولقد أجاد وأحسن فى وصف هذه السفرجلة وذكره تاريخ حياتها من أوله الى آخره . « أحمد يوسف نجاتى » .

إِذَا نَفَسٌ صَاعِدٌ شَفَّهَا(١)
تَوَارَتْ بِهِ دُونَ جُلَّاسِهَا
وَإِنْ عَكَفَتْ نَكْبَةٌ لِلزَّمَانِ
عَطَفْتُ بِنَفْسِي(٢) عَلَى رَاسِهَا

وَمِمَّا حُفِظَ لَهُ فِي اسْتِعْطَافِهِ ، وَاسْتِنْزَالِهِ لِلْمَنْصُورِ وَاسْتِلْطَافِهِ ، قَوْلُهُ :

عَفَا اللهُ عَنْكَ أَلَا رَحْمَةٌ
تَجُودُ بِعَفْوِكَ أَنْ أَبْعَدَا
لَئِنْ جَلَّ ذَنْبٌ وَلَمْ أَعْتَمِدْهُ
فَأَنْتَ أَجَلُّ وَأَعْلَى يَدَا
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ
وَمَوْلًى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى ؟
وَمُفْسِدَ أَمْرٍ تَلَافَيْتَهُ
فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَا

(١) شفه الهم : اذا هزله وأضمره حتى دق ، ومنه قول العرجي :
أنا امرؤ لج بى حب فأحرجنى حتى بليت وحتى شفنى السقم
وشفه الحزن والحب اذا لذع قلبه وأذهل عقله وأظهر ماعنده من الجزع
(٢) ويروى عجز البيت « عكفت بصدرى » « أحمد يوسف نجاتى »

أَقِلْنِي أَقَالَكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ
يَقِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى

« عَوْدٌ وَانْعِطَافٌ إِلَى أَخْبَارِ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ » رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَجَازَاهُ عَنْ جِهَادِهِ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ وَطَوْلِهِ ، فَنَقُولُ : وَكَانَ لَهُ فِي كُلِّ غَزْوَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِ الْمُنِيفَةِ عَلَى الْخَمْسِينَ مَفْخَرٌ مِنَ الْمَفَاخِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَمِنْهَا أَنَّ بَعْضَ الْأَجْنَادِ نَسِيَ رَايَتَهُ مَرْكُوزَةً عَلَى جَبَلٍ بِقُرْبِ إِحْدَى مَدَائِنِ الرُّومِ ، فَأَقَامَتْ عِدَّةَ أَيَّامٍ لَا يَعْرِفُ الرُّومُ مَاوَرَاءَهَا بَعْدَ رَحِيلِ الْعَسَاكِرِ ، وَهَذَا بِلَا خَفَاءٍ مِمَّا يَفْتَخِرُ بِهِ أَهْلُ التَّوْحِيدِ عَلَى أَهْلِ التَّثْلِيثِ ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا أُشْرِبَتْ قُلُوبُهُمْ خَوْفَ شِرْذِمَةِ(١) الْمَنْصُورِ وَحِزْبِهِ ، وَعَلِمَ كُلٌّ مِنْ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ بِحَرْبِهِ ، لَجَأُوا إِلَى الْفِرَارِ وَالتَّحَصُّنِ بِالْمَعَاقِلِ وَالْقِلَاعِ ، وَلَمْ يَحْصُلْ مِنْهُمْ غَيْرُ الْإِشْرَافِ مِنْ بُعْدٍ وَالِاطِّلَاعُ

(١) الشرذمة : الجماعة القليلة

***

مفاخر المنصور « وَمِنْ مَفَاخِرِ ٱلْمَنْصُورِ » فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ أَنَّهُ مَرَّ بَيْنَ جَبَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ فِي طَرِيقٍ عَرْضٍ بَرِيدٍ بِوَسَطِ بِلَادِ ٱلْإِفْرَنْجِ ، فَلَمَّا جَاوَزَ ذَٰلِكَ ٱلْمَحَلَّ وَهُوَ آخِذٌ فِي ٱلتَّحْرِيقِ وَٱلتَّخْرِيبِ وَٱلْغَارَاتِ وَٱلسَّبْيِ يَمِينًا وَشِمَالًا لَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ عَلَى لِقَائِهِ ، حَتَّى أَقْفَرَتِ ٱلْبِلَادِ مَسَافَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ عَادَ فَوَجَدَ ٱلْإِفْرَنْجَ قَدِ ٱسْتَجَاشُوا مِنْ وَرَائِهِ(١) ، وَضَبَطُوا ذَٰلِكَ ٱلْمَدْخَلَ ٱلضَّيِّقَ ٱلَّذِي بَيْنَ جَبَلَيْنِ ـ وَكَانَ ٱلْوَقْتُ شِتَاءً ـ فَلَمَّا رَأَى مَا فَعَلُوهُ رَجَعَ ، وَٱخْتَارَ مَنْزِلًا مِنْ بِلَادِهِمْ أَنَاخَ(٢) بِهِ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلْعَسَاكِرِ ، وَتَقَدَّمَ بِبِنَاءِ ٱلدُّورِ وَٱلْمَنَازِلِ وَبِجَمْعِ آلَاتِ ٱلْحَرْثِ وَنَحْوِهَا ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ(٣) فَسَبَتْ وَغَنِمَتْ ، فَٱسْتَرَقَّ ٱلصِّغَارَ ، وَضَرَبَ أَعْنَاقَ ٱلْكِبَارِ ، وَأَلْقَى جُثَثَهُمْ حَتَّى سَدَّ بِهَا ٱلْمَدْخَلَ ٱلَّذِي مِنْ جِهَتِهِ ، وَصَارَتْ سَرَايَاهُ تَخْرُجُ فَلَا تَجِدُ إِلَّا بَلَدًا خَرَابًا ، فَلَمَّا طَالَ ٱلْبَلَاءُ عَلَى

(١) فى بعض النسخ « من وراءهم » (٢) أى أقام وثبت (٣) جمع سرية وهى قطعة من الجيش ، سميت سرية لأنها تسرى خفية ليلا لئلا ينذر بهم العدو فيحذروا .

ٱلْعَدُوِّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ فِي طَلَبِ ٱلصُّلْحِ ، وَأَنْ يَخْرُجَ بِغَيْرِ أَسْرَى وَلَا غَنَائِمَ ، فَٱمْتَنَعَ مِنْ ذٰلِكَ ، فَلَمْ تَزَلْ رُسُلُهُمْ تَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ حَتَّى سَأَلُوهُ أَنْ يَخْرُجَ بِغَنَائِمِهِ وَأَسْرَاهُ ، فَأَجَابَهُمْ : إِنَّ أَصْحَابِي أَبَوْا أَنْ يَخْرُجُوا ، وَقَالُوا إِنَّا لَا نَكَادُ نَصِلُ إِلَى بِلَادِنَا إِلَّا وَقَدْ جَاءَ وَقْتُ ٱلْغَزْوَةِ ٱلْأُخْرَى ، فَنَقْعُدُ هٰهُنَا إِلَى وَقْتِ ٱلْغَزَاةِ فَإِذَا غَزَوْنَا عُدْنَا ، فَمَا زَالَ ٱلْإِفْرَنْجُ يَسْأَلُونَهُ إِلَى أَنْ قَرَّرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمِلُوا عَلَى دَوَابِّهِمْ مَا مَعَهُ مِنَ ٱلْغَنَائِمِ وَٱلسَّبْيِ ، وَأَنْ يُمِدُّوهُ بِالْمِيرَةِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَأَنْ يُنَحُّوا جِيَفَ ٱلْقَتْلَى عَنْ طَرِيقِهِ بِأَنْفُسِهِمْ ، فَفَعَلُوا ذٰلِكَ كُلَّهُ وَٱنْصَرَفَ . وَلَعَمْرِي إِنَّ هٰذَا لَعِزٌّ مَا وَرَاءَهُ مَطْمَحٌ ، وَنَصْرٌ لَا يَكَادُ ٱلزَّمَانُ يَجُودُ بِمِثْلِهِ وَيَسْمَحُ ، خُصُوصًا إِزَالَتَهُمْ جِيَفَ قَتْلَاهُمْ مِنَ ٱلطَّرِيقِ ، وَغَصَصَهُمْ(١) فِي شُرْبِ ذٰلِكَ بِالرِّيقِ .

***

مآثر المصور — وَمِنْ مَآثِرِهِ ٱلَّتِي هِيَ فِي جَبِينِ عَصْرِهِ غُرَّةٌ ، وَلِعَيْنِ

(١) غص بالماء أو بالطعام « كفرح » اذا شرق به أو وقف فى حلقه فلم يكد يسيغه ، فهو غاص وغصان ـ وأغصه بريقه اذا أضجره أوغاظه ، وغص بريقه كناية عن الموت أو شدة القهر والاذلال « أحمد يوسف نجاتى »

دَهْرِهِ قُرَّةٌ ، أَنَّهُ لَمَّا خَتَنَ أَوْلَادَهُ خَتَنَ مَعَهُمْ مِنْ أَوْلَادِ أَهْلِ دَوْلَتِهِ خَمْسَمِائَةِ صَبِيٍّ ، وَمِنْ أَوْلَادِ الضُّعَفَاءِ عَدَدًا لَا يُحْصَرُ ، فَبَلَغَتِ النَّفَقَةُ عَلَيْهِمْ فِي هَٰذَا الْإِعْذَارِ[1] خَمْسَمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَهَٰذِهِ مَكْرُمَةٌ مُخَلَّدَةٌ ، وَمِنَّةٌ مُقَلَّدَةٌ ، فَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يُجَازِيهِ عَنْ ذَٰلِكَ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ ، وَيَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي فَقْدِ مِثْلِهِ أَحْسَنَ الْعَزَاءِ . وَمِنْ مَنَاقِبِهِ الَّتِي لَمْ تَتَّفِقْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ فِي غَالِبِ الظَّنِّ ، أَنَّ أَكْثَرَ جُنْدِهِ مِنْ سَبْيِهِ ـ عَلَى مَا حَقَّقَهُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ ـ وَذَٰلِكَ غَايَةُ الْمَنْحِ مِنَ اللهِ وَالْمَنِّ . وَمِنْ أَخْبَارِهِ ، الدَّالَّةِ عَلَى إِقْبَالِ أَمْرِهِ وَخَيْبَةِ عَدُوِّهِ وَإِدْبَارِهِ ، أَنَّهُ مَا عَادَ قَطُّ مِنْ غَزْوَةٍ إِلَّا اسْتَعَدَّ لِأُخْرَى ، وَلَمْ تُهْزَمْ لَهُ قَطُّ رَايَةٌ ـ مَعَ كَثْرَةِ غَزَوَاتِهِ شَاتِيَةً وَصَائِفَةً ، وَكَفَاهُ ذَٰلِكَ فَخْرًا . وَمِنْهَا أَنَّهُ لَقِيَتْهُ ـ وَقَدْ عَادَ مِنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ ـ ، امْرَأَةٌ نَقَمَتْ[2] عَلَيْهِ بُلُوغَ مُنَاهُ وَشَهَوَاتِهِ ، وَقَالَتْ

(١) أصل الاعذار : الختان ، ثم استعمل فى الطعام الذى يصنع فى الختان ، وأعذر للقوم اذا صنع لهم طعام الختان وأعده . وأعذر الغلام : ختنه ،

(٢) فى الأصل « نغصت » وفى بعض المراجع « نقمت » ـ ونقم منه الأمر ونقم عليه « كضرب وعلم » اذا كرهه وأنكره وعابه . وقد تكون

لَهُ : يَا مَنْصُورُ ٱسْتَمِعْ نِدَائِى ، فَأَنْتَ فِى طِيبِ عَيْشِكَ وَأَنَا فِى بُكَائِى، فَسَأَلَهَا عَنْ مُصِيبَتِهَا ٱلَّتِى عَمَّتْهَا وَغَمَّتْهَا، فَذَكَرَتْ لَهُ أَنَّ لَهَا ٱبْنًا أَسِيرًا فِى بِلَادٍ سَمَّتْهَا ، وَأَنَّهَا لَا يَهْنَأُ عَيْشُهَا لِفَقْدِهِ ، وَلَا يَخْبُو[1] ضِرَامُ قَلَقِهَا مِنْ وَقْدِهِ ، وَأَنْشَدَ لِسَانُ حَالِهَا لِذَلِكَ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَلِى :

* وَيْحَ ٱلشَّجِىِّ مِنَ ٱلْخَلِى[2] *

«نعت» - تقول : نعى عليه أعماله وهفواته «كسعى» اذا أظهرها وشهر بها، أواذا قبحها وعابه عليها و وبخه (١) خبت النار تخبو اذا سكنت وطفئت وخمد لهيبها . ومن المجاز : خمد لهبه ، اذا سكن ثائره وسكت غضبه ، وضرام النار : اشتعالها (٢) ويح له ، ويحاله : يقال لمن وقع فى بلية لاظهار الشفقة عليه وطلب الرحمة والدعاء له بالخلاص منها - ورجل شج «كفرح» أى حزين - والشجى «بالتخفيف» المشغول القلب ، والخلى «بالتشديد» الفارغ من الهم رخى البال . وقيل بجواز التشديد فى «خلى» بمعنى المشجو من شجاه يشجوه اذا حزنه وأوقعه فى هم . وقد شدد ياؤه فى الشعر فى قول الشاعر :

نام الخليون عن ليل الشجيينا ... شأن السلاة سوى شأن المحبينا

وفى بعض النسخ جعل ما أنشدته المرأة بيتا ، ونصه : وأنشد لسان حالها :

ياذلك الملك العلى ... ويح الشجى من الخلى

وقد ورد المثل فى مطلع قصيدة لأبى تمام يمدح بها الحسن بن وهب :

ألا ويل الشجى من الخلى ... وبالى الربع من احدى بلى

والمثل يضرب لسوء مشاركة الرجل صاحبه . ومعناه ان الخلى لا يعرف بالشجى فهو لا يساعده على حاله ولا يرثى لما به ، بل قد يزيد نار جواه اشتعالا بلومه وتعنيفه . «أحمد يوسف نجاتى» .

فَرَحَّبَ ٱلْمَنْصُورُ بِهَا ، وَأَظْهَرَ ٱلرِّقَّةَ بِسَبَبِهَا ، وَخَرَجَ مِنَ ٱلْقَابِلَةِ إِلَى تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّتِي فِيهَا ٱبْنُهَا ، وَجَاسَ أَقْطَارَهَا وَتَخَلَّلَهَا ، حَتَّى دَوَّخَهَا إِذْ أَنَاخَ عَلَيْهَا بِكَلْكَلِهِ وذَلَّلَهَا ، وَأَعْرَاهَا مِنْ حُمَاتِهَا وَبِبُنُودِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْمَنْصُورَةِ ظَلَّلَهَا ، وَخَلَّصَ جَمِيعَ مَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْأَسْرَى ، وَجَلَبَتْ عَوَامِلُهُ إِلَى قُلُوبِ ٱلْكَفَرَةِ كَسْرًا ، وَٱنْقَلَبَتْ عُيُونُ ٱلْأَعْدَاءِ حَسْرَى ، وَتَلَا لِسَانُ حَالِ ٱلْمَرْأَةِ : « فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا » ، فَهٰكَذَا تَكُونُ ٱلْهِمَّةُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ ، وَٱلنَّخْوَةُ ٱلْإِيمَانِيَّةُ ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ يُرَوِّحُ تِلْكَ ٱلْأَرْوَاحَ فِي ٱلْجِنَانِ ، وَيُرَقِّي دَرَجَاتِهَا وَيُعَامِلُهَا بِمَحْضِ ٱلْفَضْلِ وَٱلِامْتِنَانِ .

***

كتاب عبد الله ابن يوسف إلى المنصور بن أبي عامر

وَقَدْ تَذَكَّرْتُ هُنَا ـ وَٱلْحَدِيثُ شُجُونٌ[١] ، وَبِذِكْرِ ٱلْمُنَاسَبَاتِ يَبْلُغُ ٱلطُّلَّابُ مَا يَرْجُونَ ـ كِتَابًا كَتَبَهُ ٱلْأَدِيبُ ٱلْكَاتِبُ أَبُو مُحَمَّدٍ[٢] ٱبْنُ ٱلْإِمَامِ ٱلْحَافِظِ مُحَدِّثِ ٱلْأَنْدَلُسِ أَبِي عُمَرَ

(١) يقال الحديث ذو شجون ، أى فنون وأغراض ، أى أنه ذو شعب وامتساك يدخل بعضه فى بعض ، ويستدعى شىء منه شيئا ، ويتفرق بالمتكلم شعبه ووجهه ، يضرب مثلا للحديث يستذكر به غيره ، جمع شجن « بالتحريك » وهو الغصن المشتبك من غصون الشجرة . والشعبة من كل شىء (٢) هو الأديب عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر

أُبْنِ عَبْدِ ٱلْبَرِّ ٱلنَّمَرِيِّ إِلَى ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ[١] « وَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ٱلْمَنْصُورِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي كُنَّا نَتَحَدَّثُ فِي أَخْبَارِهِ ، يَمُتُّ[٢] إِلَيْهِ بِسَلَفِهِ وَمُعَامَلَتِهِمْ لِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ آبَائِهِ بِتَعْظِيمِ قَدْرِهِ وَإِكْبَارِهِ » وَهُوَ : عَمَّرَ ٱللهُ بِبَقَاءِ سَيِّدِي ذِكْرَى ٱلسَّابِقِينَ[٣] بَهْجَةَ أَوْطَانِهِ ، وَمَلَّكَهُ عِنَانَ زَمَانِهِ ، وَمَدَّ عَلَيْهِ ظِلَالَ أَمَانِهِ ؛ إِنِّي ـ أَبْقَى ٱللهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْكَرِيمَ ،

النمرى ، أصله من قرطبة وسكن مع أبيه مدينة بلنسية وغيرها. كان من أهل الأدب البارع والبلاغة الذائعة والتقدم فى العلم والذكاء، وكانت له رسائل مدونة ، توفى قبل أبيه بمدينة دانية سنة ٤٥٨ وتوفى الامام الحافظ والده سنة ٤٦٣ بمدينة شاطبة ، وتوفى جده عبد الله بن محمد سنة ٣٨٠ وفى الأصل « النميرى » وهو تحريف فان الامام ينسب الى النمر بن قاسط لا الى نمير . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) هو المنصور أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن المنصور ابن أبى عامر ، وكان فى فتنة الأندلس وتغلب ملوك الطوائف عليها قد استقل بمدينة بلنسية ثم بمدينة دانية و ما كان اليها. وقام بالأمر بعده ابنه محمد ودام فيها الى أن غدر به صهره المأمون بن اسمعيل بن ذى النون وأخذ منه رياسة بلنسية فى ذى الحجة سنة ٤٥٧ فنزح عنها الى المرية وأقام بها الى أن خلع ، وكان المنصور الصغير هذا أديبا شاعرا رقيقا ، وسنعرض له فيما بعد ان شاء الله . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) أى يتوصل و يتقرب ، قال الشاعر :

تمت بأرحام اليك وشيجة ‏ ‏ ولا قرب بالأرحام مالم تقرب

(٣) فى بعض المراجع « ذى السابقتين » بدل « ذكرى السابقين »

وَالسَّيِّدَ الزَّعِيمَ - لَمَّا أَضَاءَتْ لِي أَهِلَّةُ مَفَاخِرِكُمْ فِي سَمَاءِ الْفَخَارِ ، وَأَشْرَقَتْ شُمُوسُ مَكَارِمِكُمْ عَلَى مَفَارِقِ الْأَحْرَارِ ، وَأَبْصَرْتُ شَمَائِلَكَ الزُّهْرَ تَهْدِي إِلَيْكَ مِنَ الْهِمَمِ مَحَامِدَهَا وَمَحَاسِنَكَ الْغُرَّ تُوقِظُ لَكَ مِنَ الْآمَالِ رَوَاقِدَهَا ، أَيْقَنْتُ أَنَّهُ بِحَقٍّ انْقَادَتْ لَكَ الْقُلُوبُ بِأَعِنَّتِهَا ، وَتَهَادَتْ إِلَيْكَ النُّفُوسُ بِأَزِمَّتِهَا ، فَآلَيْتُ أَلَّا أُلِمَّ إِلَّا بِحِمَاكَ ، وَلَا أَحُطَّ رَحْلًا إِلَّا بِفِنَائِكَ[1] ، عِلْمًا بِأَنَّكَ نَثْرَةُ[2] الْفَخْرِ ، وَغُرَّةُ الدَّهْرِ فَتَيَمَّمْتُ سَارِيًا فِي سَاطِعِ نُورِكَ ، مُتَيَمِّنًا بِيُمْنِ[3] طَائِرِكَ ، مُحَقِّقًا لِلرِّبْحِ ، مُوقِنًا بِالْفَلْجِ[4] وَالنُّجْحِ ، حَتَّى حَلَلْتُ فِي دَوْحَةِ الْمَجْدِ ، وَأَنَخْتُ بِدَوْلَةِ السَّعْدِ ، وَاسْتَشْعَرْتُ لِبْسَةَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ ، وَجَعَلْتُ أَنْظِمُ مِنْ جَوَاهِرِ الْكَلَامِ ،

(١) فناء الدار : مااتسع من أمامها ، أو مالامتد من جوانبها ، وفى بعض المراجع «بمغناك» (٢) النثرة : كوكبان بينهماقدر شبر، وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب ، وهى أنف الأسد ، ينزلها القمر ، وتسميها العرب نثرة الأسد - يريد علو منزلته فى الفخر (٣) الطائر ماتيمن به المرء أو تشاءم ، والطائر أيضا : الحظ (٤) الفلج : الظفر والفوز ، وفعله من باب نصر .
« أحمد يوسف نجاتى » .

مَا يُرْبِى عَلَى جَوَاهِرِ ٱلنِّظَامِ ، وَأَنْشُرُ مِنْ عِطْرِ ٱلثَّنَاءِ ، مَا يُزْرِى بِالرَّوْضَةِ ٱلْغَنَّاءِ(١) ، وَحَاشَا لِلفَهْمِ أَنْ يُعَطِّلَ لَيْلِى مِنْ أَقْمَارِكَ ، أَوْ يُخْلِيَ أُفُقِى مِنْ أَنْوَارِكَ ، فَأَرَانِى مُنْخَرِطًا فِى غَيْرِ سِلْكِهِ ، وَمُنْحَطًّا إِلَى غَيْرِ مُلْكِهِ ، لَا جَرَمَ أَنَّهُ مَنِ ٱسْتَضَاءَ بِالْهِلَالِ ، غَنِىَ عَنِ ٱلذُّبَالِ(٢) ، وَمَنْ ٱسْتَنَارَ بِالصَّبَاحِ ، أَلْقَى سَنَى ٱلْمِصْبَاحِ ، وَتَاللهِ مَا هَزَّتْ آمَالِى ذَوَائِبَهَا(٣) إِلَى سِوَاكَ ، وَلَا حَدَتْ(٤) أَوْطَارِى رَكَائِبَهَا إِلَى مَنْ عَدَاكَ ، لِيَكُونَ فِىَّ أَثَرُ ٱلْوَسْمِيِّ فِى ٱلْمَاحِلِ(٥) ، وَعَلَىَّ جَمَالُ ٱلْحَلْيِ عَلَى ٱلْعَاطِلِ(٦) ، لِسِيَادَتِكَ ٱلسَّنِيَّةِ ، وَرِيَاسَتِكَ ٱلْأَوَّلِيَّةِ ، ٱلَّتِى يَقْصُرُ عَنْهَا لِسَانُ إِفْصَاحِى ، وَيَعْيَا فِى بَعْضِهَا بَيَانِى وَإِيضَاحِى ، فَٱلْقَرَاطِيسُ عِنْدَ بَثِّ مَنَاقِبِكَ تَفْنَى ،

---

(١) أربى عليه : زاد وفاق ،وأزرى به :أظهر فيه عيبا وقصورا ، وروضة غناء : قد التف عشبها وكثر حتى تسمع لطيرها غنة، وتمر الرياح فيها غير صافية الصوت لكثافة عشبها والتفاف أشجارها (٢) الذبالة الفتيلة التى تسرج (٣) هزت ذوائبها أى تحركت ونشطت ، وهو مأخوذ من قول الأعرابى: هززت ذوائب الرحال فلم أجد معولا الا عليك الخ (٤) حداه : ساقه (٥) مطر الربيع الأول يسم الأرض ويزينها بالنبات ، والماحل : المجدب (٦) العاطل المرأة تجرد جيدها عن الحلى والزينة « أحمد يوسف نجاتى »

وَالْأَقْلَامُ فِي رَسْمِ مَآثِرِكَ تَحْفَى ، وَمَا أَمَلُ الْمُجْدِبِ ، فِي حَيَاةِ الْمُخْصِبِ ، وَلَا جَذَلُ الْمُذْنِبِ ، بِرِضَا الْمُعْتِبِ(١) ، كَأَمَلِي فِي التَّعَزُّزِ بِحَوْزَتِكَ ، وَالتَّجَمُّلِ بِجُمْلَتِكَ ، وَالتَّرَفُّعِ بِخِدْمَتِكَ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ نَشَأَ فِي دَوْلَتِكَ ، وَظَهَرَ فِي أُمَّتِكَ ، وَاسْتَضَاءَ بِغُرَّتِكَ . لَقَدْ فَازَ بِالسَّبْقِ مَنْ لَحَظَتْهُ عَيْنُ رِعَايَتِكَ ، وَكَنَفَتْهُ حَوْزَةُ حِمَايَتِكَ ، فَأَنْتَ الَّذِي أُمِنَتْ بِعَدْلِهِ نَوَائِبُ الْأَيَّامِ ، وَقَوِيَتْ بِسُلْطَانِهِ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ ، تَخْتَالُ بِكَ الْمَعَالِي اخْتِيَالَ الْعَرُوسِ ، وَتَخْضَعُ لِجَلَالِكَ أَعِزَّةُ(٢) النُّفُوسِ ، سَابِقَةٌ أَشْهَرُ مِنَ الْفَجْرِ ، وَفِطْنَةٌ أَنْوَرُ مِنَ الْبَدْرِ ، وَهِمَّةٌ أَنْفَذُ مِنَ الدَّهْرِ

لَقَدْ فَازَ مَنْ أَضْحَى بِكُمْ مُتَمَسِّكاً
يَشُدُّ عَلَى تَأْمِيلِ عِزِّكُمْ يَدَا
سَلَكْتَ سَبِيلَ الْفَخْرِ خُلْقاً مُرَكَّباً
وَغَيْرُكَ لَا يَأْتِيهِ إِلَّا تَجَلُّدَا

---

(١) الجذل : الفرح والسرور ، وأعتبه اذا منحه العتبى أى الرضا وقبل عذره
(٢) جمع عزيز ، ويجوز « أعنة » جمع عنان « أحمد يوسف نجاتى »

فَأَنْتُمْ لِوَاءُ ٱلدِّينِ لَا زَالَ قَيِّماً
بِآرَائِكُمْ فِي ظُلْمَةِ ٱلْخَطْبِ يُهْتَدَى
لِيَهْنِكُمُ مَجْدٌ تَلِيدٌ(١) بَنَيْتُمُ
أَغَارَ سَنَاهُ فِي ٱلْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

وَمِثْلُهُ ـ أَبْقَاهُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ ـ يُسْتَثْمَرُ إِيرَاقُهُ فَيُثْمِرُ جَنَاهُ ، وَيُسْتَمْطَرُ إِبْرَاقُهُ فَيُمْطِرُ حَيَاهُ(٢) ، وَلَا سِيَّمَا أَنِّي نَشْأَةٌ حَفَّهَا إِحْسَانُ أَوَائِلِكَ ٱلطَّاهِرِينَ . وَأَلَّفَهَا إِنْعَامُ أَكَابِرِكَ ٱلْأَخْيَارِ ٱلطَّيِّبِينَ . وَجَدِيرٌ بِقَبُولِكَ وَإِقْبَالِكَ ، وَبِرِّكَ وَإِجْمَالِكَ ، مَنْ أَصْلُهُ ثَابِتٌ فِي أَهْلِ مَحَبَّتِكُمْ ، وَفَرْعُهُ نَابِتٌ فِي خَاصَّتِكُمْ .

وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسْجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ
وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ(٣)

(١) التليد القديم الثابت ضد الطريف (٢) الجنى مايجنى من الثمر والحيا الغيث (٣) هذه الأبيات من قصيدة لأبى الطيب المتنبى يمدح بها كافورا الأخشيدى سنة ٣٤٦ أولها :

أود من الأيام مالا توده   وأشكو اليها بيننا وهى جنده

وقد أتى بها الكاتب هنا بغير نظامها فى قصيدة أبى الطيب ، والعسجد : الذهب فهو يقول : انه لايرغب فى مال يناله ، فمطلبه فى الاتصال به فوق ذلك وأسمى

فَكُلُّ نَوَالٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ
فَلَحْظَةُ طَرْفٍ مِنْكَ عِنْدِىَ نِدُّهُ(١)

فَكُنْ فِى اصْطِنَاعِى مُحْسِنًا كَمُجَرِّبٍ
يَبِنْ لَكَ تَقْرِيبُ الْجَوَادِ وَشَدُّهُ(٢)

فانه يريد مفخرا يشرف به « ومنه يأتى الغنى والمال الجم » فقد كان يطلب منه عملا وأن يوليه ولاية . وهذا كقول الوزير المهلبي :

ياذا اليمينين لم أزرك ولم — أصحبك من خلة ولاعدم
زورك فى همة منازعة — الى جسيم من غاية الهمم

ومثله له أيضا .

لم تزرنى أبا على سنو الجد — ب وعندى بعد الكفاف فضول
غير أنى باغى الجليل من الأم — ر وعند الجليل يبغى الجليل

ومثله لأبى تمام :

ومن خدم الأقوام يبغى نوالهم — فانى لم أخدمك الا لأخدما

وله أيضا :

يارب رفعة قد كنت آملها — لديك لا فضة أبغى ولاذهبا

ومثله قول الصاحب بن عباد :

نسائلكم هل من قرى لنزيلكم — بملء جفون لابملء جفان ؟

وقد كرر أبو الطيب هذا المعنى فى قوله :

وسرت اليك فى طلب المعالى — وسار الناس فى طلب المعاش

(١) هذا قريب من بيت الصاحب المتقدم ــ والند: المثل والنظير، يقول ان نظرك الى نظير كل نوال آخذه منك أو أخذته (٢) التقريب: ضرب من عدو الفرس ، وقرب الجواد اذا رفع يديه معا ووضعهما معا فى العدو ،

إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فَابْلُهُ
فَإِمَّا تُنَفِّيهِ وَإِمَّا تُعِدُّهُ(١)
وَمَا الصَّارِمُ الْهِنْدِيُّ إِلَّا كَغَيْرِهِ
إِذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النِّجَادُ وَغِمْدُهُ(٢)

وَلَا بَأْسَ أَنْ يَتَطَوَّلَ مَوْلَايَ بِغَرْسِ الصَّنِيعَةِ فِي

وهو دون الحضر ، والشد: العدو ـ يقول جربنى فى اصطناعك اياى ليبين لك أنى موضع الصنعة وأهلها ـ وانما يعرف الجواد بتجربته فيظهر تقريبه من عدوه . أو جربنى ليظهر لك عظيم أمرى وصغيره وتقف على كل أحوالى فاما أن تقربنى وتصطنعنى، واما أن تبعدنى ان لم أكن أهلا لاصطناعك فلا فضل بينى و بين غيرى ان لم تجربنى وتخبر جلية أمرى(١) نفاه ونفاه بالتخفيف والتشديد أى أبعده، و بلاه اذاجربه واختبره . يقول اذاجربت السيف بان لك جوهره ، وعرفت صلاحه من فساده ،فاما أن تلقيه لأنه كهام غير صارم، واما اخترته ليكون عدة لك فى الحروب لأنه حسام قاضب ولافضل للسيف الماضى على غيره مادام خبيئا فى غمده لم تبله التجربة (٢) هذا البيت يوضح ماقبله ، والهندى القاطع من ضرب الهند ، والنجاد حمائل السيف . يقول ان السيف العضب والصارم الماضى يكون كغيره من كل سيف كايل كهام مادام كامنا فى غمده، لم تميزه عما عداه التجربة والعمل به وانما يعرف مضاؤه اذا استل من غمده وجرب، وأنا كذلك اذا لم تظهر التجربة قدرى كنت كغيرى ، ولم يعرف ماعندى ولم تظهر كفايتى وغنائى وهذا تقاض للولاية باللطف وضرب الأمثال وحسن الطلب ، وهو من قول أبى تمام :

لما انتضيتك للخطوب كفيتها والسيف لايكفيك حتى ينتضى

أَزْكَى ٱلتُّرَبِ(١) ، وَوَضَعَ ٱلْهِنَاءَ مَوْضِعَ ٱلنُّقَبِ(٢) وَٱللهُ سُبْحَانَهُ يُبْقِي مَوْلَايَ آخِذًا بِزِمَامِ ٱلْفَخْرِ ، نَاهِضًا بِأَعْبَاءِ ٱلْبِرِّ ، مَالِكًا لِأَعِنَّةِ ٱلدَّهْرِ ، وَصَنَعَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِسَيِّدِي أَتَمَّ ٱلصُّنْعِ وَأَجْمَلَهُ ، وَأَفْضَلَهُ وَأَكْمَلَهُ ، بِمَنِّهِ لَارَبَّ سِوَاهُ . ٱنْتَهَى .

***

سجن المصحفي « رَجْعٌ إِلَى أَخْبَارِ ٱلْمَنْصُورِ ٱلْكَبِيرِ » مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ــ رَحِمَهُ ٱللهُ ــ ، وَكُنَّا قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ قَبَضَ عَلَى ٱلْوَزِيرِ ٱلْحَاجِبِ ٱلْمُصْحَفِيِّ مَعَ أَنَّهُ كَانَ أَحَدَ أَتْبَاعِهِ .

---

(١) التطول :الانعام والامتنان ، وتربة زاكية أى أرض جيدة يزكو فيها النبات (٢) هذا مثل عربى ، الهناء القطران ، وهنأ الابل يهنئها« مثلثة النون » طلاها بالهناء ــ والنقب جمع نقبة وهى أول جرب يبدأ فى البعير لأنها تنقب الجلد أى تثقبه وتخرقه ، فان لم تعالج بالقطران «الهناء » تمشت فى جسم البعير كله حتى تشربه « تملأه » ــ ويقال . هو يضع الهناء مواضع النقب ، اذا كان خبيرا ماهرا ومجربا مصيبا ومسددا يضع الأمور فى مواضعها . قال دريد بن الصمة فى الخنساء من أبيات :

متبــذلا تبــدو محاسنه　　يضع الهناء مواضع النقب

والنقب أيضا هذه القرحة التى تخرج فى جنب البعير أو الجرب ، وهو فى بيت دريد بضم النون وسكون القاف مفردا بمعنى ثقب أو جمعا،وفى الأصل « النوب » بدل « النقب » وهو تصحيف . « أحمد يوسف نجاتى » .

« قَالَ » صَاحِبُ كِتَابِ « رَوْضَةِ الْأَزْهَارِ وَبَهْجَةِ النُّفُوسِ وَنُزْهَةِ الْأَبْصَارِ » وَلَمَّا أَمَرَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ بِسِجْنِ الْمُصْحَفِيِّ فِي الْمُطْبِقِ بِالزَّهْرَاءِ وَدَّعَ أَهْلَهُ وَوَدَّعُوهُ وَدَاعَ الْفُرْقَةِ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ: لَسْتُمْ تَرَوْنَنِي بَعْدَهَا حَيًّا، فَقَدْ أَتَى وَقْتُ إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ، وَمَا كُنْتُ أَرْتَقِبُهُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً؛ وَذَلِكَ أَنِّي شَارَكْتُ فِي سِجْنِ رَجُلٍ فِي عَهْدِ النَّاصِرِ وَمَا أَطْلَقْتُهُ إِلَّا بِرُؤْيَا رَأَيْتُهَا، بِأَنْ قِيلَ لِي: أَطْلِقْ فُلَانًا فَقَدْ أُجِيبَتْ فِيكَ دَعْوَتُهُ، فَأَطْلَقْتُهُ وَأَحْضَرْتُهُ وَسَأَلْتُهُ عَنْ دَعْوَتِهِ عَلَيَّ، فَقَالَ: دَعَوْتُ عَلَى مَنْ شَارَكَ فِي أَمْرِي أَنْ يُمِيتَهُ اللهُ فِي أَضْيَقِ السُّجُونِ، فَقُلْتُ: إِنَّهَا قَدْ أُجِيبَتْ فَإِنِّي كُنْتُ مِمَّنْ شَارَكَ فِي أَمْرِكَ، وَنَدِمْتُ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، فَيُرْوَى أَنَّهُ كَتَبَ لِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ:

هَبْنِي أَسَأْتُ فَأَيْنَ الْعَفْوُ وَالْكَرَمُ

إِذْ قَادَنِي نَحْوَكَ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ؟

يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتِ ٱلْأَيْدِى إِلَيْهِ أَمَا
تَرْثِى لِشَيْخٍ نَعَاهُ عِنْدَكَ ٱلْقَلَمُ ؟!
بِالَغْتَ فِى ٱلسُّخْطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ
إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا مَا ٱسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا

فَأَجَابَهُ ٱلْمَنْصُورُ بِأَبْيَاتٍ لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلْجَزِيرِىِّ (١) :

يَاجَاهِلًا بَعْدَ مَا زَلَّتْ بِكَ ٱلْقَدَمُ
تَبْغِى ٱلتَّكَرُّمَ لَمَّا فَاتَكَ ٱلْكَرَمُ
نَدِمْتَ إِذْ لَمْ تَعُدْ مِنِّى بِطَائِلَةٍ
وَقَلَّمَا يَنْفَعُ ٱلْإِذْعَانُ وَٱلنَّدَمُ
نَفْسِى إِذَا جَمَحَتْ لَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ
وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ ٱلْعُرْبُ وَٱلْعَجَمُ

فَبَقِىَ فِى ٱلْمُطْبِقِ حَتَّى مَاتَ ـ نَعُوذُ بِاللهِ تَعَالَى مِنْ دَعْوَةِ ٱلْمَظْلُومِ ـ . ٱنْتَهَى .

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ فِى هَـذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ زِيَادَةً حَسْبَمَا

(١) تقدم شرح هاتين القطعتين ، وترجمة الوزير عبد الملك الجزيرى .

ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِ هٰذَا الْمَحَلِّ ، فَإِنَّ هٰذِهِ الْأَبْيَاتَ لِلْمَنْصُورِ وَهٰذَا الْمُؤَرِّخُ مُصَرِّحٌ بِأَنَّهَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ الْجَزِيرِيِّ ، وَقَدْ يُقَالُ: لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ الْمَنْصُورَ أَجَابَ بِالْأَبْيَاتِ، وَهَلْ هُوَ قَائِلُهَا أَمْ لَا ؟ الْأَمْرُ أَعَمُّ(١) ، فَبَيِّنْ هُنَا . وَاللهُ أَعْلَمُ .

« وَقَالَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ » إِنَّ الْحَاجِبَ الْمُصْحَفِيَّ حَصَلَ لَهُ فِي هٰذِهِ النَّكْبَةِ مِنَ الْهَلَعِ(٢) وَالْجَزَعِ مَا لَمْ يُظَنَّ أَنَّهُ يَصْدُرُ مِنْ مِثْلِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ كَتَبَ إِلَى الْمَنْصُورِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَقْعُدَ فِي دِهْلِيزِهِ مُعَلِّمًا لِأَوْلَادِهِ فَقَالَ الْمَنْصُورُ :ـ بِدَهَائِهِ وَحِذْقِهِ ـ إِنَّ هٰذَا الرَّجُلَ يُرِيدُ أَنْ يَحُطَّ مِنْ قَدْرِي عِنْدَ النَّاسِ ، لِأَنَّهُمْ طَالَمَا رَأَوْنِي بِدِهْلِيزِهِ خَادِمًا وَمُسَلِّمًا(٣) ، فَكَيْفَ يَرَوْنَهُ الْآنَ فِي دِهْلِيزِي مُعَلِّمًا ؟ وَكَانَ الْمَنْصُورُ يَذْهَبُ بِهِ بَعْدَ نَكْبَتِهِ مَعَهُ فِي غَزَوَاتِهِ ،

---

(١) فى بعض النسخ « أعمى » أى مبهم غير مبين (٢) الهلع : الجزع وقلة الصبر ، أوهو أفحش الجزع وأسوأه، والهلوع هو من يجزع ويفزع من النوازل ولا يصبر على تحمل المصائب (٣) فى الأصل « ومعلما » وهو تكرار مع مابعده « أحمد يوسف نجاتى »

حَتَّى إِنَّهُ حَكَى بَعْضُهُمْ أَنَّهُ رَأَى ٱلْحَاجِبَ ٱلْمُصْحَفِيَّ فِي لَيْلَةٍ نَهَى ٱلْمَنْصُورُ فِيهَا ٱلنَّاسَ عَنْ إِيقَادِ ٱلنِّيرَانِ تَعْمِيَةً عَلَى ٱلْعَدُوِّ ٱلْكَافِرِ وَهُوَ يَنْفُخُ فَحْمًا فِي كَانُونٍ صَغِيرٍ وَيُخْفِيهِ تَحْتَ ثِيَابِهِ، أَوْ كَمَا قَالَ. فَسُبْحَانَ مُدِيلِ(١) ٱلدُّوَلِ! لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ، فَإِنَّ هٰذَا ٱلْمُصْحَفِيَّ بَلَغَ مِنَ ٱلْجَلَالَةِ وَٱلْعِظَمِ وَٱلتَّحَكُّمِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُدَّةَ ٱلْمَدِيدَةَ أَمْرًا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ. وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ.

« وَلَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ عُلَمَاءِ ٱلْمَغَارِبَةِ » أَنَّ مِنْ أَعَاجِيبِ ٱنْقِلَابِ ٱلدُّنْيَا بِأَهْلِهَا قِصَّةَ ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ مَعَ ٱلْحَاجِبِ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ ٱلْمُصْحَفِيِّ. وَلَمْ يَزَلْ أَعْدَاءُ ٱلْمَنْصُورِ ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ يَتَرَبَّصُونَ بِهِ ٱلدَّوَائِرَ(٢)، فَغَلَبَ سَعْدُهُ ٱلَّذِي

(١) أدال الله الدولة: نقلها، وجعلها فى غير من كانت له، وفى بعض النسخ « مزيل » (٢) الدائرة: السوء والشر والهزيمة، وفى القرآن الكريم: « ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء »، وقوله تعالى: « يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة »، ويقال: الدوائر تدور، والدوائل تدول — وتربص الشيء: انتظره وترقبه « أحمد يوسف نجاتى »

هُوَ الْمَثَلُ السَّائِرُ ، وَرُبَّمَا هَمَسَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ بِهَجْوِهِ وَهَجْوِ الدَّوْلَةِ جَمِيعًا إِذْ قَالَ :

اقْتَرَبَ الْوَعْدُ وَحَانَ الْهَلَاكْ
وَكُلُّ مَا تَحْذَرُهُ قَدْ أَتَاكْ[1]
خَلِيفَةٌ يَلْعَبُ فِي مَكْتَبٍ
وَأُمُّهُ حُبْلَى ، وَقَاضٍ يُنَاكْ

يَعْنِي بِالْخَلِيفَةِ هِشَامًا الْمُؤَيَّدَ لِكَوْنِهِ كَانَ صَغِيرًا . وَأُمُّهُ صُبْحُ الْبَشْكَنْسِيَّةُ[2] كَانَ الْأَعْدَاءُ يَتَّهِمُونَ بِهَا الْمَنْصُورَ ، وَذَلِكَ بُهْتَانٌ وَزُورٌ ، وَأَفْظَعُ مِنْهُمْ رَمْيُهُمُ الْقَاضِيَ بِالْفُجُورِ . وَاللهُ عَالِمٌ بِسَرَائِرِ الْأُمُورِ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ أَلْسِنَةِ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ لَا يُرَاعُونَ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً[3] ، وَيُطْلِقُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فِي الْعُلَمَاءِ وَالْأَئِمَّةِ :

---

(١) من قوله تعالى : « واقترب الوعد الحق » وفى الأصل « اقترب الوقت » (٢) سبق القول فى « البشكنس » وفى السيدة صبح — وفى الأصل « البشتكية » مصحفا محرره « أحمد يوسف نجاتى » :

(٣) الال: العهد والحلف وللقرابة ، ومنه قوله تعالى : «لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة » ، والال: كل ماله ذمة وحق وحرمة كالقرابة والرحم والجوار والعهد ، وهو من ألك اذا اجتهدت فى الشيء وحافظت عليه ولم تضيعه

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ كَانَ حَاسِدًا

لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ(١)

جَدِيرٌ بِأَلَّا يُدْرِكَ مَا يُؤَمِّلُ وَيَتَطَلَّبُ . لِأَنَّهُ يَعْتَرِضُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِي أَحْكَامِهِ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ أَنْفُسِنَا وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ بِجَاهِ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ أَزْكَى صَلَوَاتِ اللهِ وَأَفْضَلُ سَلَامِهِ . وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْمَنْصُورَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ كَانَ يَخْدُمُ أَوَّلًا جَعْفَرَ بْنَ عُثْمَانَ الْمُصْحَفِيَّ مُدَبِّرَ مَمْلَكَةِ هِشَامٍ الْمُؤَيَّدِ وَيُرِيهِ النَّصِيحَةَ ، وَأَنَّهُ مَازَالَ يَسْتَجْلِبُ الْقُلُوبَ بِجُودِهِ وَحُسْنِ خُلُقِهِ ، وَالْمُصْحَفِيُّ يُنَفِّرُهَا بِبُخْلِهِ وَسُوءِ خُلُقِهِ ، إِلَى

(١) هذا بيت للمتنبي من قصيدة فى مدح كافور أولها:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

ثم قال : وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا الخ، يقول ان أشد الظلم وأقبحه أن يحسد المرء كريما أنعم عليه، ومنعما يتقلب فى احسانه ، فهو يعيش رافلا فى حلل نعمه، ومع هذا يبيت حاسدا له ، ولن تخرج النفس الخبيثة من الدنيا حتى تسىء الى من أحسن اليها . هذاوفى بعض المراجع لم يأت بالبيت ، بل أخذ بعضه فقال : ومن كان حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلب جدير الخ ــ وما هنا يكون « جدير » خبرا لمبتدأ محذوف ، أى فهوجدير الخ أو والحاسد جدير ونحو ذلك . « أحمد يوسف نجاتى » .

أَنْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، فَاسْتَوْلَى عَلَى ٱلْحِجَابَةِ وَسَجَنَ ٱلْمُصْحَفِيَّ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ٱلْمُصْحَفِيُّ :

شيء من شعر المصحفي

غَرَسْتُ قَضِيبًا خِلْتُهُ عُودَ كَرْمَةٍ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ فِي ٱلْحَوَادِثِ قَيِّمَا
أُكَرِّمُهُ دَهْرِي فَيَزْدَادُ خُبْثُهُ
وَلَوْ كَانَ مِنْ أَصْلٍ كَرِيمٍ تَكَرَّمَا

وَلَمَّا يَئِسَ ٱلْمُصْحَفِيُّ مِنْ عَفْوِ ٱلْمَنْصُورِ قَالَ :

لِي مُدَّةٌ لَا بُدَّ أَبْلُغُهَا
فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُهَا مُتُّ
لَوْ قَابَلَتْنِي ٱلْأُسْدُ ضَارِيَةً[1]
وَٱلْمَوْتُ لَمْ يَقْرُبْ لَمَا خِفْتُ
فَٱنْظُرْ إِلَيَّ وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ
فِي مِثْلِ حَالِكَ أَمْسِ قَدْ كُنْتُ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا نَعَى بِهِ نَفْسَهُ قَوْلُهُ ـ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ :

(١) أي متعودة الصيد والافتراس ، وكلب ضار بالصيد اذا تطعم بلحمه

صَبَرْتُ عَلَى ٱلْأَيَّامِ حَتَّى تَوَلَّتِ
وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتِ
فَوَا عَجَبًا لِلْقَلْبِ ! كَيْفَ ٱعْتِرَافُهُ
وَلِلنَّفْسِ بَعْدَ ٱلْعِزِّ كَيْفَ ٱسْتَذَلَّتِ ؟
وَمَا ٱلنَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا ٱلْفَتَى
فَإِنْ طَمِعَتْ تَاقَتْ ، وَإِلَّا تَسَلَّتِ
وَكَانَتْ عَلَى ٱلْأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً
فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى ٱلذُّلِّ ذَلَّتِ
فَقُلْتُ لَهَا : يَا نَفْسُ مُوتِي كَرِيمَةً
فَقَدْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا لَنَا ثُمَّ وَلَّتِ

وَأَنْشَدَ لَهُ ٱلْفَتْحُ فِي ٱلْمَطْمَحِ ـ وَنَسَبَهُمَا غَيْرُهُ لِأَحْمَدَ بْنِ ٱلْفَرَجِ صَاحِبِ ٱلْحَدَائِقِ[1] :

كَلَّمَتْنِي فَقُلْتُ : دُرٌّ سَقِيطٌ
فَتَأَمَّلْتُ عِقْدَهَا هَلْ تَنَاثَرْ[2] ؟

(١) تقدم شرح الأبيات الماضية، كما سبق ترجمة أحمد بن الفرج

(٢) تشبيه قد أحسن التصرف فيه، ونقل تشبيه الحديث والثغر بالدر من

فَازْدَهَاهَا تَبَسُّمٌ ، فَأَرَتْنِي
نَظْمَ دُرٍّ مِنَ التَّبَسُّمِ آخَرْ

وَلَهُ كَمَا مَرَّ (١):

صَفْرَاءُ تُطْرِقُ فِي الزُّجَاجِ ، فَإِنْ سَرَتْ
فِي الْجِسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ صِلٍّ لَادِغِ
خَفِيَتْ عَلَى شُرَّابِهَا فَكَأَنَّمَا
يَجِدُونَ رَيًّا مِنْ إِنَاءٍ فَارِغِ

الابتذال لشهرته الى الغرابة بهذا الخيال البديع والتصرف الحسن . وهو من قول البحترى :

ولما التقينا والنقا موعد لنا تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

والصحفى قد زاد أن ربط التبسم الذى أظهر ثغرها بالحديث الذى كلمته به اذ جعل تبسمها ناشئا عن اعجابها بسروره من حديثها واعجابه به حتى التبس عليه دره بدر عقدها ، وجعل الدرين منتظمين فى عقد ملتئمين فى نسق ، والبحترى قد أحسن الصياغة أيضا وان سلك طريقا آخر بديعا. والبيت الأول مثل قول حمدونة الأندلسية فى وصف حصباء روض

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

ومن اللطيف فى ذلك قول الآخر :

وتحيرت أحسب الثغر عقدا لسليمى وأحسب العقد ثغرا
فلثمت الجميع قطعا لشكى وكذا فعل كل من يتحرى

وازدهاها ، و زهاها، أى استخفها وحملها على الزهو أى الاعجاب والتيه .
« أحمد يوسف نجاتى » (١) سبق شرح البيتين

وَلَهُ :

يَاذَا ٱلَّذِي أَوْدَعَنِي سِرَّهُ   لَا تَرْجُ أَنْ تَسْمَعَهُ مِنِّي
لَمْ أُجْرِهِ بَعْدَكَ فِي خَاطِرِي   كَأَنَّهُ مَا مَرَّ فِي أُذْنِي

وَأَنْشَدَ لَهُ صَاحِبُ بَدَائِعِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ :

سَأَلْتُ نُجُومَ ٱللَّيْلِ هَلْ يَنْقَضِي ٱلدُّجَى
فَخَطَّتْ جَوَابًا بِالثُّرَيَّا كَخَطِّ لَا ؟
وَكُنْتُ أَرَى أَنِّي بِآخِرِ لَيْلَتِي
فَأَطْرَقَ حَتَّى خِلْتُهُ عَادَ أَوَّلَا(١)
وَمَا عَنْ هَوًى سَامَرْتُهَا ، غَيْرَ أَنَّنِي
أَنَا فِيهَا ٱلْمَجْرَى إِلَى طُرُقِ ٱلْعُلَا

انْتَهَى

(١) أطرق عليه الليل «والأكثر اطرق على وزن افتعل » اذا تراكم ظلامه وركب بعضه بعضا ، أو استعار أطرق الليل من أطرق الرجل اذا سكت وأغضى وأقبل ببصره الى صدره ساكنا لا يتحرك . وتطارق الظلام : تتابع . هذا ويصح أيضا « فأطبق » أى عم ظلامه وشمل السكون ، وأطبقت نجومه أى كثرت غير متحركة، ويقال بات يرعى طبق النجوم أى يرعاها ويرقب حالها فى مسيرها . هذا وقد أحسن المصحفى فى تشبيه الثريا ، وفى حسن تعليله لسهره فى البيت الثالث. « أحمد يوسف نجاتى »

***

المصحف العثماني بقرطبة

« رَجْعٌ » وَكَانَ - كَمَا تَقَدَّمَ - بِقُرْطُبَةَ الْمُصْحَفُ الْعُثْمَانِيُّ وَهُوَ مُتَدَاوَلٌ بَيْنَ(١) أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ، قَالُوا ثُمَّ آلَ أَمْرُهُ إِلَى الْمُوَحِّدِينَ ، ثُمَّ إِلَى بَنِي مَرِينَ . قَالَ الْخَطِيبُ ابْنُ مَرْزُوقٍ(٢) فِي كِتَابِ الْمُسْنَدِ الصَّحِيحِ الْحَسَنِ مَا مُلَخَّصُهُ: وَكَانَ السُّلْطَانُ أَبُو الْحَسَنِ لَا يُسَافِرُ مَوْضِعًا إِلَّا وَمَعَهُ الْمُصْحَفُ الْكَرِيمُ الْعُثْمَانِيُّ ، وَلَهُ عِنْدَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ شَأْنٌ عَظِيمٌ وَمَقَامٌ كَبِيرٌ ، وَكَيْفَ لَا ؟ قَالَ ابْنُ بَشْكُوَالَ : أُخْرِجَ هٰذَا(٣) الْمُصْحَفُ الْعُثْمَانِيُّ مِنْهَا - أَيْ قُرْطُبَةَ - وَغُرِّبَ عَنْهَا ، وَكَانَ بِجَامِعِهَا الْأَعْظَمِ - لَيْلَةَ السَّبْتِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ

(١) فى بعض النسخ « متواتر عند » بدل « متداول بين »

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسى ، كان خطيبا مشهورا ، واستوزره السلطان أبو سالم المرينى المتوفى سنة ٧٦٢ وألقى اليه زمام دولته . « أحمد يوسف نجاتى » . (٣) فى الأصل «ويقال ان ابن بشكوال أخرج هذا المصحف» الخ وهو تحريف وزيادة مفسدة وظلم لابن بشكوال المؤرخ الذى قص علينا حديث اخراج المصحف من قرطبة فى حياته ، وانما نقله عبد المؤمن بن على. وتقدمت ترجمة خلف ابن عبد الملك بن بشكوال ، وكان مولده سنة ٤٩٤ ، وتوفى سنة ٥٧٨ . وهو ثقة فى أخبار الأندلس ومعرفة رجالها ، واسع الرواية عظيم الدراية ولاسيما فيما يتعلق بمدينة قرطبة . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، فِي أَيَّامِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ وَبِأَمْرِهِ ، وَهٰذَا أَحَدُ الْمَصَاحِفِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا عُثْمَانُ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ إِلَى الْأَمْصَارِ : مَكَّةَ ، وَالْبَصْرَةِ ، وَالْكُوفَةِ ، وَالشَّامِ . وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ فِيهِ دَمَ عُثْمَانَ بَعِيدٌ ، وَإِنْ يَكُنْ أَحَدَهَا فَلَعَلَّهُ الشَّامِيُّ ، قَالَ(١) ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ . قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ التُّجِيبِيُّ السَّبْتِيُّ : أَمَّا الشَّامِيُّ فَهُوَ بَاقٍ بِمَقْصُورَةِ جَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ بِدِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ ، وَعَايَنْتُهُ هُنَاكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ : كَمَا عَايَنْتُ الْمَكِّيَّ بِقُبَّةِ الْيَهُودِيَّةِ وَهِيَ قُبَّةُ الشَّرَابِ(٢)

---

(١) وفى نسخة « قاله » (٢) وفى نسخة « قبة التراب » وقد نقل هذا النص صاحب كتاب الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى قال : « قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبي السبتي : أما الشامي فهو باق بمقصورة جامع بني أمية بدمشق، وعاينته هنالك سنة ٦٥٧ كما عاينت المكي بقبة الشراب ، قال فلعله الكوفي أو البصري « قال الخطيب ابن مرزوق في كتاب المسند الصحيح الحسن : اختبرت الذي بالمدينة والذي نقل من الأندلس فألفيت خطهما سواء .. الى قوله .. على كتب المصحف . اهـ» وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان لما سقف الجامع بعد أن فرغ من بنائه قد جعل باطن سقفه مبطنا بالذهب، فقال له بعض أهله: أتعبت الناس بعدك فى حليه كل سنة فيخشى أن يخرب سريعا، فأمر الوليد أن يسقف بالرصاص ، وأن يجمع الرصاص الذي فى البلاد جهد الطاقة ليجعله عوض الطين، فوصل اليه، وبقي موضع لم يجد له رصاصا ، فكتب الى عماله يحرضهم

« قُلْتُ » عَايَنْتُهُمَا مَعَ ٱلَّذِى بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَقَرَأْتُ فِيهِمَا . قَالَ ٱلنَّخَعِىُّ : لَعَلَّهُ ٱلْكُوفِىُّ أَوِ ٱلْبَصْرِىُّ ، وَأَقُولُ : أَخْتَبَرْتُ ٱلَّذِى بِالْمَدِينَةِ وَٱلَّذِى نُقِلَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ فَأَلْفَيْتُ خَطَّهُمَا سَوَاءً ، وَمَا تَوَهَّمُوهُ مِنْ أَنَّهُ خَطُّهُ بِيَمِينِهِ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، فَلَمْ يَخُطَّ عُثْمَانُ وَاحِدًا

على طلبه ، فكتب اليه بعضهم : انا وجدنا عند امرأة يهودية شيئا منه كثيرا قد ورثته ، وأبت أن تبيعه الا بوزنه فضة ، فأمر الوليد بشرائه بماقالت ، فلما رأت المرأة الاسرائيلية ذلك قالت : هو هدية منى للجامع فانى أحب أن يكون لى فيه شىء فى حب الله تعالى ، فقد كنت أظن أن صاحبكم يظلم الناس فى بنائه ويأخذ أموالهم ، ولكنى رأيت منكم الوفاء وعلمت أن صاحبكم مخلص فى بنائه صادق فى حب الله تعالى . ويقال انه كتب على الرصاص الذى أهدته تلك الاسرائيلية المحسنة « لله » مطبوعا . هذا وفى سنة ٩٢٢ حدثت ملك الشام نفسه أن فى القبة الغربية فى صحن المسجد مالا ففتحها فلم يجد غير أوراق مكتوبة بالخط الكوفى من القرآن الكريم وهى نسخ جزيلة ، فأخذ الناس بعض ذلك وأعادوا الباقى . وكان لايزال الى أواخر هذا القرن الهجرى بعض قطع من المصاحف الشريفة بتلك القبة التى فى صحن الجامع بالقلم الكوفى ، ولكنها مالبثت أن حملت الى الآستانة كلها ولم يبق منها شىء ، وفى سنة ١٣١١ احترق المسجد ولم يبق فيه شىء من الآثار ، وفى أواخر عهد السلطان عبدالحميد رحمه الله اقترحت الحكومة الألمانية على الحكومة التركية بمشورة بعض المستشرقين الألمان أن تفتح القبة التى فى الشمال الغربى من صحن المسجد ، فوجد فيها بعض الصكوك والمصاحف الشريفة وبعض المخطوطات القديمة . « أحمد يوسف نجاتى »

مِنْهَا، وَإِنَّمَا جَمَعَ عَلَيْهَا بَعْضًا مِنْ اُلصَّحَابَةِ ـ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَى ظَهْرِ اُلْمَدَنِيِّ . وَنَصُّ مَا عَلَى ظَهْرِهِ : هَذَا مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اُللهِ صَلَّى اُللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مِنْهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَعَبْدُ اُللهِ بْنُ اُلزُّبَيْرِ ، وَسَعِيدُ بْنُ اُلْعَاصِي . وَذَكَرَ اُلْعَدَدَ اُلَّذِي جَمَعَهُ عُثْمَانُ ـ رَضِيَ اُللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ مِنَ اُلصَّحَابَةِ ـ رَضِيَ اُللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ـ عَلَى كَتْبِ اُلْمُصْحَفِ. اُنْتَهَى . وَاُعْتَنَى بِهِ عَبْدُ اُلْمُؤْمِنِ بْنُ عَلِيٍّ ، وَلَمْ يَزَلِ اُلْمُوَحِّدُونَ يَحْمِلُونَهُ فِي أَسْفَارِهِمْ مُتَبَرِّكِينَ بِهِ إِلَى أَنْ حَمَلَهُ اُلْمُعْتَضِدُ (١) وَهُوَ اُلسَّعِيدُ عَلِيُّ بْنُ اُلْمَأْمُونِ أَبِي اُلْعَلَاءِ

(١) اليك خلاصة تاريخ الخلفاء من الموحدين وأخبار تنقل المصحف الشريف. لما توفى المهدى سنة ٥٢٤ قام بالأمر بعده عبد المؤمن بن على الكومى « من كومية : قبيلة بربرية هم بنو عمزناتة »وتسمى سنة ٥٢٨ بأمير المؤمنين ، وتوفى سنة ٥٥٨ فتولى الأمر بعده ابنه أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن ، وتوفى سنة ٥٨٠ فبويع ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وتوفى سنة ٥٩٥ فبويع لولده أبى عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله ، وتوفى سنة ٦١٠ فبويع ابنه أبو يعقوب يوسف المنتصر بالله ، وتوفى سنة ٦٢٠ فبويع للسيد أبى محمد عبد الواحد ابن يوسف بن عبد المؤمن ، ولكنه خلع وتوفى سنة ٦٢١ وبويع لأبى محمد عبد الله العادل بن المنصور يعقوب . وتوفى سنة ٦٢٤ فبويع لأبى العلاء ادريس المأمون بن يعقوب المنصور ، وتوفى سنة ٦٢٩ فبويع ابنه

الرشيد عبد الواحد ، وتوفى سنة ٦٤٠ فبويع أخوه لأبيه أبو الحسن على السعيد بن المأمون بن المنصور « وهو هذا الملقب بالمعتضد بالله » وكان يغمراسن بن زيان الزناتى قد اقتطع المغرب الأوسط وأقام به الدعوة الحفصية فأراد السعيد أن يخلصه منه، فسار اليه بجيوشه ونهض من مراكش آخر سنة ٦٤٥ وقصد أولا يريد مكناسة لحرب بنى مرين وكانوا قد تغلبوا على ضواحى المغرب ، فلما انتهى من أمرهم عسكر بظاهر فاس، ثم ارتحل عنها فى المحرم سنة ٦٤٦ يريد تلمسان، و بينما كان محاصرا لها وقد ضيق الخناق عليها ركب مهجرا فى وقت القيلولة على حين غفلة من الناس ليطوف بالقلعة ويستقرى مكانها، فبصر به فارس من بنى عبد الواد يعرف بيوسف الشيطان كان بأسفل الجبل « الذى اعتمده السعيد بعساكره » منيخا فى ساحة القلعة بقصد الحراسة ، واتفق أن يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب ابن جابر كانا قريبين منه، فعرفوا السعيد فانقضوا عليه من بعض الشعاب أمثال العقبان ، وطعنه يوسف الشيطان فكبه عن فرسه، ثم استلحموا مواليه و بعض أولاده، وذلك فى أواخر شهر صفر سنة ٦٤٦ وقضى السعيد نحبه من جراحه، وانتهب المعسكر ومافيه، واستولى بنو عبد الواد على ما كان فيه من الأسلاب والغنائم والأثاث الثمين ،واختص يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خاصة دون قومه ، واستولى على الذخيرة التى كانت فيه ومنها هذا المصحف الشريف الذى يقال انه أحد المصاحف التى نسخت فى عهد سيدنا عثمان رضى الله عنه، وانه كان فى خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ، ثم صار فى ذخائر لمتونة فيما صار اليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس ، ثم صار الى ذخائر الموحدين من يد لمتونة ، فانتقل فى هذه الحادثة الى زيان و بنى عبد الواد ملوك تلمسان، ثم صار الى بنى مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان ، وذلك عند غلب السلطان أبى الحسن المرينى على تلمسان سنة ٧٣٧ فحصل المصحف الشريف عنده ، فكان يتبرك به و يحمله فى أسفاره على العادة، الى أن أصيب فى وقعة طريف الى آخر ماهنا . وفى سنة ٧٥٠ ركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس قافلا

الى المغرب بعد استيلائه على افريقية — وكان ذلك فى ابان ثورة البحر وهياجه — فغرقت مراكبه وهلكت نفوس كثيرة، وفقدت نفائس يعز وجود مثلها، ومن ضمنها هذا المصحف الكريم، فاستأثر البحر به، وكان ذلك آخر عهد المغرب ببركته. ولما توفى أبو الحسن السعيد عقد الموحدون البيعة لأبى حفص عمر بن السيد أبى ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ولقب بالمرتضى، واستوزر أخاه السيد أبا اسحق الذى كان وزيرا لأبيهما السعيد من قبل وأسند اليه أمره، وفى أيام المرتضى هذا استولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بنى مرين على أكثر بلاد المغرب، واستفحل أمر بنى مرين وقويت شوكتهم، ثم كانت خطوب لحقت المرتضى حتى قتل سنة ٦٦٥. فبويع لابن عمه أبى العلاء ادريس «الملقب بالواثق والمكنى بأبى دبوس» ابن السيد أبى عبد الله محمد بن السيد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن، وبعد حروب وحوادث قتل أبو دبوس فى آخر سنة ٦٦٧ واستولى بنو مرين على مراكش، وفر الموحدون الذين كانوا بها الى جبل تينملل فبايعوا اسحق بن أبى ابراهيم أخا المرتضى، فبقى الى سنة ٦٧٤ فاستولى على الأمر يعقوب بن عبد الحق المرينى، وانقرضت دولة بنى عبد المؤمن، وذهبت محاسن مراكش يومئذ بذهاب دولتهم، والملك لله يؤتيه من يشاء. وكان السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق سيد بنى مرين، ودامت أيامه حتى توفى سنة ٦٨٤ وقام بالأمر بعده السلطان الناصر لدين الله ابنه يوسف، وتوفى سنة ٧٠٦ فقام بالأمر بعده السلطان أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق، وتوفى سنة ٧٠٨ فتولى بعده السلطان أبو الربيع سليمان بن أبى عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، وتوفى سنة ٧١٠ فقام بالأمر بعده السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، وتوفى سنة ٧٣١ فقام بالأمر بعده السلطان المنصور بالله أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، وهو أرقى ملوك بنى مرين وأعزهم سلطانا وأضخمهم ملكا وأعظمهم أبهة، وأكثرهم آثارا بالمغربين والأندلس وكان الفرنج قد استردوا بعض بلاد الأندلس وثغورها فاستعادها السلطان

إِدْرِيسَ بْنِ يَعْقُوبَ ٱلْمَنْصُورِ حِينَ تَوَجَّهَ لِتِلِمْسَانَ آخِرَ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، فَقُتِلَ قَرِيباً مِنْ تِلِمْسَانَ « وَقُدِّمَ ٱبْنُهُ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ قُتِلَ » وَوَقَعَ ٱلنَّهْبُ فِي ٱلْخَزَائِنِ وَٱسْتَوْلَتِ ٱلْعَرَبُ وَغَيْرُهُمْ عَلَى مُعْظَمِ ٱلْعَسْكَرِ ، وَنُهِبَ ٱلْمُصْحَفُ وَلَمْ يُعْلَمْ مُسْتَقَرُّهُ ، وَقِيلَ إِنَّهُ فِي خِزَانَةِ مُلُوكِ تِلِمْسَانَ . قُلْتُ لَمْ يَزَلْ هَذَا ٱلْمُصْحَفُ فِي خِزَانَةِ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ مُلُوكِ تِلِمْسَانَ إِلَى أَنِ ٱفْتَتَحَهَا إِمَامُنَا أَبُو ٱلْحَسَنِ أَوَاخِرَ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فَظَفِرَ بِهِ وَحَصَلَ عِنْدَهُ إِلَى أَنْ أُصِيبَ فِي وَقْعَةِ طَرِيفٍ ، وَحَصَلَ فِي بِلَادِ بُرْتُقَالَ ، وَأَعْمَلَ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْحِيلَةَ فِي ٱسْتِخْلَاصِهِ

أبو الحسن، وقد تقدم بيان ذلك وأنهم استولوا على جبل الفتح « جبل طارق » سنة ٧٠٩ فاسترد سنة ٧٣٣ وتقدمت وقعة طريف التى محص الله فيها المسلمين، وفيها قتل الأمير أبو مالك أمير الثغور الأندلسية ابن السلطان أبى الحسن سنة ٧٤٠ واحتوى الأعداء على معسكره بما فيه من أموال وذخائر، وكانت ملوك الفرنج قد احتشدوا وظاهرهم صاحب البرتقال وغرب الأندلس، وأتوا أعمالا تبرأ منها الشهامة وتأنف منها المدنية من قتل نساء المسلمين وأطفالهم ، وتوفى السلطان أبو الحسن سنة ٧٥٢ وفى دولته ألف الخطيب ابن مرزوق كتابه المسمى « المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبى الحسن » « أحمد يوسف نجاتى » .

حَتَّى وَصَلَ إِلَى فَاسَ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ عَلَى يَدِ أَحَدِ تُجَّارِ آزَمُّورَ[١] وَاسْتَمَرَّ بَقَاؤُهُ فِي خِزَانَتِهِ إِلَى أَنِ اسْتَوْلَى عَلَى إِفْرِيقِيَّةَ . انْتَهَى بِاخْتِصَارٍ . وَاعْتَنَى بِهِ مُلُوكُ الْمُوَحِّدِينَ غَايَةَ الِاعْتِنَاءِ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رُشَيْدٍ فِي رِحْلَتِهِ ، وَلَا بَأْسَ أَنْ أَذْكُرَ كَلَامَهُ بِجُمْلَتِهِ وَالرِّسَالَةَ فِي شَأْنِ الْمُصْحَفِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْفَائِدَةِ . وَنَصُّ مَحَلِّ الْحَاجَةِ مِنْهُ : أَنْشَدَنِي الْخَطِيبُ أَبُو مُحَمَّدِ[٢] بْنُ بُرْطُلَةَ مِنْ لَفْظِهِ ، وَكَتَبْتُهُ مِنْ خَطِّهِ ، قَالَ أَنْشَدَنِي الشَّيْخُ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ

(١) قال ياقوت : أزمورة « بثلاث ضمات متوالية وتشديد الميم » بلد بالمغرب في جبال البربر ، اهـ قلت كذا ضبطها ياقوت ، ولكن المشهور الذي يؤخذ من قول الشعراء فيها أنها بمد الهمزة ، ومنها الشيخ القدوة أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الملقب بسارية الورع الزاهد المتوفى سنة ٥٦١ وفيه يقول صاحب كتاب الاستقصاء من قصيدة طويلة :

بدر غدا في سماء المجد مكتملا   به علا ذكر آزمور في الوطن

وأقول : وآزمور هذه هي التي التجأ اليها السلطان المرتضى بن السلطان أبي الحسن السعيد لما قوى عليه ابن عمه أبو دبوس ، ونزل فيها على صهر له من بني عطوش كان واليا عليها من قبله وكان متزوجا بابنة المرتضى ، وبناحية آزمور قتل المرتضى سنة ٦٦٥ وكان بها كثير من قبائل صنهاجة « أحمد يوسف نجاتي » .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن موسى بن سليمان بن على بن عبد الملك

عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ كَاتِبِ الْخِلَافَةِ أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ عَيَّاشٍ لِأَبِيهِ(١) – رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى – مِمَّا نَظَمَهُ وَقَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورُ بِتَحْلِيَةِ الْمُصْحَفِ :

وَنُفِّلْتَهُ(٢) مِنْ كُلِّ مُلْكٍ ذَخِيرَةً
كَأَنَّهُمُ كَانُوا بِرَسْمِ مَكَاسِبِهْ

ابن يحي بن عبد الملك بن الحسن بن محمد بن عميرة بن طريف الأزدي من أهل مرسية ولد سنة ٤٨١ وكان شيخا جليلا عالما صالحا ، ورحل الى المشرق سنة ٥١٠ فأدى الفريضة وأخذ عن كثير من العلماء ، وعاد الى مرسية بلده فولى الصلاة بمسجدها الجامع حتى توفى بها سنة ٥٦٣ وابنه أبو بكر عبد الرحمن كان ذا علم وصلاح، تولى قضاء مدينة دانية مدة، وولى الصلاة بجامع مرسية كأبيه، وكان حافظا للحديث راوية متقنا ذا حظ عظيم من الأدب وعلوم اللغة والفقه بليغا نبيلا ، ولد سنة ٥٤٧ وتوفى سنة ٥٩٩ بمدينة مرسية . « أحمد يوسف نجاتى » (١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش التجيبي من أهل برشانة من عمل المرية وسكن مراكش ، ولد سنة ٥٥٠ كان عالما فاضلا ذا عناية بالآداب رئيسا فى صناعة الكتابة خطيبا مصقعا بليغا مفوها شاعرا أديبا واستكتبه السلطان بالمغرب سنه ٥٨٦ فدل على كفاية، ونال دنيا عريضة وجاها عظيما ،وتوفى بمراكش سنة ٦١٨ . وابنه أبو القاسم عبد الرحمن ابن محمد كان فقيها فاضلا، ولى قضاء مرسية وغرناطة وغيرهما، وكان كأبيه خطيبا مصقعا ولسنا بليغا ، ولد سنة ٥٨١ وتوفى سنة ٦٣٦ بمدينة مالقة . «أحمد يوسف نجاتى» (٢) نفلته أى نفلك الله اياه ووهبه لك وآثرك به ويجوز أن يقرأ : وَنَفَّلْتَهُ مِنْ كُلِّ مُلْكِ ذَخِيرَةِ (باضافة ملك الى ذخيرة)

فَإِنْ وَرِثَ ٱلْأَمْلَاكُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
فَكَمْ قَدْ أَخَلُّوا جَاهِلِينَ بِوَاجِبِهْ
وَكَيْفَ يَفُوتُ ٱلنَّصْرُ جَيْشًا جَعَلْتَهُ
أَمَامَ قَنَاهُ فِي ٱلْوَغَى وَقَوَاضِبِهْ!؟
وَأَلْبَسْتَهُ ٱلْيَاقُوتَ وَٱلدُّرَّ حِلْيَةً
وَغَيْرُكَ قَدْ رَوَّاهُ مِنْ دَمِ صَاحِبِهْ(١)

***

كيف وصل المصحف الى دولة الموحدين

وَعَلَى ذِكْرِ هٰذَا ٱلْمُصْحَفِ ٱلْكَرِيمِ فَلْنَذْكُرْ كَيْفِيَّةَ ٱلْأَمْرِ فِي وُصُولِهِ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ، وَمَا أَبْدَى فِي ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلَّتِي لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهَا فِي سَالِفِ ٱلدَّهْرِ حَسْبَمَا أَطْرَفَنَا بِهِ ٱلْوَزِيرُ ٱلْأَجَلُّ أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ طُفَيْلٍ ٱلْقَيْسِيُّ - حَفِظَهُ ٱللهُ وَشَكَرَهُ - مِمَّا ٱسْتَفَادَهُ وَأَفَادَهُ لَنَا مِمَّا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ قَبْلُ، عَنْ كِتَابِ جَدِّهِ ٱلْوَزِيرِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ طُفَيْلٍ ٱلْمَذْكُورِ، مِمَّا تَضَمَّنَهُ مِنْ وَصْفِ قِصَّةِ ٱلْمُصْحَفِ

(١) يشير الى يوم الدار وحادثة قتل سيدنا عثمان رضى الله عنه وهو يقرأ فى المصحف الشريف . « أحمد يوسف نجاتى »

فَقَالَ : وَصَلَ إِلَيْهِمْ ـ أَدَامَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَأْيِيدَهُمْ ـ قَمَرَا ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلنَّيِّرَانِ ، وَأَمِيرَاهَا ٱلْمُتَخَيَّرَانِ ، ٱلسَّيِّدَانِ ٱلْأَجَلَّانِ ، أَبُو سَعِيدٍ وَأَبُو يَعْقُوبَ[1] ـ أَيَّدَهُمَا ٱللهُ ـ وَفِي صُحْبَتِهِمَا مُصْحَفُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ـ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ وَهُوَ ٱلْإِمَامُ ٱلَّذِي لَمْ يَخْتَلِفْ فِيهِ مُخْتَلِفٌ ، وَمَا زَالَ يَنْقُلُهُ خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ ، وَقَدْ حُفِظَ شَخْصُهُ عَلَى كَثْرَةِ ٱلْمُتَنَاوِلِينَ ، وَذَخَرَهُ ٱللهُ لِخَلِيفَتِهِ ٱلْمَخْصُوصِ بِمَنْ سُخِّرَ لِخِدْمَتِهِ مِنَ ٱلْمُتَدَاوِلِينَ ، وَلَهُ مِنْ غَرَائِبِ ٱلْأَنْبَاءِ ، وَمُتَقَدِّمِ ٱلْإِشْعَارِ بِمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ مِنَ ٱلْإِيمَاءِ[2] مَا مُلِئَتْ بِهِ ٱلطُّرُوسُ[3] ، وَتَحَفَّظَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلرَّائِسُ وَٱلْمَرْءُوسُ ، فَتُلُقِّيَ عِنْدَ وُصُولِهِ بِالْإِجْلَالِ وَٱلْإِعْظَامِ ، وَبُودِرَ إِلَيْهِ بِمَا يَجِبُ مِنَ ٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْإِكْرَامِ ، وَعُكِفَ عَلَيْهِ أَطْوَلَ ٱلْعُكُوفِ وَٱلْتُزِمَ أَشَدَّ ٱلِالْتِزَامِ ، وَكَانَ فِي وُصُولِهِ ذَلِكَ ٱلْوَقْتَ مِنْ عَظِيمِ ٱلْعِنَايَةِ وَبَاهِرِ ٱلْكَرَامَةِ مَا هُوَ مُعْتَبَرٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ

(١) هما ولدا السلطان أمير المسلمين عبد المؤمن بن على (٢) فى الأصل « الأثمار » (٣) الطروس : جمع طرس وهو كل ما يكتب فيه

وَبَلاغٌ فِي الْإِغْرَابِ وَالْإِعْجَابِ . وَذَلِكَ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا الْخَلِيفَةَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ(١) - أَدَامَ اللهُ لَهُ عَوَائِدَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ - كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ قَدْ جَرَى ذِكْرُهُ فِي خَاطِرِهِ الْكَرِيمِ ، وَحَرَّكَتْهُ إِلَيْهِ دَوَاعِي خُلُقِهِ الْعَظِيمِ وَتَرَاءَى(٢) مَعَ نَفْسِهِ الْمُطْمَئِنَّةِ الْمَرْضِيَّةِ ، وَسَجَايَاهُ الْحَسَنَةِ الرَّضِيَّةِ ، فِي مَعْنَى اجْتِلَابِهِ مِنْ مَدِينَةِ قُرْطُبَةَ مَحَلِّ مَثْوَاهُ الْقَدِيمِ ، وَوَطَنِهِ الْمُوَصَّلِ بِحُرْمَتِهِ لِلتَّقْدِيمِ ، فَتَوَقَّعَ أَنْ يَتَأَذَّى أَهْلُ ذَلِكَ الْقُطْرِ بِفِرَاقِهِ ، وَيَسْتَوْحِشُوا لِفِقْدَانِ إِضَاءَتِهِ فِي أُفُقِهِمْ وَإِشْرَاقِهِ . فَتَوَقَّفَ عَنْ ذَلِكَ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَإِشْفَاقِهِ ، فَأَوْصَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ تُحْفَةً سَنِيَّةً ، وَهَدِيَّةً هَنِيَّةً ، وَتَحِيَّةً مِنْ عِنْدِهِ مُبَارَكَةً زَكِيَّةً ، دُونَ أَنْ يُكَدِّرَهَا مِنَ الْبَشَرِ اكْتِسَابٌ ، أَوْ يَتَقَدَّمَهَا اسْتِدْعَاءٌ أَوِ اجْتِلَابٌ . بَلْ أَوْقَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي نُفُوسِ أَهْلِ ذَلِكَ الْقُطْرِ مِنَ الْفَرَحِ بِإِرْسَالِهِ إِلَى مُسْتَحِقِّهِ ، وَالتَّبَرُّعِ بِهِ إِلَى الْقَائِمِ

---

(١) هو عبد المؤمن بن علي (٢) في نسخة « وتروى » وخير منهما (وروى) أي فكر « أحمد يوسف نجاتي »

إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِحَقِّهِ ، مَا ٱطُّلِعَ بِالْمُشَاهَدَةِ وَٱلتَّوَاتُرِ عَلَى صِحَّتِهِ وَصِدْقِهِ ، وَعَضَدَتْ مَخَايِلَ بَرْقِهِ سَوَاكِبُ وَدْقِهِ[1] ، وَكَانَ ذٰلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ٱلْخَلِيفَةِ مَعْدُودًا ، وَإِلَى أَمْرِهِ ٱلَّذِى هُوَ أَمْرُ ٱللهِ مَرْدُودًا ، وَٱجْتَمَعَ عِنْدَ ذٰلِكَ بِحَضْرَةِ مُرَّاكِش[2] ـ حَرَسَهَا ٱللهُ تَعَالَى ـ سَائِرُ ٱلْأَبْنَاءِ ٱلْكِرَامِ ، وَٱلسَّادَةِ ٱلْأَعْلَامِ ، بُدُورِ ٱلْآفَاقِ ، وَكَوَاكِبِ ٱلْإِشْرَاقِ ، وَأَهْلِ ٱلِاسْتِئْهَالِ[3] لِلْمَقَامَاتِ ٱلرَّفِيعَةِ وَٱلِاسْتِحْقَاقِ ، فَٱنْتَظَمَ عِنْدَ ذَلِكَ هٰذَا ٱلْقَصِيدُ مُشِيرًا إِلَى ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلدَّرَارِيِّ ٱلزَّاهِرَةِ ، وَٱلْتِئَامِ خُطُوطِهَا عَلَى مَرْكَزِ ٱلدَّائِرَةِ ، وَوُصُولِ

(١) مخايل الشيء علاماته وأماراته ، والودق المطر (٢) كذا ضبطها صاحب كشف الظنون وصاحب كتاب الاستقصاء ، وضبطها ياقوت فى معجمه مرا كش بفتح الميم وضم الكاف (٣) استأهل الشيء :استحقه واستوجبه « وقد أنكر استعماله كثير من اللغويين » وقبله بعضهم ولكن نفى فصاحته ، وقالوا الاستئهال انما هو من الاهالة وهى الشحم ، يقال استأهل اهالته وأحسن ايالته ، ولكن صرح الأزهرى والزمخشرى وغيرهما من أئمة التحقيق بجودة هذه اللغة ، ونطق بها الأعراب ، وتلقاها عنهم الأدباء والشعراء ، ولأبى الهيثم خالد الكاتب يخاطب ابراهيم بن المهدى لما بويع له بالخلافة :

كن أنت للرحمة مستأهلا ان لم أكن منك بمستأهل
أليس من آفة هذا الهوى بكاء مقتول على قاتل

اْلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ ، اْلْمَشْهُورِ فِي جَمِيعِ اْلْمَعْمُورِ أَمْرُهُ ، وَهُوَ هٰذَا :

دَرَارِئُ مِنْ نُورِ اْلْهُدَى تَتَوَقَّدُ
مَطَالِعُهَا فَوْقَ اْلْمَجَرَّةِ أَسْعُدُ(١)
وَأَنْهَارُ جُودٍ كُلَّمَا أَمْسَكَ اْلْحَيَا
أَمَدَّ بِهَا طَامِي اْلْغَوَارِبِ مُزْبِدُ(٢)
وَآسَادُ حَرْبٍ غَابُهَا شَجَرُ اْلْقَنَا
وَلَا لِبَدٌ إِلَّا اْلْعَجَاجُ اْلْمُلَبَّدُ(٣)
مَسَاعِيرُ فِي اْلْهَيْجَا ، مَسَارِيعُ لِلنَّدَى
بِأَيْدِيهِمُ يُحْمَى اْلْهَجِيرُ وَيَبْرُدُ(٤)

(١) الكوكب الدرى هو الثاقب المضيء، منسوب الى الدر لصفائه وحسنه وبهائه وبياضه وشدة إنارته — وسعود النجوم الكواكب التي يقال لكل منها سعد وهي عشرة (٢) طما الماء علا وارتفع ، والبحر الطامي: الغزير ، وغارب كل شيء أعلاه ، وغوارب الماء أعالى موجه ، يقال بحر ذو غوارب ، شبه بغوارب الابل ، وأزبد البحر : ثار زبده وهاج موجه (٣) لبدة الأسد: الشعر المتدلى متراكبا بين كتفيه وعجاج ملبد أى متكاثف مجتمع بعضه الى بعض (٤) يقال فلان مسعر حرب اذا أرثها وأوقد نارها أى تحمى به الحرب وتشعل، والهيجاء الحرب — وفى الأصل « مساعير للندى » بدل «مساريع» وهو تحريف غير مناسب «أحمد يوسف نجاتى»

تُشَبُّ بِهِمْ نَارَانِ لِلْحَرْبِ وَالْقِرَى
وَيَجْرِى بِهِمْ سَيْلَانِ جَيْشٌ وَعَسْجَدُ

وَيَسْتَمْطِرُونَ الْبَرْقَ، وَالْبَرْقُ عِنْدَهُمْ
سُيُوفٌ عَلَى أُفْقِ الْعُدَاةِ تُجَرَّدُ

إِذَا مَنَّ سِجْفَ السَّارِيَاتِ مَضَاؤُهَا
فَمَاذَا الَّذِى يُغْنِى الْحَدِيدُ الْمُسَرَّدُ(١)

وَيَسْتَرْشِدُونَ النَّجْمَ، وَالنَّجْمُ عِنْدَهُمْ
نُصُولٌ إِلَى حَبِّ الْقُلُوبِ تُسَدَّدُ

---

(١) فى هذا البيت تصحيف فى بعض كلماته فى كثير من نسخ الأصل ففى بعضها «عن» وفى بعضها «من» وكذلك « الساريات » و « السائرات » ومن الشيء قطعه، والسجف: الستر. والسارية القوم يسرون ليلا كالسرية، وكأنه يقول اذا هتكت هذه السيوف حجب هذه الجيوش ومزقت جموعها السارية لم ينفعها ماتدرىء به من الدروع، ويجوز أن يريد بالساريات السحب فيكون المعنى قريبا من بيت بشار:

اذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

أى اذا مزقت ستار الغيوم ببريقها، أو هتكت حجب الظلام باشراقها فكشفت عن السرايا لم يغنها دروعها التى أحكمت نسجها وقدرت سردها ـ ولعل هذا المعنى الأخير أقرب للمراد، وللقارىء الكريم أن يفهم منه بذكائه مايشاء. « أحمد يوسف نجاتى »

تَزَاحَمُ فِي جَوِّ ٱلسَّمَاءِ كَأَنَّمَا
عَوَامِلُهَا فِي ٱلْأُفْقِ صَرْحٌ مُمَرَّدُ(١)

تَخَازَرُ(٢) أَلْحَاظُ ٱلْكَوَاكِبِ دُونَهَا
وَيَفْرَقُ مِنْهَا ٱلْمِرْزَمَانِ وَفَرْقَدُ

أَلَمْ تَرَهَا فِي ٱلْأُفْقِ خَافِقَةَ ٱلْحَشَا
كَمَا تَطْرِفُ ٱلْعَيْنَانِ، وَٱلْقَلْبُ يُزْأَدُ(٣)

وَلَيْسَ ٱحْمِرَارُ ٱلْفَجْرِ مِنْ أَثَرِ ٱلسَّنَى
وَلَـكِنَّهُ ذَاكَ ٱلنَّجِيعُ ٱلْمُوَرَّدُ(٤)

وَمَا ٱنْبَسَطَتْ كَفُّ ٱلثُّرَيَّا فَدَافَعَتْ
وَلَـكِنَّهَا فِي ٱلْحَرْبِ شِلْوٌ(٥) مُقَدَّدُ

---

(١) عامل الرمح وعاملته صدره دون السنان ، وجمعه عوامل ، وقد يسمى السنان عاملا ، ونصل الرمح حديدته ـ والصرح : القصر أو كل بناء عال. ومرد البناء :سواه وعظمه وجعله أملس ناعما (٢) تخازر اذا نظر بمؤخر عينيه ، أو ضيق جفنه ليحدد النظر ، وفرق « كفرح » خاف ، والمرزمان نجمان مع الشعر يين أحدهما فى الشعرى والآخر فى الذراع، وهما من نجوم المطر ،والفرقد النجم الذى يهتدون به، وهما فرقدان نجمان فى السماء لايغربان، وقد جاء الفرقد فى الشعر مثنى وموحدا ومجموعا (٣) زأده « كمنع » اذا أفزعه وذعره (٤) النجيع الدم ، والمورد الأحمر (٥) الشلو : العضو ، أو جسد الانسان بعد بلاه وتفرق أجزائه ، وقدد

وَحَطَّ سُهَيْلًا ذُعْرُهُ عَنْ سُمِيِّهِ
فَأَضْحَى عَلَى أُفْقِ الْبَسِيطَةِ يُرْعَدُ(١)

وَلَمَّا رَأَى نَسْرٌ وُقُوعَ أَلِيفِهِ
تَطَايَرَ مِنْ خَوْفٍ فَمَا زَالَ يَجْهَدُ(٢)

مَوَاقِعُ أَمْرِ اللهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
يَكَادُ لَهَا رَأْسُ الثَّرَى يَتَمَيَّدُ(٣)

أَهَابَ بِأَقْصَى الْخَافِقَيْنِ فَنُظِّمَتْ
وَهَيَّبَ جَمْعَ الْمُخْفِقِينَ فَبُدِّدُوا(٤)

وَأَضْفَى عَلَى الدُّنْيَا مَلَابِسَ رَحْمَةٍ
نَضَارَتُهَا فِي كُلِّ حِينٍ تُجَدَّدُ(٥)

الشىء أو بدده :فرقهوقطعه (١) لعلها : وحط سهيلا ذعره عن «سموه» أى رفعته ، وأرعده فارتعد أى اضطرب ، وأرعد اذا أخذته الرعـدة وأرعدت فرائصه عند الفزع (٢) يشير بقوله «وقوع أليفه» الى النسر الواقع ، وسبق القول فى النسرين الطائر والواقع (٣) الثرى الأرض وتميد تضطربوتزلزل (٤) أهاب بهم: دعاهم ، والخافقان المشرق والمغرب أوأفقاهما، وقد تـكون «فنظما» أو جمع ضمير الخافقين باعتبار أجزائهما، وهيب أى خوف ، والمخفق من أخفق الرجل اذا غزا فلم يغنم ، ومن لم يدرك حاجته وخاب فى غرضه (٥) ثوب ضاف أى سابغ، وأضفاه أسبغه وأطاله « أحمد يوسف نجاتى »

وَأَخْضَلَ أَرْجَاءَ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا
عَلَيْهَا مِنَ النَّبْتِ النَّضِيرِ زَبَرْجَدُ(١)
فَمِنْ طَرَبٍ مَا أَصْبَحَ الْبَرْقُ بَاسِماً
وَمِنْ فَرَحٍ مَا أَضْحَتِ الْمُزْنُ تُرْعِدُ
وَغَنَّى عَلَى أَفْنَانِ كُلِّ أَرَاكَةٍ
غَذَاهَا حَيَا النُّعْمَى حَمَامٌ مُغَرِّدُ
وَكَبَّرَ ذُو نُطْقٍ ، وَسَبَّحَ صَامِتٌ
وَكَادَ بِهِ الْمَعْدُومُ يُحْيَا وَيُوجَدُ

---

(١) أخضلها أى جعلها خضلة ندية ذات خصب ورى ونعمة وخضرة ناضرة ــ هذا وقد افتن الشاعر أولا وحلق فى سماء الخيال، واستعمل بديع حسن التعليل ولطيف التخييل فى صفات الكواكب وخواصها وأحوالها التى كانت تراها العرب عليها، فالتمس لكل منها علة ترجع الى هيبة الممدوح ورفعة قدره، بعد أن أثنى عليه وعلى بنيه بما رآهم أهلاله من البأس والكرم ، وجعل سيوفهم ورماحهم وأسنتهم بمنزلة ظواهر الطبيعة من برق ورعد ونجم، فهى تعمل عملها وتغنى غناءها ، لا بل انه فضلها عليها وجعل الكواكب تفزع منها على عادة الشعراء فى المبالغة والجرى وراء الخيال ، ثم بين بدائع صنع الله فى خلقه وأسرار حكمته فيها ، وكيف زان الطبيعة بما جعلها باسمة ضاحكة طربة تسبح بحمده وتثنى على آلائه ، ثم تخلص من ذلك الى عودته لمقام الممدوح وذكر فضائله، وبدأ بمؤسس دولة الموحدين الامام محمد المهدى بن تومرت الذى خلفه عبد المؤمن بن على ، فاسمع له بعد ذلك « أحمد يوسف نجاتى »

وَأَبْرَزَ لِلْأَذْهَانِ مَا كَانَ غَائِبًا
فَسِيَّانِ فِيهَا مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدُ
سَلَامٌ عَلَى الْمَهْدِيِّ، أَمَّا قَضَاؤُهُ
فَحَتْمٌ، وَأَمَّا أَمْرُهُ فَمُؤَكَّدُ
إِمَامُ الْوَرَى، عَمَّ الْبَسِيطَةَ عَدْلُهُ
عَلَى حِينِ وَجْهُ الْأَرْضِ بِالْجَوْرِ أَرْبَدُ(١)
بَصِيرٌ رَأَى الدُّنْيَا بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ
فَلَمْ يُغْنِهِ إِلَّا الْمَقَامُ الْمُحَمَّدُ(٢)
وَلَمَّا مَضَى ـ وَالْأَمْرُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ
وَبُلِّغَ مَأْمُولٌ وَأُنْجِزَ مَوْعِدُ
تَرَدَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رِدَاءَهُ
وَقَامَ بِأَمْرِ اللّٰهِ وَالنَّاسُ هُجَّدُ(٣)
بِعَزْمَةِ شَيْحَانِ الْفُؤَادِ(٤) مُصَمِّمٍ
يَقُومُ بِهِ أَقْصَى الْوُجُودِ وَيَقْعُدُ

(١) الربدة: الغبرة (٢) يشير الى قوله تعالى «عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا» وفى الأصل «المحمد» بدل «المحمد» أى الذى يكثر الناس حمده والثناء عليه (٣) الهجود: النوم والراحة (٤) الشيحان الغيور الحذر

مَشِيئَتُهُ مَا شَاءَهُ ٱللّٰهُ ، إِنَّهُ
إِذَ هَمَّ فَٱلْحُكْمُ ٱلْإِلٰهِيُّ يُسْعِدُ
كَتَائِبُهُ مَشْفُوعَةٌ بِمَلَائِكٍ
تُرَادِفُهَا فِي كُلِّ حَالٍ وَتُرْفِدُ (١)
وَمَا ذَاكَ إِلَّا نِيَّةٌ خَلَصَتْ لَهُ
فَلَيْسَ لَهُ فِيمَا سِوَى ٱللّٰهِ مَقْصِدُ
إِذَا خَطَبَتْ رَايَاتُهُ وَسْطَ مَحْفِلٍ
تَرَى قِمَمَ ٱلْأَعْدَاءِ فِي ٱلتُّرْبِ تَسْجُدُ
وَإِنْ نَطَقَتْ بِالْفَصْلِ فِيهِمْ سُيُوفُهُ
أَقَرَّ بِأَمْرِ ٱللّٰهِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ
مُعِيدُ عُلُومِ ٱلدِّينِ بَعْدَ ٱرْتِفَاعِهَا
وَمُبْدِي عُلُومٍ لَمْ تَكُنْ قَبْلُ تعهَدُ
وَبَاسِطُ أَنْوَارِ ٱلْهِدَايَةِ فِي ٱلْوَرَى
وَقَدْ ضَمَّ قُرْصَ ٱلشَّمْسِ فِي ٱلْغَرْبِ مُلْحَدُ (٢)

الجاد فى الأمور القوى النفس (١) ترادفها تتبعها : وترفدها، تعينها. وفى الأصل « تزاد بها » بدل « ترادفها » ولا بأس بها لولا فوات الجناس مع ترفد «وهو مقصد للشاعر »ومعنى المرادفة الاتباع والملازمة (٢) الملحد القبر،

وَقَدْ كَانَ ضَوْءُ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا
يُغَانُ بِأَكْنَانِ الضَّلَالِ وَيُغْمَدُ (١)

فَمَا زَالَ يَجْلُو عَنْ مَطَالِعِهَا الصَّدَا
وَيُبْرِزُهَا بَيْضَاءَ وَالْجَوُّ أَسْوَدُ

جَزَى اللهُ عَنْ هَذَا الْأَنَامِ خَلِيفَةً
بِهِ شَرِبُوا مَاءَ الْحَيَاةِ فَخُلِّدُوا

وَحَيَّاهُ مَا دَامَتْ مَحَاسِنُ ذِكْرِهِ
عَلَى مَدْرَجِ الْأَيَّامِ تُتْلَى وَتُنْشَدُ (٢)

بِمُصْحَفِ عُثْمَانَ الشَّهِيدِ وَجَمْعِهِ
تَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ بِالْحَقِّ يُعْضَدُ

جعل ما كان عليه الغرب من الضلال ظلاما حالكا حتى كأن الشمس فيه قد قبرت أو غربت فيه ثم لم تشرق، فأخرجت هدايته الناس من الظلمات الى النور « والملحد العادل عن الحق المدخل فيه ماليس منه »

(١) الغين: الغيم، وأغان الغيم السماء اذا ألبسها وغطاها، وغانت السماء اذا طبقها الغيم وحجبها السحاب، والأكنان جمع كن وهو الستر، هذا وقد كان عجز البيت بالأصل هكذا « يغار بأكناف » ولعل مارأيناه أحسن وأظهر وأكثر ملاءمة للكلام « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) على مدرج الأيام أى مسيرها وانقضائها وانطوائها — ومنه الريح الدروج وهى السريعة المرور، والمدرج: المسلك والمذهب والممر

تَحَامَتْهُ أَيْدِى ٱلرُّومِ بَعْدَ ٱنْتِسَافِهِ
وَقَدْ كَادَ لَوْلَا سَعْدُهُ يَتَبَدَّدُ
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَمَرَّسَ صَارِخٌ
بِدَعْوَتِهِ ٱلْعُلْيَا فَصِينَ ٱلْمُبَدَّدُ (١)
وَجَاءَ وَلِىُّ ٱلثَّأْرِ يَرْغَبُ نَصْرَهُ
فَلَبَّاهُ مِنْهُ عَزْمُهُ ٱلْمُتَجَرِّدُ
رَأَى أَثَرَ ٱلْمَسْفُوحِ فِى صَفَحَاتِهِ
فَقَامَ لِأَخْذِ ٱلثَّأْرِ مِنْهُ مُؤَيَّدُ
وَشَبَّهَهُ بِالْبَدْرِ وَقْتَ (٢) خُسُوفِهِ
فَلِلّٰهِ تَشْبِيهٌ لَهُ ٱلشَّرْعُ يَشْهَدُ
زَمَانَ ٱرْتِفَاعِ ٱلْعِلْمِ كَانَ خُسُوفُهُ
وَقَدْ عَادَ بِالْمَهْدِىِّ وَٱلْعَوْدُ أَحْمَدُ (٣)

---

(١) تمرس به : اذا تمسح واختلط — ويقال أيضا تمرس فلان بدينه اذا لعب به وتعبث «وما بفلان متمرس اذا نعت بالجلد والشدة حتى لا يقاومه من مارسه لأنه قد مارس النوائب والخصومات» (٢) فى الأصل «قبل» (٣) يريد أن المصحف الشريف كالبدر مادام ظاهرا بين المسلمين فهم على هدى ونور ، فاذا غاب عنهم واختفى كانوا كأنهم فى خسوف وظلام ، ولما استرد السلطان المصحف

أَتَتْكَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَلُوكَةٌ (١)
مِنَ ٱلْحَرَمِ ٱلْأَقْصَى لِأَمْرِكَ تَمْهَدُ
سُيُوفُ بَنِي عَيْلَانَ قَامَتْ شَهِيرَةً (٢)
لِدَعْوَتِكَ ٱلْعَلْيَاءِ تَهْدِي وَتُرْشِدُ
وَطَافَتْ بِبَيْتِ ٱللهِ ، فَاشْتَدَّ شَوْقُهُ
إِلَيْكَ ، وَلَبَّى مِنْهُ حِجْرٌ وَمَسْجِدُ
وَحَجَّ إِلَيْكَ ٱلرُّكْنُ وَٱلْمَرْوُ وَٱلصَّفَا
فَأَنْتَ لِذَاكَ ٱلْحَجِّ حَجٌّ وَمَقْصِدُ
مَشَاعِرُهَا ٱلْأَجْسَامُ، وَٱلرُّوحُ أَمْرُكُمْ
وَمِنْكُمْ لَهَا يَرْضَى ٱلْمَقَامُ ٱلْمُخَلَّدُ ؟
فَلِلّٰهِ حَجٌّ وَٱعْتِمَارٌ وَزَوْرَةٌ
أَتَتْنَا وَلَمْ يَبْرَحْكَ بِالْغَرْبِ مَشْهَدُ

أعاد البدر الى بزوغه واشراقه ، فعاد العلم للناس بعد أن كان قد ارتفع وعمهم جهل حالك سواده (١) الألوكة : الرسالة ، ومهد الفراش « كمنع » بسطه ووطأه وأعده، ومهد لنفسه اذا كسب وعمل، وتمهيد الأمر تسويته واصلاحه (٢) عيلان أبو قيس وهو الياس بن مضر بن نزار ، وسيوف شهيرة أي مشهورة مستلة من أغمادها « أحمد يوسف نجاتي »

وَلِلّٰهِ سَبْعٌ نَيِّرَاتٌ تَقَارَنَتْ
بِهَا فِئَةُ ٱلْإِسْلَامِ تُحْمَى وَتَسْعَدُ[١]
إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِنَاءَكَ عِصْمَةٌ
فَمَاذَا ٱلَّذِي يَرْجُو ٱلْقَصِيُّ ٱلْمُبْعَدُ!؟
فَدُمْ لِلْوَرَى غَيْثًا وَعِزًّا وَرَحْمَةً
فَقُرْبُكَ فِي ٱلدَّارَيْنِ مُنْجٍ وَمُسْعِدُ
وَزَادَتْ بِكَ ٱلْأَعْيَادُ حُسْنًا وَبَهْجَةً
كَأَنَّكَ لِلْأَعْيَادِ زِيٌّ مُجَدَّدُ
وَلَا زِلْتَ لِلْأَيَّامِ تُبْلِي جَدِيدَهَا
وَعُمْرُكَ فِي رَيْعَانِهِ[٢] لَيْسَ يَنْفَدُ

***

ثُمَّ إِنَّهُمْ ـ أَدَامَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ تَأْيِيدَهُمْ ، وَوَصَلَ سُعُودَهُمْ ـ لِمَا أَرَادُوا مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي تَعْظِيمِ ٱلْمُصْحَفِ ٱلْمَذْكُورِ ، وَٱسْتِخْدَامِ ٱلْبَوَاطِنِ وَٱلظَّوَاهِرِ فِيمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ ٱلتَّوْقِيرِ وَٱلتَّعْزِيرِ[٣] ، شَرَعُوا فِي ٱنْتِخَابِ كُسْوَتِهِ ، انتخاب كسوة المصحف

(١) يريد أبناء السلطان عبد المؤمن وفى نسخة « تحيا » مكان « تحمى »
(٢) ريعان الشباب : أوله ومقتبله وريعان كل شيء أفضله (٣) التعزير : التعظيم والتوقير، وفى التنزيل «فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه» الآية « أحمد يوسف نجاتى »

وَأَخَذُوا فِي اخْتِيَارِ حِلْيَتِهِ ، وَتَأَنَّقُوا فِي اسْتِعْمَالِ أَحْفِظَتِهِ ، وَبَالَغُوا فِي اسْتِجَادَةِ أَصْوِنَتِهِ [١] ، فَحَشَرُوا لَهُ الصُّنَّاعَ الْمُتْقِنِينَ وَالْمَهَرَةَ الْمُتَفَنِّنِينَ ، مِمَّنْ كَانَ بِحَضْرَتِهِمُ الْعَلِيَّةِ ، وَسَائِرِ بِلَادِهِمُ الْقَرِيبَةِ وَالْقَصِيَّةِ ، فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ حُذَّاقُ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَمَهَرَةُ كُلِّ طَائِفَةٍ ؛ مِنَ الْمُهَنْدِسِينَ وَالصَّوَّاغِينَ، وَالنَّظَّامِينَ وَالْحَلَّائِينَ [٢] وَالنَّقَّاشِينَ وَالْمُرَصِّعِينَ، وَالنَّجَّارِينَ وَالزَّوَّاقِينَ [٣] وَالرَّسَّامِينَ وَالْمُجَلِّدِينَ ، وَعُرَفَاءِ الْبَنَّائِينَ . وَلَمْ يَبْقَ مَنْ يُوصَفُ بِبَرَاعَةٍ ، أَوْ يُنْسَبُ إِلَى الْحِذْقِ فِي صِنَاعَةٍ ، إِلَّا أُحْضِرَ لِلْعَمَلِ فِيهِ ، وَالِاشْتِغَالِ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِيهِ ، فَاشْتَغَلَ أَهْلُ الْحِيَلِ الْهَنْدَسِيَّةِ بِعَمَلِ أَمْثِلَةٍ مُخْتَرَعَةٍ ، وَأَشْكَالٍ مُبْتَدَعَةٍ ، وَضَمَّنُوهَا مِنْ غَرَائِبِ الْحَرَكَاتِ ، وَخَفِيِّ إِمْدَادِ الْأَسْبَابِ لِلْمُسَبَّبَاتِ ، مَا بَلَغُوا فِيهِ مُنْتَهَى طَاقَتِهِمْ ، وَاسْتَفْرَغُوا فِيهِ جُهْدَ قُوَّتِهِمْ ، وَالْهِمَّةُ الْعَلِيَّةُ

(١) الأصونة جمع صنوان وهو مايصان فيه الشيء، كالأحفظة جمع حفاظ
(٢) الذين يصنعون الحلية (٣) فى الأصل « الزراقين » مصحفة « أحمد يوسف نجاتى » .

أَدَامَ اللهُ سُمُوَّهَا ـ تَتَرَقَّى فَوْقَ مَعَارِجِهِمْ (١) ، وَتَتَخَلَّصُ كَالشِّهَابِ الثَّاقِبِ وَرَاءَ مَوَالِجِهِمْ (٢) ، وَتُنِيفُ عَلَى مَا ظَنُّوهُ الْغَايَةَ الْقُصْوَى مِنْ لَطِيفِ مَدَارِجِهِمْ ، فَسَلَكُوا مِنْ عَمَلِ هٰذِهِ الْأَمْثِلَةِ كُلَّ شِعْبٍ ، وَرَأَبُوا مِنْ مُنْتَشِرِهَا كُلَّ شَعْبٍ (٣) وَأَشْرَفُوا عِنْدَ تَحْقِيقِهَا وَإِبْرَازِ دَقِيقِهَا عَلَى كُلِّ صَعْبٍ ، فَكَانَتْ مِنْهُمْ وَقْفَةٌ كَادَتْ لَهَا النَّفْسُ تَيْأَسُ عَنْ مَطْلَبِهَا ، وَالْخَوَاطِرُ تَكِرُّ رَاجِعَةً عَنْ خَفِيِّ مَذْهَبِهَا ، حَتَّى أَطْلَعَ اللهُ خَلِيفَتَهُ فِي خَلْقِهِ ، وَأَمِينَهُ الْمُرْتَضَى لِإِقَامَةِ حَقِّهِ ، عَلَى وَجْهٍ انْقَادَتْ فِيهِ تِلْكَ الْحَرَكَاتُ بَعْدَ اعْتِيَاصِهَا (٤) ، وَتَخَلَّصَتْ أَشْكَالُهَا عَنِ الِاعْتِرَاضِ عَلَى أَحْسَنِ وُجُوهِ خَلَاصِهَا ، أَلْقَوْا ذٰلِكَ ـ أَيَّدَهُمُ اللهُ بِنَصْرِهِ ، وَأَمَدَّهُمْ بِمَعُونَتِهِ وَيُسْرِهِ ـ إِلَى الْمُهَنْدِسِينَ وَالصُّنَّاعِ فَقَبِلُوهُ أَحْسَنَ الْقَبُولِ ، وَتَصَوَّرُوهُ بِأَذْهَانِهِمْ

---

(١) عرج في السلم ونحوه، والمعرج الدرجة والسلم ونحوها «كقعد» عروجا ومعرجا اذا ارتقى (٢) جمع مولج اسم مكان من ولج ولوجا اذا دخل، وهو هنا مكان معنوي يريد به ما يصلون اليه من نتيجة تفكيرهم ، وما يهتدون اليه من بحثهم وعنايتهم (٣) الشعب «بالكسر» الطريق، والشعب «بالفتح» التفرق والصدع ، ورأبه أصلحه (٤) اعتاص الشيء : صعب ولم ينقد ، واعتاص الأمر اشتد والتوى ولم يهتد للصواب فيه.

فرأوه على مطابقة المأمول ، فوقفهم حسن تنبيهه مما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وسيأتى بعد هذا إشارة إلى تفصيل تلك الحركات المستغربة ، والأشكال المونقة المعجبة — إن شاء الله تعالى — مما صنع للمصحف العظيم من الأصونة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنه كسى كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذى صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه بعضها بعضا ، قد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومى ما لم يعهد له فى العصر الأول مثال ، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع إليها أجزاؤه وتلتئم ، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم ، قد أسلست(١) للتحرك أعطافها ، وأحكم إنشاؤها على البغية وانعطافها ، ونظم على صفحته(٢) وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس

(١) أسلست أى جعلت سلسة أى سهلة لينة ذات انقياد ، وفى الأصل « أميلت » (٢) صفحة كل شىء جانبه ووجهه وعرضه ، وفى بعض النسخ «صحيفته» ولا بأس بها، وصحيفة الوجه : بشرة جلده «أحمد يوسف نجاتى»

الدُّرِّ وَعَظِيمِ الزُّمُرُّدِ مالَمْ تَزَلِ الْمُلُوكُ السَّالِفَةُ وَالْقُرُونُ الْخَالِيَةُ تتنافسُ فِي أَفْرَادِهِ ، وَتَتَوَارَثُهُ عَلَى مُرُورِ الزَّمَنِ وَتَرْدَادِهِ ، وَتَظُنُّ الْعِزَّ الْأَقْعَسَ[1] وَالْمُلْكَ الْأَنْفَسَ فِي ادِّخَارِهِ وَإِعْدَادِهِ ، وَتُسَمِّي الْوَاحِدَ مِنْهَا بَعْدَ الْوَاحِدِ بِالِاسْمِ الْعَلَمِ لِشُذُوذِهِ فِي صِنْفِهِ[2] وَاتِّحَادِهِ ، فَانْتَظَمَ عَلَيْهِ مِنْهَا مَاشَاكَلَهُ زُهْرُ الْكَوَاكِبِ فِي تَلَأْلُؤِهِ وَاتِّقَادِهِ ، وَأَشْبَهَهُ الرَّوْضُ الْمُزَخْرَفُ غِبَّ سَمَاءٍ أَقْلَعَتْ عَنْ إِمْدَادِهِ[3] وَأَتَى هَذَا الصِّوَانُ الْمَوْصُوفُ رَائِقَ الْمَنْظَرِ ، آخِذًا بِمَجَامِعِ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ ، مُسْتَوْلِيًا بِصُورَتِهِ الْغَرِيبَةِ عَلَى جَمِيعِ الصُّوَرِ ، يُدْهِشُ الْعُقُولَ بَهَاءً ، وَيُحَيِّرُ الْأَلْبَابَ رُوَاءً[4] وَيَكَادُ يُعْشِي[5] النَّاظِرَ تَأَلُّقًا وَضِيَاءً ، فَحِينَ تَمَّتْ خِصَالُهُ ، وَاشْتَرَكَتْ أَوْصَالُهُ[6] ، وَحَانَ ارْتِبَاطُهُ بِالْمُصْحَفِ الْعَظِيمِ وَاتِّصَالُهُ

(١) عز أقعس ثابت ، وعزة قعساء « والأقعس الرجل العزيز المنيع » .
(٢) فى الأصل « صنعه » وشذوذه : انفراده وخروجه عن نظائره فى الحسن والنفاسة (٣) غب : بعد ، وأقلعت : أمسكت وكفت ، ولا يخفى ما فى الفقرتين من التشبيه المقلوب وحسنه (٤) الرواء جمال الشكل وحسن المنظر (٥) أعشى بصره : أضعفه ، وجعله أعشى ، وعشا عن الشىء يعشو اذا ضعف بصره عنه ، وعشا عن النار : أعرض ومضى عن ضوئها (٦) جمع وصل « بكسر الواو وضمها » أى مفصل .

رَأَوْا ـ أَدَامَ ٱللهُ تَأْيِيدَهُمْ وَأَعْلَى كَلِمَتَهُمْ ـ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللهُ تَعَالَى مِنْ مُلَاحَظَةِ ٱلْجِهَاتِ، وَٱلْإِشْرَافِ عَلَى جَمِيعِ ٱلثَّنِيَّاتِ، أَنْ يُتَلَطَّفَ فِي وَجْهٍ يَكُونُ بِهِ هَـذَا ٱلصِّوَانُ ٱلْمَذْكُورُ طَوْرًا مُتَّصِلًا، وَطَوْرًا مُنْفَصِلًا، وَيَتَأَتَّى بِهِ لِلْمُصْحَفِ ٱلشَّرِيفِ ٱلْعَظِيمِ أَنْ يَبْرُزَ تَارَةً لِلْخُصُوصِ مُتَبَذِّلًا، وَتَارَةً لِلْعُمُومِ مُتَجَمِّلًا، إِذْ مَعَارِجُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلِاسْتِبْصَارِ تَخْتَلِفُ، وَكُلٌّ لَهُ مَقَامٌ إِلَيْهِ يَنْتَهِي وَعِنْدَهُ يَقِفُ، فَعُمِلَ فِيهِ عَلَى مُشَاكَلَةِ(١) هٰذَا ٱلْمَقْصِدِ، وَتُلُطِّفَ فِي تَتْمِيمِ هٰذَا ٱلْغَرَضِ ٱلْمُعْتَمَدِ، وَكُسِيَ ٱلْمُصْحَفُ ٱلْعَزِيزُ بِصِوَانٍ لَطِيفٍ مِنَ ٱلسُّنْدُسِ ٱلْأَخْضَرِ، ذِي حِلْيَةٍ عَظِيمَةٍ خَفِيفَةٍ تُلَازِمُهُ فِي ٱلْمَغِيبِ وَٱلْمَحْضَرِ، وَرُتِّبَ تَرْتِيبًا يَتَأَتَّى مَعَهُ أَنْ يُكْسَى بِالصِّوَانِ ٱلْأَكْبَرِ، فَيَلْتَئِمُ بِهِ ٱلْتِئَامًا يُغَطِّي عَلَى ٱلْعَيْنِ مِنْ هٰذَا ٱلْأَثَرِ، وَكَمَلَ ذٰلِكَ كُلُّهُ عَلَى أَجْمَلِ ٱلصِّفَاتِ وَأَحْسَنِهَا وَأَبْدَعِ ٱلْمَذَاهِبِ وَأَتْقَنِهَا، وَصُنِعَ لَهُ مَحْمِلٌ غَرِيبُ ٱلصَّنْعَةِ

---

(١) فى بعض النسخ «شاكلة» ولعلها ألطف أخذا من قوله تعالى: «قل كل يعمل على شاكلته» والشاكلة: الشكل والطريقة والجهة «أحمد يوسف نجاتى»

بَدِيعُ ٱلشَّكْلِ وَٱلصِّبْغَةِ(١) ، ذُو مَفَاصِلَ يَنْبُو عَنْ دِقَّتِهَا ٱلْإِدْرَاكُ ، وَيَشْتَدُّ(٢) بِهَا ٱلِارْتِبَاطُ بَيْنَ ٱلْمَفْصِلَيْنِ وَيَصِحُّ ٱلْإِشْتِرَاكُ، مُغَشًّى كُلُّهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلتَّرْصِيعِ ، وَفُنُونٍ مِنَ ٱلنَّقْشِ ٱلْبَدِيعِ ، فِي قِطَعٍ مِنَ ٱلْآبَنُوسِ وَٱلْخَشَبِ ٱلرَّفِيعِ ، لَمْ تُعْمَلْ قَطُّ فِي زَمَانٍ مِنَ ٱلْأَزْمَانِ ، وَلَا ٱنْتَهَتْ قَطُّ إِلَى أَيْسَرِهِ نَوَافِذُ(٣) ٱلْأَذْهَانِ ، مُدَارٌ بِصَنْعَةٍ قَدْ أُجْرِيَتْ فِي صَفَائِحِ ٱلذَّهَبِ ، وَٱمْتَدَّتْ ٱمْتِدَادَ ذَوَائِبِ ٱلشُّهُبِ ، وَصُنِعَ لِذَلِكَ ٱلْمَحْمِلِ كُرْسِيٌّ يَحْمِلُهُ عِنْدَ ٱلِانْتِقَالِ ، وَيُشَارِكُهُ فِي أَكْثَرِ ٱلْأَحْوَالِ ، مُرَصَّعٌ مِثْلُ تَرْصِيعِهِ ٱلْغَرِيبِ ، وَمُشَاكِلٌ لَهُ فِي جَوْدَةِ ٱلتَّقْسِيمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْتِيبِ ، وَصُنِعَ لِذَلِكَ كُلِّهِ تَابُوتٌ يَحْتَوِي عَلَيْهِ ٱحْتِوَاءَ ٱلْمِشْكَاةِ عَلَى أَنْوَارِهَا ، وَٱلصُّدُورِ عَلَى مَحْفُوظِ أَفْكَارِهَا ، مُكَعَّبُ ٱلشَّكْلِ سَامٍ فِي ٱلطُّولِ ، حَسَنُ ٱلْجُمْلَةِ وَٱلتَّفْصِيلِ ، بَالِغٌ مَا شَاءَ مِنَ ٱلتَّتْمِيمِ

(١) أو «والصيغة» يعنى الصنع أوالهيئة (٢) فى الأصل « ويشهد » ولا بأس بها الآن « يشتد » أولى هنا (٣) أى الأذهان النافذة فى الأشياء المتوقدة ذكاء تنفذ الى حجب الغيب فتدركها . وفى الأصل « تواقد»

فِي أَوْصَالِهِ وَٱلتَّـكْمِيلِ ، جَارٍ مَجْرَى ٱلْمَحْمِلِ(١) فِي ٱلتَّزْيِينِ وَٱلتَّجْمِيلِ ، وَلَهُ فِي أَحَدِ غَوَارِبِهِ بَابٌ رُكِّبَتْ عَلَيْهِ دَفَّتَانِ(٢) قَدْ أُحْكِمَ ٱرْتِتَاجُهُمَا(٣) ، وَيُسِّرَ بَعْدَ ٱلْإِبْهَامِ ٱنْفِرَاجُهُمَا ، وَلِانْفِتَاحِ هَذَا ٱلْبَابِ وَخُرُوجِ هَذَا ٱلْكُرْسِيِّ مِنْ تِلْقَائِهِ وَتَرَكُّبِ ٱلْمَحْمِلِ عَلَيْهِ مَا دُبِّرَتِ ٱلْحَرَكَاتُ ٱلْهَنْدَسِيَّةُ ، وَتُلُقِّيَتِ ٱلتَّنْبِيهَاتُ ٱلْقُدْسِيَّةُ ، وَٱنْتَظَمَتِ ٱلْعَجَائِبُ ٱلْمَعْنَوِيَّةُ وَٱلْحِسِّيَّةُ ، وَٱلْتَأَمَتِ ٱلذَّخَائِرُ ٱلنَّفِيسَةُ وَٱلنَّفْسِيَّةُ ، وَذَلِكَ أَنَّ بِأَسْفَلِ هَاتَيْنِ ٱلدَّفَّتَيْنِ فَيْصَلًا(٤) فِيهِ مَوْضِعٌ قَدْ أُعِدَّ لَهُ مِفْتَاحٌ لَطِيفٌ يَدْخُلُ فِيهِ ، فَإِذَا أُدْخِلَ ذَلِكَ ٱلْمِفْتَاحُ فِيهِ وَأُدِيرَتْ بِهِ ٱلْيَدُ ٱنْفَتَحَ ٱلْبَابُ بِٱنْعِطَافِ

(١) مع صحة المعنى بكلمة «المحمل» يخيل الى أن الأولى أن تكون «المثل» مراعاة لقوله : التتميم ،والتكميل ، والجملة ، والتفصيل ، لأنه يلمح الى ماهو معروف من أنواع الأطناب وأسمائها الاصطلاحية ، ومنها التذييل الجاري مجرى المثل ، ومنها التتميم والتكميل والتفصيل بعد الاجمال ، والمعنى مع هذا أبلغ كما لا يخفى «أحمد يوسف نجاتي» (٢) دفتان أي صفحتان وجانبان ، ومنه ما بين دفتي المصحف كلام الله تعالى (٣) أي اغلاقهما ، وفي الأصل «ارتجاجهما» (٤) كذا بالأصل، ولعله «فصيلا» والفصيل القطعة، وقد يصح أن يكون مأخوذا من الفصيل وهو حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد، والفيصل : الفاصل. «أحمد يوسف نجاتي»

ٱلدَّفَّتَيْنِ إِلَى دَاخِلِ ٱلدَّفَّتَيْنِ مِنْ تِلْقَاَئِهِمَا ، وَخَرَجَ ٱلْكُرْسِيُّ مِنْ ذَاتِهِ بِمَا عَلَيْهِ إِلَى أَقْصَى غَايَتِهِ ، وَفِي خِلَالِ خُرُوجِ ٱلْكُرْسِيِّ يَتَحَرَّكُ عَلَيْهِ ٱلْمَحْمِلُ حَرَكَةً مُنْتَظِمَةً مُقْتَرِنَةً بِحَرَكَتِهِ ، يَأْتِي بِهَا مِنْ مُؤَخَّرِ ٱلْكُرْسِيِّ زَحْفًا إِلَى مُقَدَّمِهِ فَإِذَا كَمَلَ ٱلْكُرْسِيُّ بِالْخُرُوجِ وَكَمَلَ ٱلْمَحْمِلُ بِالتَّقَدُّمِ عَلَيْهِ ٱنْغَلَقَ ٱلْبَابُ بِرُجُوعِ ٱلدَّفَّتَيْنِ إِلَى مَوْضِعِهِمَا مِنْ تِلْقَاَئِهِمَا دُونَ أَنْ يَمَسَّهُمَا أَحَدٌ[1] ، وَتَرْتِيبُ هَذِهِ ٱلْحَرَكَاتِ ٱلْأَرْبَعِ عَلَى حَرَكَةِ ٱلْمِفْتَاحِ فَقَطْ دُونَ تَكَلُّفِ شَيْءٍ آخَرَ ، فَإِذَا أُدِيرَ ٱلْمِفْتَاحُ إِلَى خِلَافِ ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي أُدِيرَ إِلَيْهَا أَوَّلًا ٱنْفَتَحَ « أَوَّلًا[2] » ٱلْبَابُ ، وَأَخَذَ ٱلْكُرْسِيُّ فِي ٱلدُّخُولِ وَٱلْمَحْمِلُ فِي ٱلتَّأَخُّرِ عَنْ مُقَدَّمِ ٱلْكُرْسِيِّ إِلَى مُؤَخَّرِهِ ، فَإِذَا عَادَ كُلٌّ إِلَى مَكَانِهِ ٱنْسَدَّ ٱلْبَابُ بِالدَّفَّتَيْنِ أَيْضًا مِنْ تِلْقَائِهِ ، كُلُّ ذَلِكَ يَتَرَتَّبُ عَلَى حَرَكَةِ ٱلْمِفْتَاحِ كَالَّذِي كَانَ فِي حَالِ خُرُوجِهِ ، وَصَحَّتْ هٰذِهِ ٱلْحَرَكَاتُ ٱللَّطِيفَةُ عَلَى أَسْبَابٍ وَمُسَبَّبَاتٍ غَائِبَةٍ عَنِ ٱلْحِسِّ فِي بَاطِنِ

(١) فى بعض النسخ « وترتبت » (٢) كلمة « أولا » ليست فى كثير من النسخ « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْـكُرْسِيِّ ، وَهِيَ مِمَّا يَدِقُّ وَصْفُهَا وَيَصْعُبُ ذِكْرُهَا ، أَظْهَرَتْهَا بَرَكَاتُ هَذَا ٱلْأَمْرِ ٱلسَّعِيدِ ، وَتَنْبِيهَاتُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ٱلْخَلِيفَةِ ـ أَدَامَ ٱللّٰهُ تَعَالَى أَمْرَهُمْ ، وَأَعَزَّ نَصْرَهُمْ ـ .

***

بناء المسجد الجامع

وَفِي خِلَالِ ٱلِاشْتِغَالِ ، بِهَذِهِ ٱلْأَعْمَالِ ، ٱلَّتِي هِيَ غُرَرُ ٱلدَّهْرِ ، وَفَرَائِدُ (١) ٱلْعُمُرِ ، أَمَرُوا ـ أَدَامَ ٱللّٰهُ تَعَالَى تَأْيِيدَهُمْ ـ بِبِنَاءِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ بِحَضْرَةِ مُرَّاكِشَ ـ حَرَسَهَا ٱللّٰهُ تَعَالَى ـ فَبُدِئَ بِبِنَائِهِ وَتَأْسِيسِ قِبْلَتِهِ فِي ٱلْعَشْرِ ٱلْأُوَلِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَكَمَلَ مُنْتَصَفَ شَعْبَانَ ٱلْمُكَرَّمِ مِنَ ٱلْعَامِ ٱلْمَذْكُورِ عَلَى أَكْمَلِ ٱلْوُجُوهِ وَأَغْرَبِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَفْسَحِ ٱلْمِسَاحَةِ وَأَبْعَدِ ٱلْبِنَاءِ وَٱلنِّجَارَةِ ، وَفِيهِ مِنْ شَمْسِيَّاتِ ٱلزُّجَاجِ وَدَرَجَاتِ ٱلْمِنْبَرِ وَسِيَاجِ ٱلْمَقْصُورَةِ مَا لَوْ عُمِلَ فِي ٱلسِّنِينَ ٱلْعَدِيدَةِ لَاسْتُغْرِبَ تَمَامُهُ ، فَكَيْفَ فِي هَذَا ٱلْأَمَدِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي

(١) الفريدة : الجوهرة النفيسة كأنها مفردة فى نوعها . والشذرة تفصل بين اللؤلؤ والذهب فى نحو العقد ، والفريد الدر اذا نظم وفصل بغيره وهو هنا مستعار لأنفس شيء عمل فى العمر وأثمن ما صنع فيه ، وفى بعض النسخ « فوائد » . « أحمد يوسف نجاتى »

لَمْ يَتَخَيَّلْ أَحَدٌ مِنَ ٱلصُّنَّاعِ أَنْ يَتِمَّ فِيهِ فَضْلًا عَنْ بِنَائِهِ وَصُلِّيَتْ فِيهِ صَلَاةُ ٱلْجُمُعَةِ مُنْتَصَفَ شَعْبَانَ ٱلْمَذْكُورِ ، وَنَهَضُوا — أَدَامَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ تَأْيِيدَهُمْ — عَقِبَ ذَلِكَ لِزِيَارَةِ ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُكَرَّمَةِ ، وَٱلرَّوْضَةِ ٱلْمُعَظَّمَةِ ، بِمَدِينَةِ تِينْمَلَّلَ(١) — أَدَامَ ٱللهُ رِفْعَتَهَا — فَأَقَامُوا بِهَا بَقِيَّةَ شَعْبَانَ ٱلْمُكَرَّمِ ، وَأَكْثَرَ شَهْرِ رَمَضَانَ ٱلْمُعَظَّمِ ، وَحَمَلُوا فِي صُحْبَتِهِمْ ٱلْمُصْحَفَ ٱلْعَزِيزَ وَمَعَهُ مُصْحَفُ ٱلْإِمَامِ ٱلْمَهْدِيِّ ٱلْمَعْلُومِ — رَضِيَ ٱللهُ

---

(١) تينملل: جبال بالمغرب كان بها قرى ومزارع يسكنها البربر، بين أولها ومراكش كان سرير ملك بني عبد المؤمن بن علي، وبها كان أول خروج المهدي محمد بن تومرت الذي أقام الدولة. ولما توفي صارت لعبد المؤمن ثم لولده كما تقدم. وتجد ترجمة المهدي في وفيات الأعيان لابن خلكان، ويقال انه كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت عثر عليه عند أبي حامد الغزالي، وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله ويكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ي، ن م ل ل، وتوفي سنة ٥٢٤ ودفن بذلك الجبل، وكان قبره هناك مشهورا مقصودا بالزيارة، وكان له شعر، منه قوله :

فكم أنت تنهى ولا تنتهي   وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى   تسن الحديد ولا تقطع

والبيت الثاني مثل جيد لمن يعظ غيره ولا يعظ نفسه «أحمد يوسف نجاتي»

تَعَالَى عَنْهُ — فِي ٱلتَّابُوتِ ٱلْمَوْصُوفِ ، إِذْ كَانَ قَدْ صُنِعَ لَهُ غُرْفَةٌ فِي أَعْلَاهُ ، وَأُحْكِمَتْ فِيهِ إِحْكَامًا كَمَلَ بِهِ مَعْنَاهُ ، وَٱجْتَمَعَ فِي مِشْكَاتِهِ فَعَادَ ٱلنُّورُ إِلَى مُبْتَدَاهُ ، وَخُتِمَ ٱلْقُرْآنُ ٱلْعَزِيزُ فِي مَسْجِدِ ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْلُومِ خَتَمَاتٍ كَادَتْ لَا تُحْصَى لِكَثْرَتِهَا . وَهُنَا ٱنْتَهَى مَا وَجَدْنَاهُ مِنْ هَـذَا ٱلْمَكْتُوبِ . ثُمَّ قَالَ ٱبْنُ رُشَيْدٍ بَعْدَ إِيرَادِ مَا تَقَدَّمَ مَا صُورَتُهُ : نَجَزَتِ ٱلرِّسَالَةُ فِي ٱلْمُصْحَفِ ٱلْعَظِيمِ ، وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ . ٱنْتَهَى مَحَلُّ ٱلْحَاجَةِ مِنْهُ .

***

وداع أهل قرطبة

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ٱلشَّيْخِ ٱلْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ ٱلْحَقِّ ٱبْنِ غَالِبِ بْنِ عَطِيَّةَ(١) يَسْتَوْدِعُ أَهْلَ قُرْطُبَةَ :

---

(١) تقدمت ترجمته فى أثناء كلامنا فى بنى عطية بالجزء الثانى ، وهو فقيه حافظ محدث أديب شاعر بليغ عالم جليل ، ومن شعر أبيه له وقد غاب عنه مجاهدا :

يانازح الدار لم يحفل بمن نزحت ... دموعه طارقات الهم والفكر
غيبت شخصك عن عينى فما ألفت ... من بعد مرآك غير الدمع والسهر
قد كان أولى جهاد فى مواصلتى ... لاسيما عند ضعف الجسم والكبر
اعتل سمعى وجال الضر فى بصرى ... بالله كن أنت لى سمعى وكن بصرى

ومن شعر أبى محمد عبد الحق :

داء الزمان وأهله ... داء يعز له العلاج

أَسْتَوْدِعُ ٱللّٰهَ أَهْلَ قُرْطُبَـةٍ
حَيْثُ عِهِدْتُ ٱلْحَيَاءَ وَٱلْـكَرَمَا
وَٱلْجَامِـعَ ٱلْأَعْظَمَ ٱلْعَتِيقَ وَلَا
زَالَ مَدَى ٱلدَّهْرِ مَأْمَنًا حَرَمَا

***

حديث أبى الحسن الأشعرى القرطبى

وَقَالَ أَبُو ٱلرَّبِيعِ بْنُ سَالِمٍ (١) حَدَّثَنِي بِذَٰلِكَ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَبْدُ ٱلرَّحْمَٰنِ بْنُ رَبِيعٍ (٢) ٱلْأَشْعَرِيُّ، قَالَ: أَنْشَدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ

أطلعت فى ظلمانه   رأيا كما سطع الزجاج
لمعاشر أعيـا ثقا   فى من قناتهم اعوجاج
كالدر ما لم تختبر   فاذا اختبرت فهم زجاج

وكنا وعدنا باستقصاء القول فى بنى عطية، وسننجز وعدنا قريبا ان شاء الله . وتوفى عبد الحق سنة ٥٤١ . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميرى الـكلاعى البلنسى، كان اماما محدثا مؤرخا أديبا كاتبا بليغا شاعرا خطيبا مفوها مبرزا فى فنون كثيرة، ذا جاه وحسن شارة ، وجيها عند الملوك يتـكلم عنهم فى مجالسهم وينبىء عما يريدون على المنابر وفى المحافل ، فهو لسانهم الناطق وخطيبهم المؤثر ، وله تآليف ممتعة فى الحديث والأدب والأخبار وتراجم الرجال ويعد هو آخر الحفاظ والبلغاء المترسلين بالأندلس، ولد سنة ٥٦٥ واستشهد بالقرب من بلنسية مقبلا غير مدبر سنة ٦٣٤ رحمه الله «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) أبو الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى

اُبْنُ عَطِيَّةَ لِنَفْسِهِ ـ فَذَكَرَهُمَا بَعْدَ أَنْ قَالَ : إِنَّهُ لَمَّا أَزْمَعَ اُلْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَطِيَّةَ اُلِارْتِحَالَ عَنْ قُرْطُبَةَ قَصَدَ اُلْمَسْجِدَ اُلْجَامِعَ وَأَنْشَدَ اُلْبَيْتَيْنِ ـ اُنْتَهَى . وَقَالَ اُبْنُ عَطِيَّةَ أَيْضًا ـ رَحِمَهُ اُللهُ تَعَالَى ـ :

بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ اُلْأَمْصَارَ قُرْطُبَةٌ
وَهُنَّ قَنْطَرَةُ اُلْوَادِي وَجَامِعُهَا
هَاتَانِ ثِنْتَانِ ، وَاُلزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ
وَاُلْعِلْمُ أَكْبَرُ شَيْءٍ وَهُوَ رَابِعُهَا

وَقَدْ تَقَدَّمَ إِنْشَادُنَا لِهَذَيْنِ اُلْبَيْتَيْنِ مِنْ غَيْرِ نِسْبَتِهِمَا لِأَحَدٍ . وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي أَخْبَارِ اُلزَّاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ مَا قَدَّمْنَاهُ مَا حَكَاهُ عَنْ نَفْسِهِ اُلْوَزِيرُ اُلْكَاتِبُ أَبُو اُلْمُغِيرَةِ بْنُ حَزْمٍ (١) قَالَ : نَادَمْتُ يَوْمًا اُلْمَنْصُورَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ فِي مُنْيَةِ اُلسُّرُورِ

القرطبي كان شيخا جليلا محدثا فقيها ، له تأليف مفيد فى مشيخته ومن أخذ عنه ، ولما أزمع القاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع متبركا ومودعا ، وكان أبو الحسن هذا ممن مشى معه فأنشده البيتين المذكورين بالجامع ارتجالا ، ولد ابن ربيع سنة ٥١٩ وتوفى سنة ٥٨٥ . « أحمد يوسف نجاتى » . (١) تقدمت ترجمته

بِالزَّاهِرَةِ ذَاتِ الْحُسْنِ النَّضِيرِ ، وَهِيَ جَامِعَةٌ بَيْنَ رَوْضَةٍ وَغَدِيرٍ ، فَلَمَّا تَضَمَّخَ النَّهَارُ بِزَعْفَرَانِ الْعَشِيِّ ، وَرَفْرَفَ غُرَابُ اللَّيْلِ الدَّجُوجِيِّ(١) . وَأَسْبَلَ اللَّيْلُ جُنْحَهُ ، وَتَقَلَّدَ السِّمَاكُ(٢) رُمْحَهُ ، وَهَمَّ النَّسْرُ بِالطَّيَرَانِ ، وَعَامَ فِي الْأُفُقِ زَوْرَقُ الزِّبْرِقَانِ(٣) ، أَوْقَدْنَا مَصَابِيحَ الرَّاحِ ، وَاشْتَمَلْنَا مُلَاءَ الِارْتِيَاحِ ، وَلِلدَّجْنِ(٤) فَوْقَنَا رُوَاقٌ مَضْرُوبٌ ، فَغَنَّتْنَا عِنْدَ ذَلِكَ جَارِيَةٌ تُسَمَّى أُنْسَ الْقُلُوبِ . وَقَالَتْ :

قَدِمَ اللَّيْلُ عِنْدَ سَيْرِ النَّهَارِ
وَبَدَا الْبَدْرُ مِثْلَ نِصْفِ سِوَارِ(٥)

---

(١) شديد السواد (٢) يريد السماك الرامح ، وسبق وصفه (٣) القمر قال الشاعر :

تضىء له المنابر حين يرقى ... عليها مثل ضوء الزبرقان

(٤) الدجن: ظل الغيم فى اليوم المطير ، أو المطر الكثير (٥) تذكرت هنا قول الشاعر وأحسن :

قلت لما انثنت لمغربها الشمـ ... ـس ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا ... را فأعطى الرهان نصف سوار

وهو خيال بديع ، لايفوقه الا صوت أنس القلوب بهذا الشعر الرائق .
« أحمد يوسف نجاتى » .

فَكَأَنَّ ٱلنَّهَارَ صَفْحَةُ خَدٍّ
وَكَأَنَّ ٱلظَّلَامَ خَطُّ عِذَارِ
وَكَأَنَّ ٱلْكُؤُوسَ جَامِدُ مَاءٍ
وَكَأَنَّ ٱلْمُدَامَ ذَائِبُ نَارِ
نَظَرِى قَدْ جَنَى عَلَىَّ ذُنُوباً
كَيْفَ مِمَّا جَنَتْهُ عَيْنِى ٱعْتِذَارِى!؟
يا لَقَوْمِى تَعَجَّبُوا مِنْ غَزَالٍ
جَائِرٍ فِى مَحَبَّتِى وَهُوَ جَارِى
لَيْتَ لَوْ كَانَ لِى إِلَيْهِ سَبِيلُ
فَأُقَضِّى مِنَ حُبِّهِ أَوْطَارِى

قَالَ: فَلَمَّا أَكْمَلَتِ ٱلْغِنَا، أَحْسَسْتُ بِالْمَعْنَى، فَقُلْتُ:

كَيْفَ كَيْفَ ٱلْوُصُولُ لِلأَقْمَارِ
بَيْنَ سُمْرِ ٱلْقَنَا وَبِيضِ ٱلشِّفَارِ(١)
لَوْ عَلِمْنَا بِأَنَّ حُبَّكِ حَقٌّ
لَطَلَبْنَا ٱلْحَيَاةَ فِيكِ(٢) بِثَارِ

(١) جمع شفر: وشفرة السيف حده. (٢) فى نسخة « منك »

وَإِذَا مَا ٱلْـكِرَامُ هَمُّوا بِشَىْءٍ
خَاطَرُوا بِالنُّفُوسِ فِى ٱلْأَخْطَارِ

***

قَالَ : فَعِنْدَذٰلِكَ بَادَرَ ٱلْمَنْصُورُ لِحُسَامِهِ، وَغَلَّظَ فِى كَلَامِهِ المنصور والجارية
وقَالَ لَهَا : قُولِى وَٱصْدُقِى إِلَى مَنْ تُشِيرِينَ ، بِهٰـذَا ٱلشَّوْقِ وَٱلْحَنِينِ ! فَقَالَتِ ٱلْجَارِيَةُ : إِنْ كَانَ ٱلْـكَذِبُ أَنْجَى ، فَالصِّدْقُ أَحْرَى وَأَوْلَى ، وَٱللّٰهِ مَا كَانَتْ إِلَّا نَظْرَةٌ ، وَلَّدَتْ فِى ٱلْقَلْبِ فِـكْرَةً ، فَتَـكَلَّمَ ٱلْحُبُّ عَلَى لِسَانِى ، وَبَرَّحَ ٱلشَّوْقُ بِكِتْمَانِى ، وَٱلْعَفْوُ مَضْمُونٌ لَدَيْكَ عِنْدَ ٱلْمَقْدِرَةِ ، وَٱلصَّفْحُ مَعْلُومٌ مِنْكَ عِنْـدَ ٱلْمَعْذِرَةِ ، ثُمَّ بَـكَتْ فَـكَأَنَّ دَمْعَهَا دُرٌّ تَنَاثَرَ مِنْ عِقْـدٍ ، أَوْ طَلٌّ تَسَاقَطَ مِنْ وَرْدٍ ، وَأَنْشَدَتْ :

أَذنَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَـكَيْفَ مِنْهُ ٱعْتِذَارِى
وَٱللّٰهُ قَدَّرَ هَـــذَا وَلَمْ يَـكُنْ بِٱخْتِيَارِى
وَٱلْعَفْوُ أَحْسَنُ شَىْءٍ يَـكُونُ عِنْـدَ ٱقْتِدَارِ

قَالَ فَعِنْدَ ذٰلِكَ صَرَفَ ٱلْمَنْصُورُ وَجْهَ ٱلْغَضَبِ إِلَىَّ ،

وَسَلَّ سَيْفَ ٱلسُّخْطِ عَلَيَّ ، فَقُلْتُ :ـ أَيَّدَكَ ٱللهُ تَعَالَىـ إِنَّمَا كَانَتْ هَفْوَةً جَرَّهَا ٱلْفِكْرُ ، وَصَبْوَةً(١) أَيَّدَهَا ٱلنَّظَرُ ، وَلَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ ، لَا مَا ٱخْتَارَهُ وَأَمَّلَهُ ، فَأَطْرَقَ ٱلْمَنْصُورُ قَلِيلًا ، ثُمَّ عَفَا وَصَفَحَ ، وَتَجَاوَزَ عَنَّا وَسَمَحَ ، وَخَلَّى سَبِيلِي ، فَسَكَنَ وَجِيبُ(٢) قَلْبِي وَغَلِيلِي ، وَوَهَبَ ٱلْجَارِيَةَ لِي فَبِتْنَا بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ ، وَسَحَبْنَا فِيهَا لِلصِّبَا ذَيْلَهُ . فَلَمَّا شَمَّرَ ٱللَّيْلُ غَدَائِرَهُ ، وَسَلَّ ٱلصَّبَاحُ بَوَاتِرَهُ ، وَتَجَاوَبَتِ ٱلْأَطْيَارُ بِضُرُوبِ ٱلْأَلْحَانِ ، فِي أَعَالِي ٱلْأَغْصَانِ ، ٱنْصَرَفْتُ بِٱلْجَارِيَةِ إِلَى مَنْزِلِي ، وَتَكَامَلَ سُرُورِي .

***

الرشيد والجارية

قَالَ بَعْضُهُمْ : ذَكَّرَتْنِي حِكَايَةُ أَبِي ٱلْمُغِيرَةِ هٰذِهِ حِكَايَةً قَرَأْتُهَا فِي ٱلنَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْقَالِيِّ ٱلْبَغْدَادِيِّ حَذَتْ فِي ٱلظَّرْفِ حَذْوَهَا ، وَزَهَتْ فِي ٱلْإِغْرَابِ زَهْوَهَا ، وَهِيَ مَا أَسْنَدَهُ عَنْ مَنْصُورٍ ٱلْبَرْمَكِيِّ أَنَّهُ كَانَتْ لِلرَّشِيدِ جَارِيَةٌ غُلَامِيَّةٌ ، وَكَانَ ٱلْمَأْمُونُ

(١) ميل الى اللهو وهوى النفس ورقة الغزل (٢) وجيب القلب: خفقانه واضطرابه من نحو فزع ورعب .

يَمِيلُ إِلَيْهَا ـ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ أَمْرَدُ ، فَوَقَفَتْ تَصُبُّ الْمَاءَ عَلَى يَدِ الرَّشِيدِ مِنْ إِبْرِيقٍ مَعَهَا ـ وَالْمَأْمُونُ خَلْفَ الرَّشِيدِ ، فَأَشَارَ إِلَيْهَا يُقَبِّلُهَا، فَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ بِعَيْنِهَا، وَأَبْطَأَتْ فِي الصَّبِّ عَلَى قَدْرِ نَظَرِهَا لِلْمَأْمُونِ وَإِشَارَتِهَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ مَاهَذَا ؟ ضَعِي الْإِبْرِيقَ مِنْ يَدِكِ ، فَفَعَلَتْ . فَقَالَ لَهَا : وَاللهِ لَئِنْ لَمْ تَصْدُقِينِي لَأَقْتُلَنَّكِ ، فَقَالَتْ : يَاسَيِّدِي أَشَارَ إِلَيَّ كَأَنَّهُ يُقَبِّلُنِي، فَأَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَالْتَفَتَ إِلَى الْمَأْمُونِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ مَيِّتٌ لِمَا دَاخَلَهُ مِنَ الْجَزَعِ وَالْخَجَلِ ، فَرَحِمَهُ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَالَ : يَاعَبْدَ اللهِ أَتُحِبُّهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : هِيَ لَكَ فَاخْلُ بِهَا فِي تِلْكَ الْقُبَّةِ ، فَفَعَلَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : هَلْ قُلْتَ فِي هَذَا الْأَمْرِ شَيْئًا ؟ فَقَالَ: نَعَمْ يَاسَيِّدِي ، وَأَنْشَدَ :

ظَبْيٌ كَنَيْتُ(١) بِطَرْفِي ... مِنَ الضَّمِيرِ إِلَيْهِ
قَبَّلْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ ... فَاعْتَلَّ مِنْ شَفَتَيْهِ
وَرَدَّ أَخْبَثَ رَدٍّ ... بِالْكَسْرِ مِنْ حَاجِبَيْهِ
فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي ... حَتَّى قَدَرْتُ عَلَيْهِ

(١) ويروى « كتبت » «أحمد يوسف نجاتى » .

وَفِي هَـذَا ٱلْمَعْنَى يَقُولُ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱللَّحْظُ يُعْرِبُ عَنِ ٱللَّفْظِ .

« وَقَالَ آخَرُ » رُبَّ كِنَايَةٍ تُغْنِي عَنْ إِيضَاحٍ ، وَرُبَّ لَحْظٍ يَدُلُّ(١) عَلَى ضَمِيرٍ ، وَنَظَمَهُ ٱلشَّاعِرُ فَقَالَ :

جَعَلْنَا عَلامَاتِ ٱلْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا
دَقَائِقَ لَحْظٍ هُنَّ أَمْضَى مِنَ ٱلسِّحْرِ
فَأَعْرِفُ مِنْهَا ٱلْوَصْلَ فِي لِينِ لَحْظِهَا
وَأَعْرِفُ مِنْهَا ٱلْهَجْرَ بِالنَّظَرِ ٱلشَّزْرِ

« وَفِي هَذَا قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ » ٱلْعَيْنُ بَابُ ٱلْقَلْبِ ، فَمَا فِي ٱلْقَلْبِ يَظْهَرُ فِي ٱلْعَيْنِ . وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ(٢) :

(١) فى الأصل « لفظ » وأراه تصحيفا غير مناسب للمقام (٢) أظنه عمارة ابن عقيل بن بلال بن جرير ، وأحفظ مع البيتين تتمة لهما :

ان البغيض له عين يصد بها ... لايستطيع لما فى القلب كتمانا
وعين ذى الود لاتنفك مقبلة ... ترى لها محجرا بشا وانسانا

و يعجبنى قول أبى تمام :

ولذاك قيل من الظنون جبلة ... علم وفى بعض القلوب عيون

وقول محمد بن شبل :

والعين تقرأ من لحاظ جليسها ... ماخط منـه فى ضمير الخاطر

أَلْعَيْنُ تُبْدِى أَلَّذِى فِى نَفْسِ صَاحِبِهَا
مِنَ أَلْمَحَبَّةِ أَوْ بُغْضٍ إِذَا كَانَا
فَالْعَيْنُ تَنْطِقُ وَالْأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ
حَتَّى تَرَى مِنْ ضَمِيرِ أَلْقَلْبِ تِبْيَانَا

انتهى

***

أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم

« وَأَبُو أَلْمُغِيرَةِ بْنُ حَزْمٍ * قَالَ فِي حَقِّهِ فِى أَلْمَطْمَحِ

ولكم قطوب عن وداد خالص   وتبسم عن غل صدر واغر
واذا تعارفت القلوب تألفت   ويصد منها نافر عن نافر
فتوق من يأباه قلبك انه   سيبين باطنه بأمر ظاهر

والقول فى هذا المعنى كثير ، وسبق لك شيء منه فى الأجزاء السالفة . « أحمد يوسف نجاتى » .

* ترجم له فى كتاب الصلة لابن بشكوال « ج ١ ص ٣٧٤ » من المكتبة الأندلسية بما يأتى :

عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم من أهل قرطبة، يكنى أبا المغيرة، له سماع من أبى القاسم الوهرانى وغيره، وكان حسن الخط ، ذكره الحميدى وقال : هو من المقدمين فى الأدب والشعر والبلاغة وهو ابن عم أبى محمد بن حزم والد أبى الخطاب ، وشعره كثير مجموع وأنشدنى له غير واحد من أصحابنا قريضا مذكورا فى نفح الطيب عند ترجمته نكتفى بالاشارة اليه .

قال ابن حيان: توفى بعسكر ابن ذى النون صاحب طليطلة فى مستهل صفر من سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، ودفن بطليطلة رحمه الله تعالى.

مَا نَصُّهُ » : اُلْوَزِيرُ اُلْـكَاتِبُ أَبُو اُلْمُغِيرَةِ عَبْدُ اُلْوَهَّابِ بْنُ حَزْمٍ ، وَبَنُو حَزْمٍ فِتْيَةُ عِلْمٍ وَأَدَبٍ ، وَثَنِيَّةُ(١) مَجْدٍ وَحَسَبٍ وَأَبُو اُلْمُغِيرَةِ هٰذَا فِي اُلْـكِتَابَةِ أَوْحَدُ ، لَا يُنْعَتُ وَلَا يُحَدُّ ، وَهُوَ فَارِسُ اُلْمِضْمَارِ ، حَامِي ذٰلِكَ اُلذِّمَارِ(٢) ، وَبَطَلُ اُلرَّعِيلِ(٣) وَأَسَدُ ذَلِكَ اُلْغِيـلِ(٤) ، نَسَقَ اُلْمُعْجِزَاتِ ، وَسَبَقَ فِي اُلْمُعْضِلَاتِ اُلْمُوجِزَاتِ ، إِذَا كَتَبَ وَشَّى اُلْمَهَارِقَ(٥) وَدَبَّجَ ، وَرَكِبَ مِنْ بَحْرِ اُلْبَلَاغَةِ اُلثَّبَجَ(٦) ، وَكَانَ هُوَ وَأَبُو عَامِرِ اُبْنُ شُهَيْدٍ خَلِيلَيْ صَفَاءٍ ، وَحَلِيفَيْ وَفَاءٍ ، لَا يَنْفَصِلَانِ فِي

(١) كان الأصل هكذا « وأبو حزم فقيه علم وأدب و نبيه » والأولى ما أثبتناه بدليل السياق ، فانه يثنى على بنى حزم عامة ويخص من بينهم أبا المغيرة . والثنية المكان المرتفع ، والثنية من الجبل مايحتاج فى قطعه وسلوكه الى صعود وحدور ـ شبههم بالثنية فى الشهرة والرفعة و نيلهم درجة لايصل اليها غيرهم الا بعناء ، وقال الشاعر :

اذا مارأونى طالعا من ثنية يقولون من هذا وقد عرفونى

ويجوز أن تكون « بنية » أى بناء أو بيت (٢) الذمار مايلزم الانسان حفظه وحياطته وحمايته، وان ضيعه لزمه اللوم (٣) الرعيل: القطعة من الخيل أو الجيش وجماعة الفرسان (٤) الأجمة ومأوى الأسد (٥) المهارق جمع مهرق وهو الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، وهو فارسى معرب (٦) ثبج البحر : وسطه ومعظمه وأعلاه ، والثبج علو وسط البحر اذا تلاقت أمواجه،

رَوَاحٍ(١) وَلَا مَقِيلٍ ، وَلَا يَفْتَرِقَانِ كَمَالِكٍ وَعَقِيلٍ(٢) ، وَكَانَا بِقُرْطُبَةَ رَافِعَيْ أَلْوِيَةِ الصَّبْوَةِ ، وَعَامِرَيْ أَنْدِيَةِ السَّلْوَةِ ، إِلَى أَنِ اتَّخَذَ أَبُو عَامِرٍ فِي حِبَالَةِ الرَّدَى وَعَلِقَ ، وَغَدَا رَهْنُهُ فِيهَا وَغَلِقَ(٣) ، فَانْفَرَدَ أَبُو الْمُغِيرَةِ بِذَلِكَ الْمَيْدَانِ ، وَاسْتَرَدَّ

وأعالى الأمواج ، وفى حديث الزهرى : كنت اذا فاتحت عروة بن الزبير فتقت به ثبج بحر (١) فى الأصل « رواد » (٢) مالك وعقيل نديما جذيمة الأبرش، يضرب بهما المثل فى الملازمة وطول الاصطحاب ، وكان عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة فقد زمانا، ثم ظفر به مالك وعقيل فعرفاه وأكرماه وقدما به على جذيمة فجعلهما نديميه، ولم ينادمه أحد قبلهما، وكان يزعم أنه ليس فى الدنيا من يصلح لمنادمته ذهابا بنفسه وفرط اعتداد بها . وفيهما يقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال آخر :

تقول أراه بعد عروة لاهيا ... وذلك رزء لو علمت جليل
فلا تحسبى أنى تناسيت عهده ... ولكن صبرى يا أميم جميل
ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل

ومن هنا أخذ صاحب المطمح عبارته . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٣) فى نسخة « وغدا رهنه فيها قد غلق » غلق الرهن : استحقه المرتهن وذلك اذا لم يفتك فى الوقت المشروط ، قال زهير يذكر امرأته :

وفارقتك برهن لا فكاك له ... يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا

وقال عمارة بن صفوان الضبى :

أجارتنا من يجتمع يتفرق ... ومن يك رهنا للحوادث يغلق

مِنْ سَبْقِهِ مَا فَاتَهُ مُنْذُ زَمَانٍ ، فَلَمْ تُذْكَرْ لَهُ مَعَ أَبِي عَامِرٍ حَسَنَةٌ ، وَلَا سَارَتْ(١) لَهُ فَقْرَةٌ «وَإِنْ كَانَتْ» مُسْتَحْسَنَةٌ ، لِتَعَذُّرِ ذَلِكَ وَامْتِنَاعِهِ ، بِشُفُوفِ(٢) أَبِي عَامِرٍ وَامْتِدَادِ بَاعِهِ ، وَأَمَّا شِعْرُ أَبِي الْمُغِيرَةِ فَمُرْتَبِطٌ بِنَثْرِهِ ، وَمُخْتَلِطٌ زَهْرُهُ بِدُرِّهِ وَقَدْ أَثْبَتُّ لَهُ مِنْهُ فُنُونًا ، تُجَنُّ بِهَا الْأَفْهَامُ جُنُونًا ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

ظَعَنَتْ وَفِي أَحْدَاجِهَا مِنْ شَكْلِهَا
عِينٌ فَضَحْنَ بِحُسْنِهِنَّ الْعِينَا(٣)
مَا أَنْصَفَتْ فِي جَنْبِ تُوضِحَ إِذْ قَرَتْ
ضَيْفَ الْوِدَادِ بَلَا بِلًا وَشُجُونَا(٤)

(١) فى الأصل « سرت » (٢) الشفوف :الفضل والزيادة (٣) الأحداج جمع حدج وهو مركب للنساء نحو الهودج تركبه نساء الأعراب ، والعين جمع عيناء مؤنث أعين من العين وهو عظم سواد العين فى سعة ، والعين: بقر الوحش وهو صفة غالبة لها و بها شبهت النساء (٤) توضح اسم مكان وهو كثيب أبيض من كثبان حمر بالدهناء ، أوقرية من قرى اليمامة، وفيه يقول يحيى بن طالب الحنفى :

أيا أثلاث القاع من بطن توضح حنينى الى أفيائكن طويل
ويا أثلاث القاع قلبى موكل بكن ، وجدوى خيركن قليل

أَضْحَى ٱلْغَرَامُ قَطِينَ رَبْعِ فُؤَادِهِ
إِذْ لَمْ يَجِدْ بِالرَّقْمَتَيْنِ قَطِيناَ(١)

« وَلَهُ » :

لَمَّا رَأَيْتُ ٱلْهِلَالَ مُنْطَوِياً
فِي غُرَّةِ ٱلْفَجْرِ قَارَنَ ٱلزُّهْرَهْ
شَبَّهْتُهُ وَٱلْعِيَانُ يَشْهَدُ لِي
بِصَوْلَجَانِ ٱنْثَنَى لِضَرْبِ كُرَهْ

انْتَهَى

وقرى الضيف: أضافه وقدم اليه الطعام ومايحتاج اليه ـ والبلابل جمع بلبال وهو شدة الهم والوساوس فى الصدر، تقول : متى أخطرتك بالبال وقعت فى بلبال . والشجون جمع شجن وهو الهم والحزن ـ هذا وأحفظ للأبيات رابعا وهو :

صن البدور بظل جثل فاحم وغرسن فى كثبانهن غصونا

الجثل : الشعر الكثير الأسود الكثيف (١) الرقمتان موضع قرب البصرة وهما منزل مالك بن الريب المازنى، وفيهما يقول :

فلله درى يوم أترك طائعا بنى بأعلى الرقمتين وماليا

وقد أكثر الشعراء من ذكرها والتغزل بساكناتهما، قال زهير :

ودار لهـا بالرقمتين كأنها مراجيع وشم فى نواشر معصم

وقد جارى ابن حزم الأعراب فى شعرهم، وحذا حذوهم فى غزلهم، فجعل غادته وصواحبها يركبن الأهداج ، و يسكن توضح والرقمتين، لألفة هذه

***

أبو عامر أحمد الأشجعى

«وَأَبُو عَامِرِ بْنُ شُهَيْدٍ الْمَذْكُورُ قَالَ فِي حَقِّهِ مَا صُورَتُهُ»

الْوَزِيرُ أَبُو عَامِرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ شُهَيْدٍ الْأَشْجَعِيُّ عَالِمٌ بِأَقْسَامِ الْبَلَاغَةِ وَمَعَانِيهَا، حَائِزٌ قَصَبَ السَّبْقِ فِيهَا، لَا يُشْبِهُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَلَا يَنْسُقُ(١) مَا نَسَقَ

الأماكن والتبرك بذكرها، ونحن الآن انما تصبينا كل هيفاء:

محلتها غربى مصر وقصرها على النيل لا أكناف سلع ولا الهضب
وحلت بأكناف الزمالك روضة يروح ويغدو بين أرجائها الحب

وعسى أن يكن فى وفاء الأعرابيات بنات الفطرة والطبيعة وفى تصونهن «أحمد يوسف نجاتى».

* ترجم له فى سلم الوصول «ج ١ ص ٩٩» بما يأتى:

أحمد بن عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد ابن عيسى المعروف بابن شهيد الأشجعى الأندلسى القرطبي.

المتوفى بها فى جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة عن أربع وأربعين سنة، له رسائل ونظم، وكان بارعا متفننا، وبينه و بين ابن حزم مكاتبات وصنف كشف الدك وايضاح الشك، والتوابع والزوابع، وكتاب الحكايات والنوادر، ذكره ابن خلكان نقلا عن ابن بسام.

(١) نسق الكلام: أتى به على نظام واحد من الحسن، وأنسق المتكلم اذا تكلم سجعا، واذا كان الكلام مسجعا قيل له نسق حسن. والتنسيق التنظيم، وهذا كلام متناسق: حسن النظم جيد السياق «أحمد يوسف نجاتى»

مِنْ دُرِّ اُلْبيَانِ وَجُمَانِهِ(١) ، تَوَغَّلَ(٢) فِى شِعَابِ اُلْبَلاَغَةِ وَطُرُقِهَا ، وَأَخَذَ عَلَى مُتَعَاطِيهَا مَا بَيْنَ مَغْرِبِهَا وَمَشْرِقِهَا ، لاَ يُقَاوِمُهُ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ(٣) ؛ وَلَا تَرَاهُ يَغْتَرِفُ إِلَّا مِنْ بَحْرٍ ، مَعَ اُنْطِبَاعٍ(٤) ، مَشَى فِى طَرِيقِهِ بِأَمَدِّ بَاعٍ(٥) ، وَلَهُ اُلْحَسَبُ اُلْمَشْهُورُ ، وَاُلْمَكَانُ اُلَّذِى لَمْ يَعْدُهُ(٦) ظُهُورٌ ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ اُلْوَضَّاحِ ، اُلْمُتَقَلِّدِ تِلْكَ اُلْمَفَاخِرَ وَاُلْأَوْضَاحَ(٧) ، وَصَاحِبِ اُلضَّحَّاكِ يَوْمَ اُلْمَرْجِ ، وَرَاكِبِ ذَلِكَ اُلْهَرْجِ ،

---

(١) الجمان : اللؤلؤ (٢) توغل فى البلاد والمكان والعلم اذا ذهب و بالغ وسار فأبعد . والشعاب جمع شعب وهو فى الأصل الطريق فى الجبل ، أوما انفرج بين الجبلين (٣) يريد به الجاحظ امام البلاغة المشهور (٤) يريد السهولة ومجىء الكلام عفو الطبع غير متكلف (٥) أمد أفعل تفضيل من مد ، أى أطول (٦) أى لم تتجاوزه شهرة (٧) الوضح فى الأصل بياض الصبح ، وقد يراد به مطلق الضوء والبياض ، و يطلق على الشية والغرة والتحجيل فى القوائم وهو هنا مستعار للأعمال المشهورة والخصال الكريمة الواضحة المعروفة. والوضاح جد أبى عامر بن شهيد هو الوضاح بن رزاح الذى كان مع الضحاك بن قيس الفهرى يوم مرج راهط . والوضاح هذا هو جد بنى وضاح الذين كانوا من أعيان أهل مرسية ، وهو من أشجع من قيس عيلان ابن مضر ، وأسر الوضاح بن رزاح فى يوم المرج ، ومن عليه مروان بن الحكم ، و واقعة مرج راهط مشهورة بين قيس وتغلب وكانت سنة ٦٥ وتقدم موجز القول فيها ، وانتهت بقتل الضحاك بن قيس واستقامة الأمر

وَأَبُو عَامِرٍ حَفِيدُهُ هَذَا مِنْ ذَلِكَ ٱلنَّسَبِ ، وَنَبْعٌ(١) لَا يُرَاشُ إِلَّا مَعَ ذَلِكَ ٱلْغَرَبِ(٢) ، وَقَدْ أَثْبَتُّ لَهُ مَا هُوَ بِالسِّحْرِ لَاحِقٌ ، وَلِنُورِ ٱلْمَحَاسِنِ مَاحِقٌ « فَمِنْ ذَلِكَ » قَوْلُهُ :

إِنَّ ٱلْكَرِيمَ إِذَا نَابَتْهُ مَخْمَصَةٌ
أَبْدَى إِلَى ٱلنَّاسِ رِيًّا وَهْوَ ظَمْآنُ
يَحْنِي ٱلضُّلُوعَ عَلَى مِثْلِ ٱللَّظَى حُرَقًا
وَٱلْوَجْهُ غَمْرٌ بِمَاءِ ٱلْبِشْرِ رَيَّانُ(٣)

لمروان ـ ومرج راهط موضع فى الغوطة من دمشق، وفى واقعة مرج راهط يقول زفر بن الحرث الكلابى من قصيدته الطويلة الشهيرة :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط ... لمروان صدعا بيننا متنائيا

وقال ابراهيم بن هرمة يمدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان:

أبوك غداة المرج أورثك العلى ... وخاض الوغى اذ سال بالموت راهط

هذا و راهط الذى ينسب اليه المرج رجل من قضاعة «أحمد يوسف نجاتى»

(١) النبع : شجر من أشجار الجبال رزين العود صلب، كانوا يتخذون منه القسى الجيدة ، قال أبو حنيفة: وكل القسى اذا ضمت الى قوس النبع كرمتها قوس النبع لأنها أجمع القسى للشدة واللين، ولا يكون العود كريما حتى يكون كذلك ، وتتخذ السهام من أغصانه (٢) فى الأصل «الزغب» وفى المطمح «الغرب» وهو المناسب ، وراش السهم ألزق عليه الريش ـ والغرب شجر صلب تسوى منه الأقداح ، وهو من أكرم الأعواد كالنبع قال الشاعر :

لما بعدت عجمت الصبر أخبره ... فلم أجد عوده نبعا ولا غربا

يريد صاحب المطمح أن ابن شهيد فرع كريم كأصله، وأن هذا الشبل من ذاك الأسد (٣) المخمصة : الجوع ـ والغمر المملوء ، والبيتان فى معنى

وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ :

مَا إِنْ رَأَيْتُ كَمَعْشَرٍ صَبَرُوا
عِزًّا عَلَى الْأَزَلَاتِ وَالْأَزْمِ (١)
بَسَطُوا الْوُجُوهَ وَبَيْنَ أَضْلُعِهِمْ
حَرُّ الْجَوَى وَمَآلِمُ الْكَلْمِ (٢)

قوله تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » يقول ان الكريم اذا افتقر كتم عن الناس سوء حاله، وأظهر لهم التجمل وحسن الحال حتى لايتوهم أحد أنه يريد سؤاله اذا أظهر له سوء ماهو عليه، فهو يضمر فى نفسه شدته و يكتمها ، ولكنه يظهر للناس ذا غبطة طلق الوجه ضاحك الثغر :

يبسم الثغر غير أن فؤادى يعلم الله كل ماهو فيه

والقول فى هذا المعنى كثير متداول. وعجز البيت فى بعض المراجع : أبدى الى الناس شبعا وهو طيان، والطيان الجائع والطوى الجوع «أحمد يوسف نجاتى»

(١) عجز البيت فى الديوان « لقوارع اللزبات والأزم » واللزبة: الشدة والقحط ،واللزب الضيق والجدب ، والأزل أيضا الضيق والشدة والقحط وأزم عليهم العام أزما وأزوما اذا اشتد قحطه وقل خيره ، وسنة آزمة وأزومة: مجدبة شديدة القحط والمحل (٢) فى الديوان« حرق الجوى . . » والجوى الحرقة وشدة الوجد والحزن، ومآلم جمع مألم أى ألم ووجع، والكلم الجرح ، مستعار هنا لنوائب الدهر وشدائد الأيام ، و بعد هذين البيتين ثالث وهو :

جمحت بهم خيل الأسى فثنوا أعناقها بأعنة الحزم

وَلَهُ أَيْضًا :

كَلِفْتُ بِالْحُبِّ حَتَّى لَوْ دَنَا أَجَلِي
لَمَا وَجَدْتُ لِطَعْمِ الْمَوْتِ مِنْ أَلَمِ
كِلَا النَّدَى وَالْهَوَى قِدْمًا وَلِعْتُ بِهِ
وَيْلِي مِنَ الْحُبِّ أَوْ وَيْلِي مِنَ الْكَرَمِ (١)

***

الوزير أبو الحسين ابن سراج

« وَأَخْبَرَنِي » الْوَزِيرُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ سِرَاجٍ (٢) - وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْوَزِيرِ أَبِي عَامِرِ بْنِ شُهَيْدٍ، وَكَانَ مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي مَدَى غَايَةِ الْبَيَانِ، وَمِنَ الْفَصَاحَةِ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ التِّبْيَانِ، وَكُنَّا نَحْضُرُ مَجْلِسَ شَرَابِهِ، وَلَا نَغِيبُ عَنْ بَابِهِ، وَكَانَ لَهُ بِبَابِ الصَّوْمَعَةِ مِنَ الْجَامِعِ مَوْضِعٌ لَا يُفَارِقُهُ أَكْثَرَ

(١) تقدم شرحهما، وفي نسخة « ألمت بالحب » بدل « كلفت » (٢) في الأصل: أبو الحسن بن سراج الدين، هذا ورأيت في بعض المراجع أصل العبارة هكذا: وأخبرني الوزير أبو الحسين بن سراج أن منزل الوزير أبي عامر بن شهيد كان منتدى الأعيان، ومسرى البيان، وكان كل شاعر أو كاتب، منه ما بين صلة أو راتب، وكانوا يحضرون مجلس شرابه، ولا ينفصلون ساعة عن بابه. الخ وفي المطمح: أبو الحسين بن سراج، وهو المعروف، يريد الوزير الأستاذ أبا الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج القرطبي الأديب اللغوي الشاعر الرقيق، كان مع علو جاهه حسن الخلق كامل المروءة

نَهَارِهِ ، وَلا يُخْلِيهِ مِنْ نَثْرِ دُرَرِهِ وَأَزْهَارِهِ ، فَقَعَدَ فِيهِ لَيْلَةَ ٱلسَّابِعِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فِي لُمَّةٍ[1] مِنْ إِخْوَانِهِ ، وَأَئِمَّةِ سُلْوَانِهِ ، وَقَدْ حَفُّوا بِهِ ، لِيَقْتَطِفُوا نُخَبَ[2] أَدَبِهِ وَهُوَ يَخْلِطُ لَهُمْ ٱلْجِدَّ بِهَزْلٍ ، وَلا يُفْرِطُ فِي ٱنْبِسَاطٍ مُشْتَهِرٍ وَلا ٱنْقِبَاضٍ جَزْلٍ ، وَإِذَا بِجَارِيَةٍ مِنْ أَعْيَانِ أَهْلِ قُرْطُبَةَ مَعَهَا مِنْ جَوَارِيهَا، مَنْ يَسْتُرُهَا وَيُوَارِيهَا ، وَهِيَ تَرْتَادُ مَوْضِعًا لِمُنَاجَاةِ رَبِّهَا ، وَتَبْتَغِي مَنْزِلًا لِاسْتِغْفَارِ ذَنْبِهَا، وَهِيَ مُتَنَقِّبَةٌ ، خَائِفَةٌ مِمَّنْ يَرْمُقُهَا مُتَرَقِّبَةٌ ، وَأَمَامَهَا طِفْلٌ لَهَا كَأَنَّهُ غُصْنُ آسٍ ، أَوْ ظَبْيٌ يَمْرَحُ[3] فِي كِنَاسٍ ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُهَا عَلَى أَبِي عَامِرٍ وَلَّتْ سَرِيعَةً ، وَتَوَلَّتْ مَرُوعَةً[4] ، خِيفَةَ أَنْ

و بيت سراج بيت وزارة ونباهة وعلم وأدب وفضل ، وقد سبقت لنا كلمة فى هذه الأسرة فارجع اليها ، وتوفى الوزير أبو الحسين فى جمادى الآخرة سنة ٥٠٨ وكان مولده سنة ٤٣٩ . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) لمة الرجل: أصحابه واخوانه ومن يأنس اليهم (٢) فى الأصل « ليقطعوا تحت » وقد أثبتنا مافى المطمح فهو أظهر ، والنخبة من الشئ مختاره وجمعه نخب (٣) مرح : تبختر ونشط واختال ، والمرح أيضا: الفرح والتوسع فيه حتى يجاوز قدره . والكناس مأوى الظبي وحيث يستتر فى الشجر (٤) أى خائفة « أحمد يوسف نجاتى »

يُشَبِّبَ[١] بِهَا ، أَوْ يُشْهِرَهَا بِاسْمِهَا ، فَلَمَّا نَظَرَهَا ، قَالَ قَوْلًا فَضَحَهَا بِهِ وَشَهَرَهَا :

وَنَاظِرَةٍ تَحْتَ طَيِّ ٱلْقِنَاعِ
دَعَاهَا إِلَى ٱللهِ بِٱلْخَيْرِ دَاعِي
سَعَتْ خِفْيَةً تَبْتَغِي مَنْزِلًا
لِوَصْلِ ٱلتَّبَتُّلِ وَٱلْإِنقِطَاعِ[٢]
فَجَاءَتْ تَهَادَى كَمِثْلِ ٱلرَّءُومِ
تُرَاعِي غَزَالًا بِرَوْضِ ٱلْبِقَاعِ[٣]

(١) شبب بالمرأة تغزل: بها وذكرها فى شعره (٢) التبتل : الانقطاع الى الله قال تعالى : « وتبتل اليه تبتيلا » ومنه البتول وهى المرأة المنقطعة عن الرجال لارغبة لها فيهم ، وبه سميت السيدة مريم العذراء ـ والبتول أيضا المنقطعة عن الدنيا الى الله تعالى (٣) تهادى أصله تتهادى ، وتهادت المرأة: تمايلت فى مشيتها اعجابا ودلالا . والرءوم الأم ترأم ولدها أى تعطف عليه وتلزمه وتحبه ـ وهذا البيت ليس فى المطمح لتكرار كلمة البقاع قافية فيه مع مابعده ، فلعلها مصحفة عن «اليفاع» وهو المرتفع من الأرض كالربوة . أو يكون « للبقاع » الأول معنى آخر حتى يستقيم النظم ويخلو من الايطاء المعيب، فيجوز أن يكون جمع «بقعة» بفتح الباء وهى المكان يستنقع فيه الماء ـ أما البقاع فى البيت الثانى فجمع بقعة «وقد تفتح الباء» وهى القطعة من الأرض على غير هيئة القطعة التى الى جنبها ، وقد يطلق على مطلق القطعة . ويروى « تناغى » بدل « تراعى » وناغى المرأة

وَجَالَتْ بِمَوْضِعِنَا جَـوْلَةً
فَحَلَّ ٱلرَّبِيعُ بِتِلْكَ ٱلْبِقَاعِ
أَتَتْنَا تَبَخْـتَرُ فِي مَشْيِهَا
فَحَلَّتْ بِوَادٍ كَثِيرِ ٱلسِّبَاعِ (١)
وَرِيعَتْ حِذَارًا عَلَى طِفْلِهَا
فَنَادَيْتُ : يَا هَـذِهِ لَا تُرَاعِي
غَزَالُكِ تَفْرَقُ مِنْـهُ ٱللُّيُوثُ
وَتَفْزَعُ مِنْهُ كُمَاةُ ٱلْمَصَاعِ (٢)

اذا داناها أو غازلها ولاطفها. والمناغاة أيضا تكليمك الصبي بما يهواه. قال :

ولم يك فى بؤس اذا بات ليلة يناغي غزالا فاتر الطرف أكحلا

وناغت الأم صبيها لاطفته وشاغلته . « أحمد يوسف نجاتى »

(١) أراد بالسباع هؤلاء اللمة من الأدباء ، الذين يفتنهم مثل هذه الغادة الهيفاء ، فتكاد عيونهم تكون نطاقا لخصرها ، وتكاد أحداقهم تنهبها بنظراتها (٢) الفرق: الخوف والفزع، والكماة جمع كمى وهو الشجاع يتكمى فى سلاحه أى يتغطى. وصاع فلانا خوفه وأفزعه، فانصاع : خاف ونكص. وصاع الكمى أقرانه اذا حازهم من نواحيهم، وحمل عليهم ففرق جمعهم ــ وصاع القوم: حمل بعضهم على بعض . ومصع فلانا:ضربه بالسيف وماصعوا مصاعا اذا قاتلوا وجالدوا بالسيوف. وتماصعوا : تضاربوا ــ ويروى « وتنصاع » بدل « وتفزع ». « أحمد يوسف نجاتى »

فَوَلَّتْ وَلِلْمِسْكِ فِي ذَيْلِهَا
عَلَى الْأَرْضِ خَطٌّ كَظَهْرِ الشُّجَاعِ[(١)] .

انْتَهَى الْمَقْصُودُ مِنْهُ .

« رَجْعٌ » وَمِمَّا يَنْخَرِطُ فِي سِلْكِ أَخْبَارِ الزَّهْرَاءِ مَا حَكَاهُ الْفَتْحُ فِي تَرْجَمَةِ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ، قَالَ : وَأَخْبَرَنِي الْوَزِيرُ أَحْمَدُ بْنُ سِرَاجٍ[(٢)] أَنَّهُ حَضَرَ مَعَ الْوُزَرَاءِ وَالْكُتَّابِ بِالزَّهْرَاءِ فِي يَوْمٍ قَدْ غَفَلَ عَنْهُ الدَّهْرُ فَلَمْ يَرْمُقْهُ[(٣)] بِطَرْفٍ، وَلَمْ يَطْرُقْهُ بِصَرْفٍ[(٤)]، أَرْخَتْ[(٥)] بِهِ الْمَسَرَّاتُ عَهْدَهَا، وَأَبْرَزَتْ لَهُ الْأَمَانِيُّ خَدَّهَا وَنَهْدَهَا[(٦)]، وَأَرْشَفَتْ فِيهِ لَمَاهَا[(٧)]، وَأَبَاحَتْ لِلزَّائِرِينَ حِمَاهَا، وَمَا زَالُوا يَتَنَقَّلُونَ مِنْ قَصْرٍ إِلَى قَصْرٍ، وَيَبْتَذِلُونَ الْغُصُونَ بِجَنًى وَهَصْرٍ[(٨)]،

---

(١) الشجاع : الحية أوضرب منها دقيق (٢) فى قلائد العقيان : وأخبرنى الوزير الفقيه أبو الحسن بن سراج (٣) رمقه : نظره ولحظه (٤) صرف الدهر حدثانه ونوائبه لأنه يصرف الأشياء عن وجوهها (٥) قد يكون « أوفت » (٦) يعنى برزت له الأمانى والآمال فى أحسن مناظرها وأجمل هيئاتها فنال منها أطيب مايصبو اليه (٧) اللمى سمرة فى الشفه كانوا يستحسنونها ، فهو ألمى وهى لمياء ، ولثة لمياء أيضا اذا كانت رقيقة (٨) ابتذل الشيء: أهانه بالاستعمال ، ضد صان ، وهصر الغصن أدناه اليه وأماله : والانهصار والاهتصار: سقوط الغصن على الغصن

وَيَتَوَقَّلُونَ(١) فِي تِلْكَ الْغُرُفَاتِ ، وَيَتَعَاطَوْنَ الْكُؤُوسَ بَيْنَ تِلْكَ الشُّرُفَاتِ(٢) ، حَتَّى اسْتَقَرُّوا بِالرَّوْضِ مِنْ بَعْدِ مَا قَضَوْا مِنْ تِلْكَ الْآثَارِ أَوْطَارًا ، وَأَوْقَرُوا(٣) بِالِاعْتِبَارِ قِطَارًا ، فَحَلُّوا مِنْهُ فِي دَرَانِكِ(٤) رَبِيعٍ مُفَوَّفَةٍ بِالْأَزْهَارِ ، مُطَرَّزَةٍ بِالْجَدَاوِلِ وَالْأَنْهَارِ ، وَالْغُصُونُ تَخْتَالُ فِي أَدْوَاحِهَا(٥) ، وَتَتَثَنَّى فِي أَكُفِّ أَرْوَاحِهَا(٦) ، وَآثَارُ الدِّيَارِ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَيْهِمْ كَثَكَالَى يَنُحْنَ عَلَى خَرَابِهَا ، وَانْقِرَاضِ أَتْرَابِهَا وَأَطْرَابِهَا ، وَالْوَهَى(٧) بِمَشِيدِهَا لَاعِبٌ ، وَعَلَى كُلِّ جِدَارٍ غُرَابٌ نَاعِبٌ ، وَقَدْ مَحَتِ الْحَوَادِثُ ضِيَاءَهَا ، وَقَلَّصَتْ(٨) ظِلَالَهَا وَأَفْيَاءَهَا ، وَطَالَمَا أَشْرَقَتْ بِالْخَلَائِفِ(٩) وَابْتَهَجَتْ ،

(١) توقل فى الجبل ونحوه اذا صعد فيه وعلا ، والتوقل أيضا : الاسراع فى الصعود ، وفلان يتوقل مصاعد الشرف اذا أسرع فى الارتقاء اليها . (٢) الشرفات التى تعلو المنازل من الأمام وتطل على الطريق أوعلى ساحة الدار « البلكونات » (٣) أوقره : أثقله وحمله (٤) جمع درنوك وهو ضرب من البسط ذو خمل ، وكانوا يشبهون به فروة البعير والأسد ، وكذا « الدرنيك » والدرنك ، و برد مفوف: رقيق موشى ذو خطوط ونقش. وفى الأصل « محفوفة » بدل « مفوفة » (٥) الدوحة الشجرة العظيمة ذات الفروع الممتدة ، وجمعها دوح وأدواح (٦) جمع ريح (٧) الضعف والخراب (٨) جمعته وقبضته « كناية عن تهدمها » (٩) جمع خليفة

وَفَاحَتْ مِنْ شَذَاهُمْ وَتَأَرَّجَتْ ، أَيَّامَ نَزَلُوا خِلَالَهَا ، وَتَفَيَّئُوا ظِلَالَهَا ، وَعَمَرُوا حَدَائِقَهَا وَجَنَّاتِهَا ، وَنَبَّهُوا الْآمَالَ مِنْ سِنَاتِهَا(١) ، وَرَاعُوا اللُّيُوثَ فِي آجَامِهَا(٢) ، وَأَخْجَلُوا الْغُيُوثَ عِنْدَ انْسِجَامِهَا(٣) ، فَأَضْحَتْ وَلَهَا بِالتَّدَاعِي تَلَفُّعٌ وَاعْتِجَارٌ(٤) ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ آثَارِهَا إِلَّا نُؤْىٌ(٥) وَأَحْجَارٌ ، قَدْ وَهَتْ قِبَابُهَا ، وَهَرِمَ شَبَابُهَا ، وَقَدْ يَلِينُ الْحَدِيدُ ، وَيَبْلَى عَلَى طَيِّهِ الْجَدِيدُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَتَعَاطَوْنَهَا صِغَارًا وَكِبَارًا ، وَيُدِيرُونَهَا أُنْسًا وَاعْتِبَارًا ، إِذَا بِرَسُولِ الْمُعْتَمِدِ قَدْ وَافَاهُمْ بِرُقْعَةٍ فِيهَا :

***

رقعة المعتمد

حَسَدَ الْقَصْرُ فِيكُمُ الزَّهْرَاءَ
وَلَعَمْرِي وَعَمْرُكُمْ مَا أَسَاءَ

(١) السنة النوم (٢) جمع أجمة وهى الغابة مأوى الأسد (٣) انسجم الغيث: توالى هطله وانسكابه (٤) التداعى: السقوط والانهيار ، وتلفعت المرأة إذا لبست كساءها « الأسود » واللفاع : الرداء ، وكل ما يتلفع به من رداء أو لحاف أو قناع يجلل به الجسد كله ، والاعتجار : لى الثوب على الرأس ، ولبسة للمرأة شبه الالتحاف ــ والغرض أن التداعى قد شملها والانهيار قد عمها وسرى فى كل أجزائها (٥) النؤى: الحفير تحت الخباء أو الخيمة يمنع السيل .

قَدْ طَلَعْتُمْ بِهَا شُمُوسًا صَبَاحًا
فَاطْلُعُوا عِنْدَنَا بُدُورًا مَسَاءَ

فَسَارُوا إِلَى قَصْرِ الْبُسْتَانِ بِبَابِ الْعَطَّارِينَ[١] فَأَلْفَوْا مَجْلِسًا قَدْ حَارَ فِيهِ الْوَصْفُ، وَاحْتَشَدَ فِيهِ اللَّهْوُ وَالْقَصْفُ[٢]، وَتَوَقَّدَتْ نُجُومُ مُدَامِهِ، وَتَأَوَّدَتْ قُدُودُ[٣] خُدَّامِهِ، وَأَرْبَى عَلَى الْخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ، وَأَبْدَى صَفْحَةَ الْبَدْرِ مِنْ أَزْرَارِ الْمُدِيرِ[٤]، فَأَقَامُوا لَيْلَتَهُمْ مَا عَرَاهُمْ نَوْمٌ، وَلَا

(١) من أبواب قرطبة، وعنده كان يسكن أبو محمد قاسم بن موسى بن يونس بن موسى الضبى - و بقربه كان مسجد النخيلة، وفيه نزل أبو محمد مكى بن أبى طالب القيسى المقرى القير وانى أول قدومه الى قرطبة وأقرأ به ثم نقله المظفر عبد الملك بن أبى عامر الى جامع الزاهرة، وتوفى سنة ٤٣٧ « أحمد يوسف نجاتى ».

(٢) احتشد: اجتمع، والقصف هنا معناه اللهو واللعب والحلية والاعلان بهما، وفى الأساس هو الرقص مع الحلية، مأخوذ من قصف العيدان الصغيرة أى كسرها، ورعد قاصف فى صوته تكسر، ومنه قيل لصوت المعازف قصف، ثم تجوز به المولدون فى كل لهو، ولعفيف الدين التلمسانى يصف البان:

تبسم زهر البان عن طيب نشره ... وأقبل فى حسن يجل عن الوصف
هلموا اليه بين قصف ولذة ... فان غصون البان تصلح للقصف

(٣) تأودت: تثنت وتمايلت كغصون البان (٤) أى مدير الكاس والساقى

كأنما الشمس من لباته طلعت ... حسنا أو البدر من أزراره طلعا

عَدَاهُمْ عَنْ طِيبِ اللَّذَّاتِ سَوْمٌ (١) ، وَكَانَتْ قُرْطُبَةُ مُنْتَهَى أَمَلِهِ ، وَكَانَ رَوْمُ أَمْرِهَا أَشْهَى عَمَلِهِ ، وَمَا زَالَ يَخْطُبُهَا بِمُدَاخَلَةِ أَهْلِيهَا ، وَمُوَاصَلَةِ وَالِيهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي مُنَازَلَتِهَا قَائِدٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا إِلَّا حِيَلٌ وَمَكَايِدُ ، لِاسْتِمْسَاكِهِمْ بِدَعْوَةِ خُلَفَائِهَا ، وَأَنَفَتِهِمْ مِنْ طُمُوسِ رُسُومِ الْخِلَافَةِ وَعَفَائِهَا (٢) ، وَحِينَ اتَّفَقَ لَهُ تَمَلُّكُهَا ، وَأَطْلَعَهُ فَلَكُهَا ، وَحَصَلَ فِي قُطْبِ دَارَتِهَا (٣) ، وَوَصَلَ إِلَى تَدْبِيرِ رِيَاسَتِهَا وَإِدَارَتِهَا ، قَالَ :

مَنْ لِلْمُلُوكِ بِشَأْوِ الْأَصْيَدِ الْبَطَلِ
هَيْهَاتَ جَاءَتْكُمُ مَهْدِيَّةُ الدُّوَلِ (٤)

وفى معنى ماهنا قول الشاعر :

وأسكر القوم دور كأس وكان سكرى من المدير

وصفحة البدر وجهه وعرضه وجانبه (١) أصل السوم فى المبايعة عرض السلعة على البيع ، وسام بها سوما اذا غالى ، والسوم أيضا سرعة المر ، وسامت الماشية سوما : رعت حيث شاءت ، وسام فلانا الأمر سوما كلفه اياه ، وعداه عن الشيء : صرفه ومنعه . « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) طمس الرسم وعفا اذا درس وامحى وزال أثره (٣) الدارة : ماأحاط بالشيء كالدائرة ، وهالة القمر التى حوله (٤) الشأو : السبق والغاية والأمد : والأصيد الملك ذو القوة والبذخ ، وفى الأصل « مهدية الأول » وفى بعض

خَطبْتُ قُرْطُبَةَ الْحَسْنَاءَ إذْ مَنَعَتْ
مَنْ جَاءَ يَخْطُبُهَا بِالْبِيضِ وَالْأَسَلِ (١)
وَكَمْ غَدَتْ عَاطِلًا حَتَّى عَرَضْتُ لَهَا
فَأَصْبَحَتْ فِي سَرِيِّ الْحَلْيِ وَالْحُلَلِ (٢)
عُرْسُ الْمُلُوكِ لَنَا فِي قَصْرِهَا عُرُسٌ
كُلُّ الْمُلُوكِ بِهِ فِي مَأْتَمِ الْوَجَلِ (٣)

المراجع «مهرية الدول» (١) البيض السيوف، والأسل الرماح (٢) العاطل المرأة يخلو جيدها من الحلى، والشيء السرى النفيس الثمين (٣) العرس «بضم العين وسكون الراء وضمها» وليمة الاملاك والزفاف والاحتفال بهما أو طعامه خاصة ـ والعرس أيضا جمع عروس. واسم من الاعراس وهو الدخول بالعروس ـ هذا والبيت فى كل الأصول والمراجع كما ترى، وقد تكون «عرس» أول البيت مصحفة عن «عرش» يعنى أن عرش الملوك الذين كانوا بقرطبة من قبل أصبح للمعتمد عرسا سارا له جارا على غيره من الملوك الوجل، فهو فى عرس وهم فى مأتم لخوفهم على عروشهم أن يثلها و يستوى عليها، وان بقيت «عرس» كما هى فاكسر عينها مريدا بها قرطبة نفسها جعلت عرسا للملوك لأنها كانت أبهى مدائن الأندلس، ثم أخبر بأن له فى قصرها عرائس أو اعراسا وزفافا «وهذا أظهر على ما أرى» أو ضمها والمعنى قريب من المكسورة، وهذا كله جناية الولوع بالبديع والجناس، وان كان الخطب سهلا. و «به» فى عجز البيت: يروى: لها، ويروى «بها». «أحمد يوسف نجاتى».

فَرَاقِبُوا عَنْ قَرِيبٍ - لَا أَبَا لَكُمْ -

هُجُومَ لَيْثٍ بِدِرْعِ الْبَأْسِ مُشْتَمِلِ

وَلَمَّا انْتَظَمَتْ فِي سِلْكِهِ ، وَاتَّسَمَتْ بِمُلْكِهِ ، أَعْطَى ابْنَهُ الظَّافِرَ زِمَامَهَا ، وَوَلَّاهُ نَقْضَهَا وَإِبْرَامَهَا ، فَأَفَاضَ فِيهَا نَدَاهُ ، وَزَادَ عَلَى أَمَدِهِ وَمَدَاهُ ، وَجَمَّلَهَا بِكَثْرَةِ حِبَائِهِ[١] ، وَاسْتَقَلَّ بِأَعْبَائِهَا عَلَى فَتَائِهِ[٢] ، وَلَمْ يَزَلْ فِيهَا آمِرًا وَنَاهِيًا ، غَافِلًا عَنِ الْمَكْرِ سَاهِيًا ، حُسْنَ ظَنٍّ بِأَهْلِهَا اعْتَقَدَهُ ، وَاغْتِرَارًا بِهِمْ مَا رَوَّاهُ وَلَا انْتَقَدَهُ ، وَهَيْهَاتَ كَمْ مِنْ مَلِكٍ كَفَّنُوهُ فِي دِمَائِهِ ، وَدَفَنُوهُ بِذَمَائِهِ[٣] ، وَكَمْ مِنْ عَرْشٍ ثَلُّوهُ[٤] ، وَكَمْ مِنْ عَزِيزِ مُلْكٍ أَذَلُّوهُ ، إِلَى أَنْ ثَارَ فِيهَا ابْنُ عُكَّاشَةَ[٥]

(١) الحباء : العطاء (٢) استقل بالشيء اذا نهض به وقوى على حمله والاضطلاع بأموره ، والفتاء حداثة السن والشباب (٣) الذماء بقية النفس ، وبقية الروح فى المذبوح (٤) هدموه وقوضوه ، والجملة كناية عن ازالة الملك كما قال الشاعر :

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحرث بن شهاب

وفى الأصل « فلوه » مصحفة (٥) خلاصة هذه الحادثة « وقد تقدمت » ان المعتمد بن عباد كان قد اتسع ملكه وشمخ سلطانه ، وملك كثيرا من بلاد الأندلس ومنها قرطبة ، و ولى عليها ابنه الظافر بالله ، فبلغ خبر ملكه لها الى الأمير المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة فحسده عليها ، فضمن

لَيْلًا ، وَجَرَّ إِلَيْهَا حَرْبًا وَوَيْلًا ، فَبَرَزَ الظَّافِرُ مُنْفَرِدًا عَنْ كُمَاتِهِ ، عَارِيًا مِنْ حُمَاتِهِ ، وَسَيْفُهُ فِي يَمِينِهِ « وَهَادِيهِ فِي الظَّلْمَاءِ نُورُ جَبِينِهِ » فَإِنَّهُ كَانَ غُلَامًا قَدْ بَلَّلَهُ الشَّبَابُ بِأَنْدَائِهِ ، وَأَلْحَفَهُ الْحُسْنُ بِرِدَائِهِ ، فَدَافَعَهُمْ أَكْثَرَ لَيْلِهِ ، وَقَدْ مَنَعَ مِنْهُ تَلَاحُقَ رَجْلِهِ وَخَيْلِهِ ، حَتَّى أَمْكَنَتْهُمْ مِنْهُ

له جرير بن عكاشة « أو موسى » ابن عكاشة « وأصله من البربر » أن يجعل ملكها له — وكان ابن عكاشة قبل ذلك متغلبا على قرطبة فغلبه عليها الأمير الظافر أبو القاسم محمد بن عباد سنة ٤٧١ — وسار الى قرطبة وأقام بها يسعى فى ذلك ، وهو ينتهز الفرصة ، فاتفق فى بعض الليالى أن هطل مطر عظيم ومعه ريح شديدة ورعد وبرق ، فثار جرير بن عكاشة فيمن معه ووصل الى قصر الامارة فلم يجد من يمانعه ، فدخل صاحب الباب الى الظافر وأعلمه ، فخرج بمن معه من العبيد والحرس — وكان صغير السن — وحمل عليهم ودفعهم عن الباب ، ثم انه عثر فى بعض كرانه فسقط فوثب عليه بعض من يقاتله وقتله ، ولم يبلغ الخبر الى الأجناد وأهل البلد الا والقصر قد ملك ، وتلاحق بابن عكاشة أصحابه وأشياعه ، وترك الظافر طريحا على الأرض وهو عريان ، فمر عليه بعض أهل قرطبة فأبصره على تلك الحال ، فنزع عنه رداءه وألقاه عليه ، ولم يزل المعتمد يسعى فى أخذها حتى أعاد ملكها وترك ولده المأمون فيها ، فأقام بها حتى استولى عليها جيش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ وأخذت اشبيلية من أبيه المعتمد ، وبقى محبوسا فى أغمات الى أن توفى بها سنة ٤٨٨ . وكان رحمه الله تعالى هو وأولاده جميعا الرشيد والمأمون والراضى وأبوه وجده علماء أدباء فضلاء شعراء «أحمد يوسف نجاتى»

عَثْرَةٌ لَمْ يُقَلْ لَهَا لَعاً[١] ، وَلَا اُسْتَقَالَ مِنْهَا وَلَا سَعَى ، فَتُرِكَ مُلْتَحِفاً بِالظَّلْمَاءِ ، تَحْتَ نُجُومِ اُلسَّمَاءِ ، مُعَفَّرًا فِي وَسَطِ اُلْحِمَاءِ[٢] تَحْرُسُهُ اُلْكَوَاكِبُ ، بَعْدَ اُلْمَوَاكِبِ[٣] ، وَيَسْتُرُهُ اُلْحِنْدِسُ[٤] ، بَعْدَ اُلسُّنْدُسِ ، فَمَرَّ بِمَصْرَعِهِ سَحَرًا أَحَدُ أَئِمَّةِ اُلْجَامِعِ اُلْمُغَلِّسِينَ[٥] فَرَآهُ وَقَدْ ذَهَبَ مَا كَانَ عَلَيْهِ وَمَضَى ، وَهُوَ أَعْرَى مِنَ اُلْحُسَامِ اُلْمُنْتَضَى[٦] ، فَخَلَعَ رِدَاءَهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ وَنَضَاهُ[٧] ، وَسَتَرَهُ بِهِ سَتْرًا أَقْنَعَ اُلْمَجْدَ[٨] وَأَرْضَاهُ ، وَأَصْبَحَ لَا يُعْلَمُ رَبُّ تِلْكَ اُلصَّنِيعَةِ ، وَلَا يُعْرَفُ فَتُشْكَرَ لَهُ يَدُهُ اُلرَّفِيعَةَ ، فَكَانَ اُلْمُعْتَمِدُ إِذَا تَذَكَّرَ صَرْعَتَهُ ، وَسَعَّرَ[٩] اُلْحُزْنُ لَوْعَتَهُ ، رَفَعَ بِالْعَوِيلِ

---

(١) يقال للعاثر : لعالك ، دعاء له بأن ينتعش من سقطته ، فاذادعى عليه قيل : لالعاله أى لا أقاله اللهولاأنهضه ،وفى بعض النسخ « استقل » أى نهض ، واستقال طلب الاقالة (٢) جمع حمأة وهى الطين الأسود « وفى الأصل « أكماء » (٣) جمع موكب وهو الجماعة من الناس ركبانا أومشاة أوجماعة الفرسان للزينة والتنزه (٤) الليل المظلم الشديد الظلمة أو الظلمة نفسها (٥) غلس اذا صار بالغلس وهو ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح (٦) انتضى السيف اذا استله من غمده (٧) نضا ثوبه عنه اذا نزعه (٨) فى الأصل « المجدب » وهى زيادة مفسدة (٩) سعر النار أوقدها وهيجها واللوعة حرقة فى القلب وألم يشعر به الانسان من نحوهم أوحزن أومرض

نِدَاءَهُ ، وَأَنْشَدَ :

* وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ(١) *

والعويل رفع الصوت بالبكاء والصياح ، « وقد يكون العويل حرارة وجد الحزين من غير نداء ولا بكاء ، وقد يكون صوتا من غير بكاء »(١) هذا صدر بيت من أبيات لأبى خراش الهذلى ، وهو :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه سوى أنه قد سل عن ماجد محض

وأبو خراش هو خويلد بن مرة شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والاسلام فأسلم، وتوفى فى خلافة عمر بن الخطاب، وكان بنو كنانة قد أسروا عروة ابن مرة أخا أبى خراش ، فسعى أبو خراش حتى أطلق ، ثم خرج عروة وخراش بن أبى خراش مرة فى جماعة مغيرين على بنى ثمالة طمعا أن يظفروا من أموالهم شئ ، فظفر بهما الثماليون ، واختلفت بطون ثمالة فأما بنو رزام فنهوا عن قتلهما، وأبى بنو بلال الا قتلهما، حتى كاد يكون بينهم شر ، فألقى رجل من القوم ثوبه على خراش حين شغل القوم بقتل عروة ثم قال له انج بنفسك، وانحرف القوم بعد قتلهم عروة إلى الرجل وكانوا قد أسلموه اليه فقالوا له: أين خراش؟ فقال: أفلت منى، فذهب فسعى القوم فى أثره فأعجزهم، فقال أبو خراش فى ذلك يرثى أخاه عروة، ويذكر خلاص ابنه:

حمدت الهى بعد عروة اذ نجا خراش، وبعض الشر أهون من بعض

فو الله لا أنسى قتيلا رزئته بجانب قوسى ماحييت على الأرض

بلى ، انها تعفو الكلوم ، وانما نوكل بالأدنى وان جل مايمضى

ولم أدر من ألقى عليه رداءه سوى أنه قد سل عن ماجد محض

ولم يك مثلوج الفؤاد مهبلا أضاع الشباب فى الربيلة والخفض

ولكنه قد نازعته مجاوع على أنه ذو مرة صادق النهض

«قوسى» بلد بالسراة به قتل عروة أخو أبى خراش ، والمثلوج الفؤاد: البليد والمهبل ، من يدعى عليه بالهبل أى بالفقد والهلاك لقلة غنائه ، والربيلة السمن والخفض والدعة والنعمة ، ويروى « مهيجا » بدل مهبلا ، والمرة

وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ حُزَّ رَأْسُهُ وَرُفِعَ عَلَى سِنٍّ رُمْحٍ وَهُوَ يُشْرِقُ كَنَارٍ عَلَى عَلَمٍ ، وَيَرْشُقُ نَفْسَ كُلِّ نَاظِرٍ بِأَلَمٍ ، فَلَمَّا رَمَقَتْهُ الْأَبْصَارُ ، وَتَحَقَّقَتْهُ الْحُمَاةُ وَالْأَنْصَارُ ، رَمَوْا أَسْلِحَتَهُمْ ، وَسَوَّوْا لِلْفِرَارِ أَجْنِحَتَهُمْ ، فَمِنْهُمْ مَنِ اخْتَارَ فِرَارَهُ وَجَلَاهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَتَتْ بِهِ إِلَى حَيْنِهِ(١) رِجْلَاهُ ، وَشُغِلَ الْمُعْتَمِدُ عَنْ رِثَائِهِ بِطَلَبِ ثَارِهِ ، وَنَصْبِ الْحَبَائِلِ لِوُقُوعِ ابْنِ عُكَّاشَةَ وَعِثَارِهِ ، وَعَدَلَ عَنْ تَأْبِينِهِ ، إِلَى الْبَحْثِ عَنْ مَفْرِقِهِ وَجَبِينِهِ ، فَلَمْ تُحْفَظْ لَهُ فِيهِ قَافِيَةٌ ، وَلَا كَلِمَةٌ لِلَوْعَتِهِ شَافِيَةٌ ، إِلَّا إِشَارَتُهُ إِلَيْهِ ، فِي تَأْبِينِ أَخَوَيْهِ ، الْمَأْمُونِ وَالرَّاضِي الْمَقْتُولَيْنِ فِي أَوَّلِ النَّائِرَةِ(٢) ، وَالْفِتْنَةِ الثَّائِرَةِ(٣) . انْتَهَى .

القوة — يصف أخاه بأنه ممن هذبته الشدائد فظهرت غناءه وقوة نفسه وصدق عزيمته ، وليس من الشبان الذين أبطرهم الغنى وأفسدتهم النعمة والفراغ حتى بلدا احساسهم، وفقدوا قوة نفوسهم، فاستحقوا سخط الناس ومقتهم وتمنيهم هلاكهم . « أحمد يوسف نجاتى » . (١) الحين : الهلاك ، والعبارة من المثل : أتتك بحائن رجلاه ، مثل : سعى الى حتفه بظلفه . (٢) النائرة الفتنة الحادثة ، ونار الحرب ونائرتها: شرها وهيجها (٣) من ذلك الرثاء قوله من قصيدة :

يقولون صبرا ! لاسبيل الى الصبر ... سأبكى وأبكى ما تطاول من عمرى
نرى زهرها فى مأتم كل ليلة ... يخمشن لهفا وسطه صفحة البدر
ينحن على نجمين أثكلن ذا وذا ... فياصبر ما للقلب فى الصبر من عذر

* * *

مجالس الأنس بمتنزهات قرطبة

« وَقَدْ رَأَيْتُ » أَنْ أَزِيدَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِمَّا قَصَدْتُ جَلْبَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ نُبْذَةً مِنْ كَلَامِ الْفَتْحِ فِي ذِكْرِ مُتَنَزَّهَاتِ .

مدى الدهر فليبك الغمام مصابه ... بصنو يه يعذر فى البكاء مدى الدهر
بعين سحاب واكف قصر دمعها ... على كل قبر حل فيه أخو القطر
وبرق ذكى النار حتى كأنما ... يسعر مما فى فؤادى من الجمر
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه ... يزيد، فهل بعد الكواكب من صبر؟!
أفتح لقد فتحت لى باب رحمة ... كما بيزيد الله قد زاد فى أجرى
هوى بكما المقدار عنى ولم أمت ... وأدعى وفيا ! قد نكصت الى الغدر
توليتما والسن بعد صغيرة ... ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرى
فلو عدتما لاخترتما العود فى الثرى ... اذا أنتما أبصرتمانى فى الأسر
يعيد على سمعى الحديد نشيده ... ثقيلا ، فتبكى العين بالجس والنقر
معى الأخوات الهالكات عليكما ... وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
فتبكى بدمع ليس للقطر مثله ... وتزجرها التقوى فتصغى الى الزجر
أبا خالد أورثتنى البث خالدا ... أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى
وقبلكما ماأودع القلب حسرة ... تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو

وانما سقنا هذه الأبيات مع طولها لما اشتملت عليه من عواطف الأبوة الحزينة المتاعة بحر الوجد ، فكانت جد مؤثرة ، تثير الشجون ، وتستدر شآبيب العيون ، وتستنزف ماء الشؤون — قلت: وأحد الولدين اللذين يرثيهما هو المأمون ، وكان ينوب عن والده فى قرطبة ، فحصر بها أيام الفتنة حتى قتل ، والثانى يزيد الراضى وكان أيضا نائبا عنه فى مدينة « رندة » وهى من الحصون المنيعة ، فنازلوه وأخذوها وقتلوا الراضى ، ولست ترى ما يفتت الأكباد ، ويسعر الجمر فى الفؤاد ، مثل فقد البنين والأولاد ، جعل الله من فقدناه منهم لنا فرطا وذخرا حسنا . « أحمد يوسف نجاتى » .

قُرْطُبَةَ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَوَصْفِ مَجَالِسِ الْأُنْسِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا مِمَّا تَنْشَرِحُ لَهُ الْأَنْفُسُ ، وَوَقَعَ ذِكْرُ غَيْرِ قُرْطُبَةَ وَالزَّهْرَاءِ لَهُمَا تَبعًا ، وَلَا يَخْلُو ذَلِكَ مِنْ عِبْرَةٍ بِحَالِ مَنْ جَعَلَ فِي اللَّهْوِ مَصِيفًا وَمُرْتَبَعًا ، ثُمَّ طَوَاهُ الدَّهْرُ طَيَّ السِّجِلِّ ، وَمَحَا آثَارَهُ الَّتِي كَانَتْ تَسْمُو وَتَجِلُّ ، وَمَا قَصَدْنَا ـ عَلِمَ اللهُ ـ غَيْرَ الِاعْتِبَارِ ، بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ ، لَا الْحَثَّ عَلَى الْحَرَامِ ، وَتَسْهِيلَ الْقَصْدِ إِلَيْهِ وَالْمَرَامِ . وَالْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ كَفِيلٌ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ بِبُلُوغِ الْأُمْنِيَّاتِ ، وَتَعْوِيضِنَا عَنْ هَذِهِ النِّعَمِ الْفَانِيَاتِ بِالنِّعَمِ الْبَاقِيَاتِ السَّنِيَّاتِ .

***

الوزير ابن سراج

« قَالَ الْفَتْحُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى » فِي تَرْجَمَةِ الْوَزِيرِ أَبِي الْوَلِيدِ بْنِ زَيْدُونَ مَاصُورَتُهُ : وَأَخْبَرَنِي الْوَزِيرُ الْفَقِيهُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ سِرَاجٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ أَنَّهُ[1] فِي وَقْتِ

(١) رأيت فى بعض المراجع هذه العبارة هكذا : أنه أيام توار يه ، وجريه

فِرَارِهِ أَضْحَى ، غَدَاةَ ٱلْأَضْحَى ، وَقَدْ ثَارَ بِهِ ٱلْوَجْدُ بِمَنْ كَانَ يَأْلَفُهُ وَٱلْغَرَامُ ، وَتَرَاءَتْ لِعَيْنَيْهِ تِلْكَ ٱلظِّبَاءُ ٱلْأَوَانِسُ وَٱلْآرَامُ(١) ، وَقَدْ كَانَ ٱلفِطْرُ وَافَاهُ ، وَٱلشَّقَاءُ قَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَى رَسْمِ عَافِيَتِهِ حَتَّى عَفَّاهُ(٢) ، فَلَمَّا عَادَهُ مِنْهُمَا مَا عَادَ ، وَأَعْيَاهُ ذَلِكَ ٱلنَّكَدُ(٣) ٱلْمُعَادُ ، ٱسْتَرَاحَ إِلَى ذِكْرِ عَهْدِهِ ٱلْحَسَنِ ، وَأَرَاحَ جُفُونَهُ ٱلْمُسَهَّدَةَ بِتَوَهُّمِ ذَلِكَ ٱلْوَسَنِ(٤) وَذَكَرَ مَعَاهِدَ كَانَ يَخْرُجُ إِلَيْهَا فِي ٱلْعِيدِ ، وَيَتَفَرَّجُ بِهَا مَعَ أُولَئِكَ ٱلْغِيدِ ، فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ لَا فِطْرٌ يَسُرُّ وَلَا أَضْحَى
فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقًا كَمَا أَضْحَى

أمام الطلب وتباريه ، أضحى الخ (١) الآرام جمع رئم : وهو الظبي الخالص البياض (٢) محاه وأزال أثره (٣) فى القلائد « الـكد » (٤) السهد : الأرق ، وسهده الهم والوجع اذا أرقه وأسهر ليله ـ والوسن : شدة النوم أو أوله ، أو النعاس من غير نوم ، وقيل السنة نعاس يبدأ فى الرأس ، فاذا صار الى القلب فهو نوم ، وقال عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم

لَئِنْ شَاقَنِي «شَرْقُ ٱلعُقَابِ» فَلَمْ أَزَلْ
أَخُصُّ بِمَحْضُوضِ ٱلْهَوَى ذَلِكَ «ٱلسَّفْحَا»(١)

وَمَا ٱنْفَكَّ «جَوْفِيُّ ٱلرُّصَافَةِ» مُشْعِرِى
دَوَاعِيَ بَثٍّ تُعْقِبُ ٱلْأَسَفَ ٱلْبَرْحَا(٢)

وَيَهْتَاجُ «قَصْرُ ٱلْفَارِسِيِّ» صَبَابَةً
لِقَلْبِيَ لَا تَأْلُو زِنَادَ ٱلْأَسَى قَدْحَا(٣)

وَلَيْسَ ذَمِيماً عَهْدُ «مَجْلِسِ نَاصِحٍ»
فَأَقْبَلَ فِي فَرْطِ ٱلْوُلُوعِ بِهِ نُصْحَا

كَأَنِّيَ لَمْ أَشْهَدْ لَدَى «عَيْنِ شَهْدَةٍ»
نِزَالَ عِتَابٍ كَانَ آخِرُهُ ٱلْفَتْحَا

وَقَائِعُ جَانِيهَا ٱلتَّجَنِّي، فَإِنْ مَشَى
سَفِيرُ خُضُوعٍ بَيْنَنَا أَكَّدَا ٱلصُّلْحَا(٤)

---

(١) العقاب : موضع بقرب قرطبة، وسفح الجبل عرضه حيث يسفح فيه الماء ، ومحوض الهوى : خالصه وصرفه (٢) تقدم شرح « جوفى الرصافة » والبرح أصله العذاب والشدة، وصف به هنا على معنى الشاق الشديد المؤلم. والبث الوجد والحزن والغم يفضى به المرء الى صاحبه (٣) قدح الزند : استخرج ناره ، ولا تألو : لا تمنع ـ وفى بعض المراجع « محبس ناصح » بدل مجلس فى البيت الذى بعده (٤) جعل مايدور بينهما عند « عين

وَأَيَّامَ وَصْلٍ « بِالْعَقِيقِ » اُقْتَضَيْتُهُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفِصْحَا

وَآصَالَ لَهْوٍ فِي « مُسَنَّاةِ مَالِكٍ »
مُعَاطَاةَ نَدْمَانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْ سَبْحَا(١)

لَدَى رَاكِدٍ تُصْبِيكَ مِنْ صَفَحَاتِهِ
قَوَارِيرُ خُضْرٌ خِلْتَهَا مُرِّدَتْ صَرْحَا(٢)

مَعَاهِدُ لَذَّاتٍ . وَأَوْطَانُ صَبْوَةٍ
أَجَلْتُ الْمُعَلَّى فِي الْأَمَانِي بِهَا قِدْحَا(٣)

شهدة» من العتاب نزالا جناه التجنى والدلال، ثم يسفر عن الفتح، و ينتهى خضوع المحب الى الصلح (١) المسناة : السد يبنى فى وسط الوادى لاحتجاز الماء والتصرف فيه بما تقتضيه المصلحة ، له أبواب تفتح لاطلاق الماء عند الحاجة ـ يذكر أوقات الأصائل وهى أطيب أوقات النهار التى كان يقضيها لاهيا لاعبا عند هذا السد، فان شاء تساقى مع الندمان الراح ، وان شاء نزل فى النهر للعوم والسباحة. والبيت يعطيك صورة كالتى نراها على الشواطىء وقرب الجسور فى أيام الصيف أو الربيع (٢) مرد البناء سواه وملسه، والصرح الساحة و بلاط يتخذ من قوارير القصر ـ شبه سطح الماء الراكد فى خضرته واستوائه وصفائه بالقوارير التى جعلت صرحا ممردا (٣) القدح السهم من السهام التى كانوا يستقسمون بها الجزور فى الميسر ، وكان المعلى أوفرها حظا له سبعة أجزاء من الجزور « يقول ان هذه المعاهد نال فيها آماله، وظفر بأغراضه، فكان سهمه فيها رابحا أعظم ربح ، فما رام مآربا الا أسفر سعيه

أَلَاهَلْ إِلَى «اَلزَّهْرَاءِ» أَوْبَةُ نَازِحٍ
تَقَضَّى تَنَائِيهَا مَدَامِعَهُ نَزْحَا ؟! (١)

مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَبَاتُهَا
فَخِلْنَا اَلْعِشَاءَ اَلْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا (٢)

يُمَثِّلُ قُرْطَيْهَا لِيَ اَلْوَهْمُ جَهْرَةً
فَقُبَّتَهَا، فَالْكَوْكَبَ اَلرَّحْبَ، فَالسَّطْحَا (٣)

مَحَلُّ ارْتِيَاحٍ يُذْكِرُ اَلْخُلْدَ طِيبُهُ
إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى اَلْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى (٤)

---

(١) الأوبة العودة ، والنازح البعيد المفارق عن حوز النجح، وفوز القدح وتقضى: تقاضى وطالب ، أو أخذ وتناول واستوفى، يقول ان تنائى الزهراء عنه استوفى حقه من مدامعه حتى نزفها ، فكأنه غريم تقاضى دينه وهو انتزاح ماء الجفون ، واستنفاد الدموع من العيون. وفى الأصل « نقضت مبانيها مدامعها » وفيه أوبة « ناصح » بدل « نازح » وهو تصحيف بعيد وتحريف فاسد ، وكم كان فيه من مثل هذا العبث والعيث «أحمد يوسف نجاتى» (٢) فى الأصل « شرفت » بدل «أشرقت » والجون الأسود هنا (٣) يريد أن توهم هذه الأماكن وتخيلها يصورها فى نفسه فكأنه يراها عيانا وفى الأصل « يمثل قرطيها الى الوهم جمرة » !؟ و « الجون » فى عجز البيت بدل « الرحب » ولا بأس به اذا أريد منه « الأبيض » (٤) يصدى يعطش، و يضحى يبرز للشمس و يتعرض لحرها. وعز امتنع وشق — والبيت مأخوذ من وصف الجنة فى قوله تعالى « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى » وفى بعض النسخ « عن » بدل « عز »

هُنَاكَ ٱلْجِمَامُ (١) ٱلزُّرْقُ تَنْدَى حِفَافُهَا
ظِلَالٌ عَهِدْتُ ٱلدَّهْرَ فِيهَا فَتًى سَمْحَا
تَعَوَّضْتُ مِنْ شَدْوِ ٱلْقِيَانِ خِلَالَهَا
صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ ٱلْكَرَى ضَبْحَا (٢)
وَمِنْ حَمْلِيَ ٱلْكَأْسَ ٱلْمُفَدَّى مُدِيرُهَا
تَقَحُّمَ أَهْوَالٍ حَمَلْتُ لَهَا ٱلرُّمْحَا (٣)
أَجَلْ إِنَّ لَيْلِي فَوْقَ « شَاطِئِ بَيْطَةٍ »
لَأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِي بِآنَةَ وَٱلْبَطْحَا (٤)

وَهٰذِهِ مَعَاهِدُ بَنِي أُمَيَّةَ قَطَعُوا بِهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا، وَظَلَّتْ فِيهَا ٱلْحَوَادِثُ عَنْهُمْ نِيَامًا، فَهَامُوا بِشَرْقِ ٱلْعُقَابِ، وَشَامُوا

---

(١) الجمام جمع جمة وهومكان اجتماع الماء وغزارته، وحفافها جوانبها وما يحيط بها : يقول ان هذه المياه الصافية يمتد على شواطئها الظل فيكون نديا رطبا ينعش النفس ويهب به النسيم عليلا بليلا . وفى بعض النسخ «هناك الحمام الورق تندى حفافها » وفى الأصل « هناك الحمام الزرق تبدى خفافها »
(٢) الضبح : صوت الخيل، وقد يطلق على صوت غيرها كما استعاره هنا لما يتردد فى الفلوات من الأصداء المزعجة المرهوبة ، وفى الأصل « صبحا » وقد كان فى صدر البيت « شرق » بدل « شدو » وهو تصحيف وتحريف
(٣) يقول ان الدهر أبدله من حمله الكأس التى يديرها ساق يفدى بالنفس حمله أهوالا يقتحم شدائدها محاربا (٤) بيطة وآنة والبطحاء مواضع كانت

بِهِ بَرْقًا يَبْدُو مِنْ نِقَابٍ ، وَنَعِمُوا بِجَوْفِيِّ الرُّصَافَةِ ، وَطَعِمُوا عَيْشًا تَوَلَّى الدَّهْرُ جَلَاءَهُ وَزِفَافَهُ ، وَأَبْعَدُوا نُصْحَ النَّاصِحِ ، وَحَمِدُوا أُنْسَ « مَحْبِسِ نَاصِحٍ » ، وَعَمُوا بِالزَّهْرَاءِ ، وَصَمُّوا عَنْ نَبَإِ صَاحِبِ الزَّوْرَاءِ[1] ، حَتَّى رَحَّلَهُمْ[2] الْمَوْتُ عَنْهَا وَقَوَّضَهُمْ ، وَعَوَّضَهُمْ عَنْهَا مَا عَوَّضَهُمْ ، فَصَارُوا أَحَادِيثَ وَأَنْبَاءً ، وَلَمْ يَتَزَوَّدُوا مِنْهَا إِلَّا حَنُوطًا[3] وَكِبَاءً ، وَغَدَتْ تِلْكَ الْمَعَاهِدُ تُصَافِحُهَا أَكُفُّ الْغِيَرِ ، وَتُنَاوِحُهَا[4] نَعَبَاتُ الطِّيَرِ .[5]

بقرطبة وفى الأصل « نيطة ، ... ببانة » (١) الزوراء اسم لعدة مواضع مما يناسب منها هنا مدينة المنصور ببغداد وكانت فى الجانب الغربى ، سميت الزوراء لأنه جعل أبوابها الداخلة مزورة أى منحرفة عن أبوابها الخارجة وليست على سمتها ، واسم دار عثمان بن عفان رضى الله عنه بالمدينة ، واسم دار كان النعمان بن المنذر قد بناها بالحيرة ، وقيل ان المنصور هدمها . وكانت رصافة هشام بن عبد الملك تسمى الزوراء ، وكانت من قبله للنعمان «وهى غير التى بالحيرة » وهى أدنى بلاد الشام الى الشيح والقيصوم (٢) فى بعض النسخ «راح بهم» (٣) الحنوط كل طيب يخلط للميت يطيب به أكفانه وجسده ، والكباء عود البخور أو ضرب منه :

قد ضعت ما بينكم وكم بلد يعد عود الكباء من حطبه

(٤) التناوح التقابل ، وقد يكون من النواح — وفى بعض النسخ «وتراوحها» ونعب الغراب وغيره « كمنع وضرب » نعيبا ونعبا ونعابا اذا صاح وصوت (٥) الطيرة ما يتطير به أى يتشاءم به من الفأل الردىء ، أخذ اسمها من «الطير » لأن العرب كانت تتطير بالطيور من نحو نعيق الغراب أو أخذها

وَرَاحَتْ بَعْدَ الزِّينَةِ سُدًى(١) ، وَأَمْسَتْ مَسْرَحًا لِلْبُومِ وَمَلْعَبًا لِلصَّدَى ، يُسْمَعُ لِلْجِنِّ بِهَا عَزِيفٌ(٢) ، وَيُصْرَعُ فِيهَا الْبَطَلُ الْبَاسِلُ وَالنَّزِيفُ(٣) ، وَكَذَا الدُّنْيَا أَعْمَالُهَا خَرَابٌ ، وَآمَالُهَا آلٌ وَسَرَابٌ(٤) ، أَهْلَكَتْ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ(٥) ، وَأَذْهَبَتْ مَا كَانَ بِمَأْرِبٍ(٦) مِنْ حِيَازَاتٍ وَحُدُودٍ . انْتَهَى .

« وَقَالَ الْفَتْحُ بَعْدَ كَلَامٍ مَا صُورَتُهُ » : وَأَمَّا عَضَّتْهُ أَنْيَابُ الِاعْتِقَالِ ، وَرَضَّتْهُ(٧) تِلْكَ النُّوَبُ الثِّقَالُ ، وَعُوِّضَ بِخَشَانَةِ الْعَيْشِ مِنَ اللِّينِ ، وَكَابَدَ قَسْوَةَ خَطْبٍ لَا يَلِينُ ، تَذَكَّرَ

ذات اليسار إذا أثاروها . ويصح أن تكون «الطير» فيكون آخر السجعة من الفقرة التي قبلها «الغير» بفتح فسكون في كلا اللفظين «أحمد يوسف نجاتي»

(١) سدى أي مهملة عاطلة ، وفي بعض النسخ « للسيد » أي الذئب بدل « للبوم » (٢) العزيف والعزف: صوت الجن وهو جرس يسمع في المفاوز بالليل ، ولعله صوت الرياح في الجو فتوهمه أهل البادية صوت الجن (٣) من معاني النزيف من عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه (٤) الآل : السراب أو هو خاص بما في أول النهار مذ غدوة الى ارتفاع الضحى الأعلى، ثم هو سراب سائر اليوم ، والسراب الذي يجري على وجه الأرض لاصقابها كأنه الماء الجاري وهو نصف النهار (٥) من قوله تعالى «قتل أصحاب الأخدود» وهو الحفرة المستطيلة الغامضة في الأرض (٦) مأرب من بلاد اليمن ، وقد تكون «حدود» مصحفة عن «سدود» وسد مأرب معروف مشهور ، وكذا حديث سيل العرم (٧) رضه اذا دقه وكسره

عَهْدَ عَيْشِهِ ٱلرَّقِيقِ، وَمَرَاحَهُ بَيْنَ ٱلرُّصَافَةِ وَٱلْعَقِيقِ ، وَحَنَّ إِلَى سَعْدٍ زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهُ ، وَٱسْتَهْدَى نَسِيمَ عَيْشٍ طَابَ لَهُ هُبُوبُهُ ، وَتَأَسَّى بِمَنْ بَاتَتْ لَهُ ٱلنَّوَائِبُ بِمِرْصَادٍ ، وَرَمَتْهُ بِسِهَامٍ ذَاتِ إِقْصَادٍ(١) ، فَقَالَ :

ٱلْهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ ٱلنُّجُومِ
وَٱلْمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ ٱلنَّسِيمِ
سَرَّنَا عَيْشُنَا ٱلرَّقِيقُ ٱلْحَوَاشِي
لَوْ يَدُومُ ٱلسُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ(٢)
وَطَرٌ مَا ٱنْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى
زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ(٣)
أَيُّهَا ٱلْمُؤْذِنِي بِظُلْمِ ٱللَّيَالِي   لَيْسَ يَوْمِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظَلُومِ(٤)

(١) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلانا : طعنه أورماه بسهم فلم يخطىء مقاتله. وفى بعض المراجع زيادة سجعة أخرى قبل الشعر وهى : وضيم من عهد الأحص الى ذات الاصاد ، والأحص مكان كان بنجد حماه كليب وائل، والأحص أيضا اسم لكورة كبيرة كانت مشهورة ذات قرى ومزارع قبلى حلب ، وقد خربت وبادت . وذات الأصاد موضع فى بلاد فزارة ، و به كان مجرى داحس والغبراء «أحمد يوسف نجاتى» (٢) عيش رقيق الحواشى أى ناعم ذودعة وخفض (٣) الوطر : المأرب، والغرض، والذمام العهد (٤) يقول ان أيامه القاسية الظالمة كثيرة طال عهده بها فليس يومه واحدا

مَا تَرَى ٱلْبَدْرَ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَٱلشَّمْ
سَ هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ ٱلنُّجُومِ (١)
وَهُوَ ٱلدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو
بِٱلْمُصَابِ ٱلْعَظِيمِ نَحْوَ ٱلْعَظِيمِ (٢)

« وَقَالَ ٱلْفَتْحُ أَيْضًا فِي شَأْنِ ٱبْنِ زَيْدُونَ مَا صُورَتُهُ » .

وَلَمَّا تَعَذَّرَ فِكَاكُهُ . وَعُفِّرَ فَرْقَدُهُ (٣) وَسِمَاكُهُ ، وَعَاوَدَتْهُ ٱلْأَوْهَامُ وَٱلْفِكَرُ ، وَخَانَهُ مِنْ أَبِي ٱلْحَزْمِ (٤) ٱلصَّارِمُ ٱلذَّكَرُ ، قَالَ يَصِفُ مَا بَيْنَ مَسَرَّاتِهِ وَكُرُوبِهِ ، وَيَذْكُرُ بُعْدَ طُلُوعِ سَعْدِهِ مِنْ غُرُوبِهِ ، وَيَبْكِي لِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ ٱلتَّعْذِيرِ . وَيَعْذِرُ أَبَا ٱلْحَزْمِ وَلَيْسَ لَهُ غَيْرُهُ مِنْ عَذِيرٍ (٥) ، وَيَتَعَزَّى

منها: ومن كلام سيدنا علي : مايومي من مرادبو احد ، يعني أنه لاقى منها أياما كثيرة

(١) نحوه :

وفى السماء نجوم لاعداد لها   وليس يكسف الا الشمس والقمر

ومثله :

ان الرياح اذا اشتدت عواصفها   فليس ترى سوى العالى من الشجر

(٢) لأبى العلاء المعرى :

والخطب يهتاج الجليل وكم شكا   نبأ على ماشكاه قنبر

قنبر خادم سيدنا على « أحمد يوسف نجاتى »

(٣) سبق القول فى هذين الكوكبين (٤) هو ابن جهور (٥) العذير العاذر والنصير ـ والتعذير هنا بمعنى الاذلال والاهانة ـ وعذر الدار تعذيرا : طمس آثارها

بِإِنْحَاءِ[١] الدَّهْرِ عَلَى الْأَحْرَارِ، وَإِلْحَاحِهِ عَلَى التِّمَامِ بِالسِّرَارِ[٢]، وَيُخَاطِبُ وَلَّادَةَ بِوَفَاءِ عَهْدِهِ، وَيُقِيمُ لَهَا الْبَرَاهِينَ عَلَى أَرَقِهِ وَسُهْدِهِ:

مَاجَالَ بَعْدَكِ لَحْظِي فِي سَنَى الْقَمَرِ
إِلَّا ذَكَرْتُكِ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ[٣]
وَلَا اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسَفٍ
إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقِصَرِ[٤]
فِي نَشْوَةٍ مِنْ شَبَابِ الْوَصْلِ مُوهِمَةٍ
أَنْ لَا مَسَافَةَ بَيْنَ الْوَهْنِ وَالسَّحَرِ[٥]

(١) أنحى عليهم الدهر: أتى عليهم وأهلكهم، وأنحى عليه ضربا: أقبل
(٢) السرار من الشهر: آخر ليلة منه
(٣) جعل سنى القمر أثرا من آثار ولادة يذكره بها (٤) يريد بذماء الليل البقية الباقية منه، فقد جعله طويل النفس قوى الروح، يقول انما استطال الليل لأنه مضى فى هم وأسف على لياليه الماضية القصيرة «أى السارة»

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

(٥) الوهن نحو من نصف الليل أو حين يدبر، أو هو ساعة تمضى منه. وقد يخيل الى أن «شباب» هنا ربما كانت مصحفة عن «سلاف» يعنى أنه لنشوته بسكر الوصال يستقصر الليل حتى كأن لم تكن هناك مسافة بين سحره وموهنه:

يَا لَيْتَ ذَاكَ ٱلسَّوَادَ ٱلْجَوْنَ مُتَّصِلٌ
قَدِ ٱسْتَعَارَ سَوَادَ ٱلْقَلْبِ وَٱلْبَصَرِ (١)
يَا لَلرَّزَايَا ! لَقَدْ شَافَهْتُ مَنْهَلَهَا
غَمْرًا، فَمَا أَشْرَبُ ٱلْمَكْرُوهَ بِالْغُمَرِ (٢)
لَا يَهْنَأِ ٱلشَّامِتَ ٱلْمُرْتَاحَ خَاطِرُهُ
أَنِّي مُعَنَّى ٱلْأَمَانِي ضَائِعُ ٱلْخَطَرِ (٣)

يا ليلة كاد من تقاصرها   يعثر فيها العشاء بالسحر

أو الأصل من «سنات الدهر» أى غفلته عنه وعدم تنبهه له ، وفى الأصل « فى ليلة من شباب الوصل مرهقة » ومعناها ـ ان كان لها معنى ـ متعسف غث متكلف (١) يتمنى أن يطول سواد الليل بما يستعيره له من سواد عينه وسويداء قلبه، وهما أثمن نفيس عند المرء ، وهو مأخوذ من قول أبى العلاء المعرى :

بود أن ظلام الليل دام له   وزيد فيه سواد القلب والبصر

(٢) المنهل المورد حيث يشرب الانسان والحيوان وينهل ـ والغمر : الماء الكثير ومعظم البحر ـ وشافهه : داناه وأدنى شفته منه ، والغمر قدح صغير . قال أعشى باهلة فى رثاء أخيه المنتشر بن وهب الباهلى :

تكفيه حزة فلذ إن ألم بها   من الشواء ويروى شربه الغمر

يقول ابن زيدون انه صار يكرع من منهل الرزايا كثير الماء بفيه ويعب منه حتى يفيض عنه، وليس يتجرع منها باناء صغير ، فذلك شأن من أعوزهم منها الكثير (٣) الخطر : الشأن والقدر والشرف والمنزلة، وعناه: أتعبه أو حبسه « أحمد يوسف نجاتى »

هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ [1] الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ
أَمِ الْكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟؟
إِنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إِيدَاعِي فَلَا عَجَبٌ
قَدْ يُودِعُ الْجَفْنَ حَدَّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ [2]
وَإِنْ يُثَبِّطْ أَبَا الْحَزْمِ الرِّضَا قَدَرٌ
عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتْبٌ عَلَى الْقَدَرِ
مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأَنِّيهِ عَلَى ثِقَةٍ
وَلَمْ أَبِتْ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرِ [3]

وَلَهُ يَتَغَزَّلُ ، وَيُعَاتِبُ مَنْ يَسْتَعْطِفُهُ وَيَتَنَزَّلُ :

يَا مُسْتَخِفًّا بِعَاشِقِيهِ ... وَمُسْتَغِشًّا لِنَاصِحِيهِ
وَمَنْ أَطَاعَ الْوُشَاةَ فِينَا ... حَتَّى أَطَعْنَا السُّلُوَّ فِيهِ

---

(١) النجم مالا ساق له من النبات « وفيه مع الشمس والقمر - ايهام تناسب » (٢) الجفن : غمد السيف (٣) التأنى التمهل ، والتجنى ادعاء ذنب لم يجنه - يقول انى على ثقة من تفكير الوزير الجليل فى أمرى وتأنيه فى شأنى حتى تتجلى له براءتى، ولست أخاف أن يتجنى على فشيمته عدل وانصاف . وفى الأصل « من تدانيه » ولا بأس لولا أن يفوت على الناظم الترصيع والازدواج بين « تأنيه ، وتجنيه » وهو يقصد مثل هذا الجناس وتلك الموازنة . « أحمد يوسف نجاتى»

اَلْحَمْـدُ لِلّٰهِ إِذْ أَرانِى
تَـكْذِيبَ مَا كُنْتَ تَدَّعِيهِ
مِنْ قَبْـلِ أَنْ يُهْزَمَ اُلتَّسَلِّى وَيَغْلِبَ اُلشَّوْقَ مَا يَلِيـهِ

انْتَهَى

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ اُبْنِ زَيْدُونَ اُلْمَذْكُورِ فِى قَصِيدَتِهِ اُلنُّونِيَّةِ اُلشَّهِيرَةِ :

غَصَّ اُلْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا اُلْهَوَى فَدَعَوْا
بِأَنْ نَغَصَّ فَقَالَ اُلدَّهْـرُ آمِينَا (١)

****

وَمِنْ أَغْرَبِ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مُوَشَّحَةٌ لِابْنِ اُلْوَكِيلِ دَخَلَ فِيهَا عَلَى أَعْجَازِ نُونِيَّةِ اُبْنِ زَيْدُونَ ،وَهِيَ : موشحة ابن الوكيل

غَـــدَا مُنَادِينَا مُحَـكِّمَا فِيــنَا
يَقْضِي عَلَيْنَا اُلْأَسَى لَوْلَا تَنَاسِينَا (٢)

---

(١) فى الديوان وغـيره : غيظ العدا ــ وغص بالماء اذا شرق به أو وقف فى حلقه فلم يكد يسيغه ، أو غص بالطعام وشرق بالشراب،وغصصت يا آكل أو ياشارب تغص « كفرح »غصصا ، ويقال غص فلان بمكان فلان اذا غاظه ماوصل اليه ونال منه حسدا حتى آلمه (٢) الرواية المشهورة
تـكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولاتأسينا

بَحْرُ اُلْهَوَى يُغْرِقْ   مَنْ فِيهِ جُهْدَهْ عَامْ
وَنَارُهُ تُحْرِقْ   مَنْ هَمَّ أَوْ قَدْ هَامْ
وَرُبَّمَا يُقْلِقْ   فَتًى عَلَيْهِ نَامْ
قَدْ غَيَّرَ اُلْأَجْسَامْ   وَصَيَّرَ اُلْأَيَّامْ
سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ   بِيضًا لَيَالِينَا[1]

***

يَا صَاحِبَ اُلنَّجْوَى   قِفْ وَاُسْتَمِعْ مِنِّى
إِيَّاكَ أَنْ تَهْوَى   إِنَّ اُلْهَوَى يُضْنِى
لَا تَقْرَبِ اُلْبَلْوَى   اُسْمَعْ وَقُلْ عَنِّى
بِحَارُهُ مُرَّهْ   خُضْنَا عَلَى غِرَّهْ
حِينًا فَقَامَ بِهَا   لِلنَّعْيِ نَاعِينَا[2]

أى تعزينا وأن كان لنا أسوة فى غيرنا :

ولولا الأسى ماعشت فى الناس ساعة
ولكن اذا ماشئت جاوبنى مثلى

وقال ابن الفارض :

ياجنة فارقتها النفس مكرهة   لولا التأسى بدار الخلد مت أسى

وقال :

وان الألى بالطف من آل هاشم   تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

(١) أصل صدر البيت فى القصيدة : حالت لبعدكم أيامنا فغدت (٢) أصل البيت فى القصيدة :

مَنْ هَامَ بِالْغِيدِ لَاقَى بِهِمْ هَمَّا
بَذَلْتُ مَجْهُودِى لِأَحْوَرٍ أَلْمَى
يَهُمُّ بِالْجُودِ وَرَدَّ مَا هَمَّا
وَعِنْدَ مَا قَدْ جَادْ بِالْوَصْلِ أَوْ قَدْ كَادْ
أَضْحَى التَّنَائِى بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا

***

بِحَقِّ مَا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِلَّا
أَقْرَرْتُمُ عَيْنِى فَتَجْمَعُوا الشَّمْلَا
فَالْعَيْنُ(١) بِالْبَيْنِ بِفَقْدِكُمْ أَبْلَى
جَدِيدَ مَا قَدْ كَانْ بِالْأَهْلِ وَالْإِخْوَانْ
وَمَوْرِدُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا(٢)

***

يَاجِيرَةً بَانَتْ عَنْ مُغْرَمٍ صَبِّ

ألا وقد حان صبح البين صبحنا حين فقام بنا للبين ناعينا

والحين الهلاك ــ والناعى من يخبر بموت من مات (١) فى بعض المراجع « فالعيش » .

(٢) صدر البيت فى القصيدة :

* اذ جانب العيش طلق من تألفنا *

لِعَهْـــدِهِ خَانَتْ مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبِ
مَا هَـــكَذَا كَانَتْ عَـــوَائِدُ الْعُرْبِ
لَاتَحْسَبُوا الْبُعْدَا يُغَيِّرُ الْعَهْـدَا
إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْ يُ الْمُحِبِّينَا(١)

***

يَا نَازِلًا بِالْبَانْ بِالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ
وَالنَّمْلِ وَالْفُرْقَانْ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِى
وَسُورَةِ الرَّحْمٰنْ وَالنَّحْلِ وَالْحِجْرِ
هَلْ حَلَّ فِي الْأَدْيَانْ أَنْ يُقْتَلَ الظَّمْآنْ
مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى
وَالْوُدِّ يَسْـــقِينَا(٢)

***

يَا سَائِـلَ الْقَطْرِ عَرِّجْ عَلَى الْوَادِى

(١) صدره :

* لاتحسبوا نأ يكم عنا يغيرنا *

(٢) صدره :

* ياسارى البرق غاد القصر واسق به *

مِنْ سَاكِنِي بَدْرٍ   وَقِفْ بِهِمْ نَادِي
عَسَى صَباً تَسْرِي   لِمُغْرَمٍ صَادِي
إنْ شِئْتَ تُحْيِينَا   بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّ
ا كَانَ يُحْيِينَا (١)

***

وَافَتْ لَنَا أَيَّامْ   كَأَنَّهَا أَعْوَامْ
وَكَانَ لِي أَعْوَامْ   كَأَنَّهَا أَيَّامْ
تَمُرُّ كَالْأَحْلَامْ   بِالْوَصْلِ لِي لَوْ دَامْ
وَالْكَاسُ مُتْرَعَةٌ حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً
فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَّانَا مُغَنِّينَا (٢)

(١) صدره :

✡ ويانسيم الصبا بلغ تحيتنا ✡

وقد تكون « تحيتنا » هنا محرفة عن « تحايينا » جمع تحية كتهانى جمع تهنئة ، وتعازى جمع تعزية (٢) صدره :

✡ نأسى عليك اذا حثت مشعشعة ✡

والمشعشعة : المزوجة « أحمد يوسف نجاتى »

***

قصيدة أبي بكر ابن القبطرنة

« رَجْعٌ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِقُرْطُبَةَ » قَالَ ٱلْوَزِيرُ أَبُو بَكْرِ ٱبْنُ ٱلْقَبْطُرْنَةِ (١) يُخَاطِبُ ٱلْوَزِيرَ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ بْنَ سِرَاجٍ وَيَذْكُرُ لُمَّةً مِنْ إِخْوَانِهِ بِقُرْطُبَة :

يَا سَيِّدِي وَأَبِي هُدًى وَجَلَالَةً
وَرَسُولَ وُدِّي إِنْ طَلَبْتُ رَسُولَا
عَرِّجْ بِقُرْطُبَةٍ ، وَلُذْ إِنْ جِئْتَهَا
بِأَبِي ٱلْحُسَيْنِ ، وَنَادِهِ تَعْوِيلَا
فَإِذَا سَعِدْتَ بِنَظْرَةٍ مِنْ وَجْهِهِ
فَاهْدِ ٱلسَّلَامَ لِكَفِّهِ تَقْبِيلَا

(١) تقدمت منا كلمة في بني القبطرنة . منهم هذا : أبو بكر عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز من أهل اشبيلية ، كان من جلة الأدباء وأعيان الكتاب ورؤسائهم شاعرا بليغا، وكتب المتوكل بن الأفطس، ولابن تاشفين من بعده ، وكان يقال : أبو بكر بن القبطرنة وأبو محمد بن عبدون هما أديبا غرب الأندلس ، وتوفى أبو بكر بعد سنة ٥٢٠ وتقدمت أبياته وشرحها ، والبيت الأول فيه في الأصل «هوى» بدل « هدى » . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَاذْكُرْ لَهُ شُكْرِى وَشَوْقِى مُجْمَلًا
وَلَوِ اسْتَطَعْتُ سَرَدْتُهُ تَفْصِيلَا
بِتَحِيَّةٍ تُهْدَى إِلَيْهِ كَأَنَّمَا
جَرَّتْ عَلَى زَهْرِ الرِّيَاضِ ذُيُولَا
وَأَشِمَّ مِنْهَا الْمُصْحَفِىَّ عَلَى النَّوَى
نَفَسًا يُنَسِّى السَّوْسَنَ الْمَبْلُولَا (١)
وَإِلَى أَبِى مَرْوَانَ مِنْهُ نَفْحَةً
تُهْدِى لَهُ نَوْرَ الرُّبَا مَطْلُولَا (٢)

(١) هذا المصحفى الذى اكتفى له الوزير أبو بكر بن القبطرنة برائحة السلام والتحية يشمها « وان كانت أرجة متضوعة تفغم العاطس » هو أبو بكر محمد بن هشام بن محمد بن هشام بن محمد بن عثمان ابن نصر بن عبد الله بن حميد بن سلمة بن عباد بن يونس القيسى المصحفى كان فقيها عالما أديبا لغويا من أهل بيت وزارة ورياسة ونباهة ووجاهة مع دماثة أخلاق وحسن حديث وعناية بالعلم وصيانة وجلالة وسعة معرفة ومثابرة على الجد والمطالعة، ولد سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٨١ وحضر جنازته المأمون الفتح بن محمد بن عباد ـ وأبوه هشام بن محمد أبو الوليد كان عالما باللغات والآداب ذا ذكاء وفهم ومعرفة بالفقه والحديث، ولد سنة ٣٦٠ وتوفى سنة ٤٤٠ ـ وجده أبو بكر محمد بن هشام بن محمد كان ذا علم باللغة وعناية بالآداب العربية ومعرفة بمعانى الشعر العربى القديم وأغراضه، وكان أبوه هشام بن محمد بن عثمان واليا على طرطوشة « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) مطلولا أى قد نزل عليه الطل والندى فرطب وابتل عاطرا، وأظنه يعنى بأبى

وَإِذَا لَقِيتَ الْأَخْطِيَّ فَسَقِّهِ
مِنْ صَفْوِ وُدِّي قَرْقَفًا وَشَمُولَا[1]
وَأَبُو عَلِيٍّ سَقِّ[2] مِنْهَا رَبْعَهُ
مِسْكًا بِمَاءِ غَمَامَةٍ مَحْلُولَا
وَاذْكُرْ لَهُمْ زَمَنًا يَهُبُّ نَسِيمُهُ
أُصُلًا كَنَفْثِ الرَّاقِيَاتِ عَلِيلَا[3]
مَوْلَيَ وَمُولِيَ نِعْمَةٍ وَكَرَامَةٍ
وَأَخًا إِخَاءٍ مُخْلِصًا وَخَلِيلَا

مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج الأديب العالم اللغوى توفى سنة ٤٨٩ وهو والد أبى الحسن المكتوب اليه — لا بل أظنه يعنى أبا مروان بن أبى الخصال الكاتب الشهير « وهو ابن أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الكاتب القدير والأديب المعروف » وأبو مروان هو عبد الملك بن محمد بن أبى الخصال الغافقى من أهل قرطبة ، توفى نحو سنة ٥٢٨ شهيدا وثكله أبوه وله فيه رثاء حار ينم عن حزن أليم ووجد شديد، وأبو مروان عبد الملك بن « أبى الخصال » مسعود بن فرج بن خلصة الغافقى الكاتب أخو أبى عبد الله كان أديبا حافلا كاتبا بليغا، وولاه ملوك لمتونة وولاتها وأمراؤها الكتابة بمراكش وفاس وغيرهما، وكانت له رسائل بديعة توفى سنة ٥٣٩ . « أحمد يوسف نجاتى » . (١) القرقف: الخمر وكذا الشمول (٢) فى بعض النسخ « بل » بدل « سق » (٣) الأصل جمع أصيل ، والنفث النفخ القليل اللطيف كما تنفخ النفاثات فى العقد

بِالْحَيْرِ مَا عَبَسَتْ هُنَاكَ غَمَامَةٌ
إِلَّا تُضَاحِكُ إِذْخِرًا وَجَلِيلَا (١)
يَوْمًا وَلَيْلًا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ
سَحَرًا وَهَذَا بُكْرَةً وَأَصِيلَا (٢)
لَا أَدْرَكَتْ تِلْكَ الْأَهِلَّةُ دَهْرَهَا
نَقْصًا وَلَا تِلْكَ النُّجُومُ أُفُولَا

قَالَ أَبُو نَصْرٍ : اَلْحَيْرُ الَّذِي ذُكِرَ هُنَا هُوَ حَيْرُ (٣) اَلزَّجَّالِيِّ خَارِجَ بَابِ الْيَهُودِ بِقُرْطُبَةَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ أَبُو عَامِرِ بْنُ شُهَيْدٍ :

---

(١) الاذخر حشيش أخضر طيب الريح كانت العرب تسقف به بيوتها فوق الخشب ، وقد يطحنونه فيخاطونه بالطيب . والجليل « ويسمى الثمام » نبت ضعيف كانوا يحشون به خصاص بيوتهم ، قال بلال رضى الله عنه « أو تمثل » :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بمكة حولى اذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة   وهل يبدون لى شامة وطفيل

ومجنة جبل قرب مكة بجنب طفيل ، ويجاورهما أيضا جبل شامة . « أحمد يوسف نجاتى » . (٢) يشير الى معنى قوله :

أيام صفو كلهن أصائل   بك والليالى كلها أسحار

(٣) الحير والحائر البستان « وأصله المكان يجتمع فيه الماء » فكأنه يحار فيه ويقف ويتردد ويرجع أقصاه الى أدناه ولايدرى كيف يجرى — وتقدم البيتان وشرحهما والقول فى باب اليهود ، والزجالى الذى ينسب اليه الحير

لَقَدْ أَطْلَعُوا عِنْدَ بَابِ الْيَهُو
دِ شَمْسًا أَبَى الْحُسْنُ أَنْ تُكْسَفَا
تَرَاهُ الْيَهُودُ عَلَى بَابِهَا أَمِيرًا فَتَحْسَبُهُ يُوسُفَا

وَهَذَا الْخَيْرُ مِنْ أَبْدَعِ الْمَوَاضِعِ وَأَجْمَلِهَا ، وَأَتَمِّهَا حُسْنًا وَأَكْمَلِهَا ، صَحْنُهُ مَرْمَرٌ صَافِي الْبَيَاضِ ، يَخْتَرِقُهُ جَدْوَلٌ كَالْحَيَّةِ النَّضْنَاضِ(١) ، بِهِ جَابِيَةٌ ، كُلُّ لُجَّةٍ فِيهَا(٢) كَابِيَةٌ ، قَدْ قُرْبِصَتْ بِالذَّهَبِ وَاللَّازَوَرْدِ سَمَاؤُهُ ، وَتَأَزَّرَتْ بِهِمَا جَوَانِبُهُ وَأَرْجَاؤُهُ ، وَالرَّوْضُ قَدِ اعْتَدَلَتْ أَسْطَارُهُ ، وَابْتَسَمَتْ مِنْ كَمَائِمِهَا أَزْهَارُهُ . وَمَنَعَ الشَّمْسَ أَنْ تَرْمُقَ

اما أن يكون هو الكاتب الأديب والشاعر البليغ محمد بن سعيد الزجالى كان فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم « ٢٠٦ - ٢٣٨ » وكان يلقب بالأصمعى لذكائه وكثرة حفظه ، وأصله من البربر ، وأعقب ابنا اسمه حامد كان كأبيه أدبا وحضور بديهة وحسن جواب ، وكان معاصرا للحاجب عيسى بن شهيد الجد الأكبر لذى الوزارتين أبى عامر أحمد ابن عبد الملك بن شهيد ، وأما أبو بكر عبد الله بن عبد الرحمن بن عبدالله الزجالى من أهل قرطبة استوزره المستنصر بالله ، وكان خيرا فاضلا أديبا طاهرا عالما كثير البرجم المعروف متوفرا على التقوى والصلاح، توفى سنة ٣٧٥ ودفن بالمقبرة المنسوبة الى الزجاجلة ، أو هو أبو مروان المحدث عنه بعد . « أحمد يوسف نجاتى ». (١) حية نضناض : لاتستقر فى مكان لشدتها ونشاطها ، أو التى أخرجت لسانها تنضنضه أى تحركه حركة دائمة (٢) الجابية حوض ضخم يجبى فيه الماء أى يجتمع ، وكابية أى مرتفعة عالية أو متعثرة تذهب الى حافة الغدير ثم ترتد « أحمد يوسف نجاتى »

ثَرَاهُ ، وَتَعَطَّرَ ٱلنَّسِيمُ بِهُبُوبِهِ عَلَيْـهِ وَمَسْرَاهُ ، شَهِدَتْ بِهِ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا كَأَنَّمَا تَصَوَّرَتْ مِنْ لَمَحَاتِ ٱلْأَحْبَابِ . أَوْ قُدَّتْ مِنْ صَفَحَاتِ أَيَّامِ ٱلشَّبَابِ ، وَكَانَتْ لِأَبِي عَامِرِ بْنِ شُهَيْدٍ بِهِ فُرَجٌ وَرَاحَاتٌ ، وَغَدَوَاتٌ وَرَوْحَاتٌ . أَعْطَاهُ فِيهَا ٱلدَّهْرُ مَا شَاءَ ، وَوَالَى عَلَيْـهِ ٱلصَّحْوَ وَٱلِانْتِشَاءَ(١) ، وَكَانَ هُوَ وَصَاحِبُ ٱلرَّوْضِ ٱلْمَدْفُونُ بِإِزَائِهِ أَلِيفَيْ صَبْوَةٍ ، وَحَلِيفَيْ نَشْوَةٍ ، عَـكَفَا فِيهِ عَلَى جِرْيَالِهِمَا(٢) . وَتَصَرَّفَا بَيْنَ زَهْوِهِمَا وَٱخْتِيَالِهِمَا ، حَتَّى رَدَّاهُمَا ٱلرَّدَى ، وَعَدَاهُمَا ٱلْحِمَامُ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَدَى، فَتَجَاوَرَا فِي ٱلْمَمَاتِ ، تَجَاوُرَهُمَا فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَتَقَلَّصَتْ عَنْهُمَا وَارِفَاتُ تِلْكَ ٱلْفَيْئَاتِ(٣) ، وَإِلَى ذٰلِكَ ٱلْعَهْـدِ أَشَارَ ٱبْنُ شُهَيْدٍ وَبِهِ عَرَّضَ . وَبِشَوْقِهِ صَحَّحَ وَمَا مَرَّضَ(٤) حَيْثُ يَقُولُ عِنْدَ مَوْتِهِ يُخَاطِبُ أَبَا مَرْوَانَ صَاحِبَهُ وَأَمَرَ أَنْ يُدْفَنَ بِإِزَائِهِ وَيُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ :

يَا صَاحِبِي قُمْ فَقَدْ أَطَلْنَا ... أَنَحْنُ طُولَ ٱلْمَدَى هُجُودُ !؟

(١) الانتشاء ضد الصحو ، ونشى من الشراب « كعلم » نشوا ونشوة وانتشى وتنشى اذا سكر ، أو الانتشاء أول السكر ومقدماته (٢) الجريال : الخمر أو الحمراء منها (٣) الفيء الظل ، والوارف الممتد السابغ (٤) من المجاز التمريض فى الأمور : التوهين فيها وألا يحكمها ، ومرض الرجل فى كلامه اذا ضعفه ولم يتقنه ، ومرض فى الأمر اذا لم يبالغ فيه « أحمد يوسف نجاتى »

فَقَالَ لِي لَنْ نَقُومَ مِنْهَا ... مَا دَامَ مِنْ فَوْقِنَا ٱلصَّعِيدُ
تَذْكُرُ كَمْ لَيْلَةً نَعِمْنَا ... فِي ظِلِّهَا وَٱلزَّمَانُ عِيدُ ؟
وَكَمْ سُرُورًا هَمَى عَلَيْنَا ... سَحَابُهُ ثَرَّةً تَجُودُ[1] ؟ !
فَخَيْرُهُ مُسْرِعًا تَقَضَّى ... وَشُؤْمُهُ حَاضِرٌ عَتِيدُ[2]
حَصَّلَهُ كَاتِبٌ حَفِيظٌ ... وَضَمَّهُ صَادِقٌ شَهِيدُ[3]
يَا وَيْلَنَا إِنْ تَنَكَّبَتْنَا[4] ... رَحْمَةُ مَنْ بَطْشُهُ شَدِيدُ !
يَارَبِّ عَفْوًا فَأَنْتَ مَوْلًى ... قَصَّرَ فِي شُكْرِكَ ٱلْعَبِيدُ

انْتَهَى

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ : وَرَكِبَ أَبُو ٱلْحُسَيْنِ بْنُ ٱلْقَبْطُرْنَةِ إِلَى سُوقِ ٱلدَّوَابِّ بِقُرْطُبَةَ ، وَمَعَهُ أَبُو ٱلْحُسَيْنِ بْنُ سِرَاجٍ فَنَظَرَ إِلَى أَبِي ٱلْحَكَمِ بْنِ حَزْمٍ غُلَامًا كَمَا عَقَّ[5] تَمَائِمَهُ ، وَهُوَ يَرُوقُ كَأَنَّهُ زَهْرٌ فَارَقَ كَمَائِمَهُ ، فَسَأَلَ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ ٱبْنَ سِرَاجٍ أَنْ يَقُولَ فِيهِ ، فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ ، وَثَنَى عِنَانَ ٱلْقَوْلِ إِلَيْهِ ، فَقَالَ :

---

(١) ثرة : غزيرة الماء (٢) عتيد حاضر مهيأ ، وفى بعض النسخ « كل كأن لم يكن تقضى الخ » (٣) حصله : جمعه وأثبته وميزه (٤) أى جاوزتهم وفاتتهم وعدلت عنهم (٥) عق أى قطع ، وعق التمائم كناية عن مفارقة الطفولة الى الحداثة والشباب

بلاد بها عق الشباب تمائمي ... وأول أرض مس جلدى ترابها

رَأَى صَاحِبِي عَمْرًا فَكَلَّفَ وَصْفَهُ
وَحَمَّلَنِي مِنْ ذَاكَ مَا لَيْسَ فِي الطَّوْقِ
فَقُلْتُ لَهُ : عَمْرٌو كَعَمْرٍو ، فَقَالَ لِي :
صَدَقْتَ وَلٰكِنْ ذَا أَشَبُّ(١) عَلَى الطَّوْقِ

انْتَهَى

* * *

شهرة بنى القبطرنة بالأندلس

وَكَانَ بَنُو الْقَبْطُرْنَةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَشْهَرَ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمٍ ، وَقَدْ تَصَرَّفُوا فِي الْبَرَاعَةِ وَالْقَلَمِ ، وَلَهُمُ الْوِزَارَةُ الْمَذْكُورَةُ ، وَالْفَضَائِلُ الْمَشْكُورَةُ ، وَلِذَا قَالَ أَبُو نَصْرٍ(٢) فِي حَقِّهِمْ مَا صُورَتُهُ : هُمْ لِلْمَجْدِ كَالْأَثَافِي(٣) ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَوْفُورُ الْقَوَادِمِ وَالْخَوَافِي(٤) ، إِنْ ظَهَرُوا ، زَهَرُوا(٥) ، وَإِنْ تَجَمَّعُوا ،

والتمائم جمع تميمة وهى خرزة رقطاء كانوا ينظمونها فى سير ثم يعقدونها فى عنق الطفل «أحمد يوسف نجاتى» (١) يشير الى المثل المشهور : شب عمرو عن الطوق ، وهو عمرو بن عدى بن نصر بن أخت جذيمة الأبرش ملك الحيرة ، وقد تقدم شرح المثل . والطوق فى البيت الأول بمعنى الطاقة والجهد ، و يروى عجز البيت الثانى : «صدقت ولكن ذاك شب عن الطوق» (٢) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان صاحب كتابى قلائد العقيان ومطمح الأنفس ، توفى سنة ٥٣٥ (٣) جمع أثفية وهى الحجر توضع عليه القدر ، يعنى أنهم أساس المجد وعماده لا ينهض الا بهم (٤) القوادم والخوافى من ريش الطائر تقدم شرحهما ، يريد أنهم ذوو قدرة كاملة على المجد والأدب وقوة تامة لا يحتاج معها الى معين (٥) أشرفوا وأضاءوا .

تَضَوَّعُوا(١) ، وَإِنْ نَطَقُوا ، صَدَقُوا ، مَاؤُهُمْ صَفْوٌ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ لِصَاحِبِهِ كُفْوٌ . أَنَارَتْ بِهِمْ نُجُومُ الْمَعَالِى وَشُمُوسُهَا ، وَدَانَتْ لَهُمْ أَرْوَاحُهَا وَنُفُوسُهَا ، وَلَهُمُ النِّظَامُ الصَّافِى الزُّجَاجَةِ(٢) ، الْمُضْمَحِلُّ الْعَجَاجَةِ(٣) . انْتَهَى

***

ولع المتوكل بمنية البديع

ثُمَّ قَالَ : وَبَاتَ مِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ(٤) مَعَ أَخَوَيْهِ فِى أَيَّامِ صِبَاهُ ، وَاسْتِطَابَتِهِ جَنُوبَ الشَّبَابِ وَصَبَاهُ ، بِالْمُنْيَةِ الْمُسَمَّاةِ بِالْبَدِيعِ ، وَهُوَ رَوْضٌ كَانَ الْمُتَوَكِّلُ يَكْلَفُ بِمُوَافَاتِهِ ، وَيَبْتَهِجُ بِحُسْنِ صِفَاتِهِ ، وَيَقْطُفُ رَيَاحِينَهُ وَزَهَرَهُ ، وَيَقِفُ عَلَيْهِ إِغْفَاءَهُ وَسَهَرَهُ ، وَيَسْتَفِزُّهُ الطَّرَبُ مَتَى ذَكَرَهُ ، وَيَنْتَهِزُ فُرَصَ الْأُنْسِ فِيهِ رَوْحَاتِهِ وَبُكَرَهُ ، وَيُدِيرُ حُمَيَّاهُ عَلَى ضَفَّةِ نَهْرِهِ ، وَيَخْلَعُ سِرَّهُ فِيهِ لِطَاعَةِ جَهْرِهِ ، وَمَعَهُ أَخَوَاهُ

(١) تضوع الطيب : انتشرت رائحته الذكية (٢) كناية عن صفاء الديباجة واشراق معنى الكلام ، شبهه بالخمر فى آثاره فى النفوس ولعبه بالألباب ، لولا ولوعه بلزوم ما لا يلزم فى السجع لقلت ان «الزجاجة» هنا مصحفة عن «الديباجة» (٣) العجاجة : الغبار وفى نسخة «والنثر المضمحل الخ» يريد ليس به ما يحجب معانيه و يسترحسنه وصفاءه أو يكدر حسنه و بهاءه

(٤) هو طلحة بن سعيد بن عبد العزيز أحد الأدباء الأذكياء والبلغاء النابغين فى عصره ، توفى فى حياة أخيه أبى بكر عبد العزيز بن سعيد

فَطَارَدُوا اللَّذَّاتِ حَتَّى أَنْضَوْهَا[1] ، وَلَبِسُوا بُرُودَ السُّرُورِ وَمَا نَضَوْهَا[2] ، حَتَّى صَرَعَتْهُمُ الْعُقَارُ ، وَطَلَّحَتْهُمْ[3] تِلْكَ الْأَوْقَارُ فَلَمَّا هَمَّ رِدَاءُ الْفَجْرِ أَنْ يَنْدَى[4] ، وَجَبِينُ الصُّبْحِ أَنْ يَتَبَدَّى قَامَ الْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ :

يَا شَقِيقِي وَافَى الصَّبَاحُ بِوَجْهٍ
سَتَرَ اللَّيْلَ نُورُهُ وَبَهَاؤُهْ
فَاصْطَبِحْ وَاغْتَنِمْ مَسَرَّةَ يَوْمٍ
لَسْتَ تَدْرِي بِمَا يَجِيءُ مَسَاؤُهْ

ثُمَّ اسْتَيْقَظَ أَخُوهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ :

يَا أَخِي قُمْ تَرَ النَّسِيمَ عَلِيلًا
بَاكِرِ الرَّوْضَ وَالْمُدَامَ شَمُولَا
لَا تَنَمْ وَاغْتَنِمْ مَسَرَّةَ يَوْمٍ
إِنَّ تَحْتَ التُّرَابِ نَوْمًا طَوِيلَا
فِي رِيَاضٍ تَعَانَقَ الزَّهْرُ فِيهَا
مِثْلَ مَا عَانَقَ الْخَلِيلُ الْخَلِيلَا

(١) أنضى الدابة : أجهدها فى السير (٢) نضا ثوبه عنه اذا نزعه (٣) أعيتهم وأتعبتهم : والأوقار ، جمع وقر وهو الحمل (٤) يبتل بالندى ويرطب بالطل

ثمَّ اُسْتَيْقَظَ أَخُوهُمَا أَبُو اُلْحَسَنِ ، وَقَدْ هَبَّ مِنْ غَفْلَةِ اُلْوَسَنِ ، فَقَالَ :

يَاصَاحِبَيَّ ذَرَا لَوْمِي وَمَعْتَبَتِي
قُمْ نَصْطَبِحْ خَمْرَةً مِنْ خَيْرِ مَاذَخَرُوا
وَبَادِرَا غَفْـلَةَ اُلْأَيَّامِ وَاُغْتَنِمَا
فَاُلْيَوْمَ خَمْرٌ وَيَبْدُو فِي غَدٍ خَبَرُ(١)

وَسَاقَ صَاحِبُ اُلْبَدَائِعِ(٢) هٰذِهِ اُلْقِصَّةَ فَقَالَ : وَذَكَرَ اُلْفَتْحُ مَا هٰـذَا مَعْنَاهُ : إِنَّهُ خَرَجَ اُلْوُزَرَاءُ بَنُو اُلْقَبْطُرْنَةِ إِلَى اُلْمُنْيَةِ اُلْمُسَمَّاةِ بِاُلْبَدِيعِ ، وَهُوَ رَوْضٌ قَدِ اُخْضَرَّتْ مَسَارِحُ نَبَاتِهِ ، وَاُخْضَلَّتْ(٣) مَسَارِي هَبَّاتِهِ ، وَدَمِعَتْ بِالطَّلِّ عُيُونُ أَزْهَارِهِ ، وَذَابَ عَلَى زَبَرْجَدِهِ بَلُّورُ أَنْهَارِهِ ، وَتَجَمَّعَتْ فِيهِ اُلْمَحَاسِنُ اُلْمُتَفَرِّقَةُ ، وَأَضْحَتْ مُقَلُ اُلْحَوَادِثِ عَنْهُ مُطْرِقَةً ، فَخُيُولُ اُلنَّسِيمِ تَرْكُضُ فِي مَيَادِينِهِ فَلا تَكْبُو ، وَنُصُولُ

(١) يشير للمثل المشهور : اليوم خمر وغدا أمر (٢) كتاب بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي (٣) ابتلت وبديت مع خضرة ونضرة .

ٱلسَّوَاقِي تَصُولُ لِحَسْمِ أَدْوَاءِ ٱلشَّجَرِ فَلَا تَنْبُو[١] ، وَٱلزُّرُوعُ قَدْ نَقَّبَتْ وَجْهَ ٱلثَّرَى ، وَحَجَبَتِ ٱلْأَرْضَ عَنِ ٱلْعُيُونِ فَمَا تُبْصَرُ وَلَا تُرَى . وَكَانَ ٱلْمُتَوَكِّلُ بْنُ ٱلْأَفْطَسِ[٢] يَعُدُّهُ غَايَةَ ٱلْأَرَبِ ، وَيُعِدُّهُ مَشْهَدًا لِلطَّرَبِ ، وَمَدْفَعًا لِلْكُرَبِ ، فَبَاتُوا فِيهِ لَيْلَتَهُمْ يُدِيرُونَ لُمَعَ لَهَبٍ يَتَمَنَّوْنَ فِيهِ ٱلْخُلُودَ ،

---

(١) يريد الماء الذى تصبه السواقى لسقى الأشجار ، فشبهه بالنصول أى السيوف فى الاستطالة والصفاء وتموج الماء وأن كلا منهما يحسم الداء الذى يستعمل له « فالسيوف تشفى رؤوس من يشكو الصداع ونحوه وتحسم أدواء النزاع والشقاق » وهذا الماء يزيل مايعرض للأشجار من ذبول ونحوه وفى نسخة «السوافى» أى الرياح ، ومن هذه الفقرات ترى أن هذا الروض قد استوفى شروط الجمال من الماء والخضرة ، والنعيم والنضرة ، والنسيم العليل ، والزهر الندى البليل

(٢) هو المتوكل على الله أبو حفص عمر بن محمد المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس « وتقدم التعريف ببنى الأفطس » وكان المتوكل ذا عناية بالأدب والشعر يحف به من أدباء الأندلس جماعة اشتهروا بالرقة وجودة البديهة ، وقد تعرض لشىء من سيرته الأدبية عند المناسبة ، وقتله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٩ باغراء المعتمد بن عباد به كما قيل ، وكان للمتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وكان لايغب الغزو ولا يشغله عنه شىء من أنسه ، وامتاع نفسه ، واتصلت مملكته الى أن قتله المرابطون وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبرا ، وكانت أيام بنى المظفر بن الأفطس بغرب الأندلس أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الآداب ، خلدت فيهم ولهم قصائد سائرة شادت مآثرهم ، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَيَتَحَسَّوْنَ(١) ذَوْبَ ذَهَبٍ لَا يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، حَتَّى تَرَكَتْهُمُ ابْنَةُ الْخَابِيَةِ(٢) ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٣) ، فَلَمَّا هَزَمَ رُومِيُّ الصَّبَاحِ زَنْجِيَّ الظَّلَامِ ، « وَنَادَى الدِّيكُ حَيَّ عَلَى الْمُدَامِ » انْتَبَهَ كَبِيرُهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ مُسْتَعْجِلًا . وَأَنْشَدَ مُرْتَجِلًا ، يَا شَقِيقِي الخ . فَانْتَبَهَ أَخُوهُ أَبُو بَكْرٍ لِصَوْتِهِ ، وَتَخَوَّفَ لِذَهَابِ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَفَوْتِهِ ، وَأَنْبَهَ أَخَاهُمَا أَبَا الْحَسَنِ وَهُوَ يَرْتَجِلُ : يَاأَخِي قُمْ تَرَى النَّسِيمَ إِلَى آخِرِهِ . فَانْتَبَهَ أَخُوهُ لِكَلَامِهِ ،

---

(١) تحسى الشراب ونحوه واحتساه اذا شرب به شيئاً فشيئاً — وفى معنى الفقرة قول الشاعر :

وخمارة من بنات اليهود ... ترى الدن فى بيتها مائلا
وزنا لها ذهبا جامدا ... فكالت لنا ذهبا سائلا

وفيها اشارة الى قوله تعالى : « يصهر به مافى بطونهم والجلود » (٢) الخابية اناء كبير « الحب » « كالمسمى بالزير » وابنة الخابية كناية عن الخمر (٣) من القرآن الكريم يعنى أن الخمر صرعتهم : وفى معنى ذلك قول ابن زهر الأندلسى من أبيات :

والخمر تعرف كيف تأخذ ثارها ... انى أملت اناءها فأمالنى

رَافِضًا(١) لَذَّةَ مَنَامِهِ ، لِلَذَّةِ قِيَامِهِ ، وَارْتَجَلَ : يَا صَاحِبَيَّ ذَرَا الخ . انْتَهَى .

***

استقبال أبي الحسن ذي الوزارتين ابن اليسع

« قَالَ الْفَتْحُ » وَلَمَّا أَمَرَ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ أَبَا بَكْرِ ابْنَ الْقَبْطُرْنَةِ السَّابِقَ الذِّكْرِ مَعَ الْوَزِيرِ أَبِي الْحُسَيْنِ ابْنِ سِرَاجٍ بِلِقَاءِ ذِي الْوِزَارَتَيْنِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ الْيَسَعِ(٢) الْقَائِدِ وَالْمَشْيِ إِلَيْهِ . وَالنُّزُولِ عَلَيْهِ ، تَنْوِيهًا بِمَقْدَمِهِ ، وَتَنْبِيهًا عَلَى حُظْوَتِهِ لَدَيْهِ وَتَقَدُّمِهِ . فَصَارَا إِلَى بَابِهِ . فَوَجَدَاهُ مُقْفِرًا مِنْ حُجَّابِهِ . فَاسْتَغْرَبَا خُلُوَّهُ مِنْ خَوَلٍ(٣) وَظَنَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَتَأَوَّلَ ، ثُمَّ أَجْمَعَا عَلَى قَرْعِ الْبَابِ وَرَفْعِ ذَلِكَ الِارْتِيَابِ . فَخَرَجَ وَهُوَ دَهِشٌ . وَأَشَارَ إِلَيْهِمَا

(١) فى الأصل « دافعا » (٢) ذكره الفتح فى القلائد ووصفه بالأدب والانهماك فى اللهو مهملا أمور الملك، ولهذا ثار به أهل مرسية حتى خلع ، وكان رئيسا شاعرا وقائدا أديبا ، وكان قد قدم الى المعتمد بن عباد ليعرض عليه الاستيلاء على مدينة لورقة بعد موت صاحبها ابن ليون ، فأكرم المعتمد وفادته وأحسن مثواه (٣) الخول : الحاشية ونحوهم من العبيد والأماء ، مأخوذ من التخويل بمعنى التمليك — وقد يقال انهم وجدوا عنده بعد أن دخلوا عليه « خولا » ممن يتوارى بالحجاب ، لا لاستقبال الوافدين وحراسة الباب ! « أحمد يوسف نجاتى »

بِالتَّحِيَّةِ وَيَدُهُ تَرْتَعِشُ ، وَأَنْزَلَهُمَا خَجِلًا ، وَمَشَى بَيْنَ أَيْدِيهِمَا عَجِلًا ، وَأَشَارَ إِلَى شَخْصٍ فَتَوَارَى بِالْحِجَابِ ، وَبَارَى الرِّيحَ سُرْعَةً فِي الاحْتِجَابِ . فَقَعَدُوا وَمُقْلَةُ الْخِشْفِ(١) ، تَرْمُقُ مِنْ خِلَالِ السِّجْفِ ، فَانْصَرَفَا عَنْهُ ، وَعَزَمَا أَنْ يَكْتُبَا إِلَيْهِ بِمَا فَهِمَا مِنْهُ ، فَكَتَبَا إِلَيْهِ :

***

كتاب المستقبلين إلى ذي الوزارتين ورده

سَمِعْنَا خَشْفَةَ الْخِشْفِ وشِمْنَا طَرْفَةَ الطَّرْفِ(٢)
وَصَدَّقْنَا وَلَمْ نَقْطَعْ وَكَذَّبْنَا وَلَمْ نَنْفِ
وَأَغْضَيْنَا لِأَجْلَالِ لكَ عَنْ أُكْرُومَةِ الظَّرْفِ(٣)
وَلَمْ تُنْصِفْ وَقَدْ جِئْنَا كَ مَا نَنْهَضُ مِنْ ضَعْفِ
وكَانَ الْحُكْمُ أَنْ تَحْمِلَ أَوْ تُرْدِفَ فِي الرِّدْفِ(٤)

فَرَاجَعَهُمَا فِي الْحِينِ بِقِطْعَةٍ مِنْهَا :

أَيَا أَسَفِي عَلَى حَالٍ سُلِلْتُ بِهَا مِنَ الظَّرْفِ

(١) الخشف : ولد الظبية ــ والخشف الصوت والحركة ، والحس الخفي ــ والسجف الستر (٢) خشف «كضرب ونصر» اذا سمع له صوت وحس وحركة ، وخشف في السير أسرع ــ والطرفة من طرف بعينيه اذا لحظ وحرك جفنيها ، وشام: نظر (٣) الأكرومة المكرمة فعل الكريم ويطلق على كريم القوم وكريمتهم مثل كريمة (٤) أردفه وردفه اذا تبعه

وَيَا لَهْفِي عَلَى جَهْلِي بِضَيفٍ كَانَ مِنْ صِنْفِ(١)

انْتَهَى .

***

وصف الأندلسيين لمغاني الأندلس

وَلِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي مَغَانِي الْأُنْسِ الْحِسَانِ ، مَا لَا يَفِي بِهِ لِسَانٌ . وَقَالَ الْفَتْحُ فِي تَرْجَمَةِ الْوَزِيرِ أَبِي الْفَضْلِ ابْنِ حَسْدَايَ(٢) بَعْدَ كَلَامٍ مَا صُورَتُهُ : فَمِنْهَا هَذِهِ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَطْلَعَهَا نَيِّرَةً ، وَتَرَكَ الْأَلْبَابَ بِهَا مُتَحَيِّرَةً ، فِي يَوْمٍ كَانَ عِنْدَ الْمُقْتَدِرِ بِاللّٰهِ(٣) مَعَ عِلْيَةٍ ، قَدِ اتَّخَذُوا الْمَجْدَ

وصار ردفاله ، وأردفه اذا أركبه خلفه ، وردف كل شيء مؤخره ، والكفل والعجز ، وأردف الشيء بالشيء وأردفه عليه اتبعه عليه (١) أى من صنف معهود عنده ، صنف أى صنف يوافقه ويستريح اليه . وفى المطمح «وكان الحق الخ » (٢) تقدمت ترجمته ، ويأتى شيء من سيرته ، وهو حسداى بن يوسف بن حسداى ، وقد ذكره الفتح فى قلائد العقيان وأثنى عليه ، وكان من مدينة سرقسطة ، ومن بيت شرف اسرائيلى بالأندلس وأسرة يهودية نبيلة ، عنى بالعلوم على مراتبها ، وتناول المعارف من طرقها ، فأحكم علم لسان العرب ، ونال حظا جزيلا من صناعة الشعر والكتابة والبلاغة ، وبرع فى علوم الرياضة والفلك والطب وأتقن علم المنطق ، وكان له نظر فى الطب . وجملة القول أنه كان نابغة فى العربية وآدابها وفى العلوم العقلية والفنون الجميلة ، وكان فى سن الشباب فى سنة ٤٥٨ ووزر للمقتدر بن هود وابنه المؤتمن وابنه المستعين وتوفى حوالى سنة ٥٠٠ هـ « أحمد يوسف نجاتى » (٣) هو المقتدر بن هود أحمد بن سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن

حِلْيَةً ، وَالْأَمَلُ قَدْ سَفَرَ لَهُمْ عَنْ مُحَيَّاهُ ، وَعَبِقَ لَهُمْ رَيَّاهُ ، فَصَافَحَهُ الْكُلُّ مِنْهُمْ وَحَيَّاهُ ، وَشَمْسُ الرَّاحِ ، دَائِرَةٌ عَلَى فَلَكِ الرَّاحِ[1] ، وَالْمَلِكُ يَنْشُرُ فَضْلَهُ ، وَيَنْثُرُ وَابِلَهُ وَطَلَّهُ[2] ، يُسْدِي الْعُلَا . وَيَهَبُ الْغَنَاءَ وَالْغِنَى ، فَصَدَحَتِ الْغَوَانِي ، وَأَفْصَحَتِ الْمَثَالِثُ وَالْمَثَانِي[3] ، بِمَا اسْتَنْزَلَ مِنْ مَرْقَبِ[4] الْوَقَارِ ، وَسَرَى فِي النُّفُوسِ مَسْرَى الْعُقَارِ :

تَوْرِيدُ خَدِّكَ لِلْأَحْدَاقِ لَذَّاتُ
عَلَيْهِ مِنْ عَنْبَرِ الْأَصْدَاغِ لَامَاتُ[5]

موسى مولى أبي حذيفة الجذامي من ملوك الطوائف ، كان صاحب سرقسطة بعد أبيه المتوفى سنة ٤٣٨ وتوفى أحمد المقتدر سنة ٤٧٩ فتولى الأمر بعده ابنه « المؤتمن يوسف » المتوفى سنة ٤٧٨ فتولى بعده أحمد المستعين وتوفى سنة ٥٠٣ وقتل شهيدا في زحف الفرنج اليها . « أحمد يوسف نجاتي » .

(١) جمع راحة وهي اليد أو الكف ، وفى الأصل « الأفراح » (٢) أصل الوابل المطر الغزير ، والطل أقل منه (٣) يريد آلات الطرب ، والمثاني من أوتار العود الذى بعد الأول ، واحده مثنى ، وقال الشاعر :

يقولون تب والكاس في يد أغيد ... وصوت المثاني والمثالث عالي
فقلت لهم : لو كنت أزمعت توبة ... وأبصرت هذا كله لبدا لي

(٤) المرقب : المكان العالي المرتفع ، وفى القلائد « موقف »

(٥) أصل الصدغ ما بين لحظ العين الى أصل الأذن ، ثم أطلق على الشعر الذى

نِيرَانُ هَجْرِكَ لِلْعُشَّاقِ نَارُ لَظًى
لَكِنَّ وَصْلَكَ إِنْ وَاصَلْتَ جَنَّاتُ
كَأَنَّمَا ٱلرَّاحُ وَٱلرَّاحَاتُ تَحْمِلُهَا
بُدُورُ تِمٍّ وَأَيْدِي ٱلشَّرْبِ هَالاَتُ[(١)]
حُشَاشَةٌ مَا تَرَكْنَا ٱلْمَاءَ يَقْتُلُهَا
إِلَّا لِتَحْيَا بِهَا مِنَّا حُشَاشَاتُ[(٢)]

يتدلى على هذا الوضع ، وقد جرت عادة الشعراء أن يشبهوه بالعقرب وبالواو والدال واللام من الأحرف الهجائية لما فيها من الاعوجاج والثنى ، فما قيل فى ذلك :

وقلوا يصير الشعر فى الماء حية اذا الشمس حادته فما خلته صدقا
فلما التوى صدغاه فى شمس وجهه وقد لسعا قلبى تيقنته حقا

وقال آخر :

عسى عطفة بالوصل ياواو صدغه فانى رأيت الواو فى الوصل تعطف

وقال غيره

أرى فى صدغك المعوج دالا ولكن نقطت من مسك خالك
فصارت داله بالنقط ذالا وانى هالك من أجل ذلك

(١) الشرب الجماعة يشربون ، وهو اسم جمع لشارب كركب وراكب « القوم يجتمعون للشراب » ـ والهالة دارة القمر (٢) هذا ينظر الى قول حسان :

ان التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

قَدْ كَانَ فِى كَاسِهَا مِنْ قَبْلِهَا ثِقَلُ
فَخَفَّ إِذْ مُلِئَتْ مِنْهَا الزُّجَاجَاتُ(١)

عَهْدٌ لِلُبْنَى تَقَاضَتْهُ الْأَمَانَاتُ
بَانَتْ وَمَا قُضِيَتْ مِنْهَا لُبَانَاتُ(٢)

يُدْنِى التَّوَهُّمُ لِلْمُشْتَاقِ مُنْتَزَحًا
مِنَ الْأُمُورِ، وَفِى الْأَوْهَامِ رَاحَاتُ(٣)

---

(١) مثل هذا قول الشاعر :

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا — حتى اذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت — وكذا الجسوم تخف بالأرواح

(٢) لبنى علم امرأة — ويروى «عهد الى قد...» واللبانة الحاجة والغرض والوطر — وبانت بعدت والتقاضى الطلب والمطالبة بالدين ، وقد يطلق على قبضه واستيفائه ، ومن هنا أخذ جمال الدين بن نباتة مطلع قصيدته :

قضى وماقضيت منكم لبانات — متيم عبثت فيه الصبابات

(٣) الانتزاح : البعد ، وفى معنى البيت :

يدنى مزارك حين شط به النوى — وهم أكاد به أقبل فاك

وقول الآخر :

يابعيدا يدنيه لى الفكر حتى — يتراءى توهما كالعيان

وفى هذا المعنى يقول أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم فأحسن ماشاء :

لئن راح عن عينى أحمد غائبا — لما هو عن عين الضمير بغائب

تُقْضَى عِدَاتٌ إِذَا دَبَّ ٱلْكَرَى، وَإِذَا
هَبَّ ٱلنَّسِيمُ فَقَدْ تُهْدَى تَحِيَّاتُ(١)
زُورٌ يُعَلَّلُ قَلْبُ ٱلْمُسْتَهَامِ بِهِ
دَهْرًا، وَقَدْ بَقِيَتْ فِي ٱلنَّفْسِ حَاجَاتُ(٢)

له صورة فى القلب لم تقصها النوى ... ولم تتخطفها أكف النوائب
اذا ساءنى منه نزوح دياره ... وضاقت على فى نواه مذاهبى
عطفت على شخص له غير نازح ... محلته بين الحشا والترائب

والقارىء الكريم يوازن بين نظم ابن حسداى وهذا الشعر.
« أحمد يوسف نجاتى » .

(١) الكرى النوم : يعلل نفسه بنيل أمانيه ووفاء محبوبته بوعدها فى عالم المنام . ويكتفى منها بالنسيم يفد من جهتها أو يذهب اليها ، وفى معناه قول الطائى :

ضن عنى بالنزر اذا أنا يقظا ... ن وأعطى كثيره فى المنام

وقوله :

ما تنمى يقظى فقد تؤتينه ... فى النوم غير مصرد محسوب

(٢) ماأرق قول الشريف الرضى وأجزله :

وزور زارنى والليل داج ... فعللنى بباطل ذاك حينا
يرينى أنه يأتى وسادى ... مضاجعة وزور مايرينا
نعمت بباطل ويود قلبى ... ودادا لو يكون له يقينا

وقوله أيضا :

وزور تخطى جنوب الملا ... فناديت أهلا بذا الزائر
أتى فى عدو وعين الرقيـ ... ـب مطروفة بالكرى الغامر
وأحبب به يسعف الهاجعين ... وتحرمه مقلة الساهر

لَعَلَّ عَتْبَ ٱللَّيَالِي أَنْ يَعُودَ إِلَى عُتْبَى(١) فَتُبْلَغَ أَوْطَارٌ وَلَذَّاتُ
حَتَّى نَفُوزَ بِمَا جَادَ ٱلْخَيَالُ بِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَتْ تِلْكَ ٱلْمَنَامَاتُ

***

زواج المستعين بينت وزيره

وَلَمَّا أَعْرَسَ ٱلْمُسْتَعِينُ بِاللهِ بِبِنْتِ ٱلْوَزِيرِ ٱلْأَجَلِّ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ(٢) ٱحْتَفَلَ أَبُوهُ ٱلْمُؤْتَمَنُ فِي ذٰلِكَ ٱحْتِفَالًا شَهَرَهُ، وَأَبْدَعَ فِيهِ إِبْدَاعًا رَاقَ مَنْ حَضَرَهُ وَبَهَرَهُ، فَإِنَّهُ أَحْضَرَ فِيهِ مِنَ ٱلْآلَاتِ ٱلْمُبْتَدَعَةِ، وَٱلْأَدَوَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ، مَا بَهَرَ ٱلْأَلْبَابَ، وَقَطَعَ بِذَكَائِهِ دُونَ مَعْرِفَتِهَا ٱلْأَسْبَابَ، وَٱسْتَدْعَى إِلَيْهِ جَمِيعَ أَعْيَانِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ دَانٍ وَقَاصٍ، وَمُطِيعٍ وَعَاصٍ، فَأَتَوْهُ مُسْرِعِينَ، وَلَبَّوْهُ مُتَبَرِّعِينَ وَكَانَ مُدِيرَ تِلْكَ ٱلْآرَاءِ(٣) وَمُدَبِّرَهَا، وَمُنْشِئَ مُخَاطَبَاتِهَا وَمُحَبِّرَهَا، ٱلْوَزِيرُ ٱلْكَاتِبُ أَبُو ٱلْفَضْلِ، وَصَدَرَتْ عَنْهُ فِي

وبهدى بتـويـه عن المحب تم عـلى قلبـه الطاهـر
لما التقينا برغم الرقا دمـوه قلبي على ناظري

هذا هو الشعر لا التقليد المتكلف والنظم المتعسف . «أحمد يوسف نجاتى»

(١) العتبى الرضا ، وهو الرجوع عن الاساءة الى ما يرضى العاتب ، وأعتبه اذا منحه العتبى وعاد الى مسرته ورجع الى الرضا بعد السخط (٢) هو من أعيان بني عبد العزيز ، وسيأتى حديث عنهم صفحة ٢٩٨ (٣) فى بعض النسخ «الاراغه» بدل الآراء ، وأراغ أى أراد وطلب ودعا . «أحمد يوسف نجاتى»

ذَلِكَ الْوَقْتِ كُتُبٌ ظَهَرَ إِعْجَازُهَا، وَبَهَرَ اقْتِضَابُهَا وَإِيجَازُهَا، فَمِنْ ذَلِكَ مَا خَاطَبَ بِهِ صَاحِبَ الْمَظَالِمِ (١) أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ طَاهِرٍ :

***

كتاب الوزير أبي الفضل الى ابن طاهر

مَحَلُّكَ - أَعَزَّكَ اللهُ - فِي طَيِّ الْجَوَانِحِ (٢) ثَابِتٌ وَإِنْ نَزَحَتِ الدَّارُ، وَعِيَانُكَ فِي أَحْنَاءِ (٣) الضُّلُوعِ بَادٍ وَإِنْ شَحَطَ الْمَزَارُ، فَالنَّفْسُ فَائِزَةٌ مِنْكَ بِتَمَثُّلِ الْخَاطِرِ بِأَوْفَرِ الْحَظِّ (٤)، وَالْعَيْنُ نَازِعَةٌ إِلَى أَنْ تُمَتَّعَ مِنْ لِقَائِكَ بِنَظَرِ اللَّحْظِ (٥)

(١) فى الأصل «صاحب المظاهر» ولعل ذلك الوهم سرى الى هذه النسخة لمراعاة السجع والجناس مع « ابن طاهر » وليس هذا التحريف من جرائر تسكاف السجع ببكر ولا ثنى — وكذا فى الأصل أبو « عبد الله » وفى القلائد « صاحب المظالم أبو عبد الرحمن بن طاهر » وهذا هو الذى أعرفه — وهو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن اسحق بن طاهر من أهل مرسية ، كان من بيوتات الرفعة والرياسة والنباهة ، ومن ذوى العناية بالأدب كاتبا شاعرا وجيها، توفى سنة ٥٠٨ « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) الجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر كالضلوع مما يلى الظهر جمع جانحة، سميت بذلك لجنوحها على القلب ، ويكنى بما بين الجوانح عن القلب (٣) جمع حنو « بكسر الحاء وفتحها » كل ما فيه اعوجاج أو شبهه من البدن ، وشحط بعد كنزح (٤) مثل قوله :

يمثلك الشوق الشديد لناظرى ... وأطرق إجلالا كأنك حاضر

(٥) فى بعض النسخ « بظاهر » بدل « بنظر » يريد أن يقول ان العين تميل أن تظفر برؤيته عيانا ومشاهدة ، كما فازت النفس بتمثله تصورا ، فهو بحيث يراه قلبه وان غيب شخصه عن عينه

يريبك عين الذكر حتى كأنما ... أناجيك عن قرب وان لم تكن قربى

فَلَا عَائِدَةَ(١) أَسْبَغُ بُرْدًا ، وَلَا مَوْهِبَةَ أَسْوَغُ وِرْدًا ، مِنْ تَفَضُّلِكَ بِالْخُفُوفِ(٢) إِلَى مَأْنَسٍ يَتِمُّ بِمُشَاهَدَتِكَ الْتِئَامُهُ ، وَيَتَّصِلُ بِمُحَاضَرَتِكَ انْتِظَامُهُ ، وَلَكَ فَضْلُ الْإِجْمَالِ(٣) ، بِالْإِمْتَاعِ مِنْ ذٰلِكَ بِأَعْظَمِ الْآمَالِ ، وَأَنَا – أَعَزَّكَ اللهُ – عَلَى شَرَفِ سُؤْدُدِكَ حَاكِمٌ ، وَعَلَى مَشْرَعِ سَنَائِكَ حَائِمٌ(٤) ، وَحَسْبِي مَا تَتَحَقَّقُهُ مِنْ نِزَاعِي وَتَشَوُّقِي ، وَتَتَيَقَّنُهُ مِنْ تَطَلُّعِي

ونحو هذا قول عبد الصمد بن المعذل :

بأبي غائب بشوقي وفكري ... فيه ألقاه حين لا ألقاه
مثلته المنى لقلبي وطرفي ... فكأني أراه اذ لا أراه

وقول عبد الملك بن سعيد المرادى :

ياأقرب الناس من وهمي ومن ذكرى
وان تغيب منه الشخص عن بصرى
ان غاب عني ولم أظفر برؤيته ... فانه قائم التمثال فى فكرى

والقول فى هذا المعنى كثير جدا « أحمد يوسف نجاتى »

(١) العائدة: الفائدة والصلة، وأسبغ: أطول وأضفى ، يقول ان تفضله بحضوره وشخصه يكون أحسن نعمة وأجمل منة وأتم منحة يهبها الله للكاتب أو الداعى (٢) فى الأصل «باللحوق» وخف الى الداعى اذا نهض الى اجابته وأسرع الى تلبية دعوته (٣) أجمل : صنع جميلا وأسدى معروفا (٤) حام على الأمر اذا رامه وطلبه. والمشرع: المورد ، وحام الطائر حول الماء اذا دار حوله من العطش ، والسناء: الشرف ، ومعنى هذه الفقرة كمعنى سابقتها ، وفى القلائد « حالم » بدل حاكم، وقد تكون محرفة عن «هائم» والأصل « بشرف سؤددك هائم» « أحمد يوسف نجاتى »

وَتَتَوَثَّقِ ، وَقَدْ تَمَكَّنَ ٱلِارْتِيَاحُ بِاسْتِحْكَامِ ٱلثِّقَةِ ، وَٱعْتَرَضَ ٱلِانْشِرَاحُ بِارْتِقَابِ ٱلصِّلَةِ(١) ، وَأَنْتَ - وَصَلَ ٱللّٰهُ سَعْدَكَ - بِسَمَاحَةِ شِيَمِكَ(٢) ، وَبَارِعِ كَرَمِكَ ، تُنْشِئُ لِلْمُؤَانَسَةِ عَهْدًا ، وَتُورِي بِالْمُكَارَمَةِ زَنْدًا(٣) ، وَتَقْتَضِي بِالْمُشَارَكَةِ شُكْرًا حَافِلًا وَحَمْدًا ، لَا زِلْتَ مُهَنَّأً(٤) بِالسُّعُودِ ٱلْمُقْتَبَلَةِ(٥) مُسَوَّغًا(٦) اجْتِلَاءَ غُرَرِ ٱلْأَمَانِيِّ ٱلْمُتَهَلِّلَةِ ، بِمَنِّهِ . انْتَهَى .

***

وصف الوزير لبعض نزه المستعين

« ثُمَّ قَالَ » بَعْدَ هَذَا بِيَسِيرٍ مَا نَصُّهُ : وَرَكِبَ ٱلْمُسْتَعِينُ بِاللّٰهِ يَوْمًا نَهْرَ سَرَقُسْطَةَ يُرِيدُ طِرَادَ لَذَّتِهِ(٧) ، وَارْتِيَادَ نُزْهَتِهِ ،

(١) فى الأصل «واعترض الاقتراح باستحباب» وفى القلائد « واعترض الانتزاح بارتقاب » وفى بعض المراجع ما أثبتناه فآثرناه « أحمد يوسف نجاتى »
(٢) الشيمة: الطبيعة والخلق ، والسماحة :السهولة واللين (٣) أورى الزند أو قده واستخرج ناره، ويكنى بإيراء الزناد عن النجاح والظفر وادراك المرام وسرعة قضاء الحاجات ، والمكارمة المعاملة بالكرم ،وأصل المكارمة أن تهدى الى الانسان شيئا ليكافئك عليه، وهى مفاعلة من الكرم (٤) فى الأصل « مضيئا » وهو تصحيف (٥) اقتبل أمره استأنفه واستقبل مايأتى منه ، وفى بعض النسخ « المقبلة » (٦) سوغ فلان الطعام أو الشراب ونحوهما وأساغه اذا هنأه وتمتع به خالصا صافيا ، وسوغ له الشيء أباحه وتركه يتمتع به ، واجتلى الهلال والعروس وغيرهما اذا نظر اليهما مجلوين، واجتلاها: عرضها عليه مجلوة ، وغرة الشيء خالصه (٧) جعل لذته كالصيد يطارده فيسر ببلوغه والوصول اليه :

وَٱفْتِقَادَ أَحَدِ حُصُونِهِ ٱلْمُنْتَظِمَةِ بِلَبَّتِهِ(١) ، وَٱجْتَمَعَ لَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، مَنِ ٱخْتَصَّهُ لِاسْتِصْحَابِهِ ، وَفِيهِمْ أَبُو ٱلْفَضْلِ مُشَاهِدًا لِانْفِرَاجِهِمْ ، سَالِكاً لِمِنْهَاجِهِمْ ، وَٱلْمُسْتَعِينُ قَدْ أَحْضَرَ مِنْ آلَاتِ إِينَاسِهِ ، وَأَظْهَرَ مِنْ أَنْوَاعِ ذٰلِكَ وَأَجْنَاسِهِ ، مَا رَاقَ مَنْ حَضَرَ ، وَفَاقَ حُسْنُهُ ٱلرَّوْضَ ٱلْأَنْضَرَ ، وَٱلزَّوَارِقُ قَدْ حَفَّتْ بِهِ ، وَٱلْتَفَّتْ بِجَوَانِبِهِ ، وَنَغَمَاتُ ٱلْأَوْتَارِ تَحْبِسُ

لولا طراد الصيد لم تك لذة   فتطاردى لى بالوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وماله   من لذة حتى يصيب غليلا

(١) افتقد الشيء اذا تعاهده و بحث عنه وأراد تعرف حاله ، واللبة موضع القلادة من النحر ، جعل الحصون التى على النهر كحبات عقد انتظم فى لبته — وقد أورد صاحب البدائع هذه الحكاية بأسلوب أحسن من هذا ، قال : ركب المستعين يوما نهر سرقسطة لتفقد بعض معاقله ، المنتظمة بجيد ساحله ، وهو نهر رق ماؤه وراق ، وأربى على نيل مصر ودجلة العراق ، قد اكتنفته البساتين من جانبيه ، وألقت ظلالها عليه ، فما تكاد عين الشمس تنظر اليه ، هذا على اتساع عرضه ، و بعد سطح الماء من أرضه ، وقد توسط زورقه زوارق حاشيته توسط البدر للهاله ، وأحاطت به احاطة الطفاوة بالغزالة ، وقد أعدوا من مكايد الصيد ما استخرج ذخائر الماء ، وأخاف حتى حوت السماء ، وأهلة الهالات طالعة من الموج فى سحاب ، وقانصة من بنات الماء كل طائرة كالشهاب ، فلا ترى الا صيودا كصيد الصوارم ، وقدود اللهاذم ، ومعاصم الأبكار النواعم . وقال أبو الفضل ابن حسداى والطرب قد استهواه ، وبديع ذلك المرأى قد استرق هواه . الأبيات . اهـ « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلسَّائِرَ عَنْ عَدْوِهِ ، وَتُخْرِسُ ٱلطَّائِرَ ٱلْمُفْصِحَ بِشَدْوِهِ ، وَٱلسَّمَكُ تُثِيرُهَا ٱلْمَكَايِدُ ، وَتَغُوصُ إِلَيْهَا ٱلْمَصَايِدُ ، فَتَبْرُزُ مِنْهَا لِلْعَيْنِ ، قُضْبَانُ دُرٍّ أَوْ سَبَائِكُ لُجَيْنٍ ، وَٱلرَّاحُ لَا يُطْمَسُ لَهَا لَمْعٌ ، وَلَا يُبْخَسُ مِنْهَا بَصَرٌ وَلَا سَمْعٌ ، وَٱلدَّهْرُ قَدْ غَضَّتْ صُرُوفُهُ ، وَٱقْتَصَّ مِنْ مُنْكَرِهِ مَعْرُوفُهُ ، فَقَالَ .

لِلّٰهِ يَوْمٌ أَنِيقٌ وَاضِحُ ٱلْغُرَرِ
مُفَضَّضٌ مُذْهَبُ ٱلْآصَالِ وَٱلْبُكَرِ

كَأَنَّمَا ٱلدَّهْرُ لَمَّا سَاءَ أَعْتَبَنَا
فِيهِ بِعُتْبَى وَأَبْدَى صَفْحَ مُعْتَذِرِ

نَسِيرُ فِي زَوْرَقٍ حَفَّ ٱلسَّفِينُ بِهِ
مِنْ جَانِبَيْهِ بِمَنْظُومٍ وَمُنْتَثِرِ

مُدَّ ٱلشِّرَاعُ بِهِ نَشْرًا عَلَى مَلِكٍ
بَذَّ(١) ٱلْأَوَائِلَ فِي أَيَّامِهِ ٱلْأُخَرِ

هُوَ ٱلْإِمَامُ ٱلْهُمَامُ ٱلْمُسْتَعِينُ حَوَى
عَلْيَاءَ مُؤْتَمَنٍ فِي هَـدْيِ مُقْتَدِرِ

---

(١) بذ : فاق وعلا

تَحْوِى ٱلسَّفِينَةُ مِنْهُ آيَةً عَجَباً
بَحْرًا تَجَمَّعَ حَتَّى صَارَ فِى نَهَرِ
تُثَارُ مِنْ قَعْرِهِ ٱلنِّينَانُ(١) مُصْعِدَةً
صَيْدًا كَمَا ظَفِرَ ٱلْغَوَّاصُ بِالدُّرَرِ

(١) فى الأصل «تصاد» وفى القلائد والبدائع «تثار» وهى أحسن ـ والنينان الحيتان جمع نون ، وهو جمع غير معروف، فان كلمة «نون» لم يجئ جمعها على نينان، وقد كان الأخفش لحن بشار بن برد فى قوله فى وصف السفينة :

تلاعب نينان البحور وربما
رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

فغيره بشار بتيار البحور « وان لم ينج الأخفش من هجو بشار » فانه لما بلغه طعن الأخفش قال : ويلى على القصار ابن القصارين متى كانت اللغة والفصاحة فى بيوت القصارين ؟! دعونى واياه ـ فجزع الأخفش جزعا شديدا وتشفع اليه أن يكف عنه غرب لسانه فقال : وهبت للذم عرضه ، وحمل هذا الأخفش على أن يتملق بشارا فكان يحتج فى كتبه بشعره ليبلغه ذلك فيسكت عنه ، وكان قد بلغ بشارا عن سيبويه أيضا شىء من ذلك فهجاه . ولكن هذا كله لم يمنع بشارا أن يخضع لقوانين اللغة فعدل عما لم يسمع منها، وان كنت أرى أنه قد يسهله «حوت وحيتان» فهو مثله لفظا ووزنا ومعنى، وقد قال أبو الطيب المتنبى يصف خيلا :

فهن مع السيدان فى البر عسل وهن مع النينان فى البحر عوم

السيدان جمع سيد وهو الذئب ، والعسل جمع عاسل « كراكع وركع » من عسلان الذئب وهو الاسراع ـ ولم يعدل أبو الطيب عن نينان

« أحمد يوسف نجاتى »

وَلِلنَّــدَامَى بِهِ عَبٌّ وَمُرْتَشَفٌ
كَالرِّيقِ يَعْذُبُ فِي وِرْدٍ وَفِي صَدَرِ
وَالشُّرْبُ فِي وُدِّ مَوْلًى خُلْقُهُ زَهَرٌ
يَذْكُو، وَغُرَّتُهُ أَبْهَى مِنَ الْقَمَرِ

انْتَهَى

***

وصف الوزير لأبى محمد البطليوسى

« وَقَالَ » فِي تَرْجَمَــةِ الْعَلَّامَةِ الْــكَبِيرِ الْأُسْتَاذِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ السِّيدِ الْبَطَلْيَوْسِيِّ[١] شَارِحِ أَدَبِ الْــكُتَّابِ وَسِقْطِ الزَّنْدِ وَغَيْرِهِمَا مَا صُورَتُهُ : أَخْبَرَنِي أَنَّهُ حَضَرَ مَعَ الْمَأْمُونِ بْنِ ذِي النُّونِ[٢] فِي مَجْلِسِ النَّاعُورَةِ بِالْمُنْيَةِ

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد ، كان اماما فى اللغة عالما بالآداب مقدما فى ذلك ، وتآليفه فيها دالة على رسوخه واتساعه، ونفوذه وامتداد باعه منها الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب، وقد طبع بمصر ، وقد شرح سقط الزند لأبى العلاء المعرى شرحا استوفى فيه مقاصده، و بين أسراره ودقائقه وهو أجود من شرح أبى العلاء صاحب الديوان الذى سماه ضوء السقط وله غير ذلك كثير — وله مع هذا نثر ونظم جيدان، وفى قلائد العقيان شىء منهما مختار ، ولد ابن السيد سنة ٤٤٤ وتوفى سنة ٥٢١ بمدينة بلنسية . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) هو أبو الحسن يحى بن الظافر اسمعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون الهوارى من ملوك الطوائف صاحب طليطلة، ولى الملك بعد أبيه سنة ٤٢٩ واستفحل ملكه ، وعظم بين ملوك

الَّتِي تَطْمَحُ إِلَيْهَا الْمُنَى ، وَمَرْآهَا هُوَ الْمُقْتَرَحُ وَالْمُتَمَنَّى ، وَالْمَأْمُونُ قَدِ احْتَبَى،[١] وَأَفَاضَ الْحُبَا ، وَالْمَجْلِسُ يَرُوقُ كَأَنَّ الشَّمْسَ فِي أُفُقِهِ ، وَالْبَدْرُ كَالتَّاجِ فِي مَفْرِقِهِ[٢] ، وَالنَّوْرُ عَبِقٌ[٣] ، وَعَلَى مَاءِ النَّهْرِ مُصْطَبِحٌ وَمُغْتَبِقٌ[٤] ، وَالدُّولَابُ يَئِنُّ كَنَاقَةٍ إِثْرَ الْحُوَارِ[٥] ، أَوْ كَثَكْلَى مِنْ حَرِّ الْأُوَارِ[٦] ، وَالْجَوُّ قَدْ عَنْبَرَتْهُ أَنْوَاؤُهُ[٧] ، وَالرَّوْضُ قَدْ رَشَّتْهُ أَنْدَاؤُهُ[٨] ، وَالْأُسْدُ قَدْ فَغَرَتْ[٩] أَفْوَاهَهَا ، وَمَجَّتْ أَمْوَاهَهَا ، فَقَالَ :

الطوائف سلطانه ، وغلب على بلنسية وقرطبة ، ونو فى سنة ٤٦٧ فولى بعده حفيده القادر يحيى بن اسمعيل بن المأمون يحيى بن ذى النون ، فملك ادفونش ملك الفرنج منه مدينته سنة ٤٧٨ . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) احتبى بالثوب : اشتمل ، أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، وغرضه أنه جلس جلسة ارتياح ووقار ، وحبا فلانا أعطاه ومنحه ، والاسم منه حبوة « مثلثة » وجمعها حبا « بضم الحاء وكسرها » (٢) فى الأصل « كالشمس فى أفقه ، والبدر فى مفرقه » وآثرنا مافى القلائد لظهور معناه (٣) ذو رائحة ذكيه منتشرة (٤) الاصطباح : شرب الصباح ، والاغتباق شرب المساء (٥) ولد الناقة (٦) أصل الأوار حرارة العطش وحر النار ، مستعار لحرارة الحزن وجمرة نار الثكل (٧) جمع نوء أراد به المطر (٨) جمع ندى (٩) فتحت ـ يريد الأسد الصناعية التى تمج أفواهها المياه ، وتقدم وصف مثل ذلك ـ ولعلك تخيلت وصف هذا المجلس الذى

يَامَنْظَرًا إِنْ نَظَرْتُ بَهْجَتَهُ ... أَذْكَرَنِي حُسْنَ جَنَّةِ الْخُلْدِ
تُرْبَةُ مِسْكٍ ، وَجَوُّ عَنْبَرَةٍ ... وَغَيْمُ نَدٍّ ـ وَطَشُّ(١) مَا وَرْدِ
وَالْمَاءُ كَاللَّازَوَرْدِ قَدْ نَظَمَتْ ... مِنْهُ اللَّآلِي فَوَاغِرُ الْأُسْدِ
كَأَنَّمَا جَائِلُ الْحَبَابِ بِهِ ... يَلْعَبُ فِي جَانِبَيْهِ بِالنَّرْدِ(٢)
تَرَاهُ يَزْهُو إِذَا يَحِلُّ بِهِ الْـ ... ـمَأْمُونُ زَهْوَ الْفَتَاةِ بِالْعِقْدِ(٣)
تَخَالُهُ إِنْ بَدَا بِهِ قَمَرًا ... تَمًّا بَدَا فِي مَطَالِعِ السَّعْدِ
كَأَنَّمَا أُلْبِسَتْ حَدَائِقُهُ ... مَاحَازَ مِنْ شِيمَةٍ وَمِنْ مَجْدِ
كَأَنَّمَا جَادَهَا فَرَوَّضَهَا ... بِوَابِلٍ مِنْ يَمِينِهِ رَغْدِ(٤)

كان الانهماك بالشراب واللهو فى مثله من أسباب ضياع الفردوس المفقود « أحمد يوسف نجاتى » (١) الطش المطر الضعيف، وهو فوق الرذاذ ، وطشت السماء تطش « بالضم ، والكسر » ، وفى نسخة « رش » وهو فى معنى طش

(٢) الحباب : نفاخات الماء التى تطفو فوق سطحه ، والطل على الشجر يصبح عليه ، قال :

تخال الحباب المرتقى فوق نورها ... الى سوق أعلاها جمانا مبددا

(٣) فى نسخة « الكعاب » بدل الفتاة ، والكعاب هى الناهد التى ارتفع ثديها ، وكعب الثدى « كضرب ونصر » اذا نتأ ونهد (٤) جادها: أمطرها بغيثه . والوابل المطر الغزير « أحمد يوسف نجاتى »

لَا زَالَ فِي رِفْعَةٍ مُضَاعَفَةٍ
مُتَمَّمَ الرِّفْدِ وَارِيَ الزَّنْدِ[1]

***

وصف آخر للمجلس

« وَقَالَ » فِي وَصْفِ هَذَا الْمَجْلِسِ بِعَيْنِهِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَفْرَدَهُ لِتَرْجَمَةِ ابْنِ السَّيِّدِ مَا صُورَتُهُ : فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ حَضَرَ مَعَ الْقَادِرِ بِاللهِ بْنِ ذِي النُّونِ بِمَجْلِسِ النَّاعُورَةِ بِطُلَيْطُلَةَ فِي الْمُنْيَةِ الْمُتَنَاهِيَةِ الْبَهَاءِ وَالْإِشْرَاقِ ، الْمُبَاهِيَةِ لِزَوْرَاءِ الْعِرَاقِ[2] ، الَّتِي يَنْفَحُ[3] شَذَاهَا الْعِطْرُ ، وَتَكَادُ مِنَ الْغَضَارَةِ[4] تُمْطِرُ ، وَالْقَادِرُ بِاللهِ - رَحِمَهُ اللهُ - قَدِ الْتَحَفَ الْوَقَارَ وَارْتَدَاهُ ، وَحَكَّمَ الْعُقَارَ فِي جُودِهِ وَنَدَاهُ[5] ،

---

(١) الرفد العطاء ، « ووارى الزند » يكنى به عن النجاح والظفر فى الأمور وادراك الآمال ، وسداد الرأى وحسن التوفيق (٢) تقدم التعريف بها (٣) نفح الطيب « كمنع » اذا أرج وتضوعت رياه الذكية ، والشذى : قوة ذكاء الرائحة الطيبة وحدتها (٤) الغضارة : النعمة والخير والسعة والخصب والبهجة ، وغضارة العيش : طيبه ونضرته. والفقرة « تكاد من الغضارة تمطر » من شطر بيت ، ومر مثل ذلك فى بعض الرسائل (٥) كأنه ينظر الى قول عنترة :

فاذا شربت فاننى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

وَالْمَجْلِسُ يُشْرِقُ كَالشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ(١) ، وَمَنْ حَوَاهُ يَبْتَهِجُ كَالنَّفْسِ عِنْدَ مَنَالِ الْأَمَلِ ، وَالزَّهْرُ عَبِقٌ ، وَعَلَى مَاءِ النَّهْرِ مُصْطَبِحٌ وَمُغْتَبِقٌ ، وَالدُّولَابُ يَئِنُّ كَنَاقَةٍ إِثْرَ حُوَارٍ ، إِلَى آخِرِ مَا سَبَقَ

***

وصف آخر المجلس

« وَقَالَ الْفَضْلُ » فِي وَصْفِ هَذَا الْمَجْلِسِ حَاذِيًا حَذْوَ الْفَتْحِ مَا صُورَتُهُ : حَضَرَ الْأُسْتَاذُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ السِّيدِ عِنْدَ الْمَأْمُونِ بْنِ ذِي النُّونِ فِي بَعْضِ مُتَنَزَّهَاتِهِ فِي وَقْتٍ طَابَ نَعِيمُهُ ، وَسَرَتْ بِالسُّعُودِ نُجُومُهُ ، وَالرَّوْضُ قَدْ أَجَادَ وَشْيَهُ رَاقِمُهُ(٢) ، وَالْمَاءُ قَدْ جَرَتْ بَيْنَ الْأَعْشَابِ أَرَاقِمُهُ(٣) ، وَثَمَّ بِرْكَةٌ مَمْلُوَّةٌ ، كَأَنَّهَا مِرْآةٌ مَجْلُوَّةٌ ، قَدِ اتَّخَذَتْ سِبَاعُ الصُّفْرِ(٤) بِشَاطِئِهَا غَابًا ، وَمَجَّتْ بِهَا مِنْ سَائِغِ

(١) تحل الشمس فى الحمل فى أول فصل الربيع شباب الزمان وأبهى فصول العام (٢) وشى الثوب : نقشه و زخرفته ــ و رقم الثوب وشاه وخططه وأعلمه (٣) الأرقم من الحيات مافى لونه سواد و بياض ، أو هى حية بين حيتين رقم بحمرة وسواد وكدرة و بغثة « بياض الى الخضرة » والبغثاء أيضامثل الرقطاء ، وهى التى فيها سواد و بياض و بياضها أكثر من سوادها والبغثة أيضاالغبرة،ولون رمادى (٤) النحاس الأصفر «أحمديوسف نجاتى »

اُلْمَاءَ لُعَابًا ، فَكَأَنَّهَا آسَادُ عَيْنٍ ، أَدْلَعَتْ[١] أَلْسِنَةً مِنْ لُجَيْنٍ ، وَهِيَ لَا تَزَالَ تَقْذِفُ اُلْمَاءَ وَلَا تَفْتُرُ[٢] ، وَتَنْظِمُ لَآلِئَ اُلْحَبَابِ بَعْدَ مَا تَنْثُرُ ، فَأَمَرَهُ بِوَصْفِ ذَلِكَ اُلْمَوْضِعِ اُلَّذِي تَخِدُ إِلَيْهِ[٣] رَكَائِبُ اُلْقُلُوبِ وَتُوضِعُ ، فَقَالَ بَدِيهًا : يَا مَنْظَرًا الخ . انتَهَى .

« ثُمَّ قَالَ اُلْفَتْحُ » فِي هَذَا اُلتَّصْنِيفِ بَعْدَ كَلَامٍ فِي اُلْمَذْكُورِ مَا نَصُّهُ : وَمَا أَبْدَعَ قَوْلَهُ فِي وَصْفِ اُلرَّاحِ ، وَاُلْحَضِّ عَلَى اُلنَّبْذِ لِلْهُمُومِ وَاُلِاطِّرَاحِ ، بِمُعَاطَاةِ كَاسِهَا ، وَمُوَالَاةِ إِينَاسِهَا ، وَمُعَاقَرَةِ دِنَانِهَا[٤] وَاُهْتِصَارِ ثِمَارِ اُلْفُتُوَّةِ[٥]

---

(١) دلع لسانه « كمنع » وأدلعه اذا أخرجه ، والعين الذهب واللجين الفضة

(٢) الفتور : الضعف والسكون عن النشاط ، والتعب (٣) فى الأصل « تجد » ولكن « تخد » أنسب بما بعده : ووخد « كوعد » أسرع ، والوخد أيضا : سعة الخطو فى المشى — وأوضع عدا عدوا سريعا .

(٤) الدنان جمع دن ، اناء من آنية الخمر عظيم (٥) اهتصر الغصن اذا جذبه وأماله اليه ، والفتوة أصلها فى اللغة الكرم والسخاء والايثار ومكارم الأخلاق ، ثم استعمله المولدون بمعنى اللهو والغزل والميل الى أعمال الشباب ودواعى الهوى

مِنْ أَفْنَانِهَا ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْأَيَّامِ وَأَنْكَادِهَا ، وَالْجَرْيِ فِي مَيْدَانِ الصَّبْوَةِ[١] إِلَى أَبْعَدِ آمَادِهَا :

سَلِّ الْهُمُومَ إِذَا نَبَا زَمَنٌ[٢]

بِمُدَامَةٍ صَفْرَاءَ كَالذَّهَبِ

مُزِجَتْ ، فَمِنْ دُرٍّ عَلَى ذَهَبٍ

طَافٍ وَمِنْ حَبَبٍ عَلَى لَهَبِ[٣]

وَكَأَنَّ سَاقِيَهَا يُثِيرُ شَذَى

مِسْكٍ لَدَى الْأَقْوَامِ مُنْتَهَبِ

وَلِلّٰهِ هُوَ! فَقَدْ نَدَبَ إِلَى الْمَنْدُوبِ[٤] ، وَذَهَبَ إِلَى مُدَاوَاةِ الْقُلُوبِ مِنَ النُّدُوبِ[٥] ، وَإِبْرَائِهَا مِنَ الْآلَامِ ، وَإِهْدَائِهَا كُلَّ تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ . وَإِبْهَاجِهَا بِآصَالٍ وَبُكَرٍ ، وَعِلَاجِهَا مِنْ هُمُومٍ وَفِكَرٍ ، فِي زَمَنٍ حُلِّيَ عَاطِلُهُ ، وَجُلِّيَ فِي أَحْسَنِ

---

(١) الصبوة جهلة الفتوة واللهو كالفتوة (٢) نبا به الزمن: أساء اليه ولم توافقه صروفه (٣) يصف الفواقع البيض الطافية فوق الكأس (٤) ندبه الى الأمر «كنصر» دعاه وحثه ، والأمر المندوب المستحب والمطلوب (٥) جمع ندبة «بفتح النون والدال» أثر الجرح على الجلد اذا لم يرتفع عنه «أحمد يوسف نجاتي»

أُلصُّوَرِ بَاطِلُهُ ، وَنَفَقَتْ(١) مُحَالَاتُهُ ، وَطَبَّقَتْ أَرْضَهُ وَسَمَاءَهُ أُسْتِحَالَاتُهُ، فَلَيْثُهُ كَاسِدٌ(٢) ، وَذِئْبُهُ مُسْتَأْسِدٌ(٣) ، وَأَضْغَاثُهُ(٤)

(١) راجت وأقبل عليها الناس، والمحال الباطل،وما عدل به عن وجهه من الكلام ، وطبق ملأ وعم . (٢) بالرضد نافق و رائج، وفعله « كنصر » وأقول : اذا كان يقول هذا فى عصره فماذا يقول لو رأى ما نحن عليه الآن ، وقد راج البهرج الزائف ، وكسد الابريز الجيد الصفى ، وشالت كفة جيف خف وزنها ، وثبتت رزينة الجواهر التى غلت قيمتها ، واستخف أناس بعقول بعض الأغرار ،وموهوا بمحالهم المزور على ذوى الغفلة الأغمار فكانت لهم سوق نافقة ؟! أظنه كان يعلل نفسه بايثاره حفظ كرامتها ، وارضائه ضميره واخلاصه فى عمله الذى لابد أن ينم عنه ، وثقته بأن الحق لابد أن يظهر ،فان ضاع بين الناس لم يضع عند الله « أحمد يوسف نجاتى »
(٣) استأسد أى صار كالأسد فى جراءته وأخلاقه ، واستأسد عليه اجترأ
(٤) فى الأصل « وأضغانه » تنسر ،ولا بأس بها لولا ما يكون اذا فى تفسر من التحريف أو تكلف المعنى، ولولا أن السياق قد ينبو عنه ، مع فوت الازدواج بين « أضغاث وبغاث »وهو يتحرى ذلك،هذا الى أن الفقرات كلها أمثال تضرب متشاكلة المعنى متشابهة الغرض ـ والأضغاث جمع ضغث ، وهو ما كان مختلطا لا حقيقة له من الخبر والأمر، وكل عمل مختلط غير خالص ، وكلام ضغث لا خير فيه ـ والضغث الحلم الذى لا تأويل له ولا خير فيه لاختلاطه والتباسه ، والضغث قبضة من قضبان مختلفة مختلطة الرطب باليابس جمعها أصل واحد ـ ونسر الشيء اذا نشره وفرقه ، فالمعنى على ما فى الأصل أن أضغانه ظاهرة، وأحقاد أهله على النابغين مكشوفة ، أو أن أخباره التافهة، وأعماله المختلطة الفاسدة، وأحاديثه الغثة غير الخالصة قد ظهرت وانتشرت. وأرى كل هذا تعسفا متكلفا، وعندى أن أصل الفقرة « وأضغاثه تنسر » فقد عرفت أن الأضغاث هى الأحلام الملتبسة المختلطة

تُنْسَرُ ، وَبُغَاثُهُ قَدِ اُسْتَنْسَرَ[١] ، فَلَا اُسْتِرَاحَةَ إِلَّا فِي مُعَاطَاةِ حُمَيَّا ، وَمُوَاخَاةِ وَسِيمِ الْمُحَيَّا . وَقَدْ كَانَ اُبْنُ عَمَّارٍ[٢] ذَهَبَ مَذْهَبَهُ ، وَفَضَّضَهُ بِالْإِبْدَاعِ وَذَهَّبَهُ ، حِينَ دَخَلَ سَرَقُسْطَةَ وَرَأَى غَبَاوَةَ أَهْلِهَا ، وَتَكَاثُفَ جَهْلِهَا ، وَشَاهَدَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْلَمُ مَعْنًى وَلَا فَصْلًا ، وَوَاصَلَ مَنْ لَا يَعْرِفُ قَطْعًا وَلَا وَصْلًا ، فَأَقْبَلَ عَلَى رَاحِهِ يَتَعَاطَاهَا ، وَعَكَفَ عَلَيْهَا مَا تَعَدَّاهَا وَلَا تَخَطَّاهَا ، حَتَّى بَلَغَهُ أَنَّهُمْ نَقَمُوا مُعَاقَرَتَهُ الْعُقَارَ ،

والرؤيا المتداخلة التي لايستقيم تأويلها ولا يصح تعبيرها ، فهو يقول انها في هذا الزمان الفاسد قد فسرت، فهو يشكو انقلاب الأحوال وانعكاس الأوضاع ، فيكون مثل الفقرة قبله والفقرة بعده « أحمد يوسف نجاتي »

(١) البغاث صغار الطير وضعافه، أو ضرب منه بطيء الطيران، وهو من شرار الطير ومما لا يصيد منها « و بغاث يكون واحدا فيجمع على بغثان ، ويكون جمعا لبغاثة » واستنسر صار كالنسر في القوة عند الصيد بعد أن كان من ضعاف الطير وأرذاله. وهو مثل يضرب للضعيف يصير قويا، وللذليل يصبح بعد الهوان عزيزا « وقد يستعمل بمعنى أن من جاورنا عز بنا ، أو أن الضعيف يستضعفنا و يظهر قوته علينا » والمعنى الأول هو المراد هنا (٢) هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار الشاعر الأديب المشهور ، كان وزيرا للمعتمد بن عباد ، وجعله أميرا على بعض البلاد ، ولكنه شق عصا الطاعة على ولي نعمته ، و بعد حوادث معروفة قتله المعتمد سنة ٤٧٧ ومر شيء من سيرته، ويأتي حديث عنه . « أحمد يوسف نجاتي »

وَجَالَتْ أَلْسِنَتُهُمْ فِي تَوْبِيخِهِ مَجَالَ ذِي الْفَقَارِ[1] ، فَقَالَ :

نَقَمْتُمْ عَلَيَّ الرَّاحَ أُدْمِنُ شُرْبَهَا
وَقُلْتُمْ : فَتَى رَاحٍ وَلَيْسَ فَتَى مَجْدِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي قَادَ الْجِيَادَ إِلَى الْوَغَى
سِوَايَ؟ وَمَنْ أَعْطَى كَثِيراً وَلَمْ يُكْدِ ؟[2]
فَدَيْتُكُمُو لَمْ تَفْهَمُوا السِّرَّ ، إِنَّمَا
قَلَيْتُكُمُ[3] جُهْدِي فَأَبْعَدْتُكُمْ جُهْدِي

وَدُعِيَ ابْنُ السَّيِّدِ لَيْلَةً إِلَى مَجْلِسٍ قَدِ احْتَشَدَ فِيهِ الْأُنْسُ وَالطَّرَبُ ، وَقَرَعَ فِيهِ السُّرُورُ نَبْعَهُ بِالْغَرَبِ[4] ،

(١) ذو الفقار سيف مشهور كان للعاص بن منبه « بن الحجاج بن عامر ابن حذيفة بن سعد بن سهم » ثم قتل يوم بدر كافرا ، قتله سيدنا على بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ سيفه هذا ، وفيه قيل :

لاسيف الا ذو الفقا ر ولا فتى الا على

والغرض هنا أنهم سلقوا ابن عباد بألسنة حداد كهذا السيف (٢) أكدى أى بخل بالعطاء وقل خيره (٣) قلاه يقليه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه (٤) سبق شرح النبع والغرب ، والغرض أنه كان للسرور حرب قامت على ساقها ، وميدان جال فيه كل مجال ، وقال الشاعر :

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

وقال أبو الطيب :

وَلَاحَتْ نُجُومُ أَكْوَاسِهِ(١) ، وَفَاحَ نَسِيمُ رَنْدِهِ وَآسِهِ(٢)، وَأَبْدَتْ صُدُورُ أَبَارِيقِهِ أَسْرَارَهَا(٣) ، وَضَمَّتْ عَلَيْهِ

فلا تنلك الليالى ان أيديها اذا ضربن كسرن النبع بالغرب

يريد أن يدعو له بألا تناله الليالى ، فانها اذا ضربت كسرت القوى بالضعيف

(١) كذا بالأصل ، ولم يجمع « كأس » على أكواس، وأظنها محرفة عن « كئاس » أو كياس بقلب الألف التى أصلها واو ياء ، فقد سمع هذا الجمع كما سمع أكؤس وكؤوس وكاسات — وتشبيه الراح وكاساتها وحبابها بالنجوم كثير فى كلامهم ، ومنه :

نجوم الراح قد طلعت نهارا ونحن من المسرة فى ورود
وماء النيل نزوج بالحميا فهل لك أن تكون من الشهود؟

ولابن الفارض :

لها البدر كاس، وهى شمس يديرها هلال، وكم يبدو اذا مزجت نجم

(٢) الرند شجر بالبادية طيب الرائحة، وقد يسمون العود الذى يتبخر به رندا — والآس معروف ، وهو بأرض العرب كثير ، وخضرته دائمة أبدا ، ولهذا قيل :

الآس يبقى وان طال الزمان به والورد يفنى ولا يبقى على الزمن

وقال آخر :

أرى عهدكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد
وعهدى لكم كالآس حسنا ومنظرا له بهجة تبقى اذا فنى الدهر

وقال آخر :

خليلى ماس الآس يعبق نشره اذا هب أنفاس الرياح العواطر
حكى لونه أصداغ ريم معذر وصورته آذان خيل نوافر

(٣) مما قيل فى أباريق المدام قول ابراهيم الموصلى :

كأن أباريق المدام لديهم ظباء بأعلى الرقمتين قيام
وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللاين لم تخلق لهن عظام

ٱلْمَحَاسِنُ[١] أَزْرَارَهَا ، وَٱلرَّاحُ يُدِيرُهَا أَهْيَفُ[٢] أَوْطَفُ ، وَٱلْأَمَانِيُّ تُجْنَى وَتُقْطَفُ ، فَقَالَ :

يَا رُبَّ لَيْلٍ قَدْ هَتَكْتُ حِجَابَهُ
بِمُدَامَةٍ وَقَّادَةٍ كَالْكَوْكَبِ
يَسْعَى بِهَا أَحْوَى ٱلْجُفُونِ كَأَنَّهَا
مِنْ خَدِّهِ وَرُضَابِ فِيهِ ٱلْأَشْنَبِ[٣]
بَدْرَانِ : بَدْرٌ قَدْ أَمِنْتُ غُرُوبَهُ
يَسْعَى بِبَدْرٍ جَانِحٍ لِلْمَغْرِبِ[٤]

ولآخر :

كأن ابريقنا والراح فى فمه طير تناول ياقوتا بمنقار

(١) فى الأصل « المجالس » فالضمير فى عليه يرجع الى ابن السيد (٢) الهيف ضمر البطن ورقة الخاصرة ، والوطف كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول ، وفتى أوطف وغادة وطفاء اذا كانا طويلى شعر أهداب العينين مع كثرته وسواده (٣) الحوة : السواد ، والشنب ماء ورقة تجرى على الثغر مع برد وعذوبة فى الفم (٤) البدر الأول محبوبه ، والثانى الراح تغرب فى فم الشارب ، ومثله قول الشاعر من أبيات فى نجوم الكؤوس

طالعات مع السقاة علينا فاذا ماغربن يغربن فينا

وقال ابن الصائغ :

سقيا لأيامنا ما كان أطيبها وان نسيت فما أنسى ليالينا
حيث الكؤوس على الندمان دائرة مثل الكواكب والأبراج أيدينا

فَإِذَا نَعِمْتَ بِرَشْفِ بَدْرٍ غَارِبٍ
فَانْعَمْ بِرَشْفَةِ طَالِعٍ لَمْ يَغْرُبِ (١)
حَتَّى تَرَى زُهْرَ ٱلنُّجُومِ كَأَنَّهَا
حَوْلَ ٱلْمَجَرَّةِ رَبْرَبٌ فِي مَشْرَبِ (٢)
وَٱللَّيْلُ مُنْفَجِرٌ يُطِيرُ غُرَابَهُ   وَٱلصُّبْحُ يَطْرُدُهُ بِبَازٍ أَشْهَبِ (٣)

تبدو فتحرق شيطان الهموم وما   زال الكواكب يحرقن الشياطينا

وقال عبد الرحمن القرشي الأموي الطليق « وتقدم التعريف به » .

أصبحت شمسا وفوه مغربا   ويد الساقي المحيي مشرقا
فاذا ماغـربت فى فمـه   أطلعت فى الخد منه شفقا

(١) فى معنى هذا :

يدير من يده خمرا ومن فمه   شهدا به لنفوس القوم لذات
فقمت أشرب من فيه وخمرته   شربا تشن به فى العقل غارات

(٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش أو من الظباء (٣) منفجر من الفجر وهو ضوء الصباح أو حمرة الشمس فى سواد الليل ، وقد انفجر الليل عن الصبح وانفجر الصبح ـ وفى نسخة « منحفز ، ومحتفز » من حفزه يحفزه اذا دفعه وأزعجه وأعجله وحثه ، وحفز الليل النهار أى حثه وساقه ، واحتفز فهو محتفز أى مستعجل مستوفز يريد النهوض مسرعا واحتفز فى مشيته اذا احتث واجتهد ، وفى هذا المعنى قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجا   نطير غرابا ذا قوادم جون

والشهبة: بياض يصدعه سواد فى خلاله ـ يقول انه لايزال يشرب وينعم بخمرتى الشراب والرضاب حتى تنحدر النجوم مغربة ، ويطرد بازى النهار غراب الليل . « أحمد يوسف نجاتى » .

« ثمَّ قَالَ ٱلْفَتْحُ » بَعْدَ كَلَامٍ كَثِيرٍ مَا صُورَتُهُ : وَدَخَلَ ـ يَعْنِى ٱبْنَ ٱلسِّيدِ ـ سَرَقُسْطَةَ أَيَّامَ ٱلْمُسْتَعِينِ وَهِيَ جَنَّةُ ٱلدُّنيَا ، وَفِتْنَةُ ٱلْمَحْيَا ، وَمُنْتَهَى ٱلْوَصْفِ ، وَمَوْقِفُ ٱلسُّرُورِ وَٱلْقَصْفِ ، مَلِكٌ نَمِيرُ(١) ٱلْبَشَاشَةِ ، كَثِيرُ ٱلْهَشَاشَةِ ، وَمُلْكٌ أَبْهَجُ(٢) ٱلْفِنَاءِ ، أَرِجُ ٱلْأَرْجَاءِ ، يَرُوقُ ٱلْمُجْتَلِي(٣) ، وَيَفُوقُ ٱلنَّجْمَ ٱلْمُعْتَلِيَ ، وَحَضِيرَةٌ(٤) مُنْسَابَةُ ٱلْمَاءِ ، مُنْجَابَةُ(٥) ٱلسَّمَاءِ، يَبْسِمُ زَهْرُهَا ، وَيَنْسَابُ نَهْرُهَا ، وَتَتَفَتَّحُ خَمَائِلُهَا(٦) ، وَتَتَضَوَّعُ صَبَاهَا وَشَمَائِلُهَا(٧) ، وَٱلْحَوَادِثُ لَا تَعْتَرِضُهَا ، وَٱلْكَوَارِثُ لَا تَفْتَرِضُهَا(٨) وَنَازِلُهَا مِنْ عُرْسٍ إِلَى مَوْسِمٍ ، وَآمِلُهَا مُتَّصِلٌ

(١) مستعار من الماء النمير وهو الناجع فى الرى الهنىء ، والعذب الصافى (٢) قد تكون « بهج » الموازنة للصفة أرج، أو بهيج ، وأرج الطيب « كفرح » فهو أرج اذا توهجت رائحته وتضوعت نفحته ، وبهج بالشىء « كفرح » سر به ، والبهجة: ضحك أسارير الوجه وظهور الفرح دائما ، ورجل بهج أى مبتهج بأمر يسره (٣) أى يعجب من يشاهد حسنه ويسره (٤) قد تكون « حضرة » أى مدينة ـ أما الحضيرة فهى المياه يحضرها الناس (٥) منكشفة ساطعة (٦) جمع خميلة : وهى الشجر الكثير الملتف الكثيف ، وتضوع الطيب: انتشرت رائحته الذكية (٧) جمع شمال (٨) لعله مجاز من فرض الشىء وافترضه اذا حزه بأسنانه وعضه وأثر فيه. والفرض الحز فى الشىء والقطع ، يريد أن مصائب الدهر ونوائبه لم تنل

بِالْأَمَانِيِّ وَمُتَّسِمٌ ، فَنَزَلَ مِنْهَا فِي مِثْلِ الْخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ[1] ، وَتَصَرَّفَ فِيهَا بَيْنَ رَوْضَةٍ وَغَدِيرٍ ، فَلَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُسْتَعِينِ اخْتِلَالُهُ ، وَلَمْ تَخِفَّ لَدَيْهِ[2] خِلَالُهُ ، فَذَكَرَهُ مُعْلِماً بِهِ وَمُعَرِّفاً ، وَأَحْضَرَهُ مُنَوِّهاً[3] بِهِ وَمُشَرِّفاً ، وَقَدْ كَانَ فَرَّ مِنَ ابْنِ رَزِينٍ[4] فِرَارَ السُّرُورِ مِنْ نَفْسِ الْحَزِينِ ، وَخَلَصَ

منها ولم تؤثر فيها تأثيرا يذهب ببهجتها و يضعف من حسنها ونضرتها ، وفى الحديث فى صفة السيدة مريم عليها السلام : « لم يفترضها ولد » أى لم يؤثر فيها ولم يحزها قبل مولد روح الله عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقد تكون « يقترضها » بالقاف من قرضه اذا قطعه ، واقترض عرضه اذا اغتابه ، لأن المغتاب كأنه يقطع من عرض أخيه ، ومنه الحديث : « عباد الله رفع الله عنا الحرج الا من اقترض امرأ مسلما » ، وفى رواية الا من اقترض عرض مسلم ، أراد قطعه بالغيبة والطعن عليه والنيل منه ، فمآل المادتين واحد ، وهذا التكلف ارضاء للموازنة والازدواج فى فقرتى السجعتين وتوخى الجناس والتزام مالا يلزم « فى حوادث وكورات ، تعترض ، وتفترض » وما يمثل هذا يحسن البديع و يعذب « أحمد يوسف نجاتى »

(١) تقدم القول فى هذين القصرين (٢) يريد لم يخف ميزانها لديه بل أكبرها واعتد بها ـ وقد تكون « لم تخف » من الخفاء لولا تكرار المعنى وكراهة الايطاء (٣) نوه به اذا أشاد بذكره و رفع قدره وشهره وقد تكون « ولم تجف » وقد تكون الفقرة الأولى ولم يجف .. اختلاله (٤) ابن رزين من ملوك الطوائف ، وكان بنو رزين قد استبدوا بالسهلة من ثغور الأندلس ، وأول من ملك منهم مؤيد الدولة هذيل بن خلف ابن رزين فى أوائل المائة الخامسة بدعوة هشام المؤيد ، وأصله بربرى

مِنَ اُعْتِقَالِهِ ، خُلُوصَ اُلسَّيْفِ مِنْ صِقَالِهِ (١) ، فَقَالَ يَمْدَحُهُ :

هُمُو سَلَبُونِى حُسْنَ صَبْرِىَ إِذْ بَانُوا
بِأَقْمَارِ أَطْوَاقٍ مَطَالِعُهَا بَانُ (٢)
لَئِنْ غَادَرُونِى بِاللِّوَى إِنَّ مُهْجَتِى
مُسَايِرَةٌ أَظْعَانَهُمْ حَيْثُمَا كَانُوا
سَقَى عَهْدَهُمْ بِالْخَيْفِ (٣) عَهْدُ غَمَائِمٍ
يُنَازِعُهَا مُزْنٌ مِنَ اُلدَّمْعِ هَتَّانُ
أَأَحْبَابَنَا هَلْ ذَلِكَ اُلْعَهْدُ رَاجِعٌ ؟ !
وَهَلْ لِى عَنْكُمْ آخِرَ اُلدَّهْرِ سُلْوَانُ !؟

ومولده بالأندلس ، وتلقب مؤيد الدولة وتوفى سنة ٤٥٠ فولى بعده ابنه عبدالملك بن خلف ، وكان أديبا شاعرا بليغا ، وتلقب حسام الدولة ، وكان ذو الرياستين أبو مروان ملك السهلة هذا واسطة عقد بنى رزين ، ودرة تاجهم وغرة جبينهم « وكان يلى الثغر ويملك الى أول أعمال طليطلة » وكان كريما شجاعا جريئا ، وكانت دولته محط رحال الشعراء ورجال البيان ، ولكنه كان سريع الغضب شديد البادرة حاد السورة ، وهو الذى فر ابن السيد من سجنه ناجيا بنفسه ، ثم ولى بعده ابنه حسام الدولة ، ولم يزل أميرا عليها الى أن ملكها المرابطون عند تغلبهم على الأندلس وقد تقدم ذكر لبنى رزين ملوك السهلة فى الأجزاء السابقة « أحمد يوسف نجاتى » . (١) صقل السيف جلاه ، والاسم الصقال (٢) أقمار لأطواق يريد بها الوجوه ، ويريد بالبان القدود شبهها بأغصان البان فى الاعتدال واللين والتثنى والانعطاف والنعمة والرونق . (٣) الخيف بمنى وبه سمى مسجد الخيف ، وفيه يقول نصيب أو المجنون

وَلِى مُقْلَةٌ عَبْرَى(١) وَبَيْنَ جَوَانِحِى
فُؤَادٌ إِلَى لُقْيَاكُمُ ٱلدَّهْرَ حَنَّانُ
تَنَكَّرَتِ ٱلدُّنْيَا لَنَا بَعْدَ بُعْدِكُمْ
وَحَفَّتْ بِنَا مِنْ مُعْضِلِ ٱلْخَطْبِ أَلْوَانُ
أَنَاخَتْ بِنَا فِي أَرْضِ شَنْتَمَرِيَّةٍ(٢)
هَوَاجِسُ ظَنٍّ خَانَ ، وَٱلظَّنُّ خَوَّانُ
وَشِمْنَا بُرُوقًا لِلْمَوَاعِيدِ أَتْعَبَتْ
نَوَاظِرَنَا دَهْرًا ، وَلَمْ يَهْمِ تَهْتَانُ(٣)
فَسِرْنَا وَمَا نَلْوِى عَلَى مُتَعَذِّرٍ
إِذَا وَطَنٌ أَقْصَاكَ آوَتْكَ أَوْطَانُ(٤)

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة   بخيف منى ترمى جمار المحصب

والهتان : السائل بكثرة وغزارة (١) تفيض بالعبرات أى الدموع (٢) شنت مرية : حصن كان من أعمال شنتبرية، وكانت شنتمرية من أعمال ابن رزين (٣) فى الأصل « هتان » فتكون مكررة فى القافية مع البيت الثالث من القصيدة ، فآثرنا أن تكون مصحفة عن « تهتان » من هتنت السماء اذا انصب مطرها (٤) يقال مر مايلوى على أحد أوعلى شىء أى لم يعطف ولم يقم ، ومالانتظر ولا تحبس ، وفى معنى البيت :

وفى الأرض منأى كريم عن الأذى   وفيها لمن خاف القلى متعزل

وَلَا زَادَ إِلَّا مَا انْتَشَتْهُ مِنَ الصَّبَا
أُنُوفٌ، وَحَازَتْهُ مِنَ الْمَاءِ أَجْفَانُ(١)
رَحَلْنَا سَوَامَ الْحَمْدِ مِنْهَا لِغَيْرِهَا
فَلَا مَاؤُهَا صَدَّى، وَلَا النَّبْتُ سَعْدَانُ(٢)

---

(١) نشار بحاطيبة ، ونشي نشوة وانتشي وتنشي اذا شمها ـ يقال لم يخرج بزاد الا بالنسيم يشمه بدل الطعام ، وبالماء ادخره دمعا فى أجفانه عوضا من الشراب ، وكأنه يشير من طرف خفي بعجز البيت الى قول الشاعر :

ترفق بدمعك لاتفنه   فبين يديك بكاء طويل

(٢) السوام فى الأصل الابل السائمة أي التي ترسل لترعى ، وفى الأصل سوام «الحمر» بدل «الحمد» وفى نسخة «الحمر» وهو تصحيف، فهو يقول ان مدينة شنتمرية لما نبت به رحل عنها ولم يحمدها وآثر بالحمد مدينة حملته وصدق فيها ظنه وتحقق رجاؤه ، وأشار بعجز البيت الى المثل المشهور :

« ماء ولا كصداء ومرعى ولا كالسعدان »

وصداء ركية لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . وفيها يقول ضرار السعدى

يرى دون برد الماء هولا وذادة   اذا اشتد صاحوا قبل أن يتحببا
وانى وتهيامى بزينب كالذى   تطلب من أحواض صداء مشربا

يريد أنه لايصل اليه الا بالمزاحمة لفرط حسنها ، كالذى يرد هذا الماء فانه يزاحم عليه الوراد لفرط عذوبته. وتحبب أي روى ـ والسعدان من أنجع المراعى، ولا تحسن الماشية على نبت حسنها عليه . قال النابغة :

الواهب المائة الأبكار زينها   سعدان توضح فى أوبارها اللبد

والمثلان يضربان للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله « أى هذا مرعى جيد وليس فى الجودة مثل السعدان » فيضرب كذلك للشيئين أو الرجلين لهما فضل الا أن أحدهما أفضل . « أحمد يوسف نجاتى » .

إِلَى مَلِكٍ حَابَاهُ بِالْمَجْدِ يُوسُفٌ
وَشَادَ لَهُ الْبَيْتَ الرَّفِيعَ سُلَيْمَانُ(١)

إِلَى مُسْتَعِينٍ بِالْإِلٰهِ مُؤَيَّدٍ
لَهُ النَّصْرُ حِزْبٌ، وَالْمَقَادِيرُ أَعْوَانُ

جَفَتْنَا بِلَا جُرْمٍ كَأَنَّ مَوَدَّةً
ثَنَى نَحْوَنَا مِنْهَا الْأَعِنَّةَ شَنْآنُ(٢)

(١) فى البيت تورية فى اسمى « يوسف، وسليمان » وأراد جد المستعين أبا أيوب سليمان بن محمد بن هود « بن عبدالله بن موسى مولى أبى حذيفة الجذامى نسبا » وكان سليمان متغلبا على مدينة سرقسطة سنة ٤٣١ وتلقب المستعين ، واستفحل ملكه وقوى سلطانه ، وتوفى سنة ٤٣٨ – وأراد « بيوسف » يوسف المؤتمن، وهو أبو المستعين الممدوح « وهو يوسف المظفر بن أحمد المقتدر بن سليمان بن محمد بن هود » وتوفى المؤتمن سنة ٤٧٨ فولى بعده ابنه أحمد المستعين هذا « ولم يزل أميرا بسرقسطة حتى توفى شهيدا سنة ٥٠٣ فى زحف ملك الفرنج اليها، وقدسبق أن تكلمنا على بنى هود وممالكهم وتاريخ كل منهم فيها – والمورى بهما نبيا الله يوسف وسليمان عليهما السلام ، ولايخفى مناسبة يوسف للمجد ، وسليمان للبناء الرفيع ، فالتورية مرشحة بذكر مايلائم المعنى القريب المورى به . « أحمد يوسف نجاتى »(٢) الجرم الذنب ، والشنآن البغض والكراهية – يقول كأن مودته كانت سببا لجلب البغض له ، فجاءه الضر من حيث كان يرجو النفع ، فقد جوزى كراهة عن مودة ، وبغضا عن محبة

وَلَوْ لَمْ تُفِدْمِنَّا سِوَى الشِّعْرِ وَحْدَهُ
لَحَقَّ لَنَا بِرٌّ عَلَيْهَا وَإِحْسَانُ[1]
فَكَيْفَ وَلَمْ نَجْعَلْ بِهَا الشِّعْرَ مَكْسَبًا
فَيُوجَبَ لِلْمُكْدِي جَفَاءٌ وَحِرْمَانُ[2]!
وَلَا نَحْنُ مِمَّنْ يَرْتَضِي الشِّعْرَ خُطَّةً
وَإِنْ قَصُرَتْ عَنْ شَأْوِنَا فِيهِ أَعْيَانُ[3]
وَمَنْ أَوْهَمَتْهُ غَيْرَ ذَلِكَ ظُنُونُهُ
فَثَمَّ مَجَالٌ لِلْمَقَالِ وَمَيْدَانُ

(١) فى الأصل « لحن لنابر عليه .. » وهو تصحيف ، يريد أن المدينة التى نبت به وجفته بغير ذنب لو لم يكن له عليها الا أنه زانها بجيد شعره وأقام فيها للأدب سوقا نافقة لكان حقا عليها أن تعد ذلك منه برا بها واحسانا اليها ، وفضلا يستوجب به الحب والشكر ، لا القلى والهجر . «أحمد يوسف نجاتى»
(٢) أكدى الرجل اذا بخل أو قل خيره ، وسأله فأكدى : أى وجده بخيلا كالصخرة لاتبل صفاته ولا تندى بنانه ، وأكدى اذا ألح فى المسألة والمكدى من الرجال من لايثوب له مال ولاينمى ، وأكدى خاب ، وأنسب المعانى للمكدى هنا السائل الملحف فى الطلب ، يقول لم نكن ممن يتكسب بالشعر ويسأل الناس به حتى كان يستوجب الجفاء والحرمان بالحافه والحاحه واراقة ماء وجهه، وجعل الشعر تجارة كاسدة ساقطة القدر (٣) الشأو: الغاية والأمد والسبق « أحمد يوسف نجاتى »

خَلِيلَيَّ مَنْ يُعْدِى عَلَى زَمَنٍ لَهُ
إِذَا مَا قَضَى حَيْفٌ عَلَيَّ وَعُدْوَانُ(١)؟!

وَهَلْ رِيءَ مِنْ قَبْلِي غَرِيقُ مَدَامِعٍ
يَفِيضُ بِعَيْنَيْهِ الْحَيَا وَهْوَ حَرَّانُ(٢)؟!

وَهَلْ طَرَفَتْ عَيْنٌ لِمَجْدٍ وَلَمْ يَكُنْ
لَهَا مُقْلَةٌ مِنْ آلِ هُودٍ وَإِنْسَانُ(٣)؟!

بِوَجْهِ ابْنِ هُودٍ كُلَّمَا أَعْرَضَ الْوَرَى
صَحِيفَةُ إِقْبَالٍ لَهَا الْبِشْرُ عُنْوَانُ

فَتَى الْمَجْدِ ، فِي بُرْدَيْهِ بَدْرٌ وَضَيْغَمٌ
وَبَحْرٌ وَقُدْسٌ ذُو الْهِضَابِ وَثَهْلَانُ(٤)

مِنَ النَّفَرِ الشُّمِّ الَّذِينَ أَكُفُّهُمْ
غُيُوثٌ ، وَلٰكِنَّ الْخَوَاطِرَ نِيرَانُ(٥)

---

(١) الحيف : الجور والظلم ، وأعداه اذا نصره وأعانه

(٢) ومن عجب أنى أروى ديارهم وحظى منها حين أسألها الصدى والحـران الشديد العطش (٣) طرفت عينه الى الشيء اذا نظرت اليه وانصرفت نحوه (٤) قدس جبل عظيم بأرض نجد ، وثهلان جبل ضخم بالعالية ، وصف ممدوحه بالرفعة والشرف وعلو القدر والبهاء والاشراق ، وبالشجاعة والكرم ، وبالوقار والحلم والرزانة والثبات (٥) الشم : جمع

لِيُوثُ شَرًى مَازَالَ مِنْهُمْ لَدَى ٱلْوَغَى
هِزَبْرٌ بِيُمْنَاهُ مِنَ ٱلسُّمْرِ ثُعْبَانُ(١)
وَهَلْ فَوْقَ مَا قَدْ شَادَ مُقْتَدِرٌ لَهُمْ
وَمُؤْتَمَنٌ بِاللهِ لُقْيَاهُ إِيمَانُ(٢)
أَلَا لَيْسَ فَخْرٌ فِي ٱلْوَرَى غَيْرُ فَخْرِهِمْ
وَإِلَّا فَإِنَّ ٱلْفَخْرَ زُورٌ وَبُهْتَانُ
فَيَا مُسْتَعِينًا مُسْتَغَاثًا لِمَنْ نَبَا
بِهِ وَطَنٌ يَوْمًا وَعَضَّتْهُ أَزْمَانُ(٣)

أشم، أى ذوى الأباء ورفيع الذكر وعلو القدر . ومعنى البيت ـ وان كان المدح هنا بالكرم وسرعة الخاطر وتوقد الذكاء ـ قريب من قول البحترى :

وصاعقة من نصله تنكفى بها على أرؤس الأقران خمس سحائب
يكاد الندى منها يفيض على العدا لدى الحرب فى ثنيي قنا وقواضب

(١) شرى اسم مأسدة قال :

أسود شرى لاقت أسود خفية تساقوا على حرد دماء الأساود

وخفية موضع تكثر أسده، والحرد الغضب ، أراد بالسمر الرماح تتثنى فى أيديهم للينها، وجعلها ثعابين لذلك ولأنها سم للأعداء ، والهزبر الأسد ، وفى الأصل « السم » بدل السمر وهو تصحيف وان كان غير بعيد « أحمد يوسف نجاتى » . (٢) سبق التعريف بالمقتدر والمؤتمن قريبا

(٣) نبا به الوطن اذا لم يوافقه ولم ينل غرضه فيه ويروى « فيا مستعينا مستعانا . . . » « أحمد يوسف نجاتى »

كَسَوْتُكَ مِنْ نَظْمِي قِلادَةَ مَفْخَرٍ
يُبَاهِي بِهَا جِيدُ الْمَعَالِي وَيَزْدَانُ
وَإِنْ قَصَّرَتْ عَمَّا لَبِسْتَ فَرُبَّمَا
تَجَاوَرَ دُرٌّ فِي النِّظَامِ وَمَرْجَانُ(١)
مَعَانٍ حَكَتْ غُنْجَ الْحِسَانِ، كَأَنَّنِي
بِهِنَّ حَبِيبٌ أَوْ بَطَلْيَوْسَ بَغْدَانُ(٢)
إِذَا غَرَسَتْ كَفَّاكَ غَرْسَ مَكَارِمٍ
بِأَرْضِي أَجْنَتْكَ(٣) الثَّنَاءَ مِنْهُ أَغْصَانُ

***

« وَقَالَ » فِي وَصْفِ مَجْلِسٍ لِأَبِي عِيسَى بْنِ لَبُّونٍ(٤)

وصف مجلس لأبي عيسى ابن لبون

(١) كأنه يقول :

ولم أمدحك تفخيما لشعري ولكني مدحت بك المديحا

أو يقول :

ومابلغ المثنون في الناس مدحة وان أطنبوا الاالذى فيك أفضل

(٢) الغنج تدلل الحسناء وتكسرها ،أو ملاحة عينيها وحسن شكلها ـ وحبيب هو أبو تمام الطائي ، و بطليوس المدينة التي ينسب اليها الشاعر « ابن السيد البطليوسي » و بغدان اسم لمدينة بغداد (٣) أى منحتك جناها ، وتناولت الثناء منها (٤) هو ذو الوزارتين القائد أبو عيسى بن لبون ، كان من قواد المأمون أبي الحسن يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة والمتغلب على بلنسية وقرطبة ، ومن أعظم رؤساء دولته وأخص أصحابه، كان رئيسا جليل القدر أديبا جوادا ذا كرم ومروءة ، بسمت له الدنيا زمنا

أَحْضَرَ إِلَيْهِ ابْنَ السِّيدِ مُنَوِّهًا بِقَدْرِهِ مَا صُورَتُهُ : وَأَحْضَرَهُ إِلَى مَجْلِسٍ نَامَ عَنْهُ الدَّهْرُ وَغَفَلَ ، وَقَامَ لِفَرْطِ أُنْسِهِ وَاحْتَفَلَ وَقَدْ بَانَتْ صُرُوفُهُ ، وَدَنَتْ مِنَ الزَّائِرِ قُطُوفُهُ ، وَقَالَ هَلُمَّ بِنَا إِلَى الاجْتِمَاعِ بِمَذْهَبِكَ ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِمَا شِئْتَهُ(١) مِنْ بَرَاعَةِ أَدَبِكَ ، فَأَقَامُوا يُعْمِلُونَ كَأْسَهُمْ ، وَيَصِلُونَ إِينَاسَهُمْ ، وَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ مَا طَرَقَهُمْ نَوْمٌ ، وَلَا عَدَاهُمْ عَنْ طِيبِ اللَّذَّاتِ سَوْمٌ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ كَثِيرٍ : وَحَضَرَ ابْنُ السِّيدِ عِنْدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الظَّافِرِ بْنِ ذِي النُّونِ مَجْلِسًا رَفَعَتْ فِيهِ الْمُنَى لِوَاءَهَا ، وَخَلَعَتْ عَلَيْهِ أَضْوَاءَهَا ، وَزَفَّتْ إِلَيْهِ الْمَسَرَّاتُ أَبْكَارَهَا ، وَفَارَقَتْ إِلَيْهِ الطَّيْرُ أَوْكَارَهَا ، فَقَالَ يَصِفُهُ :

لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُ وَلَا تَرَى
أَنْفَسَ فِي نَفْسِي وَأَبْهَى مَنْظَرَا

ثم عبست له ، فقد كانت له مدينة مربيطر « من أعمال بلنسية من شرق الأندلس » فتغلب عليها ابن رزين وأقعده بعد نهضته ، ولكن ذلك لم ينزل به عن درجة الشرف بين كرام الناس ، وكان أخوه أبو محمد صاحب لورقة ، وتوفي وهو يملكها فرثاه بما ذكره ما آلت اليه حاله بعد أن أرهقته الرزايا ، ثم انتهت به الدنيا الى أن أعرض عن زخرفها ، ونفض يده عن التمسك بحبالها ، حتى توفي حوالى سنة ٥٠٠ رحمه الله . «أحمد يوسف نجاتى»

(١) قد تكون « وشيته » استعارة لما صاغه من جيد الشعر .

إِذَا تَرَدَّى وَشْيَهُ ٱلْمُصَوَّرَا
مِنْ حَوْكِ صَنْعَاءَ وَحَوْكِ عَبْقَرَا(١)

وَنَسْجِ قُرْقُوبٍ وَنَسْجِ تُسْتَرَا
خِلْتَ ٱلرَّبِيعَ ٱلطَّلْقَ فِيهِ نَوَّرَا(٢)

(١) تردى : مجاز من تردى الثوب أوالرداء اذا لبسه وتوشح به ، والوشى نقش الثوب بألوان مختلفة ، و وشى الحائك، وحاك الثوب يحوكه اذا نسجه وألف بين خيوطه وألوانه ، وصنعاء هي المدينة المشهورة باليمن، وكانوا يضربون بها المثل في جودة الصنعة حتى أن اسمها « صنعاء » نسبة الى جودة الصنعة واتقانها في ذاتها ، كقولهم امرأة حسناء وعجزاء وشهلاء أى ذات حسن وعجيزة وشهلة — وعبقر موضع زعموا باليمن أو بالجزيرة كانت توشي فيه الثياب والبسط ،وكانت ثيابها في غاية الحسن والجودة ، فصارت مثلا لكل منسوب الى شيء رفيع جيد يتعجب من حسنه وجودة صنعته، وكلما بالغوا في شيء متناء نسبوه اليها (٢) قرقوب: بلدة كانت متوسطة بين واسط والبصرة والأهواز، كانت تنسب اليها الثياب القرقبية « بحذف الواو في النسب كما قالوا سابرى في النسب الى سابور » وهي ثياب بيض من كتان دقيقة الصنع، وقد يقال فيها فرقب وثرقب — وتستر كانت أعظم مدينة بخوزستان، وكانت تعمل بها الثياب وأنواع النسيج الفائقة — يحكى أن الصاحب بن عباد لبس يوما عمامة بطراز عريض من عمل تستر، فجعل بعض جلسائه يتأملها و يطيل النظر اليها ، فقال الصاحب : ماعملت بتستر لتستر « وهذا من نوادر الصاحب الذى شغفه السجع والجناس حبا ، حتى عزل قاضى مدينة قم ليقول :

أيها القاضى بقم   قد عزلناك فقم

كَأَنَّمَا الْإِبْرِيقُ حِينَ قَرْقَرَا
قَدْ أَمَّ لَثْمَ الْكَاسِ حِينَ فَغَرَا(١)
وَحْشِيَّةٌ ظَلَّتْ تُنَاغِي جُؤْذَرَا
تُرْضِعُهُ الدَّرَّ وَيَرْنُو حَذِرَا(٢)

ولكن كم كانت له مكارم . « أحمد يوسف نجاتى » (١) القرقرة حكاية صوت الضحك ، وهى شبه القهقهة ، وقرقر البعير اذا هدل صوته ورجع ، وصوت الحمام اذا هدر ، وفغرفاه اذا فتحه ، وعجز البيت فى الأصل كما ترى ، ويروى « وأم لثم .. » وهذا أحسن ، ليكون البيت التالى خالصا لخبر كأن . وفى بعض المراجع « قدام فم الكاس الخ» فقدام ظرف مكان ، وفم بتشديد الميم على رأى من جوزه مستدلا بقول الراجز * ياليتها قد خرجت من فمه * يروى بضم فاء فم وفتحها مع تشديد الميم والغرض من البيتين ظاهر ، فهو يريد تصوير الهيئة التى ترى عند صب الراح من فم الابريق فى الكاس (٢) يريد بالوحشية الغزالة غير المستأنسة « والبقرة الوحشية » وتناغى : تلاطف وتدانى وتغازل ، وناغت الأم صبيها اذا لاطفته وشاغلته ، والجؤذر ولد البقرة الوحشية ، والدر : اللبن — والشعراء يشبهون ابريق المدام بالظبى ، قال الموصلى :

كأن أباريق المدام لديهم ظباء بأعلى الرقمتين قيام

وقال عبدة بن الطبيب :

كأن ابريقهم ظبى على شرف مفدم بسبا الكتان ملثوم

« مفدم وملثوم أى مسدود باللثام » وفى المعنى قول السرى الرفاء :

ابريقنا عاكف على قدح كأنه الأم ترضع الولدا

وللصفدى :

كأن ابريقنا والراح فى فمه طير تناول ياقوتا بمنقار

كَأَنَّمَا مَجَّ عَقِيقًا أَحْمَرَا
أَوْ فَتَّ مِنْ رَيَّاهُ مِسْكًا أَذْفَرَا[١]
أَوْ عَابِدُ الرَّحْمٰنِ يَوْمًا ذُكِرَا
فَنَمَّ مِسْكًا ذِكْرُهُ وَعَنْبَرَا[٢]
اَلظَّافِرُ الْمَلْكُ الَّذِى مَنْ ظَفِرَا
بِقُرْبِهِ نَالَ الْعَلَاءَ الْأَكْبَرَا
لَوْ أَنَّ كِسْرَى رَاءَهُ أَوْ قَيْصَرَا
هَلَّلَ إِكْبَارًا لَهُ وَكَبَّرَا[٣]
تُبْدِى سَمَاءُ الْمُلْكِ مِنْهُ قَمَرَا
إِذَا حِجَابُ الْمَجْدِ عَنْهُ سَفَرَا

واصفى الدين الحلى :

وللأباريق عند المزج لجلجة كمنطق مرتبك الألفاظ مذعور
كأنها وهى فى الأكواب ساكبة طير تزق فراخا بالمناقير

(١) مج : صب ورمى ، وفت أى دق وكسر بالأصابع ، وفتات المسك : ماتفتت منه وتكسر ، والأذفر من الذفر وهو شدة ذكاء الريح، وفعله « كفرح » قالوا : انه لايقال فى شىء من الطيب « أذفر » الا فى المسك وحده (٢) نم : أظهر وأذاع . (٣) راء لغة فى رأى أو مقلوب عنه

يَاأَيُّهَا الْمُنْضِى الْمَطَايَا بِالسُّرَى
تَبْغِى غَمَامَ الْمَكْرُمَاتِ الْمُمْطِرَا[1]
أَنْتَهَى

***

التعريف بابن العطار

« وَقَالَ الْفَتْحُ » فِى تَرْجَمَةِ الْأَدِيبِ أَبِى الْقَاسِمِ بْنِ الْعَطَّارِ مَا صُورَتُهُ : هُوَ أَحَدُ أُدَبَاءِ إِشْبِيلِيَةَ وَنُحَاتِهَا ، الْعَامِرِينَ لِأَرْجَاءِ الْمَعَارِفِ وَسَاحَاتِهَا ، لَوْلَا مُوَاصَلَةُ رَاحَاتِهِ[2] ، وَتَعْطِيلُ بُكَرِهِ وَرَوْحَاتِهِ ، وَمُوَالَاتُهُ لِلْفُرَجِ[3] ، وَمُغَالَاتُهُ فِى عَرْفٍ لِأُنْسٍ أَوْ أَرَجٍ[4] لَا يُعَرِّجُ إِلَّا عَلَى صَفَّةِ نَهْرٍ ، وَلَا يَبْتَهِجُ

(١) أنضى بعيره اذا هزله بالسير فذهب لحمه ، والنضو :المهزول من الابل وغيرها ، وهو فى الابل أكثر . وفى الأصل « أضنى » بدل أنضى ، وأراه مصحفا ، فان الاستعمال جار فى كد الابل واجهادها بالسير على « أنضى » أما الضنا فهو المرض المخامر الشديد كلما ظن برؤه نكس ، وأضناه المرض اذا أثقله (٢) جمع راحة ضد تعب أوعمل، وقد يجوز أن تكون جمع « راح » وهى الخمر تؤنث على معنى الخمر فيكون « فى راحاته » تورية — يعنى أنه دائم الراحة وعدم العمل يقضى أوقاته فى تناول الراح، و يعطل فى معاقرتها صباحه ومساءه (٣) الفرجة « مثلثة الفاء» الخلاص من الهم، والفرجة الراحة من الحزن أو المرض ، والفرجة: الذهاب للتنزه وطلب الراحة، قال الأرجانى :

* رياض لعين الناظر المتفرج *

(٤) العرف الريح الطيبة، والأرج : تضوعها وانتشارها

إِلَّا بِقَطْفَةِ زَهْرٍ ، لَمْ يَحْفِلْ[١] بِمَلَامٍ ، وَلَمْ يَنْتَقِلْ عَنِ الْمُدَامِ إِلَّا فِي طَاعَةِ غُلَامٍ ، نَاهِيكَ مِنْ رَجُلٍ مَخْلُوعِ الْعِنَانِ[٢] فِي مَيْدَانِ الصَّبَابَةِ ، مُغْرَمٍ بِالْحِسَانِ غَرَامَ يَزِيدَ بِحَبَابَةَ[٣] ، لَا تَرَاهُ إِلَّا فِي ذِمَّةِ انْهِمَاكٍ ، وَلَا تَلْقَاهُ إِلَّا فِي لُمَّةِ[٤] انْهِتَاكٍ ، رَافِعاً لِرَايَاتِ الْهَوَى ، فَارِعاً[٥] لِثَنِيَّاتِ الْجَوَى ،

---

(١) أى لا يبالى ولا يكترث، وكذا احتفل يحتفل (٢) ناهيك بكذا أى حسبك منه وكفايتك. والعنان سير اللجام الذى تمسك به الدابة ، جعله كالفرس الذى ألقى عنانه وخلع عذاره فهو يعدو فى ميدان اللهو ويخب فيه كما يشاء (٣) حبابة هى جارية يزيد بن عبد الملك بن مروان « تولى الخلافة سنة ١٠١ وتوفى سنة ١٠٥ » وكان يزيد قبل خلافته قد حج فى خلافة أخيه سليمان بن عبد الملك فاشترى حبابة « وكان اسمها العالية » بأربعة آلاف دينار ، وشغفته حبا، وكانت مغنية محسنة مجيدة، فكانت اذا غنت يكاد يطير عن مجلسه، وتوفيت فى أثناء خلافته فاشتد جزعه عليها وجده، ومكث سبعة أيام لا يخرج الى الناس أشار عليه بذلك أخوه مسلمة خوفا أن يظهر منه شىء يسفهه عند الناس ، وكانت حبابة وسلامة القس كلتاهما من جوارى يزيد، ومن مطربات القيان فى الغناء ، وعاشت سلامة بعد موته حزينة عليه «أحمد يوسف نجاتى» (٤) الانهماك فى الشىء التمادى فيه، يريد انهماكه فى البطالة والغى ، واللمة الجماعة ، والانهتاك والتهتك: عدم مبالاة المرء بأن يهتك ستره عن عيوبه. وتهتك: افتضح فهو مهتوك الستر ومتهتكه ، وفى نسخة « انتهاك » (٥) فرع الشىء : علاه وصعد اليه ، والثنية المرتفع العالى كالجبل ، ويقال فلان طلاع الثنايا اذا كان ساميا للمعالى الأمور ، ولكن صاحبنا انما يطلع ثنيات الجوى وهو الهوى ويقتحم عقباته ، ويجشم نفسه سلوك طرقه وتحمل متاعبه

لَا يُقفِرُ فُؤَادُهُ مِنْ كَلَفٍ(١)، وَلَا يَبِيتُ إِلَّا رَهْنَ تَلَفٍ، أَكْثَرُ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى عَلَاقَةً(٢) وَأَحْضَرُهُمْ لِمَشْهَدِ خَلَاقَةٍ(٣) مَعَ جَزَالَةٍ تُحَرِّكُ السُّكُونَ، وَتُضْحِكُ الطَّيْرَ فِي الْوُكُونِ(٤)، وَقَدْ أَثْبَتُّ لَهُ مِمَّا أَرْتَجَلَهُ فِي أَوْقَاتِ أُنْسِهِ وَسَاعَاتِهِ، وَنَفَثَ بِهِ أَثْنَاءَ زَفَرَاتِهِ وَلَوْعَاتِهِ(٥) .

(١) أقفر المكان خلا ، وكلف به كلفا اذا أولع به مع شغل قلب ومشقة .

(٢) علق بها وعلقها علاقة اذا هويها وأحبها حبا لازم قلبه ، قال ذوالرمة

لقد علقت مى بقلبي علاقة   بطيئا على مر الليالى انحلالها

(٣) لولا تكلف الجناس ولزوم مالا يلزم ما كانت « خلاقة » خليقة بهذا المكان من العبارة : وهى اما من خلقت المرأة خلاقة اذا حسن خلقها « أى أحضرهم لمشاهد الحسن والجمال » أو من خلق الثوب « كنصر وسمع وكرم » خلوقة وخلاقة اذا بلى ، فيكون مجازا عن مواضع الريبة والمشاهد التي يخلق فيها العرض والدين والمروءة ، أوالخلاقة بمعنى الملاسة والنعومة وكأنه يعود الى المعنى الأول . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٤) جمع وكن وهو عش الطائر فى جبل أو جدار (٥) نفث ينفث نفثا وهو كالنفخ، ونفثه من فيه اذا رمى به وألقى ، و ربما سموا الشعر نفثا لأنه كالشىء ينفثه الشاعر من فيه مثل الرقية ، فيعبر به عما يجيش فى نفسه من آلامه أو آماله، ويعرض به صورة نفسه، وينفث به اذا ضاق عن صدره والزفرة فى الأصل اخراج النفس بعد مده، وتستعار لما يشعر به المكروب من حرارة وألم يتنفس منهما الصعداء .واللوعة حرقة فى القلب وألم يجده المرء من حب أوهم أومرض أوحزن أو نحو ذلك «أحمد يوسف نجاتى».

***

فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَهُ فِي يَوْمٍ رَكِبَ فِيهِ ٱلنَّهْرَ عَلَى عَادَاتِ ٱنْكِشَافِهِ ، وَٱرْتِضَاعِهِ لِثُغُورِ ٱللَّذَّاتِ وَٱرْتِشَافِهِ : وصف يوم ركوب النهر

عَبَرْنَا سَمَاءَ ٱلنَّهْرِ وَٱلْجَوُّ مُشْرِقٌ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا ٱلْحَبَابَ نُجُومُ(١)
وَقَدْ أَلْبَسَتْهُ ٱلْأَيْكُ بُرْدَ ظِلَالِهَا
وَلِلشَّمْسِ فِي تِلْكَ ٱلْبُرُودِ رُقُومُ(٢)

وَلَهُ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ :

مَرَرْنَا بِشَاطِي ٱلنَّهْرِ بَيْنَ حَدَائِقٍ
بِهَا حَدَقُ ٱلْأَزْهَارِ تَسْتَوْقِفُ ٱلْحَدَقْ
وَقَدْ نَسَجَتْ كَفُّ ٱلنَّسِيمِ مُفَاضَةً(٣)
عَلَيْهِ وَمَا غَيْرُ ٱلْحَبَابِ لَهَا حَلَقْ

---

(١) حباب الماء : نفاخاته التي تطفو عليه ، وشبه سطح النهر بالسماء وحبابه بالنجوم (٢) الأيك : الشجر الكثير الكثيف الملتف ، والبرد ضرب من الثياب، والرقم الوشي ، شبه به مايخترق خلال الأشجار من قطع الشعاع ، وهو كقول الشاعر :

سماء غصون تحجب الشمس أن ترى   على الأرض الا مثل نثر الدراهم

(٣) المفاضة الدرع الواسعة شبه بها مايحدثه النسيم اذا مر فوق سطح الماء من غضون وتجعد ، وهو تشبيه مألوف بينهم، وقدمر منه شيء في هذا الكتاب «أحمد يوسف نجاتي »

وَلَهُ فِيهِ :

هَبَّتِ الرِّيحُ بِالْعَشِيِّ فَحَاكَتْ
زَرَدًا لِلْغَدِيرِ نَاهِيكَ جُنَّهْ[١]
وَانْجَلَى الْبَدْرُ بَعْدَ هَدْءٍ فَصَاغَتْ
كَفُّهُ لِلقِتَالِ مِنْهُ أَسِنَّهْ[٢]

وَقَوْلُهُ فِيهِ :

لِلّٰهِ بَهْجَةُ مَنْزَهٍ ضَرَبَتْ بِهِ
فَوْقَ الْغَدِيرِ رُوَاقَهَا الْأَنْسَامُ[٣]

(١) الزرد الدرع المزرودة أى المحكمة النسج أو السرد وتدخل حلقها بعضه فى بعض ، والجنة الوقاية ، ومعنى هذا البيت كمعنى سابقه. ولصاحب الترجمة أيضا :

ركبنا على اسم الله نهرا كأنه حباب على عطفيه وشى حباب
والاجسام جال فيه فرنده له من مديد الظل أى قراب

(٢) انجلى أى انكشف . ومضى هدء من الليل، أى بعد هزيع من الليل وحين هدأ وسكن الناس، أو الهدء « بفتح الهاء » من أول الليل الى ثلثه وذهاب طائفة منه وذلك ابتداء سكونه ، وفى الأصل « بعد هذا فحاكت» وهو تصحيف، بعد أن جعل للغدير فى البيت الأول درعا جعل ما ينعكس من شعاع القمر والنجوم على سطحه أسنة كأنها تطعن الغدير فيتقيها بدرعه ، أو هى أسنة صيغت للغدير الدارع ليقاتل بها بعد أن استكمل اللأمة (٣) الرواق : الخيمة أو بيت كالفسطاط . والأنسام جمع نسم وهو نفس الريح اذا كان ضعيفا كالنسيم أى الريح الطيبة اللطيفة

فَمَعَ ٱلْأَصِيلِ ٱلنَّهْرُ دِرْعٌ سَابِغٌ
وَمَعَ ٱلضُّحَى يَلْتَاحُ مِنْهُ حُسَامُ(١)

***

وصف عشية أنس

وَلَهُ يَصِفُ عَشِيَّةَ أُنْسٍ :

مَا كَالْعَشِيَّةِ فِي رُوَاءِ جَمَالِهَا
وَبُلُوغِ نَفْسِي مُنْتَهَى آمَالِهَا
مَاشِئْتُ شَمْسُ ٱلْأَرْضِ مُشْرِقَةُ ٱلسَّنَى
وَٱلشَّمْسُ قَدْ شَدَّتْ مَطِيَّ رِحَالِهَا(٢)
فِي حَيْثُ تَنْسَابُ ٱلْمِيَاهُ أَرَاقِماً
وَتُعِيرُكَ ٱلْأَفْيَاءُ بُرْدَ ظِلَالِهَا(٣)

وَلَهُ أَيْضًا :

(١) التاح : تلألأ ولمع وأضاء ، والحسام السيف الصقيل القاطع (٢) السنى الضوء ، ولعله يريد بشمس الأرض من يحب ، ولا يبعد أن تكون «ماشئت» أصلها «ماشيت» فيكون هذا البيت بيانا للبيت الأول باللف والنشر غير المرتب ، يعنى أن مما شاته محبوبه «أو ما شاءه من وجوده معه» هو منتهى آماله التى بلغتها نفسه ، وشد الشمس مطيها للرحيل هو رواء العشية وبهاؤها (٣) الأراقم جمع أرقم وهو الحية أو ما فيه سواد وبياض منها ، والأفياء جمع فىء وهو ما كان شمسا فينسخه الظل . أو هو ما بعد الزوال من الظل ، قال حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن امرأة

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفىء من برد العشى تذوق

لِلّٰهِ حُسْنُ حَـــدِيقَةٍ بَسَطَتْ لَنَا
مِنْهَا ٱلنُّفُوسَ سَوَالِفٌ وَمَعَاطِفُ[١]
تَخْتَالُ فِي حُلَلِ ٱلرَّبِيعِ وَحَلْيِـهِ
وَمِنَ ٱلرَّبِيعِ قَلَائِدٌ وَمَطَارِفُ[٢]
ٱنْتَهَى

***

ماقيل فى ترجمة ابن عمار

« وَقَالَ ٱلْفَتْحُ » فِي تَرْجَمَةِ ٱبْنِ عَمَّارٍ: أَخْبَرَنِي ذُو ٱلْوِزَارَتَيْنِ ٱلْأَجَلُّ أَبُو ٱلْمُطَرِّفِ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ[٣] أَنَّهُ حَضَرَ مَعَهُ عِنْدَ ٱلْمُؤْتَمَنِ فِي يَوْمٍ جَادَتْ فِيهِ ٱلسَّمَاءُ بِهَطْلِهَا، وَأَتْبَعَتْ وَبْلَهَا بِطَلِّهَا[٤]، وَأَعْقَبَ رَعْدَهَا بَرْقُهَا، وَٱنْسَكَبَ دِرَاكًا

فقد بين أن الفىء بالعشى ما انصرفت عنه الشمس (١) السوالف: جمع سالفة وهى ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط أى الترقوة، وتطلق على خصل الشعر المرسلة على الخد، والمعاطف جمع معطف، يريد الأغصان المتثنية ذوات الأوراق (٢) مطارف جمع مطرف، وهو فى الأصل رداء من خز مربع ذو أعلام، مستعار لما خلعه الربيع على الحديقة من أوراق وأفنان، كما جعل الأزهار قلائد هى حلى الربيع والمطارف هى حلله «أحمد يوسف نجاتى» (٣) بنو عبد العزيز كانوا أسرة عريقة فى المجد من أسر مدينة بلنسية كان منهم الوزراء والأدباء، وما منهم الا أديب بليغ وكاتب مجيد، وشاعر حاذق، ومنهم الوزير الأجل أبو بكر بن عبدالعزيز، وكان المستعين ابن هود صاحب سرقسطة والمتوفى سنة ٥٠٣ متزوجا ابنته، وقد أثنى عليه الفتح ابن خاقان فى قلائد العقيان، وساق بعض أخبار الوزير أبى بكر الآتى ذكره وأورد شيئا من نظمه ونثره «أحمد يوسف نجاتى» (٤) الهطل: المطر الغزير

وَدْقُهَا(١) ، وَٱلْأَزْهَارُ قَدْ تَجَلَّتْ مِنْ كِمَامِهَا(٢) وَتَحَلَّتْ بِدُرِّ غَمَامِهَا ، وَٱلْأَشْجَارُ قَدْ جُلِيَ صَدَاهَا ، وَتَوَشَّحَتْ بِنَدَاهَا ، وَأَكْؤُسُ ٱلرَّاحِ كَأَنَّهَا كَوَاكِبُ تَتَوَقَّدُ ، تُدِيرُهَا أَنَامِلُ تَكَادُ مِنَ ٱللَّطَافَةِ تُعْقَدُ(٣) ، إِذَا بِفَتًى مِنْ فِتْيَانِ ٱلْمُؤْتَمَنِ أَخْرَسَ لَا يُفْصِحُ ، وَمُسْتَعْجِمٍ لَا يَكَادُ يُبِينُ وَلَا يُوضِحُ ، مُتَنَمِّرٍ تَنَمُّرَ ٱللَّيْثِ(٤) ، مُتَشَمِّرٍ تَشَمُّرَ ٱلْبَطَلِ ٱلْبَاسِلِ عِنْدَ ٱلْعَيْثِ ، وَقَدْ أَفَاضَ عَلَى نَفْسِهِ دِرْعًا ، تَضِيقُ بِهَا ٱلْأَسِنَّةُ

كالوابل ، والطل المطر القليل (١) الودق المطر ، دراكا أى متتابعا متواليا (٢) جمع كم وهو غلاف النور وغطاؤه (٣) من قول النابغة :

بمخضب رخص كأن بنانه   عنم على أغصانه لم يعقد

(٤) تنمر : اذا تشبه بالنمر فى القوة وشراسة الأخلاق ، وتنمر له اذا تنكر وتغير وتوعد ، لأن النمر لا يلقى أبدا الا متنكرا غضبان ، وتشمر وشمر اذا مر جادا ، وتشمر للأمر اذا تهيأ واستعد ، والتشمير للأمر الجد فيه والاجتهاد ، وعاث فيهم اذا أخذهم بشدة من غير رفق ، والعيث أيضا أن تركب الأمر لا تبالى على ما وقعت . قال :

فعث فيمن يليك بغير قصد   فانى عائث فيمن يلينى

والعياث : الأسد لفتكه واسراعه فى الفساد ، وقد يكون مصحفا عن «الغيث» بالغين المعجمة بمعنى الاغاثة أى النجدة والتخليص من الشدة والنقمة والعون على الفكاك من الشدائد ، فقد يقال فيه غاثه يغيثه غيثا وان كان قليلا

« أحمد يوسف نجاتى »

ذَرْعًا(١) ، وَهُوَ يُرِيدُ ٱسْتِشَارَةَ ٱلْمُؤْتَمَنِ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى مَوْضِعٍ بَعَثَهُ إِلَيْهِ وَوَجَّهَهُ ، فَكُلُّ مَنْ صَدَّهُ عَنْهُ نَهَرَهُ وَتَنَجَّهَهُ(٢) ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانِ ٱنْفِرَادِهِ ، وَوَقَفَ بِإِزَاءِ إِسَادِهِ(٣) ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُ ٱبْنِ عَمَّارٍ عَلَيْهِ ، أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَيْهِ ، وَقَرَّبَهُ وَٱسْتَدْنَاهُ ، وَضَمَّهُ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ تَبَنَّاهُ ، وَأَرَادَ أَنْ يَخْلَعَ عَنْهُ ذَلِكَ ٱلْغَدِيرَ(٤) ، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلسَّاقِيَ

(١) أى لاتقوى عليها الأسنة ولاتؤثر فيها لاحكام نسجها وتقدير سردها

(٢) النجه استقبالك المرء بما يكره وردك اياه عن حاجته ، ونجهه « كمنعه » اذا رده وانتهره ، واستقبله بما يكفه ويزجره فينقدع عنه ويرتدع ، وكذا تنجهه ، وقال الشاعر :

حياك ربك أيها الوجه ... ولغيرك البغضاء والنجه

(٣) أى وسادة ، وقلب الواو المكسورة همزة فى أول الكلمة جائز كثير مثل ارث ، افادة « فى وفادة » واكاف فى «وكاف» واشاح فى «وشاح» وإلدة «جمع ولد » وقد قرئ : ثم استخرجها من إعاء أخيه، وهو كثير

(٤) يريد الدرع تشبيها لها بالغدير، كما يعكس فيشبه الغدير بالدرع قال :

وسابغة من جياد الدرو ... ع تسمع للسيف فيها صليلا

كمتن الغدير زهته الدبو ... ر يجر المدجج منها فضولا

ولابن المعتز :

غدير ترجرج أمواجه ... هبوب الرياح ومر الصبا

اذا الشمس من فوقه أشرقت ... توهمته جوشنا مذهبا

الجوشن : الدرع . وللبحترى :

يمشون فى زغف كأن متونها ... فى كل معركة متون نهاء

وَالْمُدِيرَ ، فَأَمَرَهُ الْمُؤْتَمَنُ بِخَلْعِهِ ، وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَسَمْعِهِ ، فَنَضَاهُ(١) عَنْ جِسْمِهِ ، وَقَامَ يَسْقِي عَلَى حُكْمِهِ وَرَسْمِهِ ، فَلَمَّا دَبَّتْ فِيهِ الْحُمَيَّا(٢) ، وَشَبَّتْ(٣) غَرَامَهُ بَهْجَةُ ذَلِكَ الْمُحَيَّا ، وَاسْتَنْزَلَتْهُ سَوْرَةُ الْعُقَارِ ، مِنْ مَرْقَبِ(٤) الْوَقَارِ ، قَالَ :

وَهَوِيتُهُ يَسْقِي الْمُدَامَ كَأَنَّهُ
قَمَرٌ يَدُورُ بِكَوْكَبٍ فِي مَجْلِسِ
مُتَأَرِّجُ الْحَرَكَاتِ تَنْدَى رِيحُهُ
كَالْغُصْنِ هَزَّتْهُ الصَّبَا بِتَنَفُّسِ(٥)

بيض تسيل على الكماة فضولها   سيل السراب بقفرة بيداء
فاذا الأسنة خالطتها خلتها   فيها خيال كواكب فى ماء

النهاء : الغدران . والزغف : الدرع « أحمد يوسف نجاتى » (١) نضا ثوبه عنه اذا خلعه ونزعه (٢) حميا الكأس والخمر : سورتها وشدتها أو اسكارها وحدتها وأخذها بالرأس ، يقال سارت فيه حميا الكأس اذا بلغت الخمر من شاربها ودب دبيبها الى رأسه فنالت منه سورتها (٣) هاجت وأثارت من شب النار اذا أشعلها، والمحيا الوجه (٤) العقار : الخمر ، والمرقب المكان العالى المشرف (٥) فى بعض المراجع « . . . يندى عطفه » أى يلين لتثنيه وذلك أنسب بعجز البيت ، وفى البدائع « متناوح الحركات . . . » يريد دائم الحركة ذا نشاط ، من تناوحت الرياح اذا تقابلت واشتد هبوبها وتنوح الغصن اذا تحرك متدليا — والندى شىء يتطيب به كالبخور

يَسْعَى بِكَاسٍ فِي أَنَامِلِ سَوْسَنٍ

وَيُدِيرُ أُخْرَى مِنْ مَحَاجِرِ نَرْجِسِ (١)

يَاحَامِلَ ٱلسَّيْفِ ٱلطَّوِيلِ نِجَادُهُ

وَمُصَرِّفَ ٱلْفَرَسِ ٱلْقَصِيرِ ٱلْمَحْبِسِ (٢)

إِيَّاكَ بَادِرَةَ ٱلْوَغَى مِنْ فَارِسٍ

خَشِنِ ٱلْقِنَاعِ عَلَى عِذَارٍ أَمْلَسِ (٣)

جَهْمٍ ، وَإِنْ حَسَرَ ٱللِّثَامَ فَإِنَّمَا

كُشِفَ ٱلظَّلَامُ عَنِ ٱلنَّهَارِ ٱلْمُشْمِسِ (٤)

ومنه عودمندى اذافتق بالندى أوماء الورد (١) يشبه أنامله بالسوسن وعيونه بالنرجس (٢) نجاد السيف علاقته وحمالته ، والمحبس هنا اللجام لأنه يحبس الفرس أى يمنعها و يمسكها ، وحبس الشيء ضبطه ، واذا كان لجام الفرس قصيرا كان صاحبه أقدر على ضبطه وكبح جماحه (٣) البادرة ما يبدر من حدة الرجل فى الغضب من قول أو فعل ، و بادرة الشر مايبدر منه ويسرع ، يقال أخشى عليك بادرته ، و بدرت منه بوادر غضب أى خطأ وسقطات عند ما احتد ، قال النابغة الجعدى :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

والوغى أصله الصوت والجلبة فى الحرب ، وقد يراد به الحرب نفسها لما فيها من الصوت والجلبة (٤) جهم «ككرم» وجهمه «كمنعه وسمعه» اذا استقبله بوجه باسر كريه، وحسر اللثام . يحسره: كشفه

يَطْغَى وَيَلْعَبُ فِي دَلَالِ عِذَارِهِ
كَالْمُهْرِ يَمْرَحُ فِي اللِّجَامِ الْمُجْرِسِ (١)
سَلِّمْ فَقَدْ قَصَفَ الْقَنَا غُصْنُ النَّقَا
وَسَطَا بِلَيْثِ الْغَابِ ظَبْيُ الْمَكْنِسِ (٢)
عَنَّا بِكَاسِكَ ، قَدْ كَفَتْنَا مُقْلَةٌ
حَوْرَاءُ قَائِمَةٌ بِسُكْرِ الْمَجْلِسِ

وَأَوْرَدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ صَاحِبُ الْبَدَائِعِ بِقَوْلِهِ : حَضَرَ أَبُو الْمُطَرِّفِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عِنْدَ الْمُؤْتَمَنِ بْنِ هُودٍ فِي يَوْمٍ أَجْرَى الْجَوُّ فِيهِ أَشْقَرَ بَرْقِهِ ، وَرَمَى بِنَبْلِ وَدْقِهِ ، وَتَحَمَّلَتِ الرِّيَاحُ فِيهِ أَوْقَارَ (٣) السَّحَابِ عَلَى أَعْنَاقِهَا ، وَتَمَايَلَتْ قَامَاتُ الْأَغْصَانِ فِي الْحُلَلِ الْخُضْرِ مِنْ أَوْرَاقِهَا (٤) ،

(١) المرح شدة الفرح والتوسع فيه والنشاط حتى يجاوز قدره ، وفى الأصل «يرمح» وهو تصحيف ، والمجرس أى ذى الجرس وهو الصوت لما فيه من الحلية ، أو لأن به جرسا ، والجرس أيضا الحركة ، وأجرس الحلى اذا صات مثل صوت الجرس ، ودابة مجرسة مدربة مجربة فى السير والركوب (٢) الغاب مأوى الليث ، والمكنس مأوى الغزال ، وفى معنى البيت قول الشاعر :

كم قلت اياك العقيق فانه ضريت جآذره بصيد أسوده
وأردت صيد مها العقيق فلم يطا وعلك القضاء فصرت بعض صيوده

(٣) جمع وقر وهو الحمل (٤) بعد ذلك فى بدائع البدائه : والأزهار قد تفتحت عيونها ، والكمائم قد ظهر مكنونها ، والأشجار قد انصقلت

وَالرَّاحُ(١) قَدْ أَشْرَقَتْ نُجُومُهَا فِي بُرُوجِ الرَّاحِ ، وَحَاكَتْ شَمْسُهَا شَمْسَ الْأُفُقِ فَتَلَفَّعَتْ بِغُيُومِ الْأَقْدَاحِ ، وَمُدِيرُهَا قَدْ ذَابَ ظَرْفًا فَكَادَ يَسِيلُ مِنْ إِهَابِهِ(٢) ، وَأَخْجَلَ خَدَّهَا حُسْنًا فَتَكَلَّلَ(٣) بِعَرَقِ حَبَابِهِ ، إِذَا بِفَتًى(٤) مِنْ فِتْيَانِ الْمُؤْتَمَنِ قَدْ أَقْبَلَ مُتَدَرِّعًا كَالْبَدْرِ اجْتَابَ(٥) سَحَابًا ، وَالْخَمْرِ قَدِ اكْتَسَتْ حَبَابًا(٦) وَقَدْ جَاءَ يُرِيدُ اسْتِشَارَةَ

بمداوس القطر ، ونشرت ما يفوق ألوان البز و بثت ما يعلو أرواح العطر والراح الخ « الدوس الصقل،والمدوس المصقلة ،وهي خشبة يشد عليها من يدوس ليصقل السيف ونحوه حتى يجلوه . قال :

وأبيض كالغدير ثوى عليه قيون بالمداوس نصف شهر

والبز ضرب من الثياب الجميلة » (١) في الأصل « والرياح » وهو تصحيف، والراح الخمر ، والراح في آخر الفقرة جمع راحة وهي الكف (٢) الاهاب الجلد أو الجسد ، وكاد الفرس يخرج من اهابه مبالغة في عدوه (٣) علاه كالاكليل ، وكلله فتكلل اذا ألبسه الاكليل أي التاج ، أو شبه عصابة تزين بالجواهر ، وروضة مكللة أي محفوفة بالنور ، وفي الأصل « فتظلل » وفي بعض النسخ « فتجلل » أي تغطى بالحباب حتى عمه ، وتجلله اذا علاه ، والمراد أن حمرة خد الراح خجلت من الساقي لأنه أجمل منها وأبهى فعرقت من شدة الخجل فظهر عرقها حبابا (٤) في القلائد « بفتى رومى » (٥) قطعه وخرج منه ، أو قطع وسطها فخرقها ونقبها ودخل فيها و بدا في وسطها . واجتاب الظلمة قطعها — أو من اجتاب القميص اذا لبسه . وهذه المعاني أظهر لأن الدرع كانت تغطي الفتى (٦) في البدائع زيادة بعد ذلك وهي

الْمُؤْتَمَنِ فِي الْخُرُوجِ إِلَى مَوْضِعٍ قَدْ كَانَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، فَحِينَ[١] لَمَحَهُ ابْنُ عَمَّارٍ وَالسُّكْرُ قَدِ اسْتَحْوَذَ[٢] عَلَى لُبِّهِ ، وَانْبَثَّتْ سَرَايَاهُ فِي نَوَاحِي قَلْبِهِ[٣] جَدَّ فِي أَنْ يَسْتَخْرِجَ تِلْكَ الدُّرَّةَ مِنْ مَاءِ ذَلِكَ الدِّلَاصِ[٤] ، وَأَنْ يُجَلِّيَ عَنْهُ سَهَكَهُ[٥] كَمَا يُجَلَّى الْخَبَثُ[٦] عَنِ الْخَلَاصِ[٧] ، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ السَّاقِيَ ، فَأَمَرَهُ الْمُؤْتَمَنُ

والطاووس انقلب حبابا ، فهو ملك حسنا الا أنه جسد ، وغزال لينا الا أنه فى هيئة أسد «الحباب ـ بضم الحاء ـ المحبوب ، والحباب حية ليست من العوارم فالغرض من تشبيه الساقى بها أنه يتثنى ويكثر من الحركة والتمايل والنشاط مع حسنه الطاووسى » (١) فى البدائع « فحين وصل الى حضرته لمحه ابن عمار » (٢) غلبه واستولى عليه (٣) زاد فى البدائع « فأشار اليه وقربه ، واستبدع ذلك اللباس واستغربه ، وجد الخ » (٤) الدلاص : درع ملساء لينة براقة ـ يريد أنه أراد أن ينزع عنه درعه ، فقد كان متدرعا بدرع سترت جسمه وغطت بعض محاسنه ، كما يحتجب البدر السحاب ، أو كما تغطى حمرة الخد بغطاء الحباب (٥) السهك : صدأ الحديد ، وجلاه اذا صقله ، جعل الدرع كأنها صدأ يعلو صفاء الجسم ويستر اشراقه (٦) خبث الحديد والفضة مانفاه الكير اذا أذيبا وهو مالا خير فيه ، وأصل الخبث كل مكروه ، فان كان من الكلام فهو الاقذاع والشتم ، وان كان من الطعام فهو الحرام ، وان كان من الشراب فهو الضار ، وغير ذلك ، ومنه الحديث : « ان الحمى تنفى الذنوب كما ينفى الكير الخبث » .

(٧) الخلاص والخلاصة ماأخلصته النار من الذهب والفضة ونحوهما بعد أن تنفى الخبث والمواد الغريبة عنه ، وجلى الخبث عنه اذا كشفه وأذهبه ، وجلى

بِقَبُولِ أَمْرِهِ وَامْتِثَالِهِ ، وَاحْتِذَاءِ مِثَالِهِ[١] ، فَحِينَ ظَهَرَتْ تِلْكَ الشَّمْسُ مِنْ حُجُبِهَا ، وَرُمِيَتْ شَيَاطِينُ النُّفُوسِ مِنْ كُمَيْتِ[٢] الْمُدَامِ بِشُهُبِهَا ، ارْتَجَلَ ابْنُ عَمَّارٍ : وَهَوِيتُهُ الخ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ إِثْرَ قَوْلِهِ :

إِيَّاكَ بَادِرَةَ الْوَغَى مِنْ فَارِسٍ

مَا صُورَتُهُ :

يَضَعُ السِّنَانَ عَلَى الْعِذَارِ الْأَمْلَسِ[٣]

انْتَهَى .

وَلِابْنِ عَمَّارٍ الرَّائِيَّةُ الْمَشْهُورَةُ فِي مَدْحِ الْمُعْتَضِدِ[٤] وَالِدِ الْمُعْتَمِدِ ، وَهِيَ :

عنه الهموم: كشفها ، وتجلت الشمس اذا انكشفت وخرجت من نحو الكسوف ، وتجلى القمر انكشف عنه السحاب فأشرق وأضاء — وزاد فى البدائع بعد ذلك « وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه ، ويكون هو الساقى على عادته القديمة ورسمه » (١) احتذى مثاله اذا اقتدى به فى أمره (٢) الكميت الخمر فيها سواد وحمرة ، يريد لما أثرت فى النفوس الخمر ، واتقد فيها من الهوى والغرام الجمر (٣) الذى فى البدائع : خشن القناع على عذار أملس ، فلعلها نسخة أخرى نقل عنها (٤) هو أبو عمرو عباد المعتضد بالله بن الظافر المؤيد بالله أبى القاسم محمد بن اسمعيل قاضى اشبيلية ، قام المعتضد بالأمر بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٣ وتسمى أولا فخر الدولة ثم بالمعتضد وتوفى سنة ٤٦١ فقام بالمملكة بعده ولده المعتمد على الله أبو القاسم محمد «وله ذكرهنا » وتوفى سنة ٤٨٨ — ومحمد بن عمار الشاعر المشهور ولد سنة ٤٢٢ وقتله المعتمد سنة ٤٧٧ . « أحمد يوسف نجاتى»

***

رائية ابن عمار في مدح المعتضد

أَدِرِ ٱلْمُدَامَةَ فَالنَّسِيمُ قَدِ ٱنْبَرَى
وَٱلنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ ٱلْعِنَانَ عَنِ ٱلسُّرَى[(١)]

وَٱلصُّبْحُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَافُورَهُ
لَمَّا ٱسْتَرَدَّ ٱللَّيْلُ مِنَّا ٱلْعَنْبَرَا

وَٱلرَّوْضُ كَٱلْحَسْنَا كَسَاهُ زَهْرُهُ
وَشْيًا وَقَلَّدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرَا

أَوْ كَٱلْغُلَامِ زَهَا بِوَرْدِ خُدُودِهِ
خَجَلًا وَتَاهَ بِآسِهِنَّ مُعَذَّرَا[(٢)]

رَوْضٌ كَأَنَّ ٱلنَّهْرَ فِيهِ مِعْصَمٌ[(٣)]
صَافٍ أَطَلَّ عَلَى رِدَاءٍ أَخْضَرَا

(١) انبرى له اذا اعترض، والسرى سير الليل، وفى الديوان «أدر الزجاجة»

(٢) تاه من التيه وهو الزهو والدلال والاعجاب بالنفس، والمعذر من نبت عذاره، ويشبه العذار بالآس كما قيل:

خليلى ماس الآس يعبق نشره   اذا هب أنفاس الرياح العواطر
حكى لونه أصداغ ريم معـذر   وصورته آذان خيل نوافر

(٣) المعصم موضع السوار من الساعد. «أحمد يوسف نجاتى»

وَتَهُزُّهُ رِيحُ ٱلصَّبَا فَتَخَالُهُ
سَيْفَ ٱبْنِ عَبَّادٍ يُبَدِّدُ عَسْكَرَا(١)
عَبَّادٌ ٱلْمُخْضَرُّ نَائِلُ كَفِّهِ(٢)
وَٱلْجَوُّ قَدْ لَبِسَ ٱلرِّدَاءَ ٱلْاغْبَرَا
مَلِكٌ إِذَا ٱزْدَحَمَ ٱلْمُلُوكُ بِمَوْرِدٍ
وَنَحَاهُ لَا يَرِدُونَ حَتَّى يَصْدُرَا(٣)
أَنْدَى عَلَى ٱلْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ ٱلنَّدَى
وَأَلَذُّ فِي ٱلْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ ٱلْكَرَى(٤)

(١) هذا حسن تخلص بديع (٢) يكنى بالخضرة عن الخصب والنعمة ، والخضراء: الخير والسعة والنعيم ، وفلان أخضر أى كثير الخير . و يوصف الجدب والجوع بالأغبر، كما يوصف الموت بالأحمر، كناية عن السنين المجدبة والقتل بالسيف ، وعجز البيت كناية عن اشتداد الحال وكلب الزمان حتى تظلم الدنيا فى العيون، وأسند فى صدر البيت الاخضرار الى نائل كفه أى عطائه توسعا ومبالغة (٣) يمدحه بالرياسة والشرف والعزة وأن الملوك تهابه وتقدمه اعترافا له بحق السبق وعجزا عن مباراته (٤) كأنه يقول :

حديثه أو حديث عنه يطربنى ... هذا اذا غاب أو هذا اذا حضرا

فانى أظن أنه يريد بصدر البيت ارتياح النفس الى ذكره وانبساطها الى سماع سيرته ، و بعجزه السرور برؤيته واكتحال العين بنور طلعته، وقد صرح بهذا المعنى بعد فى قوله :

ملك يروقك خلقه أو خلقه ... كالروض يحسن منظرا أو مخبرا

و يقرب من معنى عجز البيت :

يَخْتَارُ إِذْ يَهَبُ الْخَرِيدَةَ كَاعِباً
وَالطِّرْفَ أَجْرَدَ وَالْحُسَامَ مُجَوْهَرَا(١)
قَدَّاحُ زَنْدِ الْمَجْدِ لَا يَنْفَكُّ مِنْ
نَارِ الْوَغَى إِلَّا إِلَى نَارِ الْقِرَى(٢)
لَا خَلْقَ أَفْرَى مِنْ شِفَارِ حُسَامِهِ
إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَ الْمَوَاكِبَ أَسْطُرَا(٣)

وأعـدلي حديثه فلسمعي فرط وجد باللؤلؤ المنثور

وقـد يحتمل معنى البيت غـير هـذا ولـكن ذلك معنى لطيف دقيق . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) يعنى أنه يجود بأنفس الأشياء وأثمنها و بما يضن به غيره من كرائم الأموال ، والخريدة الفتاة البـكر العذراء . والخفرة الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة قد جاوزت الأعصار ولم تعنس ، والـكاعب الناهد أى التى نهد ثديها ، وكعب الثدى « كضرب ونصر » اذا نتأ وارتفع ، والطرف الجواد الـكريم ، والأجرد قصير الشعر رقيقه ، وذلك من علامات العتق والـكرم ، والأجرد السباق الذى يسبق الخيل و يتجرد عنها لسرعته (٢) قدح بالزند رام الايراء « ايقاد النار به » والقرى مايعد للضيف (٣) فى الأصل « لاشىء أقرأ » وكأنه نظر الى قوله فى آخر البيت « أسطرا » وفى القلائد « أفرى » مراعاة لقوله « خلق » وهو المناسب للاستعمال ، وخلق الأديم ونحوه اذا قدره وحزره ، أو قـدره لما يريد قبل أن يقطعه وقاسه ليقطع منه مايشاء ثم يفرى ماخلقه بعد ذلك ، قال زهير يمدح هرم ابن سنان :

ولأنت تفرى ماخلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

أَيْقَنْتُ أَنِّى مِنْ ذَرَاهُ بِجَنَّةٍ
لَمَّا سَقَانِى مِنْ نَدَاهُ الْـكَوْثَرَا(١)

وَعَلِمْتُ حَقًّا أَنَّ رَبْعِى مُخْصِبٌ
لَمَّا سَأَلْتُ بِهِ الْغَمَامَ الْمُمْطِرَا

مَنْ لَا تُوَازِنُهُ الْجِبَالُ إِذَا احْتَبَى
مَنْ لَا تُسَابِقُهُ الرِّيَاحُ إِذَا جَرَى(٢)

مَاضٍ وَصَدْرُ الرُّمْحِ(٣) يَكْهَمُ، وَالظُّبَا
تَنْبُو، وَأَيْدِى الْخَيْلِ تَعْثُرُ فِى الثَّرَى(٤)

أى اذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدر مالا يقطعه لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ماعزمت عليه . وفرى الشيء يفريه اذا شقه والسطر الصف من الشىء ، يريد أن سيوفه أمضى الأشياء ، وشقها الصفوف: الفتك بها. وان بقيت « أقرأ » فالخلق بمعنى الناس ، ويكون قد جعل مباشرة السيوف للصفوف قراءة لأسطرها (١) الذرا الكنف والكن والستر. يقال أنا فى ظل فلان، وفى ذراه أى فى كنفه وستره ودفئه (٢) كنى بالاحتباء عن السكون والاستقرار — ويقال فلان لاتحل حبوته أى لايستفزه جهل ولا يغضب لحلمه وثباته (٣) ويروى « وطرف الرمح » ، وسيف كهام أى كليل لايقطع ، كهم الرجل « ككرم ومنع » اذا بطؤ عن الحرب والنصرة ، وظبات السيوف: حدها وأطرافها . نبا السيف لم يؤثر فى الضريبة (٤) ويروى « تعثر فى البرى » والبرى التراب « أحمد يوسف نجاتى »

قَادَ الْكَتَائِبَ كَالْكَوَاكِبِ فَوْقَهُمْ
مِنْ لأْمِهِمْ مِثْلُ السَّحَابِ كَنَهْوَرَا(١)
مِنْ كُلِّ أَبْيَضَ قَدْ تَقَلَّدَ أَبْيَضًا
عَضْبًا، وَأَسْمَرَ قَدْ تَقَلَّدَ أَسْمَرَا(٢)
مَلِكٌ يَرُوقُكَ خَلْقُهُ أَوْ خُلْقُهُ
كَالرَّوْضِ يَحْسُنُ مَنْظَرًا أَوْ مَخْبَرَا
أَقْسَمْتُ بِاسْمِ الْفَضْلِ حَتَّى شِمْتُهُ
فَرَأَيْتُهُ فِي بُرْدَتَيْهِ مُصَوَّرَا(٣)
وَجَهِلْتُ مَعْنَى الْجُودِ حَتَّى زُرْتُهُ
فَقَرَأْتُهُ فِي رَاحَتَيْهِ مُفَسَّرَا

(١) اللأم: عدة الحرب كاملة ـ والكنهور من السحاب قطع كالجبال، أوالمتراكم المتراكب الثخين منه أوالأبيض العظيم. ويروى « فاذا الكتائب »
(٢) يروى عجز البيت: قد تحمل أسمرا، وفى القلائد « قد تأبط » وأكثر ماتطلق العرب على الرجل « أبيض » اذا أرادوا نقاء العرض من الدنس والعيوب، وهو كثير فى كلامهم، لايريدون به بياض اللون ولكنهم يريدون المدح بالكرم ونقاء العرض قال زهير:

وأبيض فياض يداه غمامة على معتفيه ماتغب فواضله

والأبيض الثانى السيف، والأسمر الرمح (٣) شامه رآه، والأصل فيه سام البرق يشيمه اذا نظر اليه أين يقصد. وفى البيت كناية عن نسبة

فَاحَ ٱلثَّرَى مُتَعَطِّرًا بِثَنَائِهِ
حَتَّى حَسِبْنَا كُلَّ تُرْبٍ عَنْبَرَا(١)

وَتَتَوَّجَتْ بِالزَّهْرِ صُلْعُ(٢) هِضَابِهِ
حَتَّى ظَنَنَّا كُلَّ هَضْبٍ قَيْصَرَا

هَصَرَتْ يَدِى غُصْنَ ٱلْغِنَى مِنْ كَفِّهِ
وَجَنَتْ بِهِ رَوْضَ ٱلسُّرُورِ مُنَوِّرَا(٣)

حَسْبِي عَلَى ٱلصُّنْعِ ٱلَّذِى أَوْلَاهُ أَنْ
أَسْعَى بِجَدٍّ أَوْ أَمُوتَ فَأُعْذَرَا(٤)

الفضل اليه وقصره عليه فقد جعله فى بردتيه ، وانما الذى فى بردتيه هو نفسه فكأنه هو الفضل عينه (١) هذا مثل قول ابن هانىء :

قد طيب الأفواه طيب ثنائه   من أجل ذا تجد الثغور عذابا

وقال أبو الطيب :

وماطيب الرياض لها ولكن   كساها دفنهم فى الأرض طيبا

(٢) جبل أصلع وصليع ليس عليه نبت (٣) هصر الغصن اذا جذبه اليه وأماله أو كسره من غير ابانة (٤) الجد الاجتهاد . والجد « بالفتح » الحظ وهو من قول الشاعر :

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى   تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ومن المثل العربى : « اسع بجد أو دع » يعنى ان طلبت فاطلب بجد والا فدع فانه لايغنى عنك الكد مع عدم الجد ، والجد الحظ من الخير يجعله الله للعبد ، ومنه قول الشاعر :

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى حَازَ الْعُلَا
وَحَبَاهُ مِنْهُ بِمِثْلِ حَمْدِى أَنْوَرَا(١)

السَّيْفُ أَفْصَحُ مِنْ زِيَادٍ خُطْبَةً
فِى الْحَرْبِ إِنْ كَانَتْ يَمِينُكَ مِنْبَرَا(٢)

مَازِلْتَ تُغْنِى مَنْ عَنَا(٣) لَكَ رَاجِيًا
نَيْلًا . وَتُفْنِى مَنْ عَتَا وَتَجَبَّرَا

حَتَّى حَلَلْتَ مِنَ الرِّيَاسَةِ مَحْجِرًا(٤)
رَحْبًا ، وَضَمَّتْ مِنْكَ طَرْفًا أَحْوَرَا

تقلبت ان كان التقلب نافعى   و بالجد يسعى المرء لا بالتقلب

فابن عمار يقول انه بصنيع الممدوح وهب الله له جدا سعيدا ينجح به سعيه حتى يموت . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) يريد حمده وثناءه عليه ووصفه بالانارة (٢) هذا البيت من أجود ماقيل فى معناه وأبلغه ، يريد زياد بن « سمية » أو ابن أبى سفيان، وكانت بلاغته وقدرته الخطابية وقوة تأثيره بها مثلا ، وهو صاحب الخطبة البتراء المشهورة وغيرها ، وقريب من هذا المعنى قول أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

(٣) عنا يعنو اذا خضع وانقاد وذل (٤) المحجر من العين مادار بها ، والمحجر : الحديقة والموضع فيه رعى كثير وماء ، ومحجر الرئيس : حوزته وناحيته التى لايدخل فيها غيره ـ وكأن فى المحجر تورية رشح لها بقوله « حللت » و بقوله « طرفا أحور » والطرف أيضا الرجل الكريم الآباء

شَقِيَتْ بِسَيْفِكِ أُمَّةٌ لَمْ تَعْتَقِدْ
إِلَّا الْيَهُودَ وَإِنْ تَسَمَّتْ بَرْبَرَا(١)

أَثْمَرْتَ رُمْحَكَ مِنْ رُءُوسِ كُمَاتِهِمْ
لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا

وَصَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ مُلُوكِهِمْ
لَمَّا عَلِمْتَ الْحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرَا(٢)

الى الجد الأكبر . ومن معانى الأحور العقل . والغرض أنه حل من الرياسة فى عينها اكراما وعلو منزلة ، وكنت أنت عينها التى بها تبصر . وان شئت أن تفهم معنى آخر من المعانى التى ذكرناها وحملت « المحجر والطرف وأحور » على التورية كان لك ذلك .

(١) قام المعتضد عباد بالأمر سنة ٤٣٣ واشتدت حروبه واستولى على كثير من بلاد الأندلس ، وكان من البربر أن أغروا ابنه اسمعيل بالخروج عليه والسعى فى انتزاع الملك منه، فثار على أبيه بمعونتهم حتى كان ذلك سببا فى أن قتل الوالد ابنه ، ثم رجع الى الانتقام من البربر المنتزين بالثغور ومطالبتهم بما جنوه، وكان منهم من يسمى المستظهر العزيز بن محمد ابن عبد الله البرزالى المتغلب على قرمونة واستجة وغيرهما ، وكان منهم رؤساء آخرون فى بعض مدن الجزيرة وثغورها، فحاربهم واستولى على كثير من ممالكهم وضايقهم ، وانتقم منهم بالقوة مرة وبالحيلة والمكر أخرى حتى تغلب على معاقلهم فكانت مملكته أعظم ممالك الطوائف فى عصره « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) سبق القول فى « الحسن أحمر » ويأتى كلام فيه ، ومن كلامهم:

وَإِلَيْكَهَا كَالرَّوْضِ زَارَتْهُ الصَّبَا
وَحَنَا عَلَيْهِ الطَّلُّ حَتَّى نَوَّرَا
نَمَّقْتُهَا وَشْيًا بِذِكْرِكَ مُذْهَبًا
وَفَتَقْتُهَا مِسْكًا بِحَمْدِكَ أَذْفَرَا(١)
مَنْ ذَا يُنَافِحُنِى(٢) وَذِكْرُكَ مَنْدَلٌ
أَوْرَدْتُهُ مِنْ نَارِ فِكْرِى مِجْمَرَا ؟
فَلَئِنْ وَجَدْتَ نَسِيمَ مَدْحِى عَاطِرًا
فَلَقَدْ وَجَدْتُ نَسِيمَ بِرِّكَ أَعْطَرَا

انْتَهَى .

***

« وَقَالَ فِى تَرْجَمَةِ عَبْدِ الْجَلِيلِ بْنِ وَهْبُونَ الْمُرْسِىِّ(٣) » التعريف بابن وهبون

الحسن أحمر ، أى الحسن فى الحمرة ، وقيل المعنى انه شاق يحتاج الى حمل المصاعب ، أو أنه يلقى العاشق منه مايلقى المحارب فى الحرب (١) فتق الطيب اذا طيبه وخلطه بعود أو غيره ، وفتق المسك بغيره اذا أخرج رائحته بشىء يدخله عليه ، ومسك أذفر متوهج الرائحة (٢) نافحه اذا كافحه وخاصمه ، ويجوز أن يكون من نفح الطيب وهو أرجه ، أى من يبارينى فى ذكاء الرائحة وتضوع الطيب ، ففيه تورية مرشحة بقوله « مندل الخ »والمندل العود الرطب ، أو أجوده وهو القاقلى ، أو عود الطيب الذى يتبخر به (٣) أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الأديب شاعر

رَكِبَ بِإِشْبِيلِيَةَ زَوْرَقًا فِى نَهْرِهَا ٱلَّذِى لَا تُدَانِيهِ ٱلصَّرَاةُ[١]، وَلَا يُضَاهِيهِ ٱلْفُرَاتُ ، فِى لَيْلَةٍ تَنَقَّبَتْ بِظُلْمَتِهَا ، وَلَمْ يَبْدُ وَضَحٌ[٢] فِى دُهْمَتِهَا ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَمْعَتَانِ قَدِ ٱنْعَكَسَ شُعَاعُهُمَا فِى ٱللُّجَّةِ ، وَزَادَ فِى تِلْكَ ٱلْبَهْجَةِ ، فَقَالَ :

كَأَنَّمَا ٱلشَّمْعَتَانِ إِذْ سَمَتَا
جِيدُ غُلَامٍ مُحَسَّنِ ٱلْغَيَدِ[٣]

المعتمد على الله بن عباد ومن أخص ندمائه والمقربين اليه، وهو من الشعراء المجيدين ذوى الرقة وحضور البديهة ، وكان من فرسان تلك الحلبة الأدبية من شعراء ملوك الطوائف التى ازدان بها عصرهم . منهم ابن عمار وابن خفاجة وأبو بكر بن القبطرنة وغيرهم مما سنفصل القول فيه فى كلامنا على الأدب بالأندلس فى كتابنا الجامع ، فقد أفردنا للأدب بالأندلس جزءا ضخما .وتوفى ابن وهبون حوالى سنة ٤٨٠ «أحمد يوسف نجاتى»

(١) الصراة اسم لنهرين ببغداد الصراة الكبرى والصراة الصغرى ، يخرج أحدهما من نهر عيسى بالقرب من بغداد ويتفرع منه أنهار حتى يصل الى بغداد ثم يصب فى دجلة . وفى نهر الصراة قيل :

وقفت على الصراة وليس تجرى مغانيها لنقصان الفرات
فلما أن ذكرتك فاض دمعى فأجراهن جرى العاصفات

(٢) الوضح البياض أو النور ، وفى بعض المراجع «تنقبت بظلمائها ولم يلح قمر فى سمائها» والدهمة السواد أو الظلمة (٣) الغيد مصدر غيد «كفرح» اذا مالت

وَفِي حَشَا ٱلنَّهْرِ مِنْ شُعَاعِهِمَا

طَرِيقُ نَارِ ٱلْهَوَى إِلَى كَبِدِي

وَكَانَ مَعَهُ غُلَامُ ٱلْبَكْرِيِّ(١) مُعَاطِياً لِلرَّاحِ ، وَجَارِياً فِي مَيْدَانِ ذَلِكَ ٱلْمِرَاحِ ، فَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ ٱلْجَلِيلِ بِمَا جَاءَ ، وَحَلَّى لِلإِبْدَاعِ ٱلْجَوَانِبَ وَٱلْأَرْجَاءَ ، حَسَدَهُ عَلَى ذَلِكَ ٱلِارْتِجَالِ ، وَقَالَ بَيْنَ ٱلْبُطْءِ وَٱلِاسْتِعْجَالِ :

أَعْجِبْ بِمَنْظَرِ لَيْلَةٍ لَيْلَاءِ(٢)

تُجْنَى بِهَا ٱللَّذَّاتُ فَوْقَ ٱلْمَاءِ

فِي زَوْرَقٍ يُزْهَى بِغُرَّةِ أَغْيَدٍ

يَخْتَالُ مِثْلَ ٱلْبَانَةِ ٱلْغَيْنَاءِ(٣)

عنقه ولانت أعطافه ، والغيداء المرأة تثنى لينا ، وفى بعض النسخ « خدا » تثنية خد بدل « جيد » « أحمد يوسف نجاتى »

(١) هو أبو الحسن حكم بن محمد أديب شاعر محسن ذو بديهة حاضرة وخاطر جياش ، له حسن تصرف فى المعانى واختراعها والتوليد من معانى غيره من الشعراء . كان من شعراء ابن عباد ومن ذوى المقام المحمود فى الدولة العبادية وعاش حتى أدرك دولة الملثمين ومدح أول ملوكها « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) شديدة الظلمة (٣) الغيناء : الخضراء من الشجر الكثيرة الورق الملتفة الأغصان الناعمة ، وفى الأصل « الغناء » « أحمد يوسف نجاتى »

قَرَنَتْ يَدَاهُ الشَّمْعَتَيْنِ بِوَجْهِهِ
كَالْبَدْرِ بَيْنَ النَّسْرِ وَالْجَوْزَاءِ(١)
وَالتَّاحَ(٢) تَحْتَ الْمَاءِ ضَوْءُ جَبِينِهِ
كَالْبَرْقِ يَخْفِقُ فِي غَمَامِ سَمَاءِ

***

وصف الفتح منية المنصور

« وَقَالَ الْفَتْحُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ » دُعِيتُ يَوْمًا إِلَى مُنْيَةِ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِبَلَنْسِيَةَ ، وَهِيَ مُنْتَهَى الْجَمَالِ ،

(١) أراد بالبدر وجهه. و بالنسر والجوزاء الشمعتين ، والنسران كوكبان معروفان على التشبيه بالنسر الطائر ، وهما النسر الطائر والنسر الواقع ، وقد تقدم شرحهما ووصفهما فى الأجزاء السابقة . أما الجوزاء فتبدو فى السماء على شكل مخمس غير منتظم واقع على حافة المجرة ، وأضوأ نجمين فى الجوزاء تسميهما العرب « الذراع المبسوطة » أو التوءمين « التوءم المقدم والتوءم المؤخر » و يمكن مشاهدة الأول بالمنظار الصغير لشدة توهجه ولمعانه . وتسمى العرب النجمين اللذين عند رجلى التوءم المؤخر « الهنعة » وتوافق المنزلة السادسة من منازل القمر ، وسابعة المنازل « الذراع المبسوطة » وتطلق كتب الفلك العربية لفظ « الجوزاء » على كوكبى التوءمين والجبار . ومن أبدع ماقيل فى وصفها قول أبى بكر الخالدى :

وتمايل الجوزاء يحكى فى الدجا ميلان شارب قهوة لم تمزج
وتنقبت بخفيف غيم أبيض هى فيه بين تبختر وتبرج
كتنفس الحسناء فى المرآة اذ كملت محاسنها ولم تتزوج

وسموها جوزاء لاعتراضها فى جوز السماء أى وسطها «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) التاح : لاح وأشرق ، وصدر البيت كان فى الأصل هكذا

وَمُزْدَهَى[1] الصَّبَا وَالشَّمَالِ ، عَلَى وَهْيِ[2] بِنَائِهَا ، وَسُكْنَى الْحَوَادِثِ بُرْهَةً بِفِنَائِهَا ، فَوَافَيْتُهَا وَالصُّبْحُ قَدْ أَلْبَسَهَا قَمِيصَهُ ، وَالْحُسْنُ قَدْ شَرَحَ بِهَا عَوِيصَهُ[3] وَبِوَسَطِهَا مَجْلِسٌ قَدْ تَفَتَّحَتْ لِلرَّوْضِ أَبْوَابُهُ ، وَتَوَشَّحَتْ بِالْأُزُرِ الذَّهَبِيَّةِ أَثْوَابُهُ[4] ، يَخْتَرِقُهُ جَدْوَلٌ كَالْحُسَامِ الْمَسْلُولِ ، وَيَنْسَابُ فِيهِ انْسِيَابَ

«والتاج تحت الماء أضوأ منهما» (١) أى موضع ازدهائهما وحسنهما وبهما كانتا تزهيان وتعجبان (٢) ضعف «وكان ذلك فى أول القرن الخامس» (٣) العويص الغامض المشكل ، والغرض أن الحسن قد ظهر فيها جليا تاما . واعلم أن المنصور هذا هو عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن أبى عامر من ملوك الطوائف ، وكان أميرا بشاطبة وما معها من شرق الأندلس بويع له سنة ٤١١ أقامه الموالى العامريون عند الفتنة البربرية ، ثم ثار عليه أهل شاطبة فتركها ، ثم لحق ببلنسية فملكها وفوض أمره للموالى العامريين ، ثم ولى على بلنسية ابنه عبد الملك بن عبد العزيز فقام بأمره وجاهد المأمون بن ذى النون فغلبه على بلنسية وانتزعها منهم فى سنة ٤٥٧ و بقى للمنصور مدينة مرسية ملكها بعد موت زهير العامرى سنة ٤٢٩ وكذا مدينة المرية ولى عليها قائده معن بن صمادح سنة ٤٣٣ وغزا الموالى العامريين بشاطبة فغلبهم عليها ، وقد تقدم القول فى ملوك الطوائف وامارتهم «أحمد يوسف نجاتى»

(٤) التوشح بالثوب أن يلقيه عليه ثم يخرج طرفه الذى ألقاه على عاتقه الأيسر من تحت يده اليمنى ثم يعقد طرفيهما على صدره «هذا هو الأصل» ثم استعمل «توشح» فى معنى «ازدان» وتجمل ، والأزر جمع ازار —

ٱلْأَيْمِ (١) فِي ٱلطُّلُولِ ، وَصَفَّاتُهُ بِالْأَدْوَاحِ مَحْفُوفَةٌ ، وَٱلْمَجْلِسُ يَرُوقُ كَالْخَرِيدَةِ ٱلْمَزْفُوفَةِ ، وَفِيهِ يَقُولُ عَلِيُّ أبْنُ أَحْمَدَ أَحَدُ شُعَرَائِهَا ، وَقَدْ حَلَّهُ مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ وُزَرَائِهَا :

***

وصف على بن احمد المجلس منية المنصور

قُمْ فَاسْقِنِي وَٱلرِّيَاضُ لَابِسَةٌ
وَشْيًا مِنَ ٱلنَّوْرِ حَاكَهُ ٱلْقَطْرُ

فِي مَجْلِسٍ كَالسَّمَاءِ لَاحَ بِهِ
مِنْ وَجْهِ مَنْ قَدْ هَوِيتُهُ بَدْرُ

وَٱلشَّمْسُ قَدْ عُصْفِرَتْ (٢) غَلَائِلُهَا
وَٱلْأَرْضُ تَنْدَى ثِيَابُهَا ٱلْخُضْرُ

وَٱلنَّهْرُ مِثْلُ ٱلْمَجَرِّ حَفَّ بِهِ
مِنَ ٱلنَّدَامَى كَوَاكِبٌ زُهْرُ

فَحَلَلْتُ ذَلِكَ ٱلْمَجْلِسَ وَفِيهِمْ أَخْدَانٌ (٣) ، كَأَنَّهُمُ ٱلْوِلْدَانُ

يصف مابالروض من أزهار وأنوار (١) الأيم الحية البيضاء، والثعبان الذى لايضر أحدا ، ويقال فيه أيضا « أيم » « مثل كيس » وفى نسخة « فى الطول » بدل « الطلول » (٢) أى صبغت بالعصفر وهو نبت معروف وبزره القرطم « وصبغه بين الأحمر والأصفر » يريد أن الشمس قد آذنت بالمغيب ودنت من الغروب (٣) جمع خدن وهو الصديق والصاحب « أحمد يوسف نجاتى »

وَهُمْ فِي عَيْشٍ لَدْنٍ(١) ، كَأَنَّهُمْ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ ، فَأَنَخْتُ لَدَيْهِمْ رَكَائِبِي وَعَقَلْتُهَا(٢)، وَتَقَلَّدْتُ بِهِمْ رَغَائِبِي وَاعْتَقَلْتُهَا(٣) وَأَقَمْنَا نَتَنَعَّمُ بِحُسْنِهِ طُولَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَوَافَى اللَّيْلُ فَذُدْنَا(٤) عَنِ الْجُفُونِ طُرُوقَ النَّوْمِ ، وَظَلِلْنَا بِلَيْلَةٍ كَأَنَّ الصُّبْحَ مِنْهَا مَقْدُودٌ(٥) وَالْأَغْصَانُ تَمِيسُ كَأَنَّهَا قُدُودٌ ، وَالْمَجَرَّةُ تَتَرَاءَى نَهْرًا ، وَالْكَوَاكِبُ تَخَالُهَا فِي الْجَوِّ زَهْرًا وَالثُّرَيَّا كَأَنَّهَا رَاحَةٌ تُشِيرُ(٦) ، وَعُطَارِدُ لَنَا بِالطَّرَبِ بَشِيرٌ ،

---

(١) اللدن اللين وفعله « ككرم » يريد فى نعمة ورغد عيش (٢) يريد أقام بينهم وسكن اليهم (٣) أى نالها وتمكن منها ، وأصله من تقلدت اذا لبست القلادة ، وتقلد السيف اذا ألقى حمالته فى عنقه فتقلده ، واعتقال الرمح جعله بين ركابه وساقه ، أو أن يجعله الراكب تحت فخذه و يجر آخره على الأرض وراءه — وانما شبه الرغائب بالسيف والرمح لأنها قوة للمرء اذا نالها تغلب على شدائد الدهر ومصاعب الحياة وانتصر على خطوبها «أحمد يوسف نجاتى»
(٤) ذاد : منع وطرد (٥) قد الشيء اذا شقه وقطعه ، يصف الليلة بالاشراق والبهاء حسا أو معنى لما فيها من الصفاء والسرور (٦) من تشبيه الثريا بالراحة قول الشاعر وأدمج فيه الشكوى من طول الليل :

كأن الثريا راحة تشبر الدجا لتنظر طال الليل أم قد تعرضا

ومنه قول أبى الفرج الببغاء :

كأن نجم الثريا كف ذى كرم مبسوطة بالعطايا ليس تنقبض

ولابن الرومى :

وكأن الهلال نصف سوار والثريا كف تشير اليه

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ وَافَيْتُ الرَّئِيسَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ(١) زَائِرًا فَأَفَضْنَا فِي الْحَدِيثِ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِنَا إِلَى ذِكْرِ مُتَنَزَّهِنَه

ولشاعر وأحسن :

زارني في الدجا فنم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود برزت في غلالة زرقاء

ولابن سكرة الهاشمي :

ترى الثريا والغرب يجذبها والبدر يسري والفجر ينفجر
كف عروس لاحت خواتمها أو عقد در في الجو ينتثر

أما عطارد فهو أصغر الكواكب وأدناها من الشمس فانه لايكاد يرى الا بجوارها ، ويشاهد في أكثر شهور الشتاء أكثر ضوءا وأقوى سطوعا منه في معظم أشهر الصيف ، ويدعى « نجم الصباح » حين يكون الى الغرب من الشمس فيشرق قبل شروقها ، ثم يسمى نجم المساء حين ينتهي بعد أن يسبح في فلكه الى أن يكون الى الشرق من الشمس فيغرب بعد مغيبها ، وهو في كلا حاليه يبدو لعين الرائي مشرق الوجه جميل الطلعة ، يتألق محياه بشرا ، ويتلألأ سرورا وبهجة ، وفيه يقول الشريف الموسوي :

أرى كل نجم عاريا وعطارد اذا مابدا مثل الغلام المدرع
وتحت شعاع الشمس ان راح ساريا كلؤلؤة في كأس خمر مشعشع

وكانوا يجعلون عطارد كوكب الكتاب « أحمد يوسف نجاتي »

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر كان من جلة الرؤساء المبرزين في الأدب المجيدين في منثوره ومنظومه ، تقلبت به الأيام بين رضا وسخط حتى توفي سنة ٥٠٧ ، وهو ممن عنينا بالتوسع في ترجمتهم وبيان أثرهم في الأدب من أعيان الأدباء الأندلسيين في كتابنا الجامع «أحمد يوسف نجاتي »

بِالْأَمْسِ ، وَمَا لَقِينَا فِيهِ مِنَ الْأُنْسِ ، فَقَالَ لِي : وَمَا بَهْجَةُ مَوْضِعٍ قَدْ بَانَ(١) قَطِينُهُ وَذَهَبَ ، وَسَلَبَ الزَّمَانُ بَهْجَتَهُ وَانْتَهَبَ ، وَبَادَ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَسْمُهُ ، وَمَحَاهُ الْحَدَثَانُ فَمَا يَكَادُ يَلُوحُ وَسْمُهُ ؟! عَهْدِي بِهِ عِنْدَ مَا فُرِغَ مِنْ تَشْيِيدِهِ ، وَتُنُوهِيَ فِي تَنْسِيقِهِ وَتَنْضِيدِهِ ، وَقَدِ اسْتَدْعَانِي إِلَيْهِ الْمَنْصُورُ فِي يَوْمٍ حَلَّتْ فِيهِ الشَّمْسُ بَيْتَ شَرَفِهَا ، وَاكْتَسَتْ فِيهِ الْأَرْضُ زُخْرُفِهَا . فَحَلَلْتُ بِهِ وَالدَّوْحُ تَمِيسُ مَعَاطِفُهُ ، وَالنَّوْرُ يُخْجِلُهُ قَاطِفُهُ . وَالْمُدَامُ تَطْلُعُ بِهِ وَتَغْرُبُ . وَقَدْ حَلَّ فِيهِ قَحْطَانُ وَيَعْرُبُ ، وَبَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ مِائَةُ غُلَامٍ مَا يَزِيدُ أَحَدُهُمْ عَلَى الْعَشْرِ غَيْرَ أَرْبَعٍ . وَلَا يُحُلُّ غَيْرَ الْفُؤَادِ مِنْ مَرْبَعٍ(٢) ، وَهُمْ يُدِيرُونَ رَحِيقًا(٣) . خِلْتُهَا فِي كَأْسِهَا دُرًّا وَعَقِيقًا ، فَأَقَمْنَا وَالشُّهُبُ تُغَازِلُنَا ، وَكَأَنَّ الْأَفْلَاكَ مَنَازِلُنَا ، وَوَهَبَ الْمَنْصُورُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا يَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ أَلْفًا

---

(١) فارقه ساكنوه (٢) أصل المربع مكان الاقامة زمن الربيع ، ثم أطلق على أى مكان يقيم فيه ساكنه (٣) الرحيق : الخمر ، أو صفوتها وأطيبها ، وأعتقها وأجودها « أحمد يوسف نجاتى »

مِنْ صِلَاتٍ ، مُتَّصِلَاتٍ ، وَإِقْطَاعٍ ، ضِيَاعٍ [1] ، ثُمَّ تَوَجَّعَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ ، وَأَفْصَحَ بِمَا بَيْنَ ضُلُوعِهِ مِنَ الْوَجْدِ ، وقَالَ :

سَقْياً لِمَنْزِلَةِ اللِّوَى وَكَثِيبِهَا
إِذْ لَا أَرَى زَمَناً كَأَزْمَانِي بِهَا

انْتَهَى

***

وصف نزهة بعض متنزهات الأندلس

« وَمَا أَحْسَنَ مَا كَتَبَ بِهِ الْفَتْحُ إِلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ » يَصِفُ نُزْهَةً بِبَعْضِ مُتَنَزَّهَاتِ الْأَنْدَلُسِ الْمُونِقَةِ ، وَيَذْكُرُ اسْتِضَاءَتَهُ فِيهَا بِشُمُوسِ الْمَسَرَّةِ الْمُشْرِقَةِ ، وَهُوَ : أَطَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَقَاءَ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ ، وَمُحْيِي الْمِلَّةِ ، الَّذِي حَسُنَ بِلُقْيَاهُ الْعَيْشُ ، وَتَزَيَّنَ بِمُحَيَّاهُ الْجَيْشُ ، وَرَاقَ بِاسْمِهِ الْمُلْكُ ، وَجَرَتْ بِسَعْدِهِ الْفُلْكُ ، وَأَنَارَ بِهِ اللَّيْلُ الدَّامِسُ [2] ، وَلَاحَ لَهُ الْأَثَرُ الطَّامِسُ [3] ، وَجَرَى الدَّهْرُ لِسَطْوَتِهِ خَائِفاً ، وَغَدَا السَّعْدُ بِعَقْوَتِهِ [4] طَائِفاً ، وَالزَّمَانُ بِبُرُودِ عُلْيَاهُ مُلْتَحِفٌ ،

(١) كذا فى القلائد ، وقد كان فى الأصل « وأقطع ضياعا » (٢) شديد الظلام (٣) طمس « كنصر وضرب » الأثر وغيره اذا درس وامحى
(٤) العقوة ما حول الدار أو المحلة وجمعه عقاء « أحمد يوسف نجاتى »

وَلِثُغُورِ نَدَاهُ مُرْتَشِفْ ، وَلاَ زَالَ لِلْمَجْدِ يَتَمَلَّكُهُ ، وَالسَّعْدِ يَحْمِلُهُ فَلَكُهُ ، أَمَا وَقَدْ وَافَقَتْنِي أَيَّامُهُ - أَيَّدَهُ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ - وِفَاقًا وَرَأَيْتُ لِلْبَيَانِ عِنْدَهُ نَفَاقًا(١) ، فَلاَ بُدَّ أَنْ أُرْسِلَ كَتَائِبَهُ أَفْوَاجًا ، وَأُفِيضَ مِنْ بَحْرِهِ أَمْوَاجًا . وَأَصِفَ مَا شَاهَدْتُهُ مِنَ اقْتِدَارِهِ ، وَعَايَنْتُهُ مِنْ حُسْنِ إِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ ، بِمَقَالٍ أَفْصَحَ مِنْ شَكْوَى الْمَحْزُونِ ، وَأَمْلَحَ مِنْ رِيَاضِ الْحُزُونِ(٢) وَقَدْ كُنْتُ - أَيَّدَكُمُ اللّٰهُ تَعَالَى - كَلِفًا بِالدُّوَلِ وَبَهَائِهَا ، لَهِجًا(٣) بِالْبُلُوغِ إِلَى انْتِهَائِهَا ، لِأَجِدَ دَوْلَةً أَرْتَضِيهَا ، وَحُظْوَةً عَلْيَاءَ أَقْتَضِيهَا ، فَكُلُّ مَلِكٍ فَاوَضْتُهُ سِرًّا أَوْ جَهْرًا ، وَكُلُّ مُلْكٍ قَلَبْتُهُ بَطْنًا وَظَهْرًا ، وَالنَّفْسُ تَصُدُّ عَنْهُ صُدُودَ الْجَبَانِ عَنِ الْحَرْبِ ، وَالْمَلاَئِكَةِ الْكِرَامِ عَنِ الشَّرْبِ(٤)

---

(١) رواجا وقبولا (٢) جمع حزن وهو ماغلظ من الأرض فى ارتفاع ، والحزن فى قول الأعشى :

ماروضة من رياض الحزن معشبة   خضراء جاد عليها مسبل هطل الخ

موضع كانت ترعى فيه ابل الملوك ، وهو من أرض بنى أسد (٣) لهج بالأمر « كفرح » اذا أغرى به وأولع فثابر عليه واعتاده (٤) القوم يشربون ويجتمعون على الشراب « أحمد يوسف نجاتى »

إِلَى أَنْ حَصَلْتُ لَدَيْهِ ، وَوَصَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقُلْتُ الْآنَ أَمْكَنَ مِنْ رَاحِ الْبُغْيَةِ الِانْتِشَاءُ[1] وَتَمَثَّلْتُ « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » وَمَا زِلْتُ أُسَايِرُهُ حَيْثُ سَارَ ، وَآخُذُ الْيَمِينَ تَارَةً وَتَارَةً الْيَسَارَ ، وَكُلُّ نَاحِيَةٍ تُسْفِرُ لِي عَنْ خَدِّ رَوْضٍ أَزْهَرَ ، وَعِذَارِ نَبْتٍ أَخْضَرَ . وَتَبْسِمُ عَنْ ثَغْرِ حَبَابٍ ، فِي نَهْرٍ كَالْحُبَابِ ، وَتَرْفُلُ[2] مِنَ الرَّبِيعِ فِي مَلَابِسَ سُنْدُسِيَّاتٍ وَتُهْدِي إِلَيْنَا نَوَافِحَ[3] مِسْكِيَّاتٍ ، وَتَزْهَى مِنْ بَهْجَتِهَا بِأَحْسَنِ مَنْظَرٍ ، وَتَتِيهُ بِجِلْبَابٍ أَيْنَعَ مِنْ بُرْدِ الشَّبَابِ الْأَنْضَرِ . فَجُلْنَا فِيهَا يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَاسْتَخْبَرْنَا عَنْ أَسْرَارِهَا صَبًا وَشَمَالًا . ثُمَّ مَالَ بِنَا ـ أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ عَنْ هَذِهِ الْمَسَارِحِ السَّنِيَّةِ ، وَالْمَنَازِلِ الْبَهِيَّةِ . إِلَى إِحْدَى ضِيَاعِهِ الْحَالِيَةِ[4] ، وَبِقَاعِهِ

(١) يريد أمكن التمتع بنيل البغية كلها والسرور بالحصول عليها تامة هنيئة . والراح الخمر ، والانتشاء منها السكر بها وعملها فى شاربها .

(٢) رفل فى ثيابه اذا جر ذيله وتبختر ، وامرأة رفلة تجر ذيلها جرا حسنا اذا مشت وتميس فى ذلك معجبة مختالة (٣) جمع نافحة من نفح الطيب اذا أرج وفاح ، وفى نسخة « نوافج » بالجيم جمع نافجة وهى وعاء المسك « وهو معرب » (٤) ذات الحلى والزينة . يريد المزدانة بالنبات والمناظر ذات

الْعَالِيَةِ ، فَحَلَلْنَاهَا وَالْأَيْمُ(١) قَدْ عَرِىَ مِنْ جِلْبَابِهِ ، وَالْيَوْمُ قَدِ اكْتَهَلَ بَعْدَ شَبَابِهِ ، فَنَزَلْنَا فِى قُصُورٍ يَقْصُرُ عَنْهَا جَعْفَرِىُّ(٢) جَعْفَرٍ ، وَقُصُورُ بَنِى(٣) الْأَصْفَرِ ، تُهْدِى مِنْ لَبَّاتِهَا(٤) بُرْدًا مُحَبَّرًا ، وَتُبْدِى مِنْ شَذَاهَا مِسْكًا وَعَنْبَرًا ، وَقَدْ لَاحَتْ مِنْ جَوَانِبِهَا نُجُومُ أَكْوَاسٍ ، لَوْ رَآهَا أَبُو نُوَاسٍ لَجَعَلَهَا شِعَارَهُ ، وَوَقَفَ عَلَى نَعْتِهَا أَشْعَارَهُ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ سِوَاهَا نُجْعَةً(٥) ، وَلَا نَبَّهَ خَمَّارَهُ بَعْدَ هَجْعَةٍ(٦) فَتَعَاطَيْنَاهَا وَالسَّعْدُ لَنَا

الحسن والبهجة (١) الايم فى الأصل الثعبان الأبيض الذى لايضر أحدا استعير هنا للنهار (٢) الجعفرى قصر بناه سنة ٢٤٥ أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله الخليفة العباسى بن المعتصم قرب سامراء ، فاستحدث عنده مدينة وانتقل اليها ، وأقطع القواد منها قطائع فصارت أكبر من سامراء وفيه قتل المتوكل سنة ٢٤٧ فعاد الناس الى سامراء ، وللشعراء فى ذكر الجعفرى قصائد بديعة ، ومن أحسن ماقيل فيه قصيدة البحترى التى منها :

قد تم حسن الجعفرى ولم يكن ليتم الا بالخليفة جعفر

(٣) اسم كانوا يطلقونه على الروم أو ملوكهم. قال عدى بن زيد :

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ روم لم يبق منهم مذكور

(٤) اللبة فى الأصل موضع القلادة من الصدر أو وسط الصدر ، والبرد ثوب مخطط ذو وشى ، وحبره اذا وشاه وحسنه ونقشه (٥) النجعة طلب الكلأ فى موضعه ، ويقال هو نجعتى أى أملى ومطلبى على المثل (٦) أى بعد نومة خفيفة ومضى طائفة من الليل وفى نسخة « خمارة » ، يشير الى

خَادِمٌ ، وَمَا غَيْرُ السُّرُورِ عَلَيْنَا قَادِمٌ ، وَخُدُودُ سُقَاتِهَا قَدِ اكْتَسَتْ مِنْ سَنَاهَا ، وَقُدُودُهُمْ تَتَهَيَّلُ(١) عَلَيْنَا بِجَنَاهَا ، وَنَحْنُ بَيْنَ سُكْرٍ وَصَحْوٍ ، وَإِثْبَاتٍ وَمَحْوٍ ، وَإِصَاخَةٍ إِلَى بَمٍّ(٢) وَزِيرٍ ، وَالْتِفَاتَةٍ إِلَى مَلِكٍ وَوَزِيرٍ ، إِلَى أَنْ وَلَّى النَّهَارُ فَحَيَّانَا ، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ الْمُمِيتُ فَأَحْيَانَا ، فَوَصَلْنَاهُ بِلَهْوٍ

قول أبي نواس من أبيات له فيها عبث رقيق ماجن، ورفث نواسى غير عفيف :

وخمارة نبهتها بعد هجعة ... وقد غابت الجوزاء وانحدر النسر
فقالت: من الطراق؟ قلنا: عصابة ... خفاف الأداوى يبتغى لهم خمر

الأداوى جمع إداوة اناء صغير من جلد، يريد أنهم قد نفد شرابهم فخفت أداواهم ، وكانوا يحملون بها الماء ، ومثل أبي نواس وصحبه انما تملأ أداواهم بغير الماء ، فليسوا ممن يكرع القراح ، ولكنهم ممن يرتوون بالراح ، و بعد البيتين قص حديثه مع الخمارة وما رتكبوه في حانها بعد أن شربوا الاثم وذهبت بصوابهم أم الخبائث « أحمد يوسف نجاتى »

(١) تميل ، من قولهم تهيل الرمل اذا تساقط ولم يثبت مكانه ، شبه قدودهم بأغصان تترنح متثنية، وجناها ورد الخدود وتفاحها «وأظنه يريد أنهم كانوا يقتطفون منهم القبل ونحوها مما دعاهم اليه عمل الشراب ونشوة الخمر (٢) البم من أوتار العود وكذلك الزير ، قال :

البم والزير وكأس الطلا ... أولى بشغلى من سؤال الديار

وقال ابن الرومي :

فيه بم وفيه زير من النغـ ... ـم وفيه مثالث ومثانى

« وهذه أسماء الأوتار كلها » « أحمد يوسف نجاتى »

وَقَصْفٍ ، وَعَيْشٍ يَتَجَاوَزُ كُلَّ وَصْفٍ ، فَكَأَنَّ يَوْمَنَا مُقِيمٌ أَوْ كَأَنَّ لَيْلَنَا مِنَ الظَّلَامِ عَقِيمٌ ، وَلَمَّا سَلَّ الْفَجْرُ حُسَامَهُ ، وَأَبْدَى لِعُبُوسِ اللَّيْلِ ابْتِسَامَهُ . وَجَاءَ يَخْتَالُ اخْتِيَالًا ، وَيَمْحُو مِنْ بَقَايَا اللَّيْلِ نِيَالًا(١) ، قُمْنَا نَتَنَاوَبُ(٢) الْمَسِيرَ ، وَكُلُّنَا فِي يَدِ النَّشْوَةِ أَسِيرٌ ، فَسِرْنَا وَالْمَلِكُ الْأَجَلُّ يَقْدُمُنَا ، وَالْأَيَّامُ تَخْدُمُنَا . فَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ بِهِ زَاهِيَةً ، وَعَنْ سِوَاهُ لَاهِيَةً ، مَا عَمَرَ وَكْرًا عُقَابٌ(٣) وَكَانَ لِلشُّهُورِ غُرَرٌ وَأَعْقَابٌ(٤) . انْتَهَى .

***

« وَقَالَ الْفَتْحُ فِي تَرْجَمَةِ الرَّاضِي بِاللهِ أَبِي خَالِدٍ يَزِيدَ — الراضى بالله ابن عباد

(١) يريد صبغا وأثرا باقيا ، وفى بعض النسخ «خيالا» أى أثرا (٢) وفى نسخة «نتنادب» (٣) العقاب هذا الطائر المعروف ، كانوا يدعونه سيد الطيور ، ويرونها أحزم الطير وأشده بأسا . وقيل لبشار بن برد : لو خيرك الله أن تكون حيوانا ماذا كنت تختار ؟ قال : العقاب لأنها تلبث حيث لا يبلغها سبع ولا ذو أربع وتحيد عنها سباع الطير ولا تعانى الصيد الا قليلا بل تسلب كل ذى صيد صيده (٤) الغرة من الشهر ليلة استهلال القمر لبياض أولها تشبيها بغرة الفرس فى جبهته ، وغرة كل شىء أوله ، والأعقاب جمع عقب وهو آخر كل شىء ، و يقال : جئت فى عقب الشهر وعلى عقبه أى لأيام بقيت منه ، فى آخره « أحمد يوسف نجاتى »

أُبْنِ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ[1] » بَعْدَ كَلَامٍ مَا صُورَتُهُ : وَأَخْبَرَنِي الْمُعْتَدُّ بِاللَّهِ أَنَّ أَبَاهُ الْمُعْتَمِدَ وَجَّهَهُ - يَعْنِي أَخَاهُ الرَّاضِيَ - إِلَى شِلْبَ[2] وَالِياً ، وَكَانَتْ مَلْعَبَ شَبَابِهِ ، وَمَأْلَفَ أَحْبَابِهِ ،

---

(١) الأمير يزيد بن محمد المعتمد بن عباد المعتضد، نشأ نشأة أبناء الملوك، ونهل من العلوم والمعارف، ونال ثقافة عالية، وشب شجاعا كريما أديبا ثم ولاه أبوه أعمال الجزيرة الخضراء ومدينة رندة فظهرت كفايته وحسن سياسته ، الى أن كان بالأندلس ما كان من تغلب العدو على مدنها وثغورها شيئا فشيئا ، ودخول يوسف بن تاشفين للجهاد ونزوله بالجزيرة الخضراء سنة ٤٧٩ ثم استولى بعد ذلك على ممالك ابن عباد ، وقتل فى هذه الحروب المأمون بن المعتمد بن عباد بقرطبة سنة ٤٨٤ وقتل كذلك ابنه يزيد الراضى فى تلك الفتنة غدرا، وقد تقدمت القصيدة التى رثاهما بها أبوهما المعتمد ،وله أيضا قصيدة أخرى يرثيهما فيها قالها وقد رأى قمرية تنوح على غصن وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغما، و يغردان ترحة وترنما

بكت أن رأت الفين ضمهما وكر مساء وقد أخنى على الفها الدهر
وناحت فباحت واستراحت بسرها وما نطقت حرفا يبوح به سر
فما لى لا أبكى أم القلب صخرة؟! وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده وأبكى لآلاف عديدهم كثر
بنى صغير أو خليل موافق يمزق ذا قفر، ويغرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء أو رندة القبر
غدرت اذا ان ضن جفنى بقطرة وان لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وتقدم ما آلت اليه حال المعتمد بن عباد بعد ذلك من أسره ووفاته غريبا « أحمد يوسف نجاتى » (٢) شلب مدينة بغرب الأندلس غربى قرطبة

ٱلَّتِي عَمَرَ نُجُودَهَا غُلَامًا ، وَتَذَكَّرَ عُهُودَهَا أَحْلَاما ، وَفِيهَا يَقُولُ -يُخَاطِبُ ٱبْنَ عَمَّارٍ وَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا :

أَلَا حَيِّ أَوْطَانِي بِشِلْبٍ أَبَا بَكْرٍ
وَسَلْهُنَّ: هَلْ عَهْدُ ٱلْوِصَالِ كَمَا أَدْرِي!

وَسَلِّمْ عَلَى قَصْرِ ٱلشَّرَاجِيبِ مِنْ فَتًى
لَهُ أَبَدًا شَوْقٌ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْقَصْرِ (١)

وَقَصْرُ ٱلشَّرَاجِيبِ هٰذَا مُتَنَاهٍ فِي ٱلْبَهَاءِ وَٱلْإِشْرَاقِ ، مُبَاهٍ لِزَوْرَاءِ ٱلْعِرَاقِ ، رَكَضَتْ فِيهِ جِيَادُ رَاحَاتِهِ ، وَأَوْمَضَتْ

كانت قاعدة ولاية أشكونية من المهالك المضافة الى اشبيلية الى الغرب والشمال منها، ولم يكن بالأندلس بعد اشبيلية مثلها ، وقل أن كان المرء يرى من أهلها من لايقول شعرا ولا يعنى بالأدب حتى الصانع فى مصنعه والفلاح خلف فدانه ، وكان المعتضد عباد قد ولى ابنه المعتمد ولاية شلب فى حين شبابه وصباه ،فقضى بها شطرا من أنضر أيام حياته ، فلذلك كان يحن اليها و يعطف عليها (١) بعدها :

منازل آساد و بيض نواعم ... فناهيك من غيل، وناهيك من خدر
وكم ليلة قدبت أنعم جنحها ... بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر
و بيض وسمر فاعلات بمهجتى ... فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لهوا قطعته ... بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم ... نضير كما انشق الكمام عن الزهر

بُرُوقُ أَمَانِيهِ فِي سَاحَاتِهِ ، وَجَرَى ٱلدَّهْرُ مُطِيعًا بَيْنَ بُكَرِهِ وَرَوْحَاتِهِ ، أَيَّامَ لَمْ تُحَلَّ عَنْهُ تَمَائِمُهُ[(١)] ، وَلَا خَلَتْ مِنْ أَزَاهِيرِ ٱلشَّبَابِ كَمَائِمُهُ[(٢)] ، وَكَانَ يَعْتَدُّهَا مُشْتَهَى آمَالِهِ ، وَمُنْتَهَى أَعْمَالِهِ ، إِلَى بَهْجَةِ جَنَبَاتِهَا ، وَطِيبِ نَفَحَاتِهَا وَهَبَّاتِهَا وَٱلْتِفَافِ خَمَائِلِهَا[(٣)] ، وَتَقَلُّدِهَا بِنَهْرِهَا مَكَانَ حَمَائِلِهَا ، وَفِيهَا يَقُولُ ٱبْنُ ٱللَّبَّانَةِ[(٤)] :

أَمَا عَلِمَ ٱلْمُعْتَدُّ بِاللهِ أَنَّنِي
بِحَضْرَتِهِ فِي جَنَّةٍ شَقَّهَا نَهْرُ؟!
وَمَا هُوَ نَهْرٌ أَعْشَبَ ٱلنَّبْتُ حَوْلَهُ
وَلَكِنَّهُ سَيْفٌ حَمَائِلُهُ خُضْرُ

فَلَمَّا صَدَرَ عَنْهَا وَقَدْ حَسُنَتْ آثَارُهُ فِي تَدْبِيرِهَا ، وَٱنْسَدَلَتْ رِعَايَتُهُ عَلَى صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ، نَزَلَ ٱلْمُعْتَمِدُ عَلَيْهِ مُشَرِّفًا لِأَوْبَتِهِ ، وَمُعَرِّفًا بِسُمُوِّ قَدْرِهِ لَدَيْهِ وَرُتْبَتِهِ ، وَأَقَامَ

(١) كناية عن حداثة سنه وصغره ، والتميمة اسم لخرزة رقطاء كانت تنظم فى سير ثم يعقد فى عنق الصبى (٢) جمع كمامة وهى غلاف النور وغطاء الزهر (٣) جمع خميلة وهى الشجر الكثير الملتف الذى لاترى فيه الشيء اذا وقع فى وسطه (٤) تقدمت ترجمته « أحمد يوسف نجاتى »

يَوْمَهُ عِنْـدَهُ مُسْتَرِيحًا ، وَجَرَى فِي مَيْدَانِ الْأُنْسِ بَطَلًا مُشِيحًا[١] ، وَكَانَ وَاجِدًا[٢] عَلَى الرَّاضِي فَجَلَتِ الْحُمَيَّا أُفُقَهُ وَمَحَتْ غَيْظَهُ عَلَيْـهِ وَحَنَقَهُ . وَصَوَّرَتْهُ لَهُ عَيْنُ حُنُوِّهِ ، وَذَكَّرَتْهُ بُعْدَهُ فَجَنَحَ إِلَى دُنُوِّهِ ، وَبَيْنَمَا اسْتُدْعِيَ وَأَوْفَى ، مَالَتْ بِالْمُعْتَمِدِ نَشْوَتُهُ وَأَغْفَى[٣] . فَأَلْفَاهُ صَرِيعًا فِي مُنْتَدَاهُ ، طَرِيحًا فِي مُنْتَهَى مَدَاهُ . فَأَقَامَ تُجَاهَهُ . يَرْتَقِبُ انْتِبَاهَهُ ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ صَنَعَ شِعْرًا أَتْقَنَهُ وَجَوَّدَهُ . فَلَمَّـا اسْتَيْقَظَ أَنْشَدَهُ :

أَلَانَ تَعُودُ حَيَـاةُ الْأَمَلْ وَيَدْنُو شِفَاءُ فُؤَادٍ مُعَلّْ

(١) المشيح الجاد في الأمور الحذر لا يكاد عدوه يناله . قال عمرو بن الأطنابة :

واقدامى على المـكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح

(٢) غاضبا ، وكان المعتمد كثيرا مايرمى ابنه الراضى بملامه ، ويصميه بسهامه ، وكان الراضى يستعطفه بشعر يسيل رقة وعـذوبة ، فمن ذلك قوله له وقد أنهض جماعة من اخوته وأقعده ، وأدناهم وأبعده .

أعيـذك أن يكون بنا خمـول ويطلع غـيرنا ولنـا أفـول
حنانك ! ان يكن جرمى قبيحا فان الصفح عن جرمى جميل
ألست بفرعك الزاكى ؟ ! وماذا يرجى الفرع خانته الأصول ؟!

(٣) أوفى عليه أشرف ، وأوفى القوم ووافاهم اذا جاءهم وأقبـل عليهم ، وأغفى نعس ونام « أحمد يوسف نجاتى »

وَيُورِقُ لِلْعِزِّ غُصْنٌ ذَوَى
وَيَطْلُعُ لِلسَّعْدِ نَجْمٌ أَفَلْ[1]
فَقَدْ وَعَدَتْنِي سَحَابُ الرِّضَا
بَوَابِلِهَا حِينَ جَادَتْ بِطَلّْ
أَيَا مَلِكًا أَمْرُهُ نَافِذٌ
فَمَنْ شَاءَ عَزَّ وَمَنْ شَاءَ ذَلّْ
دَعَوْتَ فَطَارَ بِقَلْبِي السُّرُورْ
إِلَيْكَ وَإِنْ كَانَ مِنْكَ الْوَجَلْ
كَمَا يَسْتَطِيرُكَ حُبُّ الْوَغَى
إِلَيْهَا وَفِيهَا الظُّبَا وَالْأَسَلْ[2]
فَلَا غَرْوَ إِنْ كَانَ مِنْكَ اغْتِفَارٌ
وَإِنْ كَانَ مِنَّا جَمِيعًا زَلَلْ[3]

(١) ذوى ذبل وجف ، وأفل غاب (٢) استطاره الأمر اذا ذهب به بسرعة كأنه سار اليه على جناح طير ، واستطير الفرس اذا أسرع الجرى ، واستطار السيف اذا سله وانتزعه من غمده مسرعا ، والظبا جمع ظبة وهى حد السيف والسنان ونحوهما كالنصل والخنجر وشبهه. والأسل الرماح والنبل (٣) لاغرو أى لاعجب ، والزلل الخطأ

فَمِثْلُكَ - وَهُوَ الَّذِى لَمْ نَجِـدْ
هُ - عَادَ بِحِلْمٍ عَلَى مَنْ جَهِـلْ(١)

انْتَهَى

***

المتوكل بن الأفطس

« وَقَالَ فِى تَرْجَمَـةِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللهِ ابْنِ الْأَفْطَسِ(٢) مَا صُورَتُهُ » وَأَخْبَرَنِى الْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدُونَ(٣) أَنَّ الْأَرْضَ تَوَالَى عَلَيْهَا الْجَدْبُ بِحَضْرَتِهِ حَتَّى جَفَّتْ مَذَانِبُهَا(٤) وَاغْبَرَّتْ جَوَانِبُهَا ، وَغَرَّدَ الْمُكَّاءُ(٥) فِى غَيْرِ رَوْضَةٍ ، وَخَاضَ

(١) هذا مثل قول البحترى :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ   دد والمجد والمكارم مثلا

(٢) هو أبو حفص عمر بن محمد المظفر بن عبد الله بن مسلمة التجيبى المعروف بابن الأفطس صاحب بطليوس ، قام المتوكل بالأمر بعد وفاة أبيه المظفر سنة ٤٦٠ فلم يزل حتى قتله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٩ وتقدم التعريف ببنى الأفطس وغيرهم من ملوك الطوائف « أحمد يوسف نجاتى »

(٣) هو الوزير الكاتب البارع والشاعر المجيد والمؤرخ الخبير ذو الوزارتين عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهرى من أهل يابرة ، كان من كتاب المتوكل على الله ونعت حاله معه، وهو من كتاب المغرب المبرزين غزير الأدب نبيه القدر حاضر البديهة سريع الخاطر ، توفى بمدينة يابرة منصرفا لزيارة من له بها سنة ٥٢٩ « أحمد يوسف نجاتى » (٤) جمع مذنب وهو الجدول يسيل عن الروضة بمائها الى غيرها فيفرق ماءها فيها ، والتى يسيل عليها الماء مذنب أيضا ، والمذنب مسيل ما بين التلعتين ، أو مسيل الماء الى الأرض ، وأذناب الأودية ومذانبها أسافلها (٥) المكاء طائر صغير

اَلْيَأْسُ بِالنَّاسِ أَعْظَمَ خَوْضِهِ ، وَأَبْدَتِ اَلْخَمَائِلُ عُبُوسَهَا ، وَشَكَتْ اَلْأَرْضُ لِلسَّمَاءِ بُؤْسَهَا ، فَأَقْلَعَ اَلْمُتَوَكِّلُ عَنِ اَلشُّرْبِ وَاَللَّهْوِ ، وَنَزَعَ مَلَابِسَ اَلْخُيَلَاءِ وَاَلزَّهْوِ ، وَأَظْهَرَ اَلْخُشُوعَ ، وَأَكْثَرَ اَلسُّجُودَ وَاَلرُّكُوعَ ، إِلَى أَنْ غَيَّمَ اَلْجَوُّ وَاُنْسَجَمَ اَلنَّوْءُ ، وَصَابَ[1] اَلْغَمَامُ ، وَتَرَنَّمَتِ اَلْحَمَامُ . وَسَفَرَتِ اَلْأَزْهَارُ ، وَزَهَتِ اَلنُّجُودُ وَاَلْأَغْوَارُ . وَاُتَّفَقَ أَنْ وَصَلَ أَبُو يُوسُفَ اَلْمُغَنِّي وَاَلْأَرْضُ قَدْ لَبِسَتْ زَخَارِفَهَا . وَرَقَمَ[2]

يزقو و يصيح فى الرياض و يألف الريف، وهو طائر أبيض يكون بالحجاز وله صفير ، ولأنه انما يألف الرياض و يغرد فيها كان تغريده فى غير روضة علامة على افراط الجدب وعدم النبات ، قال الشاعر :

اذا غرد المكاء فى غير روضة ... فويل لأهل الشاء والحمرات

لأنه اذا اشتد الجدب ولم يكن بالأرض نبات هلك الشاء والحمير ، فالويل لمن لم يكن له مال غيرهما ، وورد أعرابى الحضر فرأى مكاء يصيح فحن الى بلاده فقال :

ألا أيها المكاء مالك هاهنا ... ألاء ولا شيح فأين تبيض

فأصعد الى أرض المكاكى واجتنب ... قرى الشام لا تصبح وأنت مريض

والمكاء من طير البادية ، وجمعه مكاكى ، وهو من مكا يمكو اذا صفر ، ومنه قوله تعالى « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » « أحمد يوسف نجاتى » (١) النوء المطر ، وصاب المطر يصوب اذا انهمل (٢) رقمها اذا وشاها بألوان الزهر «أحمد يوسف نجاتى»

الْغَمَامُ مَطَارِفَهَا ، وَتَتَوَّجَتْ الْغِيطَانُ(١) وَالرُّبَا ، وَأَرِجَتْ نَفَحَاتُ الصَّبَا ، وَالْمُتَوَكِّلُ مَا فَضَّ لِتَوْبَتِهِ خِتَامًا ، وَلَا قَوَّضَ عَنْ قَلْبِهِ مِنْهَا خِيَامًا(٢) ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَلَمَّ أَبُو يُوسُفٍ وَالْمَطَرْ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِىَ مَا يُنْتَظَرْ

وَلَسْتُ بِآبٍ وَأَنْتَ الشَّهِيدُ
حُضُورَ نَدِيِّكَ فِيمَنْ حَضَرْ(٣)

وَلَا مَطْلَعِى وَسْطَ تِلْكَ السَّمَا
ءِ بَيْنَ النُّجُومِ وَبَيْنَ الْقَمَرْ

وَرَكْضِىَ فِيهَا جِيَادَ الْمُدَا
مِ مَحْثُوثَةً بِسِيَاطِ الْوَتَرْ(٤)

---

(١) جمع غوط وهو المطمئن الواسع من الأرض فيه انخفاض ، والربوة المرتفع من الأرض. وفى القلائد «تدبجت» بدل «تتوجت» والمآل واحد ، ودبج : نقش وزين ،والغرض أن الغيث وشى الأرض بالنبات وأحياها بعد موتها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٢) الذى فى القلائد « ولانقض عن قلبه منها قتاما » والقتام الغبار ، وما فى النفح أولى مما فى القلائد ، وقوض الخيام اذا هدمها يريد الارتحال (٣) أبى الشىء اذا لم يرضه وامتنع منه . والندى :المجلس مكان الاجتماع(٤)الركض استحثاث الفرس للعدو ، يريد الشراب والغناء « أحمد يوسف نجاتى »

فَبَعَثَ إِلَيْهِ مَرْكُوبًا وَكَتَبَ مَعَهُ :

بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنَاحًا فَطِرْ
عَلَى خِفْيَةٍ مِنْ عُيُونِ الْبَشَرْ
عَلَى ذُلُلٍ مِنْ نِتَاجِ الْبُرُوق
وَفِى ظُلَلٍ مِنْ نَسِيجِ الشَّجَرْ[1]
فَحَسْبِى مِمَّنْ نَأَى مَنْ دَنَا
فَمَنْ غَابَ كَانَ فِدَا مَنْ حَضَرْ

فَوَصَلَ الْقَصَبَةَ[2] الْمُطِلَّةَ عَلَى الْبَطْحَاءِ[3] ، الْمُزْرِيَةَ بِمَنَازِلِ الرَّوْحَاءِ[4] ، فَأَقَامَ مِنْهَا حَيْثُ قَالَ عَدِىُّ بْنُ زَيْدٍ

(١) فى الأصل «على فلك» والذلل جمع ذلول الدابة المنقادة ليست بصعبة ـ يريد جوادا كريما سريعا كالبرق ، والظلل جمع ظلة مايستظل به من الشمس ، وماأظلك من شجر ، وشىء كالصفة يستتر به من الحر والبرد (٢) فى الأصل « القبة » والقصبة المدينة ، وقصبة البلاد مدينتها ، والقصبة أيضا القصر أو جوفه (٣) مسيل واسع فيه دقاق الحصى (٤) الروحاء بلدة من رحبة الشام « أى رحبة مالك بن طوق » وبلدة أخرى من أعمال نهر عيسى بن على بن عبدالله بن العباس ، وهو كورة واسعة غربى بغداد ، وموضع بين الحرمين الشريفين على نحو ٣٦ ميلا من المدينة ، وفيه يقول بعض الأعراب :

• أفى كل يوم أنت رام بلادها   بعينين انسانا هما غرقان

يَصِفُ صَنْعَاءَ(١) :

***

عدى بن زيد يصف صنعاء (والصحيح أنه يزيد بن معاوية)

فِي قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ حَوْلَهَا اُلزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا

وَمَضَى لَهُمْ مِنَ اُلسُّرُورِ يَوْمٌ مَامَرَّ لِذِي رُعَيْنٍ(٢) ، وَلَا

اذا اغرورقت عيناى قال صحابتى لقد أولعت عيناك بالهملان

ألا فاحملانى بارك الله فيكما الى حاضر الروحاء ثم ذرانى

واسمها مأخوذ من الراحة ، ويوم روح أى طيب ، والروح الانبساط والسعة « أحمد يوسف نجاتى » (١) فى الأصل « مصنعا » وصنعاء هنا قرية كانت بالغوطة من دمشق ، وقد خربت وصارت مزرعة و بساتين — ثم المعروف أن هذا البيت ليزيد بن معاوية من أبيات فى الماطرون «موضع بالشام قرب دمشق » منها :

آب هذا الهم فاكتنعا وأمر النوم فامتنعا

جالسا للنجم أرقبه فاذا ما كوكب طلعا

صار حتى أننى لأرى أنه بالغور قد وقعا

ولها بالماطرون اذا أكل النمل الذى جمعا

خرفة حتى اذا ارتبعت سكنت من جلق بيعا

فى قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد ينعا

والأبيات يقولها يزيد يتغزل فى نصرانية كانت قد ترهبت فى دير كان عند الماطرون « بستان بظاهر دمشق يسمى المنطور » آب عاد ، واكتنع قرب ودنا ، والدسكرة بناء على هيئة القصر فيه منازل و بيوت للخدم والحشم — وتنسب الأبيات أيضا الى الأخطل — والدسكرة بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهى ، معرب : دست كره ودست بمعنى الشىء الذى مع أفراده التامة ، وكره بيت الخان والمدرسة ، ونسبت الأبيات للأحوص ، وزعم بعضهم أنها لأبى دهبل الجمحى ، والصحيح أنها ليزيد ابن معاوية كما قدمنا « أحمد يوسف نجاتى » (٢) ذورعين من ملوك

تَصَوَّرَ قَبْلَ عُيُونِهِمْ لِعَيْنٍ ، وَأَخْبَرَنِى أَنَّهُ سَايَرَهُ إِلى شَنْتَرِينَ[١] قَاصِيَةِ أَرْضِ الْإِسْلَامِ ، السَّامِيَةِ الذُّرَا وَالْأَعْلَامِ ، الَّتِى لَا يَرُوعُهَا صَرْفٌ ، وَلَا يَقْرَعُهَا[٢] طَرْفٌ ، لِأَنَّهَا مُتَوَعِّرَةُ الْمَرَاقِى ، مُعَقِّرَةٌ[٣] لِلرَّاقِى ، مُتَمَكِّنَةُ الرَّوَاسِى

حمير من ولد الحرث بن عمرو بن حمير ، وقيل فى نسبه غير ذلك ، ورعين حصن له أو جبل فيه حصن ، وهو القائل :

ألا من يشترى سهرا بنوم سعيد من يبيت قرير عين

فأما حمير غدرت وخانت فمعذرة الاله لذى رعين

وكان من أقيال حمير العقلاء ذوى السداد وأصالة الرأى «أحمد يوسف نجاتى»

(١) شنترين مدينة كانت مضافة الى أعمال قاعدة أشبونة ، وكانت قديما من جليقية شمالى الأندلس ، ثم استقرت من أعمال أشبونة التى كانت مضافة الى بطليوس حين كان مالكها ابن الأفطس — وقد تضاف الى أعمال باجة فى غرب الأندلس — وشنترين غربى قرطبة على نهر تاجه قرب انصبابه فى البحر المحيط « بحر برطانية وهو بحر برديل « بوردو » الخارج من البحر المحيط » وأرضها طيبة ، وكانت منيعة ذات حصانة ، واستولى الفرنج عليها فى سنة ٥٤٣ « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) قرعه علاه ، يريد أن الطرف لا يسمو اليها لعلوها الشاهق (٣) فى الأصل « معفرة » وفى نسخة أخرى « مغفرة » وفى القلائد « معثرة » من عثر اذا كبا وسقط ، يعنى أنها تجعل من يحاول أن يرقى عليها كثير التعثر لصعوبتها ووعورتها وكثرة عقباتها ، ولعل « معفرة » من عفر الرجل « كفرح » اذا لم تطاوعه رجلاه فى الشد ، وعقر البعير تعقيرا

وَالْقَوَاعِدِ ، عَلَى صَفَّةِ نَهْرٍ اسْتَدَارَ بِهَا اسْتِدَارَةَ الْقُلْبِ[١] بِالسَّاعِدِ ، قَدْ أَطَلَّتْ عَلَى خَمَائِلِهَا إِطْلَالَ الْعَرُوسِ مِنْ مِنَصَّتِهَا[٢] وَاقْتَطَعَتْ مِنَ الْجَوِّ أَكْثَرَ مِنْ حِصَّتِهَا ، فَمَرُّوا بِأَنْفَس[٣] قُطْرٍ سَالَتْ بِهِ جَدَاوِلُهُ ، وَاخْتَالَتْ فِيهِ خَمَائِلُهُ فَمَا يَجُولُ الطَّرْفُ مِنْهُ إِلَّا فِي حَدِيقَةٍ ، أَوْ بُقْعَةٍ أَنِيقَةٍ ،

اذا قطع قوائمه ، والعقر الجرح (١) القلب: السوار (٢) المنصة ما ترفع عليه العروس لتجلى كسريرها وكرسيها ، ونص العروس أجلسها على المنصة (٣) كذا بالأصل، وفى القلائد « بألبش » وألبش من الثغور الجوفية مدينة كانت من أعمال بطليوس من غرب الأندلس « ومملكة بطليوس فى الشمال والغرب من مملكة قرطبة ، وفى الغرب بميلة الى الجنوب عن مملكة طليطلة فى بسيط من الأرض مخضر على جانب نهر ، وقد عرفت أنها كانت بيد المتوكل على الله عمر بن الأفطس » ومن أهل ألبش أبو الحسن عبيد الله بن خليفة المعروف بابن الموصلى نسبة الى موصل قرية بأشبونة ـ كان من أهل العلم والنباهة، و ولى قضاء اشبيلية فى الدولة اللمتونية بعد أبى بكر بن العربى استقدم لذلك من بلده بالثغر ، وتوفى بها مصروفا عن عمله سنة ٥٦٠ ودفن هنالك . ومن ألبش أيضا أبو محمد عبد الله بن نتان « أو منتان » النحوى ، سكن اشبيلية وقرطبة وأقرأ بهما ، وكان عالما بالعربية والآداب حافظا لكثير من كلام العرب ذاكرا لكتابى الكامل للمبرد والأمالى للقالى، وكان له حظ من قرض الشعر ، وعلم بقرطبة سنة ٥٩٨ وتوفى حوالى سنة ٦٠٠ هـ ولم أعثر على ألبش هذه بمعجم ياقوت « أحمد يوسف نجاتى »

فتلقَّاهُمْ ابْنُ مُقَانَا[١] قَاضِي حَضْرَتِهِ[٢] وَأَنْزَلَهُمْ عِنْدَهُ، وَأَوْرَى لَهُمْ بِالْمَبَرَّةِ زَنْدَهُ، وَقَدَّمَ لَهُمْ طَعَامًا، وَاعْتَقَدَ قَبُولَهُ مَنًّا وَإِنْعَامًا، وَعِنْدَمَا طَعِمُوا قَعَدَ الْقَاضِي بِبَابِ الْمَجْلِسِ رَقِيبًا لَا يَبْرَحُ، وَعَيْنُ الْمُتَوَكِّلِ حَيَاءً مِنْهُ لَا تَجُولُ وَلَا تَمْرَحُ فَخَرَجَ أَبُو مُحَمَّدٍ[٣] وَقَدْ أَبْرَمَهُ الْقَاضِي بِتَثْقِيلِهِ، وَحَرَمَهُ رَاحَةَ رَوَاحِهِ وَمَقِيلِهِ، فَلَقِيَ ابْنَ خَيْرُونَ[٤] مُنْتَظِرًا لَهُ، وَقَدْ أَعَدَّ لِحُلُولِهِ مَنْزِلَهُ، فَسَارَ إِلَى مَجْلِسٍ قَدِ ابْتَسَمَتْ ثُغُورُ نُوَّارِهِ، وَخَجِلَتْ خُدُودُ وَرْدِهِ مِنْ زُوَّارِهِ، وَأَبْدَتْ صُدُورُ أَبَارِيقِهِ أَسْرَارَهَا، وَضَمَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَاسِنُ أَزْرَارَهَا،

(١) تقدم ذكر أبي زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبونى البطليوسى، وكان مع فقهه شاعرا أديبا مشهورا، وفى بعض المراجع «ابن مقاناة». «أحمد يوسف نجاتى» (٢) كذا بالأصل، والذى فى القلائد «قاضى رندة» وقد تقدم ذكر مدينة رندة، وكانت من كور اشبيلية من مملكة المعتمد بن عباد، وهى أيضا غربى مملكة قرطبة (٣) الأديب ابن عبدون، وأبرمه أضجره (٤) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يونس القضاعى أصله من مدينة أندة وسكن مربيطر «من أعمال بلنسية» كان راوية فقيها حافظا أديبا، وتوفى سنة ٥١٠، وأبو عمر يوسف بن عبد الله بن خيرون الأديب النحوى توفى نحو سنة ٤٧٠، وسيأتى ذكر لابن خيرون بعد ذلك فتعين أيهما المراد هنا من هذين. «أحمد يوسف نجاتى».

وَلَمَّا حَضَرَ لَهُ وَقْتُ ٱلْأُنْسِ وَحِينُهُ ، وَأَرِجَتْ لَهُ رَيَاحِينُه ، وَجَّهَ مَنْ يَرْقُبُ ٱلْمُتَوَكِّلَ حَتَّى يَقُومَ جَلِيسُهُ ، وَيَزُولَ مُوحِشُهُ لَا أَنِيسُهُ ، فَأَقَامَ رَسُولُهُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ لَا يَرِيمُهُ[1] قَدْ لَازَمَهُ كَأَنَّهُ غَرِيمُهُ ، فَمَا ٱنْفَصَلَ ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّ عَارِضَ ٱللَّيْلِ قَدْ نَصَلَ[2] ، فَلَمَّا عَلِمَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِانْفِصَالِهِ بَعَثَ إِلَى ٱلْمُتَوَكِّلِ قَطِيعَ رَاحٍ وَطَبَقَ وَرْدٍ وَكَتَبَ مَعَهُمَا :

إِلَيْكَهَا فَاجْتَلِهَا مُنِيرَةً
وَقَدْ خَبَا[3] حَتَّى ٱلشِّهَابُ ٱلثَّاقِبُ
وَاقِفَةً بِالْبَابِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهَا
إِلَّا وَقَدْ كَادَ يَنَامُ ٱلْحَاجِبُ
فَبَعْضُهَا مِنَ ٱلْمَخَافِ جَامِدٌ وَبَعْضُهَا مِنَ ٱلْحَيَاءِ ذَائِبُ

---

(١) أى لايبرحه ولا يفارقه ، وأكثر مايستعمل فى النفى ، قال الأعشى
أبانا فلا رمت من عندنا فانا بخير اذا لم ترم

(٢) أى زال سواده ، ونصل الشعر « كقعد » زال عنه الخضاب ، ونصلت اللحية خرجت من الخضاب وزال عنها لونه (٣) فى الأصل « دجا » وفى القلائد « خبا » وخبت النار اذا سكنت وطفئت وخمد لهيبها ـ يريد قد هدأ العالم وسكنت الطبيعة ، ودجا الليل اذا أظلم ، وسكن ، والدجا سواد الليل مع غيم وألا ترى نجما ولا قمرا . « أحمد يوسف نجاتى »

فَقَبِلَهَا مِنْهُ ـ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَعَفَا عَنْهُ ـ وَكَتَبَ إِلَيْهِ :

قَدْ وَصَلَتْ تِلْكَ ٱلَّتِي زَفَفْتَهَا
بِكْرًا وَقَدْ شَابَتْ لَهَا ذَوَائِبُ
فَهُبَّ حَتَّى نَسْتَرِدَّ ذَاهِبًا
مِنْ أُنْسِنَا إِنِ ٱسْتُرِدَّ ذَاهِبُ

فَرَكِبَ إِلَيْهِ ، وَنَقَلَ مَعَهُ مَا كَانَ بِالْمَجْلِسِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَبَاتَا لَيْلَتَهُمَا لَا يَرِيمَانِ ٱلسَّهَرَ ، وَلَا يَشِيمَانِ بَرْقًا إِلَّا ٱلْكَاسَ وَٱلزَّهَرَ

***

وصف روض

« ثُمَّ قَالَ » بَعْدَ كَلَامٍ : وَأَخْبَرَنِي ٱلْوَزِيرُ ٱلْفَقِيهُ أَبُو أَيُّوبَ[1] بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ أَنَّهُ مَرَّ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ بِرَوْضٍ

(١) ذكره الفتح بن خاقان فى كتابه « مطمح الأنفس » وأثنى عليه ، قال :واحد الأندلس الذى طوقها فخارا ، وطبقها بأوانه افتخارا ، .. ثم قال : ودعى للقضاء فما رضى ، وعفى عنه فكأنه استقضى ووصفه بالأدب والوقار والمجد وكرم السجايا وحسن الشمائل، وأتى بشىء من نثره وشعره . قلت أما أبوه أبو أمية فهو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم ابن عبد الله بن عصام قاضى قضاة الشرق فى عصره، كان قاضيا بمدينة مرسية ثم فى دولة اللثمين صرفه عنها على بن يوسف بن تاشفين وولى مكانه

مُفْتَرِّ(١) اْلمبَاسِمِ ، مُعطِّرِ اْلرِّيَاحِ اْلنَّوَاسِمِ(٢) قَدْ صَقَلَ اْلرَّبيعُ حَوْذَانَهُ(٣) ، وَأَنْطقَ بُلْبُلَهُ وَوَرَشَانَهُ(٤) ، وَأَلْحَفَ غُصُونَهُ بُرُودًا مُخْضَرَّةً ، وَجَعَلَ إِشْرَاقَهُ لِلشَّمْسِ ضَرَّةً ، وَأَزَاهِيرُهُ تَتِيهُ عَلَى اْلـكَوَاكِبِ ، وَتَخْتَالُ فِي خِلَعِ اْلغَمَامِ اْلسَّوَاكِبِ ، فَارْتَاحَ إِلَى اْلـكَوْنِ بِهِ بَقِيَّةَ نَهَارِهِ ، وَاْلتَّنَعُّمِ بِبَنَفْسَجِهِ وَبَهَارِهِ(٥) ، فَلمَّا حَصَلَ مِنْ أُنْسِهِ فِي وَسَطِ اْلمَدَى ، عَمَدَ إِلَى وَرَقَةِ كُرُنْبٍ قَدْ بَلَّلَهَا اْلنَّـدَى . وَكَتَبَ فِيهَا

القاضى الامام أبا على ابن سكرة الصدفى السرقسطى المعروف بابن الدراج ، وكان أبو أمية فقيها أديبا شاعرا ، من أهل بيت جلالة ووزارة ، بليغا متصرفا فى فنـون القـول مهيبا وقورا ، يأخذ عليه بعض منافسيه شيئا من الزهو وحب العظمة والاعجاب بالنفس ، ولـكنه كان ذا علاء وحدة ذكاء ، وقوة مضاء ، استوفى شرط الرياسـة ، وعرف بأصالة الرأى وحسن السياسة ، وله شعر جيد ونثر حسن ، وتوفى سنة ٥١٦ وكان ابنه عبد الرحمن بن أبى أمية بن عصام فقيها محدثا أديبا «أحمد يوسف نجاتى»

(١) افتر ضاحكا اذا أبدى أسنانه ، وافتر ثغره اذا تبسم وضحك ضحكا حسنا (٢) جمع ناسمة من نسمت الريح اذا هبت بلطف وكانت ذات نفس ضعيف كالنسيم (٣) الحوذان بقلة من بقول الرياض لها نور أصفر ذو رائحة ذكية (٤) الورشان طائر مغرد شبه الحمام ، ويسمى ساق حر . أو هو نوع من القمارى (٥) البهار نبت طيب الريح أو هو العرار له زهرة صفراء تنبت أيام الربيع . «أحمد يوسف نجاتى»

بِطَرَفِ غُصْنٍ يَسْتَدْعِي ٱلْوَزِيرَ أَبَا طَالِبِ بْنَ غَانِمٍ أَحَدَ نُدَمَائِهِ ، وَنُجُومِ سَمَائِهِ :

أَقْبِلْ أَبَا طَالِبٍ إِلَيْنَا وَقَعْ وُقُوعَ ٱلنَّدَى عَلَيْنَا

فَنَحْنُ عِقْدٌ بِغَيْرِ وُسْطَى[(١)] مَا لَمْ تَكُنْ حَاضِرًا لَدَيْنَا

***

ترجمة المعتصم ابن صمادح

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ ٱلْمُعْتَصِمِ بْنِ صُمَادِحَ[(٢)] مَا صُورَتُهُ » :

وَأَخْبَرَنِي ٱلْوَزِيرُ أَبُو خَالِدِ بْنُ بَشْتَغَيْرَ[(٣)] أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَهُ

(١) وسطى العقد أكرم جواهره وأنفس حباته ، وبه يتم انتساقه ، ويحسن نظامه ، ويجمل شكله ، ويكمل التئامه (٢) هو أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي صاحب المرية ، قام بالأمر فيها سنة ٤٤٤ بعد وفاة أبيه معن بن صمادح « وكان قائد عبد العزيز بن أبي عامر » ولم يزل المعتصم أميرا بها حتى توفي سنة ٤٨٤ فوليه ابنه أحمد وبقي حتى خلعه يوسف بن تاشفين . وقد سبقت كلمتنا في بني صمادح وولايتهم فارجع اليها . « أحمد يوسف نجاتي » (٣) في الأصل « بشتغين » وهو تصحيف وابن بشتغير Ibn Baxtagair وهو لقب من كلمة لاتينية Bastagarius معناها من يوكل اليه نقل أمتعة الدولة أو الكنيسة في أيام الاحتفالات العامة وكانت وظيفة ذات شرف ، والقائم بها أمين ثقة ، وبنو بشتغير كانوا من ذوي البيوتات النبيهة بالأندلس وممن ولوا الأعمال العظيمة والولايات الرفيعة بها ، ولهم أثر في العلوم والمعارف والآداب ، وليس هذا موضع بسط القول في هذه الأسرة الراقية ، فسيكون لهم مكان متسع من كتابنا الجامع في الأدب ، وهم ينسبون الى لخم ، وموطنهم مدينة لورقة ـ ومنهم أبو قاسم

بِالصُّمَادِحِيَّةِ فِي يَوْمٍ غَيْمٍ وَفِيهِ أَعْيَانُ الْوُزَراءِ ، وَنُبهاءُ الشُّعَرَاءِ ، فقَعَدَ عَلَى مَوْضِعٍ يَتَدَاخَلُ الْمَاءُ فِيهِ ، وَيلْتَوى فِي نَوَاحِيهِ ، وَالْمُعْتَصِمُ مُنْشَرِحُ النَّفْسِ ، مُجْتَمِعُ الْأُنْسِ ، فقَالَ :

أنْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَذَا الْمَاءِ فِي صَبَبِهْ(١)
كَأَنَّهُ أَرْقَمٌ قَدْ جَدَّ فِي هَرَبِهْ

فَاسْتَبْدَعُوهُ ، وَتَيَمَّوهُ بِهِ وَأَوْلَعُوهُ ، فَأَسْكَبَ عَلَيْهِمْ شَآبِيبَ(٢) نَدَاهُ ، وَأَغْرَبَ(٣) بِمَا أَظْهَرَهُ مِنْ بِشْرِهِ وَأَبْدَاهُ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ : وَخَرَجَ إِلَى بَرْجَةَ(٤) وَدَلَايَةَ وَهُمَا

عباس بن أحمد بن بشتغير اللخمي الباجي توفي حوالي سنة ٤٥٠ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن سعيد بن خالد بن بشتغير كان محدثا ثقة واسع الرواية وفقيها أديبا توفي سنة ٥١٦ ، وأبو عامر يحيي بن سعيد وكان يسكن مرسية وكان من أهل الفضل والرواية ، ولأبي عبد الله بن أبي الخصال الكاتب المشهور « وقد تقدم ذكره » اليه رسالة بليغة يخاطبه بها « تدل على عظم قدره ورفعة شأنه ، وابنه أبو عامر سعيد بن يحيي ، وأبو جعفر أحمد بن يحيي كانا من ذوي العلم والأدب ، وكانوا غرة في جبين القرن السادس . « أحمد يوسف نجاتي » (١) انحداره ، والصبب تصوب نهر أو طريق يكون في حدور ، وما انحدر من الأرض ، والأرقم الحية مرقومة ذات خطوط (٢) جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر ، وأسكبه : صبه منهمرا (٣) بالغ (٤) تقدم وصف مدينة برجة ، ودلاية بلد قريب من المرية من

نَظَرَانِ(١) لَمْ يَجُلْ فِي مِثْلِهِمَا نَاظِرٌ ، وَلَمْ تَدَّعِ حُسْنَهُمَا الْخُدُودُ النَّوَاضِرُ ، غُصُونٌ تُثَنِّيهَا الرِّيَاحُ ، وَمِيَاهٌ لَهَا انْسِيَاحٌ ، وَحَدَائِقُ تُهْدِي الْأَرَجَ وَالْعَرْفَ ، وَمَنَازِهُ تُبْهِجُ النَّفْسَ وَتُمَتِّعُ الطَّرْفَ ، فَأَقَامَ فِيهَا أَيَّامًا يَتَدَرَّجُ فِي مَسَارِحِهَا ، وَيَتَصَرَّفُ فِي مَنَازِهِهَا وَمَسَايِحِهَا ، وَكَانَتْ نُزْهَةً أَرْبَتْ عَلَى نُزْهَةِ هِشَامٍ بِدَيْرِ(٢) الرُّصَافَةِ ، وَأَنَافَتْ(٣) عَلَيْهَا أَيَّ إِنَافَةٍ .



ترجمة ابن رزين

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ ابْنِ رَزِينٍ(٤) مَا مُلَخَّصَهُ » : أَخْبَرَنِي

---

(١) عملان أو بلدان ، وفى الأصل « منظران » سواحل بحر الأندلس والمناظر أشراف الأرض لأنه ينظر منها ، والنظر : الحكم بين القوم ، وقد يطلق النظر على المدينة أو الولاية التى يتولى فيها الحاكم الحكم .

(٢) هو فى رصافة هشام بن عبد الملك بن مروان التى بينها و بين الرقة مرحلة ، وكان من عجائب الدنيا حسنا وعمارة ، وعنده بنى هشام مدينته وفيه يقول أبو نواس :

ليس كالدير بالرصافة دير ... فيه ماتشتهى النفوس وتهوى

بتــه ليــلة فقضيت أو طا ... را و يوما ملأت قطريه لهوا

وكان لبنى أمية فى هذه الأنحاء أيام سرور ، ومجالس أنس وحبور ، وكانت خلافة هشام سنة ٩٦ وتوفى سنة ١٢٥ وجدد الرصافة وسكنها ، وكان يجد فيها راحة وأنسا . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) أناف : أشرف وزاد

(٤) تقدم التعريف بالحاجب ذى الرياستين أبى مروان عبدالملك بن رزين

الْوَزِيرُ أَبُو عَامِرٍ (١) أَنَّهُ اصْطَبَحَ يَوْمًا وَالْجَوُّ سِمَاكِيُّ (٢) الْعَوَارِفِ ، لَا زَوَرْدِيُّ الْمَطَارِفِ (٣) ، وَالرَّوْضُ أَنِيقَةٌ لَبَّاتُهُ (٤) ، رَقِيقَةٌ (٥) هَبَّاتُهُ ، وَالنَّوْرُ مُبْتَلٌّ ، وَالنَّسِيمُ مُعْتَلٌّ ، وَمَعَهُ قَوْمُهُ ، وَقَدْ رَاقَهُمْ يَوْمُهُ ، وَصِلَاتُهُ تُصَافِحُ مُعْتَفِيهِمْ (٦) ، وَمَبَرَّاتُهُ تُشَافِهُ مُوَافِيهِمْ ، وَالرَّاحُ تُشَعْشَعُ (٧) ، وَمَاءُ الْأَمَانِيِّ يَنْشَعُ ، فَكَتَبَ إِلَى ابْنِ عَمَّارٍ وَهُوَ ضَيْفُهُ :

(١) فى القلائد : أبو عامر بن سنون (٢) كذا بالأصل والقلائد ، وفى بعض المراجع « مسكى » فالسماكى نسبة الى السماك الكوكب المعروف « وسبق القول فى السماكين » وكأنه يريد أن الجوفى أخريات الربيع فأن العرب يقول ساجعها : اذا طلع السماك ، ذهب العكاك ، وقل على الماء اللكاك ، فأصلح قناك ، وأجد حذاك ، فأن الشتاء قد أتاك . والعكاك شدة الحرمع سكون الريح ، واللكاك شدة الزحام . والسماك من الكواكب التى كانت العرب تنسب اليها الأنواء والمطر والسحب كما قيل :

فليت سماكيا يطير ربابه يقاد الى أهل الغضا بزمام

والعوارف جمع عارفة أى معروف ، يريد بها الغيث على رواية سماكى ، أو ذكاء الرائحة والعرف على رواية مسكى (٣) يريد صفاء السماء وزرقة أديمها (٤) أصل اللبة موضع القلادة من النحر ، وكأنه يريد بها الشجر وعقودها الأزهار والأنوار (٥) وفى نسخة « عبقة » أى ذات رائحة ذكية ثابتة أرجة (٦) المعتفى والعافى : الضيف وكل طالب فضل أو رزق (٧) تمزج . « أحمد يوسف نجاتى »

ضَمَانٌ عَلَى ٱلْأَيَّامِ أَنْ أَبْلُغَ ٱلْمُنَى
إِذَا كُنْتَ فِى وُدِّى مُسِرًّا وَمُعْلِنَا
فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامُ مَنْ هُوَ مُفْرَدٌ
بِوُدِّ ٱبْنِ عَمَّـارٍ لَقُلْتُ لَهَا أَنَا
فَإِنْ حَالَتِ ٱلْأَيَّامُ بَيْنِى وَبَيْنَـهُ
فَـكَيْفَ يَطِيبُ ٱلْعَيْشُ أَوْ يَحْصُلُ ٱلْمُنَى(١) ؟!

فَلَمَّا وَصَلَتِ ٱلرُّقْعَةُ إِلَيْهِ تَأَخَّرَ عَنِ ٱلْوُصُـولِ ، وَٱعْتَذَرَ بِعُذْرٍ مُخْتَلِّ ٱلْمعَانِى وَٱلْفُصُولِ ، فَقَالَ أَحَدُ ٱلْحَاضِرِينَ: إِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ قُعُودِ ٱبْنِ عَمَّارٍ ، عَنْ هَذَا ٱلْمِضْمَارِ(٢) ، مَعَ مَيْلِهِ إِلَى ٱلسَّمَاعِ ، وَكَلَفِهِ بِمِثْلِ هَذَا ٱلِاجْتِمَاعِ ! فَقَالَ ذُو ٱلرِّيَاسَتَيْنِ : إِنَّ ٱلْجَوَابَ تَعَذَّرَ ، فَلِذَلِكَ ٱعْتَذَرَ ، لِأَنَّهُ يُعَانِى قَوْلَهُ وَيُعَلِّلُهُ ، وَيُرَوِّيهِ وَلَا يَرْتَجِلُهُ ، وَيَقُولُهُ فِى ٱلْمُدَّةِ، وَٱلسَّاعَاتِ ٱلْمُمْتَدَّةِ ، فَرَأَى أَنَّ ٱلْوُصُولَ بِلَاجَوَابٍ إِخْجَالٌ لِأَدَبِهِ ، وَإِخْلَالٌ بِمَنَازِلِهِ فِى ٱلشِّعْرِ وَرُتَبِهِ . فَلَمَّا

(١) وفى رواية « أو يحسن الغنى » و « يحسن الغنا مخفف » « غناء » أى يطيب السماع ويلذ (٢) فى الفلائد « انى لأعجب من ابن عمار ،

كَانَ مِنَ ٱلْغَدِ وَرَدَ ٱبْنُ عَمَّارٍ وَمَعَهُ ٱلْجَوَابُ ، وَهُوَ :

هَصَرْتَ لِيَ ٱلْآمَالَ طَيِّبَةَ ٱلْجَنى
وَسَوَّغْتَنِي ٱلْأَحْوَالَ مُقْبِلَةَ ٱلدُّنَى (١)
وَأَلْبَسْتَنِي ٱلنُّعْمَى أَغَضَّ (٢) مِنَ ٱلنَّدَى
وَأَجْمَلَ مِنْ وَشْيِ ٱلرَّبِيعِ وَأَحْسَنَا (٣)
وَكَمْ لَيْلَةٍ أَحْظَيْتَنِي بِحُضُورِهَا
فَبِتُّ سَمِيرًا لِلسَّنَاءِ وَلِلسَّنَى (٤)
أُعَلِّلُ نَفْسِي بِالْمَكَارِمِ وَٱلْعُلَا
وَأُذْنِي وَكَفِّي بِٱلْغِنَاءِ وَبِٱلْغِنَى (٥)
سَأُقْرِنُ بِالتَّمْوِيلِ ذِكْرَكَ كُلَّمَا
تَعَاوَرَتِ (٦) ٱلْأَسْمَاءُ غَيْرَكَ وَٱلْكُنَى

وكيف قعد عن هذا المضمار » (١) ويروى : وسوغتنى الأيام مقبلة المنى — وهصر الغصن اذا جذبه اليه وأماله، أو كسره من غير أن يبين. والغرض أنه مكنه من آماله ، وجعله يتصرف فيها كما يشاء ، ويجنى ثمراتها كيف أراد ، وسوغه الشيء أباحه له وجعله سائغا هنيئا ، والدنا جمع الدنيا (٢) الغض الطرى الرطب الندى والناضر البهى (٣) ويروى « وشى الرياض » (٤) السناء الشرف والرفعة ، والسنى النور والضياء (٥) فى عجز البيت لف ونشر مرتب وهو ظاهر . (٦) تداولت وتناوبت

لَأَوْسَعْتَنِي قَوْلًا وَطَوْلًا(١) كِلَاهُمَا
يُطَوِّقُ أَعْنَاقًا وَيُخْرِسُ أَلْسُنَا

وَشَرَّفْتَنِي مِنْ قِطْعَةِ الرَّوْضِ بِالَّتِي
تَنَاثَرَ فِيهَا الطَّبْعُ وَرْدًا وَسَوْسَنَا(٢)

تَرُوقُ بِجِيدِ الْمُلْكِ عِقْدًا مُرَصَّعًا
وَتَزْهُو عَلَى عِطْفَيْهِ بُرْدًا مُزَيَّنَا(٣)

فَدُمْ هٰكَذَا يَافَارِسَ الدَّسْتِ وَالْوَغَى
لِتَطْعَنَ طَوْرًا بِالْكَلَامِ وَبِالْقَنَا(٤)

وَأَخْبَرَنِي الْوَزِيرُ الْكَاتِبُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ سَعْدُونَ » : أَنَّهُ اصْطَبَحَ يَوْمًا بِحَضْرَتِهِ وَلِلرَّذَاذِ رَشٌّ ، وَلِلرَّبِيعِ عَلَى

---

(١) فضلا ونعمة (٢) يريد بقطعة الروض الأبيات الثلاثة الشعرية التي كتب الممدوح بها اليه ، ورشح المجاز بذكر الورد والسوسن ، ووصفها بأنها بريئة من التكلف ، يترقرق فيها ماء الطبع ، فتروق النفس وتشنف السمع (٣) فى القلائد « وشيا معينا » (٤) ويروى عجز البيت « لتطعن بالأقلام فيها وبالقنا » يريد بالدست هنا الرياسة والديوان « وتقدم بسط الكلام فى الدست » ومعانيه وتصرف المولدين فيه ، ففي عجز البيت لف ونشر مرتب ، فالطعن بالكلام أو الأقلام راجع الى الدست ، والطعن بالقنا عائد الى الوغى أى الحرب «أحمد يوسف نجاتى»

وَجْهِ ٱلْأَرْضِ فَرْشٌ ، وَقَدْ صَقَلَ ٱلْغَمَامُ ٱلْأَزْهَارَ حَتَّى أَذْهَبَ غَشَهَا(١) ، وَسَقَاهَا فَأَرْوَى عَطَشَهَا ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

فَدَيْنَاكَ لَا يَسْطِيعُكَ ٱلنَّظْمُ وَٱلنَّثْرُ
فَأَنْتَ مَلِيكُ ٱلْأَرْضِ وَٱنْفَصَلَ(٢) ٱلْأَمْرُ
مَرَيْنَا نَدَاكَ ٱلْغَمْرَ فَٱنْهَلَّ صَيِّبًا
كَمَا سَكَبَتْ وَطْفَاءُ أَوْ سَكَبَ ٱلْبَحْرُ(٣)
وَجَاءَ ٱلرَّبِيعُ ٱلطَّلْقُ يَنْدَى غَضَارَةً
فَحَيَّتْكَ مِنْهُ ٱلشَّمْسُ وَٱلرَّوْضُ وَٱلنَّهْرُ(٤)

(١) الغش فى الأصل نقط بيض وسود ، أو بقع تقع فى الجلد تخالف لونه (٢) أى قضى وانتهى ، وفى الأصل « واتصل » (٣) مرى الناقة وغيرها اذا مسح ضرعها لتدر « يريد طلبنا وتعرضنا له بالمدائح والطلاب ، وسحابة وطفاء مسترخية الجوانب لكثرة مائها ، وفى القلائد « كما ابتت وطفاء أو فتق الزهر » (٤) هو من قول البحترى - وهو من أجود ما قيل فى الربيع - :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غلس الدجا ... أوائل وردكن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه ... يبث حديثا كان قبل مكتما
ورق نسيم الريح حتى كأنه ... يجىء بأنفاس الأحبة نعما

والغضارة : الحسن والبهجة والخصب والخير والنعمة والسعة فى العيش ،

إِلَى أَنْ قَالَ : ثُمَّ وَجَّهَ فِيهِ إِلَى رَوْضَةٍ قَدْ أَرِجَتْ نَفَحَاتُهَا ، وَتَدَبَّجَتْ(١) سَاحَاتُهَا ، وَتَفَتَّحَتْ كَمَائِمُهَا ، وَأَفْصَحَتْ حَمَائِمُهَا ، وَتَجَرَّدَتْ جَدَاوِلُهَا كَالْبَوَاتِرِ(٢) ، وَرَمَقَتْ أَزَاهِرُهَا كَالْعُيُونِ الْفَوَاتِرِ(٣) ، وَأَقَامُوا يُعْمِلُونَ أَكْوَاسَهُمْ ، وَيَشْتَمِلُونَ(٤) إِينَاسَهُمْ ، فَقَالَ ذُو الرِّيَاسَتَيْنِ :

***

وصف روضة

وَرَوْضٍ كَسَاهُ الطَّلُّ وَشْياً مُجَدَّدَا
فَأَضْحَى مُقِيماً لِلنُّفُوسِ وَمُقْعِدَا(٥)

إِذَا صَافَحَتْهُ الرِّيحُ خِلْتَ غُصُونَهُ
رَوَاقِصَ فِي خُضْرٍ مِنَ الْقُضْبِ مُيَّدَا(٦)

وعجز البيت فى القلائد « فحيتك منه الشمس والأنجم الزهر» « أحمد يوسف نجاتى » (١) نقشت وازدانت بألوان الزهر
(٢) جرد السيف اذا نضاه واستله من غمده ، والباتر السيف القاطع الماضى.
(٣) طرف فاتر ذو فتور أى ضعف مستحسن وانكسار نظر من غير آفة ، بل قد يكون من تيه أو دلال ، ويروى « بعيون فواتر » (٤) أى يشتملون به كالثوب والغرض أن الأنس قد تمكن منهم واستولى عليهم ، وفى القلائد « يشملون » أى يجعلونه عاما يشمل المجلس (٥) فى نسخة « فأضحى مقيما للعيون .. » يعنى أنها لا تفتأ تردد الطرف فيه ولا تكاد تنقضى عجائبها منه وقرتها من حسنه (٦) ميدا جمع مائد من ماد يميد اذا تثنى وتمايل ، وفى القلائد « العصب » بدل القضب . وأصل العصب ضرب من البرود اليمنية يعصب

إِذَا مَا ٱنْسِكَابَ ٱلْمَاءِ عَايَنْتَ خِلْتَهُ

وَقَدْ كَسَّرَتْهُ رَاحَةُ ٱلرِّيحِ مِبْرَدَا(١)

وَإِنْ سَكَنَتْ عَنْهُ حَسِبْتَ صَفَاءَهُ

حُسَامًا صَقِيلًا صَافِيَ ٱلْمَتْنِ جُرِّدَا

وَغَنَّتْ بِهِ وُرْقُ ٱلْحَمَائِمِ بَيْنَنَا(٢)

غِنَاءً يُنَسِّيكَ ٱلْغَرِيضَ وَمَعْبَدَا

فَلَا تَجْفُوَنَّ ٱلدَّهْرَ مَا دَامَ مُسْعِدًا

وَمُدَّ إِلَى مَا قَدْ حَبَاكَ بِهِ يَدَا

وَخُذْهَا مُدَامًا مِنْ غَزَالٍ كَأَنَّهُ

إِذَا مَا سَقَى بَدْرٌ تَحَمَّلَ فَرْقَدَا

إِلَى أَنْ قَالَ : وَأَخْبَرَنِي ٱلْوَزِيرُ أَبُو عَامِرٍ ٱبْنُ سَنُونَ

غزله أى يجمع و يشد ثم يحاك و يصبغ فيأتى موشيا بديعا يروق منظره ، وأراد بها هناماعلى الأرض من نبات موشى بألوان الزهر مما دبجه الربيع « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » ورواية القلائد أظهر وأحسن من رواية النفح « أحمد يوسف نجاتى » (١) يشبه مايعلو سطح الماء اذا جرى فوقه النسيم من الطرائق والتجاعيد والحبك (٢) فى نسخة « حولنا »وتقدم التعريف بالغريض ومعبد المغنيين «أحمد يوسف نجاتى»

أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ فِي مُنْيَةِ ٱلْعُيُونِ ، فِي يَوْمٍ مُطَرَّزِ ٱلْأَدِيمِ ، وَمَجْلِسٍ مُعَزَّزِ ٱلنَّدِيمِ ، وَٱلْأُنْسُ يُغَازِلُهُمْ مِنْ كُلِّ ثَنِيَّةٍ وَيُوَاصِلُهُمْ بِكُلِّ أُمْنِيَّةٍ ، فَسَكِرَ أَحَدُ ٱلْحَاضِرِينَ سُكْرًا مَثَّلَ لَهُ مَيْدَانَ ٱلْحَرْبِ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ مُسْتَوْعِرَ ٱلطَّعْنِ وَٱلضَّرْبِ ، فَقَلَبَ مَجْلِسَ ٱلْأُنْسِ حَرْبًا وَقِتَالًا ، وَطَلَبَ ٱلطَّعْنَ وَحْدَهُ وَٱلنِّزَالَا[1] ، فَقَالَ ذُو ٱلرِّيَاسَتَيْنِ :

نَفْسُ ٱلذَّلِيلِ تَعِزُّ بِالْجِرْيَالِ[2] ۞ فَيُقَاتِلُ ٱلْأَقْرَانَ دُونَ قِتَالِ

كَمْ مِنْ جَبَانٍ ذِي ٱفْتِخَارٍ بَاطِلٍ
بِالرَّاحِ تَحْسَبُهُ مِنَ ٱلْأَبْطَالِ
كَبْشُ ٱلنَّدِيِّ تَخَمُّطًا وَعَرَامَةً
وَإِذَا تُشَبُّ ٱلْحَرْبُ شَاةُ نِزَالِ[3]

---

(١) هو من قول أبى الطيب :

واذا ماخلا الجبان بأرض ۞ طلب الطعن وحده والنزالا

وفى معناه قول الشاعر :

يقول جبان القوم فى حال سكره ۞ وقدشرب الصهباء: هل من مبارز ؟
وأين الخيول الأعوجيات فى الوغى ۞ أطاعن منها كل قرم مناجز ؟
ففى السكر قيس وابن معدى وعامر ۞ وفى الصحو تلقاه كبعض العجائز

(٢) الخمر (٣) كبش القوم: قائدهم وحاميهم ، وسيدهم، ورئيسهم . والندى

***

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ ٱبْنِ طَاهِرٍ(١) مَا صُورَتُهُ » وَجِئْتُهُ يَوْمًا وَقَدْ وَقَفْتُ(٢) بِبَابِ ٱلْحَنَشِ فَقَالَ لِي: مِنْ أَيْنَ؟ فَأَعْلَمْتُهُ، وَوَصَفْتُ لَهُ مَا عَايَنْتُهُ مِنْ حُسْنِهِ وَتَأَمَّلْتُهُ، فَقَالَ لِي: كُنْتُ أَخْرُجُ إِلَيْهِ فِي أَكْثَرِ ٱللَّيَالِي مَعَ ٱلْوَزِيرِ ٱلْأَجَلِّ أَبِي بَكْرٍ — يَعْنِي ٱبْنَ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ(٣) — إِلَى رَوْضَتِهِ ٱلَّتِي وَدَّتِ ٱلشَّمْسُ ترجمة ابن طاهر

المجلس، وتخمط الرجل اذا تغضب وتكبر، وثار وأجلب، شبه بهدير الفحل، والتخمط الأخذ والقهر بغلبة، وقال الكميت:

وقد كان زينا للعشيرة مدرها ... اذا ماتسامت للتخمط صيدها

« الصيد جمع أصيد وهو ذو الكبر المعجب بنفسه، والملك المدل بقوته » وعرم الرجل « كضرب ونصر وكرم وعلم » عرامة وعراما اذا كان ذا شراسة وقوة وشدة وأذى، قال وعلة الجرمي:

ألم تعلموا أنى تخاف عرامتى ... وأن قناتى لاتلين على الكسر

(١) هو الرئيس الجليل محمد بن أحمد بن اسحق بن طاهر أديب بليغ وكاتب قدير، من بيت فضل ورياسة، ومعدن أدب ونباهة، تقلبت به الأيام من رفعة الى خفض، ومن ولاية الى عزل، حتى أقام بمرسية زمانا فلما شبت بها نار الفتنة وقع فى قبضة الأسر، ثم خلص منه خلوص السيف من غمده، فلجأ الى شاطبة فسكنها حينا حتى خمدت ثورة اشبيلية فعاد اليها عودالحلى الى العاطل، حتى توفى بها سنة ٥٠٧ عن نحو تسعين سنة ودفن بمدينة مرسية «أحمد يوسف نجاتى» (٢) فى القلائد «وقف»

(٣) هو بقية وزراء ابن أبي عامر، وكان المأمون بن ذى النون كما تقدم

أَنْ يَكُونَ مِنْهَا طُلُوعُهَا ، وَتَمَنَّى الْمِسْكُ أَنْ تُضَمَّ عَلَيْهِ ضُلُوعُهَا ، وَالزَّمَانُ غُلَامٌ ، وَالْعَيْشُ أَحْلَامٌ ، وَالدُّنْيَا تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ، وَالنَّاسُ قَدِ انْتَشَرُوا فِي جَوَانِبِهِ ، وَقَعَدُوا إِلَى مَذَانِبِهِ(١) ، وَفِي سَاقِيَتِهِ الْكُبْرَى دُولَابٌ يَئِنُّ كَنَاقَةٍ إِثْرَ حُوَارٍ(٢) ، أَوْ كَثَكْلَى مِنْ حَرِّ الْأُوَارِ(٣) ، وَكُلٌّ

قد تغلب على بلنسية، ولما مات سنة ٤٦٧ ولى حفيده القادر فولى علي بلنسيه أبا بكر بن عبد العزيز هذا فحسن له المقتدر بن هود صاحب سرقسطة الانتقاض على القادر ففعل واستبد بمدينة بلنسية ، وتوفى سنة ٤٧٨ ثم استولى الفرنج فى سنة ٤٧٩ على مدينة بلنسية حتى جاء يوسف بن تاشفين وكان منه ماتقدم بعضه « أحمد يوسف نجاتى »

(١) جمع مذنب « كمنبر » وهو مسيل الماء الى الأرض ليس بخد واسع وجدول يسيل عن الروضة بمائها الى غيرها فيفرق ماؤهافيها ، والتى يسيل عليها الماء مذنب أيضا ، وقال امرؤ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... وماء الندى يجرى على كل مذنب

(٢) الحوار ولد الناقة ساعة تضعه أمه ، أو من حين أن يوضع الى أن يفطم ويفصل عن أمه ، فاذا فصل عن أمه فهو فصيل ، وجمعه أحورة وحيران ، وحوران ، ومن أمثالهم : « حرك لها حوارها تحن » وقالوا: « أمسخ من لحم الحوار » ، قال الشاعر

وقد علم النفر والطارقون ... بأنك للضيف جوع وقر

مسيخ مليخ كلحم الحوار ... فلا أنت حلو ولا أنت مر

« المسيخ والمليخ الذى لاطعم له » وقالوا : « كسؤر العبد من لحم الحوار » ويضرب للشىء الذى لايدرك منه شىء ، وأصله أن عبدا نحر حوارا كله كله ولم يبق لمولاه منه شيئا فضرب به المثل لمايفقد البتة (٣) حر العطش

مُغْرَمٍ يَجْعَلُ فِيهِ ارْتِيَاحَهُ ، بُكْرَتَهُ وَرَوَاحَهُ ، وَيُغَازِلُ عَلَيْهِ حَبِيبَهُ ، وَيَصْرِفُ إِلَيْهِ تَشْبِيبَهُ(١) ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ لَيْلَةً وَالْمُتَنَبِّي(٢) الْجَزِيرِيُّ وَاقِفٌ وَأَمَامَهُ ظَبْيٌ آنِسٌ ، تَهِيمُ بِهِ الْمَكَانِسُ(٣) ، وَفِي أُذُنَيْهِ قُرْطَانِ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ ، وَهُوَ يَتَأَوَّدُ(٤) تَأَوُّدَ غُصْنِ الْبَانِ ، وَالْمُتَنَبِّي يَقُولُ :

مَعْشَرَ النَّاسِ بِبَابِ الْحَنَشِ
بَدْرُ تِمٍّ طَالِعٌ فِي غَبَشٍ(٥)
عَلَّقَ الْقُرْطَ عَلَى مِسْمَعِهِ
مَنْ عَلَيْهِ آفَةَ الْعَيْنِ خَشِي

فَلَمَّا رَآنِي أَمْسَكَ ، وَسَبَّحَ كَأَنَّهُ قَدْ تَنَسَّكَ :

(١) غزله ، والتشبيب فى الأصل ذكر أيام الشباب واللهو والغزل (٢) هو أبو طالب الجزيرى الملقب بالمتنبي من أهل جزيرة شقر فى شرق الأندلس كان أديبا عظيما وشاعرا مجيدا ، وله تاريخ ألفه منظوما جارى به التاريخ الذى ألفه يحيى بن حكم الغزال « وقد تقدم ذكره » وكان المتنبي معاصرا للفتح بن خاقان وتوفى حوالى سنة ٥٣٠ ، وسيأتى له ذكر فى نفح الطيب بعد. « أحمد يوسف نجاتى » (٣) المكنس : مأوى الظبى (٤) يتثنى ويتمايل مختالا (٥) الغبش : شدة الظلمة ، أو هو بقية الليل أو ظلمة آخره وغبش الليل « كضرب وفرح » وأغبش اذا أظلم « أحمد يوسف نجاتى »

***

التعريف بابن عمار

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ ٱبْنِ عَمَّارٍ مَا صُورَتُهُ[١] » وَتَنَزَّهَ بِالدِّمَشْقِ بِقُرْطُبَةَ وَهُوَ قَصْرٌ شَيَّدَهُ بَنُو أُمَيَّةَ بِالصُّفَّاحِ وَٱلْعَمَدِ ، وَجَرَوْا فِي إِتْقَانِهِ إِلَى غَيْرِ أَمَدٍ ، وَأُبْدِعَ بِنَاؤُهُ ، وَنُمِّقَتْ سَاحَتُهُ وَفِنَاؤُهُ ، وَٱتَّخَذُوهُ مَيْدَانَ مِرَاحِهِمْ ، وَمِضْمَارًا لِٱنْشِرَاحِهِمْ ، وَحَكَوْا بِهِ قَصْرَهُمْ بِالْمَشْرِقِ ، وَأَطْلَعُوهُ كَالْكَوْكَبِ ٱلثَّاقِبِ ٱلْمُشْرِقِ ، فَحَلَّهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَمَّارٍ عَلَى أَثَرِ بُوْسِهِ ، وَٱبْتَسَمَ لَهُ دَهْرُهُ بِهِ بَعْدَ عُبُوسِهِ ، وَٱلدُّنْيَا قَدْ أَعْطَتْهُ عَفْوَهَا ، وَسَقَتْهُ صَفْوَهَا ، وَبَاتَ فِيهِ مَعَ لُمَّةٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ ، وَمُتَفَيِّئِي[٢] رِبَاعِهِ ، وَكُلُّهُمْ يُحَيِّيهِ بِكَأْسٍ ، وَيُفَدِّيهِ بِنَفْسِهِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ ، فَطَابَتْ لَهُ لَيْلَتُهُ فِي مَشِيدِهِ ، وَأَطْرَبَهُ ٱلْأُنْسُ بِبَسِيطِهِ وَنَشِيدِهِ[٣] ، فَقَالَ :

---

(١) تقدمت هذه الحكاية وشرحها . (٢) فى القلائد « ومتقيلى » والمعنى واحد، والرباع جمع ربع وهو الدار والمحلة والمنزل والوطن ، وتفيأه اذا استظل بظله ، وتقيله وتقيل فيه اذا نام فيه وقت القيلولة وتقيله تبعه وحذا حذوه ، والغرض أنهم يلتجئون اليه و يستظلون بكنفه (٣) فى بعض النسخ « ببسيطه ومد يده » وهو من توجيهات علم العروض «أحمد يوسف نجاتى »

كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدِّمَشْقِ يُذَمُّ

فِيهِ طَابَ الْجَنَى وَفَاحَ الْمَشَمُّ

مَنْظَرٌ رَائِقٌ وَمَاءٌ نَمِيرٌ

وَثَرًى عَاطِرٌ وَقَصْرٌ أَشَمُّ(١)

بِتُّ فِيهِ وَاللَّيْلُ وَالْفَجْرُ عِنْدِي

عَنْبَرٌ أَشْهَبٌ وَمِسْكٌ أَحَمُّ(٢)

انْتَهَى

***

وَعَبَّرَ صَاحِبُ الْبَدَائِعِ عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ بِقَوْلِهِ : تَنَزَّهَ ابْنُ عَمَّارٍ بِالدِّمَشْقِ بِقُرْطُبَةَ وَهُوَ قَصْرٌ شَيَّدَهُ خُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ وَزَخْرَفُوهُ ، وَدَفَعُوا صَرْفَ الدَّهْرِ عَنْهُ وَصَرَفُوهُ ، وَأَجْرَوْهُ عَلَى إِرَادَتِهِمْ وَصَرَّفُوهُ . وَذَهَّبُوا سُقُفَهُ وَفَضَّضُوهَا ، وَرَخَّمُوا أَرْضَهُ وَرَوَّضُوهَا ، فَبَاتَ بِهِ وَالسَّعْدُ يَلْحَظُهُ بِطَرْفِهِ ، وَالرَّوْضُ يُحَيِّيهِ بِعَرْفِهِ ، فَلَمَّا اسْتَنْفَدَ كَافُورُ الصَّبَاحِ مِسْكَ

وصف قصر شيده خلفاء بني أمية

(١) عال مرتفع (٢) أسود . « أحمد يوسف نجاتي »

الْغَسَقِ[١] ، وَرَصَّعَ آبَنُوسَ الظَّلَامِ نُضَارُ الشَّفَقِ[٢] قَالَ مُرْتَجِلًا : كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدِّمَشْقِ يُذَمُّ ، الخ . انْتَهَى .

***

ترجمة ذى الوزارتين بن لبون

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ ذِي الْوِزَارَتَيْنِ أَبِي عِيسَى بْنِ لَبُّونَ[٣] » أَخْبَرَنِي الْوَزِيرُ أَبُو عَامِرٍ بْنُ الطَّوِيلِ أَنَّهُ كَانَ بِقَصْرِ مُرْبَيْطَرَ[٤] بِالْمَجْلِسِ الشَّرْقِيِّ[٥] مِنْهَا وَالْبَطْحَاءُ قَدْ لَبِسَتْ زُخْرُفَهَا[٦] ، وَدَبَّجَ الْغَمَامُ مُطْرَفَهَا[٧] ، وَفِيهَا حَدَائِقُ

---

(١) الغسق الظلمة « وأكثر مايطلق على ظلمة أول الليل » أوظلمة الليل اذا غاب الشفق (٢) النضار الذهب أو الفضة، وغاب على الذهب والجوهر الخالص من التبر وغيره، وجمعه نضار «بالكسر» وأنضر — والشفق: الحمرة التى فى الأفق من الغروب الى العشاء الآخرة، أواختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس ، والبياض الباقى فى الأفق بعد الحمرة المذكورة وقد يطلق الشفق على النهار « وهو المراد هنا — وبه فسر قوله تعالى : «فلا أقسم بالشفق » (٣) تقدم التعريف به (٤) تقدم التعريف بها ، و بينها و بين بلنسية ٤ فراسخ ، ينسب اليها قاضيها ابن خيرون المربيطرى وقد سبق أنها كانت مع ذى الوزارتين القائد أبى عيسى بن لبون ، ثم أخذها منه ابن رزين (٥) فى القلائد « المشرف » (٦) الزخرف الزينة وكمال حسن الشىء. وزخرف الأرض ألوان نباتها المختلفة ، ومنه قوله تعالى: « حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت » أى زينتها من ألوان الزهر وناصع النور ، وقيل تمامها وكمالها (٧) دبج: نقش وزين ، والمطرف فى

تَرْنُو عَنْ مُقَلِ نَرْجِسِهَا ، وَتَبُثُّ طِيبَ تَنَفُّسِهَا ، وَالْجُلَّنَارُ[١] قَدْ لَبِسَ أَرْدِيَةَ الدِّمَاءِ ، وَالرَّاحُ قَدْ مَلَكَتْ أَفْئِدَةَ[٢] النُّدَمَاءِ فَقَالَ :

قُمْ يَا نَدِيمُ أَدِرْ عَلَيَّ الْقَرْقَفَا
أَوَ مَا تَرَى زَهْرَ الرِّيَاضِ مُفَوَّفَا[٣]؟!
فَتَخَالُ مَحْبُوبًا مُدِلًّا وَرْدَهَا
وَتَظُنُّ نَرْجِسَهَا مُحِبًّا مُدْنَفَا[٤]
وَالْجُلَّنَارَ دِمَاءَ قَتْلَى مَعْرَكٍ
وَالْيَاسِمِينَ حَبَابَ مَاءٍ قَدْ طَفَا[٥]

إِلَى أَنْ قَالَ : وَشَرِبَ مَعَ الْوُزَرَاءِ الْكُتَّابِ[٦]

---

(١) زهر الرمان الأصل رداء من خز مربع ذو أعلام. وترنو : تديم النظر (٢) كذا بالقلائد ، وفى الأصل « وراع أفئدة الندماء » (٣) القرقف الخمر الصافية ذات البرد : وبرد مفوف أى رقيق موشى (٤) أدل فهو مدل اذا تدلل وانبسط ، وأدنفه الحب ونحوه اذا أمرضه مرضا ثقيلا لازما (٥) حباب الماء طرائقه كأنها الوشى ، ونفاخاته وفقاقيعه التى تعلو سطحه كأنها القوارير ، وتسمى اليعاليل ، وطفا الشئ فوق الماء اذا علا ولم يرسب « أحمد يوسف نجاتى » (٦) وفى نسخة « والكتاب »

بِبَطْحَاءِ لُورَقَةَ[١] فِي عَشِيَّةٍ تَجُودُ بِدِمَائِهَا ، وَيَصُوبُ[٢] عَلَيْهَا دَمْعُ سَمَائِهَا ، وَالْبَطْحَاءُ قَدْ خُلِعَ عَلَيْهَا سُنْدُسُهَا ، وَدُرِّهَا[٣] نَرْجِسُهَا ، وَالشَّمْسُ تَنْفُضُ عَلَى الرُّبَا زَعْفَرَانَهَا[٤] وَالْأَنْوَارُ ، تُغْمِضُ أَجْفَانَهَا ، فَكَتَبَ إِلَى ابْنِ الْيَسَعِ :

لَوْ كُنْتَ تَشْهَدُ يَا هٰذَا عَشِيَّتَنَا
وَالْمُزْنُ[٥] تَسْكُبُ أَحْيَانًا وَتَنْحَدِرُ
وَالْأَرْضُ مُصْفَرَّةٌ بِالزَّهْرِ[٦] كَاسِيَةٌ
أَبْصَرْتَ تِبْرًا عَلَيْهِ الدُّرُّ يَنْتَثِرُ

(١) البطحاء أرض واسعة منبسطة ، أو مسيل فيه دقاق الحصا ، ولورقة مدينة من أعمال تدمير ، وكانت ذات شهرة بالعنب الجيد « وتقدم التعريف بها فى الجزء الأول » وفى القلائد: وشرب مع الوزراء والكتاب ببطحاء لورقة عند أخيه وابن اليسع غائب عنهما فى عشية الخ » وقد تقدم أن أخاه أبا محمد بن لبون كان يملك مدينة لورقة وبها توفى ، وتقدم التعريف بذى الوزارتين القائد أبى الحسن بن اليسع (٢) صاب : انصب ، والصوب: مجيء السماء بالغيث (٣) كذا بالأصل ، وفى القلائد « ودنرها » أى جعلها ذات دنانير ، شبه زهرة النرجس بالدينار ، وفرس مدنر فيه تدنير : سواد تخالطه شهبة ، ودنر وجهه اذا أشرق وتلألأ (٤) يعنى أن الوقت أصيل وهو أطيب أوقات النهار (٥) السحاب ذو الماء (٦) فى الأصل « بالشمس » وفى بعض المراجع « بالزهر » وهو أولى كما يدل عليه هيئة المشبه به فى

***

ترجمة أبو بكر بن رحيم

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ ذِي الْوِزَارَتَيْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ رُحَيْمٍ (١) مَا صُورَتُهُ » وَوَصَلَ هُوَ وَابْنُ وَضَّاحٍ (٢) صِهْرُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ جَمَالِ الْخِلَافَةِ صَاحِبُ صِقِلِّيَةَ إِلَى إِحْدَى جَنَّاتِ مُرْسِيَةَ فَحَلُّوا مِنْهَا فِي قُبَّةٍ فَوْقَ جَدْوَلٍ مُطَّرِدٍ (٣)، وَتَحْتَ أَدْوَاحٍ (٤) طَيْرُهَا غَرِدٌ، فَأَقَامُوا يَتَعَاطَوْنَ رَحِيقَهُمْ، وَيَعْمُرُونَ بِالْمُؤَانَسَةِ طَرِيقَهُمْ، إِذَا بِالْجَنَّانِ (٥) قَدْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ :

عجز البيت . « أحمد يوسف نجاتى » (١) هو ذو الوزارتين الكاتب الشاعر الأديب أبو بكر محمد بن أحمد بن رحيم أو « دحيم » وكانت بينه وبين القاضى أبى أمية ابراهيم بن عصام مدة قضائه بمرسية معاتبات رقيقة وله مدائح وتهانى فى الأمير أبى اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين فى سنة ٥١٥ ويأتى له ذكر بعد (٢) هو أبو جعفر محمد بن وضاح الأديب الشاعر توفى حوالى سنة ٥٤٠ (٣) يجرى ماؤه متتابعا (٤) أشجار كثيرة ملتفة (٥) فى الأصل « بالجنانى » وفى القلائد « بالجنان » وأظنه يريد أبا اسحق ابراهيم بن خفاجة الأندلسى فقد كان أهل الأندلس يسمونه الجنان لولوعه فى شعره بوصف الجنان والحدائق والأنهار والأشجار والرياض والأزهار والمياه وما يتصل بذلك من وصف مناظر الطبيعة الفاتنة ومشاهدها البديعة الساحرة التى توحى بالشعر وتسمو بالخيال . وقد يكون « ابن الجنان » وهو أبو الوليد بن الجنان ، أو أبو القاسم خلف بن مفرج

كَانَ بِمَوْضِعِكُمْ هٰذَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُ ٱلْمَوْضِعِ وَمَعَهُ شُعُورٌ مَنْشُورَةٌ ، وَخُدُودٌ غَيْرُ مَسْتُورَةٍ ، قَدْ رُفِعَتْ عَنْهَا ٱلْبَرَاقِعُ ، وَمَا مِنْهَا نَظْرَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا سَهْمٌ وَاقِعٌ ، فَاسْتَدْعَى فَحْمًا وَكَتَبَ فِي إِحْدَى زَوَايَا ٱلْقُبَّةِ :

قَادَنَا وُدُّنَا إِلَيْكَ فَجِئْنَا ... بِنُفُوسٍ تَفْدِيكَ مِنْ كُلِّ بُوسِ
فَنَزَلْنَا مَنَازِلًا لِبُدُورٍ ... وَحَلَلْنَا مَطَالِعًا لِشُمُوسِ

***

ترجمة أبي محمد ابن عبدون

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ ٱلْوَزِيرِ ٱلْكَاتِبِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدُونَ مَا صُورَتُهُ » حَلَلْتُ يَابُرَةَ(١) فَأَنْزَلَنِي وَالِيهَا بِقَصْرِهَا ، وَمَكَّنَنِي مِنْ جَنَى ٱلْأَمَانِيِّ وَهَصْرِهَا(٢) ، فَأَقَمْتُ لَيْلِي ، أَجُرُّ عَلَى ٱلْمَجَرَّةِ ذَيْلِي ، وَتَتَطَارَدُ فِي مَيْدَانِ ٱلسُّرُورِ خَيْلِي ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ ٱلْغَدِ بَاكَرَنِي ٱلْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ مُسَلِّمًا ، وَمِنْ

ابن سعيد الكناني من أهل شاطبة ولى القضاء باحدى الكور الشرقية لأبي أمية ابراهيم بن عصام وكان أديبافقيها مشاورا، وأبوالعلاءعبدالحق ابن خلف بن مفرج الكناني يعرف بابن الجنان، وصحب أبا اسحق بن خفاجة ،وكان من كبار الأدباء وجلة الشعراء وأعاظم البلغاء وله بصر بالطب توفى سنة ٥٣٩. «أحمد يوسف نجاتى» (١) يابرة بلد فى غربى الأندلس (٢) هصر الغصن: جذبه وأماله اليه «يريد التمتع بنيل آماله والتصرف فيها كما يشاء» « أحمد يوسف نجاتى »

تَنَكُّبِي(١) عَنْهُ مُتَأَلِّمًا ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الْقَائِدِ عَاتِبًا عَلَيْهِ ، فِي كَوْنِي لَدَيْهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ أَخَذَنِي مِنْ يَدَيْهِ ، فَحَلَلْتُ عِنْدَهُ فِي رُحْبٍ ، وَهَمَتْ عَلَيَّ مِنَ الْبِرِّ أَمْطَارُ سُحُبٍ ، فِي مَجْلِسٍ كَأَنَّ الدَّرَارِيَّ فِيهِ مَصْفُوفَةٌ ، أَوْ كَأَنَّ الشَّمْسَ إِلَيْهِ مَزْفُوفَةٌ . فَلَمَّا حَانَ انْصِرَافِي ، وَكَثُرَ تَطَلُّعِي إِلَى مَآبِي(٢) وَاسْتِشْرَافِي ، رَكِبَ مَعِي إِلَى حَدِيقَةٍ نَضِرَةٍ ، مُجَاوِرَةٍ لِلْحَضْرَةِ ، فَأَنَخْنَا عَلَيْهَا أَيْدِيَ عِيسِنَا(٣) ، وَنِلْنَا مِنْهَا مَا شِئْنَا مِنْ تَأْنِيسِنَا ، فَلَمَّا امْتَطَيْتُ عَزْمِي(٤) ، وَسَدَّدْتُ إِلَى غَرَضِ الرِّحْلَةِ سَهْمِي ، أَنْشَدَنِي :

سَلَامٌ يُنَاجِي مِنْهُ زَهْرَ الرُّبَا عَرْفُ
فَلَا سَمْعَ إِلَّا وَدَّ لَوْ أَنَّهُ أَنْفُ(٥)
حَنِينِي إِلَى تِلْكَ السَّجَايَا فَإِنَّهَا
لَآثَارُ أَعْيَانِ الْمَسَاعِي الَّتِي أَقْفُو(٦)

(١) انصرافى عنه وعدم النزول عنده (٢) رجوعى وعودتى «وفى القلائد : قيامى » واستشرف الى الشىء اذا تطلع اليه (٣) أى أقاموا بها ، والعيس فى الأصل: الابل البيض يخالط بياضها شىء من الصفرة (٤) عزم على الارتحال (٥) العرف: الرائحة الذكية (٦) قفا أثره اذا تبعه «أحمد يوسف نجاتى»

ثُمَّ سَرَدَ ٱلْقَصِيدَةَ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَلَهُ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ :

سَقَاهَا ٱلْحَيَا مِنْ مَغَانٍ[1] فِسَاحِ
فَكَمْ لِي بِهَا مِنْ مَعَانٍ فِصَاحِ
وَحَلَّى أَكَالِيلَ تِلْكَ ٱلرُّبَا
وَوَشَّى مَعَاطِفَ تِلْكَ ٱلْبِطَاحِ[2]
فَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ عَهْدِي بِهَا
وَجَرِّي فِيهَا ذُيُولَ ٱلْمِرَاحِ[3]
وَنَوْمِي عَلَى حِبَرَاتِ ٱلرِّيَاضِ
يُجَاذِبُ بُرْدَيَّ مَرُّ ٱلرِّيَاحِ[4]
وَلَمْ أُعْطِ أَمْرَ ٱلنُّهَى طَاعَةً
وَلَمْ أُصْغِ سَمْعِي إِلَى قَوْلِ لَاحِي[5]

(١) المغنى منزل القوم ومحل اقامتهم (٢) يدعو للربا بأن تزينها الأزهار والأشجار ، والبطاح جمع أبطح و بطحاء (٣) المراح اسم من مرح « كفرح » وهو شدة الفرح والتوسع فيه والاختيال والنشاط حتى يجاوز قدره (٤) الحبرة « كعنبة » ضرب من ضروب اليمن ذو وشى (٥) اللاحى اللائم المعنف ، يقول انه لم يجب داعى العقل، بل لبى نداء عواطفه وخضع لدواعى نفسه ورغبات قلبه « أحمد يوسف نجاتى »

وَلَيْـلٍ كَرَجْعَةِ طَرْفِ الْمُرِيبْ
لَمَ أُدْرِ لَهُ شَفَقًا مِنْ صَبَاحِ (١)

***

« وَقَالَ » فِي تَرْجَمَـةِ الْوَزِيرِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ مَالِكٍ(٢) ـ بَعْدَ كَلَامٍ لَهُ فِيهِ ، وَإِنْشَادِهِ بَيْتَيْهِ الْبَدِيعَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا ترجمة الوزير أبي محمد بن مالك

(١) صدر البيت كناية عن مزيد قصر الليل ، والمريب من كان ذا ريبة أى تهمة وظنة وشك « بأن كان يخالس النظر الى من يهوى منتهزا غفلة الرقيب فيكون طرفه سريع النظر والرجع خيفة أن يراه أحد » قال ابن المعتز :

تفقد مساقط لحظ المريب ... فان العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره فى الكلام ... فانك تجنى ثمار الغيوب

وعجز البيت يدل على قرب مسافة ما بين الشفق الى الصباح « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) هو الوزير الجليل أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافرى من ولد عقبة بن نعيم الداخل الى الأندلس فى جند دمشق كان أحد وزراء الأندلس كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم على سنن عظماء الملوك وأخلاق السادة ، وأحد رجالاتها ومحاسنها جلالة ونباهة وجزالة أديبا بليغا كاتبا مجيدا شاعرا بارعا فقيها محدثا ذا مروءة عظيمة وثروة طائلة جاد بها فى ابتناء المكارم ،وكان اليه النظر فى المستخلص باشبيلية وغرناطة ، ووجهه أميره على بن يوسف بن تاشفين الى طرطوشة برسم بنائها ، فأحسن الى أهلها و وسع أرزاقهم وأنعش عاثرهم ، وتوفى بغرناطة فى غرة رمضان سنة ٥١٨ وحضر جنازته الخاصة والعامة . ورثاه الكاتب البليغ أبو عبد الله بن أبى الخصال وأثنى عليه ، ودفن بازاء قبر صهره أبى بكر القليعى القاضى رحمهم الله جميعا . « أحمد يوسف نجاتى »

لا تَلُمْني بِأَنْ طَرِبْتُ لِشَدْوٍ(١)
يَبْعَثُ الْأُنْسَ فَالْكَرِيمُ طَرُوبُ
لَيْسَ شَقُّ الْجُيُوبِ حَقًّا عَلَيْنَا(٢)
إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُشَقَّ الْقُلُوبُ

مَا صُورَتُهُ : وَخَرَجْتُ بِإِشْبِيلِيَةَ مُشَيِّعًا لِأَحَدِ زُعَمَاءِ الْمُرَابِطِينَ ، فَأَلْفَيْتُهُ مَعَهُ ، مُسَايِرًا لَهُ فِي جُمْلَةِ مَنْ شَيَّعَهُ ، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا مَالَ بِنَا إِلَى مُعَرَّسِ(٣) أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ـ أَدَامَ اللهُ تَعَالَى تَأْيِيدَهُ ـ الَّذِي يَنْزِلُهُ عِنْدَ حُلُولِهِ بِإِشْبِيلِيَةَ ، وَهُوَ مَوْضِعٌ مُسْتَبْدَعٌ ، كَأَنَّ الْحُسْنَ فِيهِ مُودَعٌ ، مَا شِئْتَ مِنْ نَهْرٍ يَنْسَابُ انْسِيَابَ الْأَرَاقِمِ ، وَرَوْضٍ كَمَا وَشَّتِ الْبُرْدَ

(١) فى الأصل « لشجو » وفى القلائد « لشدو » وهو أحسن ، والشدو الغناء (٢) فى القلائد « انما الحق » وفى معنى البيت قول الأول :

لوامى زليخا لو رأين جبينه ... لآثرن بالقطع القلوب على الأيدى

« لوامى جمع لائمة وأصله لوائم فقلب وأعل . « أحمد يوسف نجاتى » .
(٣) موضع نزوله من عرس القوم وأعرسوا اذا نزلوا فى آخر الليل للاستراحة ثم أناخوا وناموا نومة خفيفة ثم ساروا مع انفجار الصبح سائرين ، وفى بعض المراجع « قصر » بدل معرس ، وهو ألصق بالسياق كما هو ظاهر « أحمد يوسف نجاتى »

يَدُ رَاقِمٍ ، وَزَهْرٍ يَحْسُدُ ٱلْمِسْكُ رَيَّاهُ ، وَيَتَمَنَّى ٱلصُّبْحُ أَنْ يَسِمَ بِهِ(١) مُحَيَّاهُ ، فَقَطَفَ غُلَامٌ وَسِيمٌ مِنْ غِلْمَانِهِ نَوْرَةً وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيَّ وَهِيَ فِي كَفِّهِ . فَعَزَمَ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ بَيْتًا فِي وَصْفِهِ ، فَقُلْتُ :

وَبَدْرٍ بَدَا وَٱلطَّرْفُ مَطْلَعُ حُسْنِهِ
وَفِي كَفِّهِ مِنْ رَائِقِ ٱلنَّوْرِ كَوْكَبُ

فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ :

يَرُوحُ لِتَعْذِيبِ ٱلنُّفُوسِ وَيَغْتَدِي
وَيَطْلُعُ فِي أُفْقِ ٱلْجَمَالِ وَيَغْرُبُ
وَيَحْسُدُ مِنْهُ ٱلْغُصْنُ أَيَّ مُهَفْهَفٍ
يَجِيءُ عَلَى مِثْلِ ٱلْكَثِيبِ وَيَذْهَبُ

***

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ ٱلْوَزِيرِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ بْنِ ٱلسَّقَّاطِ(٢) ترجمة أبي القاسم ابن السقاط

(١) وسمه أعلمه وجعل له سمة . والمحيا الوجه ، و بقية الألفاظ قد سبق شرحها و بيان معانيها فى غير موضع (٢) وصفه الفتح فى القلائد بالبلاغة واجادة الكتابة والشعر والخطابة ، وأورد له كثيرا من نظمه ونثره

بَعْـدَ كَلَامٍ كَثِيرٍ مَا صُورَتُهُ » : وَحَمَلَنَا الْوَزِيرُ الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَضْحَى[١] إِلَى إِحْدَى ضِيَاعِهِ بِخَارِجِ غَرْنَاطَةَ وَمَعَنَا الْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ مَالِكٍ ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ تِلْكَ الْمَمَالِكِ ، فَحَلَلْنَا بِضَيْعَةٍ لَمْ يَنْحَتِ الْمَحْلُ أَثْلَهَا[٢] ، وَلَمْ تَرْمُقِ الْعُيُونُ مِثْلَهَا ، وَجُلْنَا بِهَا فِي أَكْنَافِ جَنَّاتٍ أَلْفَافٍ[٣] ، فَمَا شِئْتَ مِنْ دَوْحَةٍ لَفَّاءَ[٤] ، وَغُصْنٍ يَمِيسُ كَعِطْفَيْ هَيْفَاءَ[٥] ، وَمَاءٍ يَنْسَابُ فِي جَدَاوِلِهِ ، وَزَهَرٍ يُضَمِّخُ[٦] بِالْمِسْكِ رَاحَةَ مُتَنَاوِلِهِ . وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ تِلْكَ الْحَدَائِقِ أَرَبًا ، وَافْتَضَضْنَا مِنْهَا أَتْرَابًا[٧] عُرُبًا ، مِلْنَا إِلَى مَوْضِعٍ

---

(١) تقدمت ترجمته فى بعض الأجزاء السابقة والقول فى بنى أضحى ، وسيأتى ذكر للقاضى أبى الحسن بن أضحى هذا (٢) الأثل: شجر وهو نوع من الطرفاء أو عضاهة « شجرة ذات شوك » طويلة قوية كانوا يعملون منها الأقداح ونحوها « ونحت أثلته كناية عن العيب والنقص، ونحت أثلته اذا انتقصه وذمه، ونحت الأثل هنا كناية عن شدة الجدب والقحط حتى ينحت الناس والأنعام الشجر (٣) الألفاف الأشجار الملتفة بعضها ببعض واحدها الف « بكسر اللام وفتحها » ومنه قوله تعالى: « وجنات ألفافا » ، أى بساتين ملتفة (٤) أى ملتفة الأغصان (٥) الهيف دقة الخاصرة مع ضمر البطن (٦) أى يعمها بالطيب (٧) أتراب جمع ترب، وأصل ترب الفتاة من كانت فى سنها، وهى تربها أى لدتها ، وفسرت الأتراب أيضا فى قوله تعالى : « عربا أترابا » بالأمثال اذ ليست هناك ولادة . وأصل العروب « وجمعه عرب » المرأة الحسناء المتحببة الى زوجها المطيعة له المظهرة له مودة وفرط شغف

اُلْمَقِيلِ (١) ، وَنَزَلْنَا (٢) عِنْدَ مَنَازَهَ تُزْرِى بِمَنَازِهِ جَذِيمَةَ مَعَ مَالِكٍ وَعَقِيلٍ (٣) ، وَعِنْدَ وُصُولِنَا بَدَا لِى مِنْ أَحَدِ اُلْأَصْحَابِ تَقْصِيرٌ فِى اُلْمَبَرَّةِ ، عَرَضَ لِى مِنْهُ تَكْدِيرٌ لِتِلْكَ اُلْعَيْنِ اُلثَّرَّةِ (٤) ، فَأَظْهَرْتُ اُلتَّثَاقُلَ أَكْثَرَ ذَلِكَ اُلْيَوْمِ ، ثُمَّ عَدَلْتُ عَنْهُمْ إِلَى اُلِاضْطِجَاعِ وَاُلنَّوْمِ ، فَمَا اُسْتَيْقَظْتُ إِلَّا وَاُلسَّمَاءُ قَدْ نُسِخَ (٥) صَحْوُهَا ، وَغَيَّمَ جَوُّهَا ، وَاُلْغَمَامُ مُنْهَمِلٌ ، وَاُلثَّرَى مِنْ سُقْيَاهُ ثَمِلٌ ، فَبَسَطَنِى بِتَحَفِّيهِ (٦) وَأَبْهَجَنِى بِبِرٍّ لَمْ يَزَلْ يُتَمِّمُهُ وَيُوَفِّيهِ ، وَأَنْشَدَنِى :

يَوْمٌ تَجَهَّمَ (٧) فِيهِ اُلْأُفْقُ وَاُنْتَثَرَتْ
مَدَامِعُ اُلْغَيْثِ فِى خَدِّ اُلثَّرَى هَمَلَا

---

(١) النوم بالظهر للاستراحة من الحر (٢) كذا بالقلائد، وفى الأصل «ونزلنا عن منازه» (٣) جذيمة الأبرش ونديماه قد سبق التعريف بهم (٤) كثيرة المياه غزيرة «وهو مستعار لملاقاه من توالى الاكرام وتتابع الصفاء» (٥) تغير وزال (٦) بسطه أزال ماعنده من الانقباض ، والتحفى : المبالغة فى الاكرام والبر واظهار مزيد السرور والفرح وحسن اللقاء والملاطفة ، والقيام بكل حاجاته ومطالبه ، واكرام الوفادة واحسان المثوى (٧) عبس وتغير بالغمام . والهمل الماء السائل الذى لامانع له ، والمتروك غير المستعمل ولا المنتفع به

رَأَى وُجُومَكَ فَارْبَدَّتْ طَلَاقَتُهُ(١)

مُضَاهِياً لَكَ فِى ٱلْأَخْلَاقِ مُمْتَثِلَا

***

ترجمة القاضى أبى الحسن ابن أضحى

« وَقَالَ فِى تَرْجَمَةِ ٱلْوَزِيرِ ٱلْقَاضِى أَبِى ٱلْحَسَنِ بْنِ أَضْحَى مَا نَصُّهُ »: وَكَانَ لِصَاحِبِ ٱلْبَلَدِ ٱلَّذِى كَانَ يَتَوَلَّى ٱلْقَضَاءَ بِهِ ٱبْنٌ مِنْ أَحْسَنِ ٱلنَّاسِ صُورَةً ، وَكَانَتْ مَحَاسِنُ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْأَقْوَالِ عَلَيْهِ مَقْصُورَةً ، مَعَ مَا شِئْتَ مِنْ لَسَنٍ(٢) ، وَصَوْتٍ حَسَنٍ ، وَعَفَافٍ ، وَٱخْتِلَاطٍ بِٱلْبَهَاءِ(٣) وَٱلْتِفَافٍ ، فَحَمَلَنَا إِلَى إِحْدَى ضِيَاعِهِ بِقُرْبٍ مِنْ حَضْرَةِ غَرْنَاطَةَ ، فَحَلَلْنَا قَرْيَةً كَانَتْ عَلَى ضِفَّةِ نَهْرٍ ، أَحْسَنَ مِنْ شَاذَ مِهْرٍ(٤) ، تَشُقُّهَا

---

(١) وجم وجوما اذا سكت على غيظ وغضب، والواجم العبوس المطرق سا كتا لشدة الحزن تعلوه كآبة ، وار بد وجهه وتر بد اذا تغير لونه من الغضب الى الغبرة وعبس. وار بدت السماء وتربدت اذا تغيمت ، وفى الأصل والقلائد «فارتدت» وهو تصحيف وان صح معناه «أحمد يوسف نجاتى » (٢) فصاحة وطلاقة لسان (٣) كذا بالأصل والقلائد ، وفى بعض النسخ « بالنبهاء » .

(٤) مدينة أو موضع بنيسابور ، وكان هناك بستان لعبد الله بن طاهر ابن الحسين أنيق ، وقصور شامخة ، ونعيم وملك كبير ، ثم انقضت دولة آل طاهر وخربت تلك القصور ، وفيها يقول بعض الشعراء :

جَدَاوِلُ كَالصِّلَالِ[١] ، وَلَا تَرْمُقُهَا الشَّمْسُ مِنْ تَكَاثُفِ الظِّلَالِ — وَمَعَنَا جُمْلَةٌ مِنْ أَعْيَانِهَا — فَأَحْضَرَنَا مِنْ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ ، وَأَرَانَا مِنْ فَرْطِ الْإِكْرَامِ وَالْإِنْعَامِ ، مَا لَا يُطَاقُ وَلَا يُحَدُّ ، وَيَقْصُرُ عَنْ بَعْضِهِ الْعَدُّ ، وَفِي أَثْنَاءِ مُقَامِنَا بَدَا لِي مِنْ ذَٰلِكَ الْفَتَى الْمَذْكُورِ مَا أَنْكَرْتُهُ ، فَقَابَلْتُهُ بِكَلَامٍ أَعْتَقِدُهُ[٢] ، وَمَلَامٍ أَحْقِدُهُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ لَقِيتُ مِنْهُ اجْتِنَابَهُ ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ مَا عَهِدْتُهُ مِنَ الْإِنَابَةِ[٣] ، فَكَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ مُدَاعِباً ، فَرَاجَعَنِي بِهَذِهِ الْقِطْعَةِ :

أَتَتْنِي أَبَا نَصْرٍ نَتِيجَةُ خَاطِرٍ
سَرِيعٍ[٤] كَرَجْعِ الطَّرْفِ فِي الْخَطَرَاتِ

فتلك قصور الشاذياخ بلاقع خراب يباب والميان مزارع
وأضحت خلاءً شاذمهر وأصبحت معطلة فى الأرض تلك المصانع

والشاذياخ مدينة نيسابور بناها عبد الله بن طاهر بجوارها فى بستانه العظيم. والميان بلد « أحمد يوسف نجاتى » (١) جمع صل وهى الحية ، والسيف القاطع (٢) أضمره فى نفسه ، أو اعتقد صحته فغاظه ، أو أغضبه ، ويقال تحللت عقده اذا سكن غضبه ، وعقد ناصيته اذا غضب وتهيأ للشر (٣) الرجوع والاقبال (٤) فى الأصل « مريع » وهو تصحيف لا يساعد عليه بقية البيت وان صح وصف الخاطر بأنه خصب مريع « أحمد يوسف نجاتى »

فَأَعْرَبْتَ عَنْ وَجْدٍ كَمِينٍ طَوَيْتَه(١)
بِأَهْيَفَ طَاوٍ فَاتِرِ اللَّحَظَاتِ
غَزَالٍ أَحَمِّ الْمُقْلَتَيْنِ عَرَفْتَهُ
بِخَيْفِ مِنًى لِلْحُسْنِ أَوْ عَرَفَاتِ(٢)
رَمَاكَ فَأَصْمَى(٣)، وَالْقُلُوبُ رَمِيَّةٌ
لِكُلِّ كَحِيلِ الطَّرْفِ ذِي فَتَكَاتِ
وَظَنَّ بِأَنَّ الْقَلْبَ مِنْكَ مُحَصَّبٌ
فَلَبَّاكَ مِنْ عَيْنَيْهِ بِالْجَمَرَاتِ(٤)

---

(١) فى القلائد « فأعرب » والوجد : الغرام ، والطاوى : الضامر البطن الأهيف (٢) خيف منى وعرفات بمكة ، ولعله يشير الى أن هذا الغزال فى حرم لايحل صيده . كقوله :

بيض أوانس ماهمن بريبة   كظباء مكة صيدهن حرام

ويقرب من معنى البيت قول الشاعر :

فيادارها بالخيف ان مزارها   قريب ولكن دون ذلك أهوال

وفى القلائد و بعض نسخ النفح « للحين » أى الهلاك بدل « للحسن »
(٣) رماه فأصماه اذا قتله مكانه وهو يراه ، والرمية: الهدف ومايرمى من الصيد ومنه :

تشكى المحب وتلفى الدهر شاكية   كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

واذا كانت القلوب رمايا فالسهام هى العيون كما يدل عليه عجز البيت . « أحمد يوسف نجاتى » .
(٤) فى البيت كالبيتين السابقين والبيت بعده وفى البيت الأخير توجيه

تَقَـرَّبَ بِالنُّسَّاكِ فِى كُلِّ مَنْسَكٍ[1]
وَضَحَّى غَدَاةَ ٱلنَّحْرِ بِالْمُهَجَاتِ
وَكَانَتْ لَهُ جَيَّانُ[2] مَثْوًى فَأَصْبَحَتْ
ضُلُوعُكَ مَثْوَاهُ بِكُلِّ فَلَاةِ
يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ تَهِيمَ فَتَنْطَوِى
كَئِيباً عَلَى ٱلْأَشْجَانِ وَٱلزَّفَرَاتِ
فَلَوْ قُبِلَتْ لِلنَّاسِ فِى ٱلْحُبِّ فِدْيَةٌ
فَدَيْنَاكَ بِالْأَمْوَالِ وَٱلْبَشَرَاتِ

فى أسماء أماكن الحج وتورية بها . والمحصب اسم الشعب الذى مخرجه الى الأبطح بين مكة ومنى يقام فيه ساعة من الليل ثم يخرج الى مكة ، سمى به للحصباء التى فيه ، أو المحصب موضع رمى الأحجار بمنى ، وحصبه اذا رماه بالحصبة أو الحصباء وهى الحجارة والحصى (١) النسك العبادة والطاعة « وأراد بالنساك العشاق ومن يتقربون بأرواحهم وقلوبهم الى من يحبون » وأصل المنسك الموضع المعتاد الذى تعتاده ، ويقال ان لفلان منسكا يعتاده فى خير كان أو غيره ، ثم سميت أمور الحج مناسك ، والمنسك : الموضع الذى تذبح فيه النسيكة « أى الذبيحة » ومنه قولهم : منى منسك الحج (٢) جيان مدينة كانت لها كورة واسعة بالأندلس فى شرقى قرطبة بينهما ١٧ فرسخا وبملكتها بين مملكتى غرناطة وطليطلة ، وكانت فى غاية المنعة والحصانة ، ومن أكثر مدن الأندلس خصبا ، كثيرة العيون طيبة البقعة كثيرة الثمار

***

ترجمة أبي اسحق ابن خفاجة

« وَقَالَ فِي تَرْجَمَةِ أَدِيبِ الْأَنْدَلُسِ وَشَاعِرِهَا أَبِي إِسْحٰقَ أَبْنِ خَفَاجَةَ بَعْدَ كَلَامٍ مَا صُورَتُهُ » : وَقَالَ يَنْدُبُ مَعَاهِدَ الشَّبَابِ ، وَيَتَفَجَّعُ لِوَفَاةِ الْإِخْوَانِ وَالْأَحْبَابِ ، بِعَقِبِ سَيْلٍ أَعَادَ الدِّيَارَ آثَارًا ، وَقَضَى عَلَيْهَا وَهْيًا(١) وَانْتِثَارًا :

أَلَا عَرَّسَ الْإِخْوَانُ فِي سَاحَةِ الْبِلَى
وَمَا رَفَعُوا غَيْرَ الْقُبُورِ قِبَابًا
فَدَمْعٌ كَمَا سَحَّ الْغَمَامُ وَلَوْعَةٌ
كَمَا أَضْرَمَتْ رِيحُ الشَّمَالِ شِهَابًا
إِذَا اسْتَوْقَفَتْنِي فِي الدِّيَارِ عَشِيَّةٌ
تَلَدَّدْتُ فِيهَا جِيئَةً وَذَهَابًا(٢)
أُكَرِّرُ طَرْفِي فِي مَعَاهِدِ فِتْيَةٍ ثَكِلْتُهُمُ بِيضَ الْوُجُوهِ شَبَابًا

(١) الوهى التصدع والشق فى الشيء ، و وهى الحائط اذا ضعف وهم بالسقوط وأراد أن ينقض (٢) فى الاصل والقلائد والديوان « تلذذت » وأراها مصحفة عن « تلددت » أى تلفت يميناو شمالا متحيرا متبلدا ، مأخوذ من لديدى الوادى أى جانبيه ، أو اللديدين صفحتى العنق دون الاذنين ، وتلدد الرجل أيضا اذا تلبث وتمكث ومنه « فمالك والتلدد حول نجد » . « أحمد يوسف نجاتى » .

فَطَالَ وُقُوفِي بَيْنَ وَجْدٍ وَفُرْقَةٍ[1]
أُنَادِي رُسُومًا لَا تُحِيرُ جَوَابًا
وَأَمْحُو جَمِيلَ الصَّبْرِ طَوْرًا بِعَبْرَةٍ
أَخُطُّ بِهَا فِي صَفْحَتَيَّ كِتَابًا[2]
وَقَدْ دَرَسَتْ أَجْسَامُهُمْ وَدِيَارُهُمْ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَعْظُمًا وَيَبَابًا[3]
وَحَسْبِيَ شَجْوًا أَنْ أَرَى الدَّارَ بَلْقَعًا[4]
خَلَاءً ، وَأَشْلَاءَ الصَّدِيقِ تُرَابًا

(١) فى القلائد والديوان « بين وجد وزفرة » وأحار جوابا رده (٢) صفحتا الوجه جانباه ، يريد خديه ، وورى عنهما بالصفحتين ورشح لذلك بقوله أخط كتابا ، جعل مايسيل من الدموع على الخدين فيبقى بهما آثارا سطورا مكتوبة يقرأ منها الرأى الحزن والجزع ، وجعل ديباجة الوجه واشراقه ممحوة بهذه الدموع « يعنى أنه محا شيئا كان يدل على الصبر والخلو من الحزن ، وأثبت مايقرأ منه آيات الأسى ، ففى البيت مراعاة نظير وتورية وطباق وحسن تعليل بديع ، هذا الى أنه بافراطه فى الحزن والجزع وعدم الصبر انما يخط فى صحائف أعماله ، وينقش فى كتاب حسابه ، وقد أمر الله بالصبر ، ووعد الصابرين حسن الأجر ، ولكن مصابه غلب العزاء وأعوز معه التصبر ، فالبيت كما ترى يشير الى كل هذه المعانى » «أحمد يوسف نجاتى» (٣) اليباب الخراب . وفى الديوان « أقبرا » بدل « أعظما » وفى البيت لف ونشر مرتب «أحمد يوسف نجاتى» (٤) الشجو الحزن والهم ، والبلقع

وَلَقَدْ أَحَلَّنِى بِهٰذِهِ(١) الدِّيَارِ الْمَنْدُوبَةِ وَهِىَ كَعَهْدِهَا فِى جَوْدَةِ مَبْنَاهَا ، وَعَوْدَةِ سَنَاهَا ، فِى لَيْلَةٍ اكْتَحَلْنَا ظَلَامَهَا إِثْمِدًا(٢) ، وَمَحَوْنَا بِهَا مِنْ نُفُوسِنَا كَمَدًا ، وَلَمْ يَزَلْ ذٰلِكَ الْأُنْسُ يَبْسُطُهُ ، وَالسُّرُورُ يُنَشِّطُهُ ، حَتَّى نَشَرَ لِى مَا طَوَاهُ(٣) وَبَتَّ مَكْتُومَ لَوْعَتِهِ وَجَوَاهُ ، وَأَعْلَمَنِى بِلَيَالِيهِ فِيهَا مَعَ أَتْرَابِهِ ، وَمَا قَضَى بِهَا مِنْ أَطْرَابِهِ . انْتَهَى مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيَارِى مِنْ كَلَامِ أَبِى نَصْرٍ الْفَتْحِ بْنِ عُبَيْدِ اللّٰهِ — رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى — فِى وَصْفِ بَعْضِ مُتَنَزَّهَاتِ الْأَنْدَلُسِ الْبَدِيعَةِ ، وَرِيَاضِهَا الْمُونِقَةِ الْمَرِيعَةِ(٤)

***

رسالة بتهنئة بعض ملوك الأندلس

وَمَا أَحْسَنَ رِسَالَةً لَهُ مُخْتَصَرَةً ، كَتَبَهَا مُهَنِّئًا بَعْضَ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ بِمَا مَنَحَهُ اللّٰهُ تَعَالَى مِنَ التَّمْكِينِ الَّذِى أَيَّدَهُ بِهِ وَنَصَرَهُ . وَقَدْ جَوَّدَ أَوْصَافَهُ ، وَاسْتَطْرَدَ مِنْهَا إِلَى ذِكْرِ النَّاصِرِ وَوَلَدِهِ الْحَكَمِ اللَّذَيْنِ عَمَرَا الزَّهْرَاءَ وَالرُّصَافَةَ ، وَنَصُّهَا :

القفر الخالية من السكان . والأشلاء جمع شلو أى عضو (١) فى القلائد « أحد » بدل « هذه » (٢) حجر الكحل وهو أسود الى حمره (٣) يعنى أفضى اليه بما كان يكتمه ويخفيه (٤) الخصبة ، ومرع الوادى « مثلثة الراء » مراعة ومرعا اذا كلأ وأخصب وأعشب كأمرع « وهو أكثر استعمالا »

أَدَامَ اللهُ تَعَالَى أَيَّامَ الْأَمِيرِ لِلْأَرْضِ(١)، يَتَمَلَّكُهَا، وَيَسْتَدِيرُ بِسَعْدِهِ فَلَكُهَا، وَقَدِ اسْتَبْشَرَ الْمُلْكُ - أَيَّدَكَ اللهُ - وَحُقَّ لَهُ الِاسْتِبْشَارُ، فَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ السَّعْدُ وَأَشَارَ، بِمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ تَوْلِيَتِكَ، وَخفقَ عَلَيْهِ مِنْ أَلْوِيَتِكَ، فَلَقَدْ حُبِيَ مِنْكَ بِمَلِكٍ أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ الْمُسَدَّدِ(٢)، طَوِيلِ نِجَادِ السَّيْفِ رَحْبِ الْمُقَلَّدِ(٣)، يَتَقَدَّمُ حَيْثُ يَتَأَخَّرُ الذَّابِلُ(٤)، وَيَتَكَرَّمُ إِذَا بَخِلَ الْوَابِلُ(٥)، وَيَحْمِي الْحِمَى كَرَبِيعَةَ بْنِ مُكَدَّمٍ(٦)، وَيَسْقِي الظُّبَا نَجِيعًا كَلَوْنِ الْعَنْدَمِ(٧)، فَهَنِيئًا لِلْأَنْدَلُسِ فَقَدِ اسْتَرَدَّتْ عَهْدَ خُلَفَائِهَا. وَاسْتَجَدَّتْ رُسُومَ تِلْكَ الْإِمَامَةِ بَعْدَ عَفَائِهَا(٨)، فَكَأَنْ لَمْ تَمُتْ أَعَاصِرُهَا، وَلَمْ يَمُتْ حَكَمُهَا

(١) فى بعض النسخ « للأزمن » (٢) سدد السهم الى المرمى وجهه وصوبه (٣) هذه الفقرة شطر بيت، والمقلد موضع نجاد السيف على المنكبين (٤) الرمح (٥) المطر الغزير المنهمر (٦) فارس جاهلى مشهور وهو ربيعة ابن مكدم بن حدثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس من بنى كنانة، والحمى ماحمى من الشىء ومنع « يحمى الحمى كربيعة بن مكدم » شطر بيت ونثر الشعر وتضمين الأبيات وأشطرها فى رسائل ذلك العصر كان شائعا (٧) صبغ أحمر يسمى دم الأخوين كان يتخذ من قشر بعض الشجر الأحمر ودم الغزال (٨) زوال أثرها ومحوها « أحمد يوسف نجاتى »

وَلا نَاصِرُهَا ، اللَّذَانِ عَمَرَا الرُّصَافَةَ وَالزَّهْرَا ، وَنَكَحَا عَقَائِلَ الرُّومِ (١) وَمَا بَذَلَا غَيْرَ الْمَشْرَفِيَّةِ (٢) مَهْرًا ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَسْأَلُهُ إِظْهَارَ أَيَّامِكَ ، وَبِهِ أَرْجُو انْتِشَارَ أَعْلَامِكَ ، حَتَّى يَكُونَ عَصْرُكَ أَجْمَلَ مِنْ عَصْرِهِمْ ، وَنَصْرُكَ أَغْرَبَ مِنْ نَصْرِهِمْ ، بِمَنِّهِ ، وَكَرَمِهِ وَيُمْنِهِ .

***

ترجمة الفقيه الحافظ عبد الحق ابن عطية

« وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَرْجَمَةِ الْفَقِيهِ الْقَاضِي الْحَافِظِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ بْنِ عَطِيَّةَ (٣) صَاحِبِ

(١) أصل العقيلة الكريمة من النساء المخدرة النفيسة ، ثم استعمل فى الكريم من كل شئ من الذوات والمعانى. يريد هنا بالعقائل المدن والمعاقل والحصون ، وشبهها بالعرائس — ومن هذا قول الشاعر ابن خطيب سوسة مهنئا تميم بن المعز بفتح مدينة قابس سنة ٤٨٩:

ضحك الزمان وكان يلقى عابسا — لما فتحت بحد سيفك قابسا
أنكحتها عذراء ما أمهرتها — الا القنى وقواضبا وفوارسا
من كان بالبيض القواضب خاطبا — كانت له بيض الثغور عرائسا

(٢) السيوف المشرفية نسبة الى مشارف الشام قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، أو هى من أرض اليمن ، والمشارف كل قرية بين بلاد الريف وجزيرة العرب لأنها أشرفت على السواد ، ويقال لها أيضا المزارع وقال أبو عبيدة : سيف البحر شطه، وما كان عليه من المدن يقال لها المشارف تنسب اليها السيوف المشرفية (٣) تقدم القول فى بنى عطية وترجمة الامام

اُلتَّفْسِيرِ اُلشَّهِيرِ ، بَعْدَ كَلاَمٍ كَثِيرٍ ، مَاصُورَتُهُ » : وَمَرَرْنَا فِي إِحْدَى نُزْهَتِنَا بِمَكَانٍ مُقْفِرٍ ، وَعَنْ اُلْمَحَاسِنِ مُسْفِرٍ ، وَفِيهِ بَكِيرُ نَرْجِسٍ كَأَنَّهُ عُيُونٌ مِرَاضٌ ، يَسِيلُ وَسَطَهُ مَاءٌ رَضْرَاضٌ (١) بِحَيْثُ لَاحِسَّ إِلَّا لِلْهَامِ (٢) وَلَا أُنْسَ إِلَّا مَايَتَعَرَّضُ لِلْأَوْهَامِ ، فَقَالَ :

نَرْجِسٌ بَاكَرْتُ مِنْهُ رَوْضَةً
لَذَّ قَطْعُ اُلدَّهْرِ فِيهَا وَعَذُبْ
حَثَّتِ اُلرِّيحُ بِهَا خَمْرَ حَيًا (٣)
رَقَصَ اُلنَّبْتُ لَهَا ثُمَّ شَرِبْ
فَغَدَا يُسْفِرُ عَنْ وَجْنَتِهِ نَوْرُهُ اُلْغَضُّ وَيَهْتَزُّ طَرِبْ
خِلْتُ لَمْعَ اُلشَّمْسِ فِي مَشْرِقِهِ لَهَبًا يَخْمُدُ مِنْهُ فِي لَهَبْ (٤)

عبد الحق بن عطية المتوفى بمدينة لورقة سنة ٥٤٢ (١) ماء رضراض أى مطرد يترقرق ، وماء رضراض « بالاضافة » أى يجرى على الرضراض وهو صغار الحصى ومادق منها يجرى عليه الماء. والرضراض القطر من المطر الصغار (٢) الهامة طائر من طير الليل صغير يألف المقابر ، قيل هو الصدى أو هو البومة (٣) غيث (٤) يروى صدر البيت : خلت لمع الشمس فى حافاته وعجزه فى القلائد : لهبا يحمله منه لهب . « أحمد يوسف نجاتى »

وَبيَاضَ ٱلطَّلِّ فِي صُفْرَتِهِ
نُقَطَ ٱلْفِضَّةِ فِي خَطِّ ٱلذَّهَبْ

ٱنْتَهَى .

وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى كَثِيرٌ مِنْ وَصْفِ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَمُتَنَزَّهَاتِهَا وَمَا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ فِي كَلَامِ غَيْرِ وَاحِدٍ مِمَّنْ يَجْرِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا ٱلْكِتَابِ ، وَخُصُوصًا أَدِيبَ زَمَانِهِ غَيْرَ مُدَافَعٍ ، مَنِ ٱعْتَرَفَ لَهُ أَهْلُ ٱلشَّرْقِ ، بِالسَّبْقِ . وَأَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ ، بِالْإِبْدَاعِ ٱلْمُغْرِبِ ، ٱلنُّورُ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ ٱلْعَنْسِيُّ(١) فَإِنَّهُ لَمَّا ٱتَّصَلَ بِمِصْرَ وَدَخَلَهَا ٱشْتَاقَ إِلَى تِلْكَ ٱلْمَوَاطِنِ ٱلْأَنْدَلُسِيَّةِ ٱلرَّائِقَةِ ، وَوَصَفَهَا بِالْقَصَائِدِ وَٱلْمَقْطُوعَاتِ ٱلْفَائِقَةِ . وَقَدْ أَسْلَفْنَا أَيْضًا فِيمَا مَرَّ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَحَاسِنِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، فَلْيُرَاجَعْ فِي مَحَلِّهِ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ .

قُلْتُ: وَمَاذَا عَسَى أَنْ نَذْكُرَ مِنْ مَحَاسِنِ قُرْطُبَةَ وَٱلزَّاهِرَةِ وَٱلزَّهْرَاءِ أَوْ نَصِفَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلَّتِي تُبْصَرُ بِكُلِّ مَوْضِعٍ

---

(١) سبقت ترجمته و يأتى له حديث طويل « أحمد يوسف نجاتى »

مِنْهَا ظِلًّا ضَافِيًا[١] وَنَهْرًا صَافِيًا وَزَهْرًا ، وَيَرْحَمُ اللهُ تَعَالَى أَدِيبَهَا الْمَشْهُورَ، الَّذِي اعْتَرَفَ لَهُ بِالسَّبْقِ الْخَاصَّةُ وَالْجُمْهُورُ، أَبَا إِسْحٰقَ بْنَ خَفَاجَةَ إِذْ قَالَ :

يَاأَهْلَ أَنْدَلُسٍ لِلّٰهِ دَرُّكُمُ
مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ
مَاجَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمُ
وَلَوْ تَخَيَّرْتُ هٰذَا كُنْتُ أَخْتَارُ
لَاتَخْتَشُوا بَعْدَذَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا[٢]
فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ

وَيُرْوَى مَكَانَ قَوْلِهِ « وَلَوْ تَخَيَّرْتُ هٰذَا كُنْتُ أَخْتَارُ » مَامِثَالُهُ « وَهٰذِهِ كُنْتُ لَوْ خُيِّرْتُ أَخْتَارُ » وَمَكَانَ لَاتَخْتَشُوا ، لَا تَحْسَبُوا ، وَكَذَا رَأَيْتُ بِخَطِّ الْحَافِظِ التَّنَسِيِّ[٣]

(١) ممتدا وارفاوسابغا كثيرا (٢) فيروى صدر البيت : لاتحسبوا فى غد أن تدخلوا سقرا (٣) نسبة الى تنس قرية بساحل افريقية بينها وبين البحر ميلان وكانت آخر افريقية مما يلى المغرب من أعمال تلمسان، بينها و بين وهران ٨ مراحل، منها جمال الدين محمد بن محمد التنسى — ويقال سبط التنسى — محدث اسكندرى، كان له نسل منهم جماعة فضلاء آخرهم كان قاضى المالكية بمصر

وَالْأَوَّلُ رَأَيْتُهُ بِخَطِّ الْعَلَّامَةِ الْوَانْشَرِيشِيِّ[1] - رَحِمَهُمَا اللّٰهُ تَعَالَى - وَحُكِيَ أَنَّ الْخَلِيلِيَّ لَمَّا قَدِمَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ رَسُولًا إِلَى سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ أَبِي عِنَانٍ[2] فَارِسِ بْنِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ الْمَرِينِيِّ أَنْشَدَ بِحَضْرَةِ السُّلْطَانِ الْمَذْكُورِ

ناصر الدين أحمد بن التنسى. ومن أسلافهم أبو عبد الله محمد بن العز التنسى، ومحمد بن عبد الله التنسى من القرن التاسع، وفى الأصل «الشمنى» بدل «التنسى» التى فى بعض النسخ «الشمنى نسبة الى شمن مزرعة ظاهر قسنطينة أو اسم قبيلة من العرب ينزلون هناك، منها الفقيه شرف الدين محمد بن خلف الشمنى القسنطينى، وكان من المتصدرين بجامع عمرو لاقراء مذهب الامام الشافعى، وحفيده كمال الدين محمد بن محسن ممن أخذ عن الحافظ ابن حجر، توفى سنة ٨٢١ وولده تقى الدين أحمد ولد سنة ٨٠١ روى عن والده وعن ابن حجر وغيرهما وله مصنفات مليحة «أحمد يوسف نجاتى» (١) أبو العباس أحمد بن يحي الوانشريشى، أصله من تلمسان واستوطن مدينة فاس، وله تآليف حسان فى التاريخ والفقه وغيرهما، وتوفى سنة ٩١٤ وابنه الفقيه أبو محمد عبد الواحد بن أحمد توفى سنة ٩٥٥ وهو منسوب الى وانشريش جبل بين مليانة وتلمسان من نواحى المغرب، وينسب اليه أيضا محمد بن عبد الله الوانشريشى الذى أعان محمد ابن تومرت على أمره يوم قام بدعوة عبد المؤمن بن على (٢) هو السلطان المتوكل على الله أبو عنان فارس بن السلطان أبى الحسن على بن عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق المرينى، قام بالأمر بعد وفاة والده سنة ٧٥٢ وتوفى سنة ٧٥٩ وكان مولده فى ١٢ ربيع الأول سنة ٧٢٩ وأمه رومية اسمها شمس الضحى. «أحمد يوسف نجاتى».

أَبْيَاتَ ٱبْنِ خَفَاجَةَ هَذِهِ كَالْمُفْتَخِرِ بِبِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، فَقَالَ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ : كَذَبَ هَذَا ٱلشَّاعِرُ « يُشِيرُ إِلَى كَوْنِهِ جَعَلَهَا جَنَّةَ ٱلْخُلْدِ ، وَأَنَّهُ لَوْ خُيِّرَ لَاخْتَارَهَا عَلَى مَا فِي ٱلْآخِرَةِ » وَهَذَا خُرُوجٌ مِنْ رِبْقَةِ[1] ٱلدِّينِ ، وَلَا أَقَلَّ مِنَ ٱلْكَذِبِ وَٱلْإِغْرَاقِ ، وَإِنْ جَرَتْ عَادَةُ ٱلشُّعَرَاءِ بِذَلِكَ ٱلْإِطْلَاقِ ، فَقَالَ ٱلْخَلِيلِيُّ[2] : يَا مَوْلَانَا بَلْ صَدَقَ ٱلشَّاعِرُ لِأَنَّهَا مَوْطِنُ جِهَادٍ ، وَمُقَارَعَةٍ لِلْعَدُوِّ وَجِلَادٍ ، وَٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ٱلرَّءُوفُ ٱلْوَدُودُ ٱلرَّحِيمُ ٱلْعَطُوفُ ـ يَقُولُ : « ٱلْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ ٱلسُّيُوفِ » فَٱسْتَحْسَنَ مِنْهُ هَذَا ٱلْكَلَامَ ، وَرَفَعَ عَنْ قَائِلِ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلْمَلَامَ ، وَأَجْزَلَ صِلَتَهُ ، وَرَفَعَ مَنْزِلَتَهُ ،

---

(١) الربقة فى الأصل : عروة من عدة عرا فى حبل تشد به البهم الصغار من أيديها لئلا ترضع ، ويستعار لما يقيد به الانسان نفسه من شرع أو قانون ، ويروى عن حذيفة رضى الله عنه : «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » فاستعار الربقة للاسلام لما يشد به المسلم نفسه من عرا الدين ، ولحدوده التى يجب أن يقف عندها ولا يتعداها .

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

ولولا تلك الحدود لكان الانسان كالدابة المرسلة والبهيمة المهملة . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) فى الأصل « الخليل » فى الموضعين ، وما أثبتناه هو ما فى بعض المراجع

وَلَعَمْرِى إِنَّ هَذَا اُلْجَوَابَ ، لَجَدِيرٌ بِالصَّوَابِ ، وَهَـكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَـكُونَ رُسُلُ اُلْمُلُوكِ فِي اُلِافْتِنَانِ ، رَوَّحَ اُللهُ تَعَالَى أَرْوَاحَ اُلْجَمِيعِ فِي اُلْجِنَانِ .

***

تفوق أبي اسحاق ابن خفاجة فى الوصف

وَأَبُو إِسْحٰقَ بْنُ خَفَاجَةَ(١) كَانَ أَوْحَدَ اُلنَّاسِ فِي وَصْفِ اُلْأَنْهَارِ، وَاُلْأَزْهَارِ،وَاُلرِّيَاضِ ، وَاُلْحِيَاضِ ، وَاُلرَّيَاحِينِ ، وَاُلْبَسَاتِينِ . وَقَدْ سَبَقَ بَعْضُ كَلَامِهِ ، وَيَأْتِي أَيْضًا مِنْهُ بَعْضٌ فِي أَثْنَاءِ اُلْـكِتَابِ ، وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

وَكِمَامَةٍ(٢) حَـدَرَ اُلصَّبَاحُ قِنَاعَهَا
عَنْ صَفْحَةٍ تَنْدَى مِنَ اُلْأَزْهَارِ
فِي أَبْطَحٍ رَضَعَتْ ثُغُورُ أَقَاحِـهِ
أَخْـلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِدْرَارِ

(١) ولد ابن خفاجة بجزيرة شقر من أعمال بلنسية سنة ٤٥٠ ونشأ بشرق الأندلس،ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع تهافتهم على أهل الأدب وتوفى سنة ٥٣٣ (٢)الكمامة:غطاء النور ، وحدرها حسرها وكشفها ، والأخلاف جمع خلف وهو الضرع ، أو حلمته ، ومدرار أى كثيرة الدر أى اللبن ، أو من در اذا جرى وسال كثيرا ، ودرت السماء بالمطر اذا كثر مطرها فهى مدرار ، وكذا سحابة مدرار .« أحمد يوسف نجاتى »

نَثَرَتْ بِحِجْرِ ٱلْأَرْضِ[1] فِيهِ يَدُ ٱلصَّبَا
دُرَرَ ٱلنَّدَى وَدَرَاهِمَ ٱلنُّوَّارِ
وَقَدِ ٱرْتَدَى غُصْنُ ٱلنَّقَا ، وَتَقَلَّدَتْ
حَلْيَ ٱلْحَبَابِ سَوَالِفُ ٱلْأَنْهَارِ[2]
فَحَلَلْتُ حَيْثُ ٱلْمَاءُ صَفْحَةُ ضَاحِكٍ
جَذِلٍ ، وَحَيْثُ ٱلشَّطُّ بَدْءُ عِذَارِ[3]
وَٱلرِّيحُ تَنْفُضُ بُكْرَةً لِمَمَ ٱلرُّبَا
وَٱلطَّلُّ يَنْضَحُ أَوْجُهَ ٱلْأَشْجَارِ[4]
مُتَقَسَّمَ ٱلْأَلْحَاظِ بَيْنَ مَحَاسِنٍ
مِنْ رِدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ
وَأَرَاكَةٍ سَجَعَ ٱلْهَدِيلُ بِفَرْعِهَا
وَٱلصُّبْحُ يُسْفِرُ عَنْ جَبِينِ نَهَارِ[5]

(١) فى الديوان « الروض » (٢) ارتدى لبس الرداء واكتسى ، والنقا الكثيب من الرمل ، والسوالف جمع سالفة وهى مقدم العنق (٣) يصف الماء بالصفاء والشاطىء بالخضرة (٤) اللمة فى الأصل: الشعر المجاوز شحمة الأذن، سميت لمة لأنها تلم بالمنكبين، ونضحه اذا رشه (٥) الأراك شجر معروف يستاك بفروعه له حمل كعناقيد العنب ، وسجع :غنى وغرد ، والهديل ذكر الحمام ، أوفرخه ، والهديل أيضا صوته «أحمد يوسف نجاتى»

هَـــزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا ، وَلَرُبَّمَا
خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُـلَاءَةَ ٱلْأَنْوَارِ

وَقَوْلُهُ

سَقْياً لِيَوْمٍ قَدْ أَنَخْتُ بِسَرْحَةٍ
رَيَّا تُلَاعِبُهَا ٱلرِّيَاحُ فَتَلْعَبُ (١)
سَـــكْرَى ، يُغَنِّيهَا ٱلْحَمَامُ فَتَنْثَنِي
طَرَباً ، وَيَسْقِيهَا ٱلْغَمَامُ فَتَشْرَبُ
يَلْهُو (٢) فَتَرْفَـعُ لِلشَّبِيبَةِ رَايَةٌ
فِيهِ ، وَيَطْلُعُ لِلْبَهَارَةِ كَوْكَبُ
وَٱلرَّوْضُ وَجْهٌ أَزْهَرٌ ، وَٱلظِّلُّ فَرْ
عٌ أَسْوَدٌ ، وَٱلْمَاءُ ثَغْرٌ أَشْنَبُ (٣)
فِي حَيْثُ أَطْرَبَنَا ٱلْحَمَامُ عَشِـيَّةً
فَشَــدَا يُغَنِّينَا ٱلْحَمَامُ ٱلْمُطْرِبُ

---

(١) السرحة : الشجرة الكبيرة العظيمة يستظل فيها ، أو السرح كل شجر لا شوك فيه ، والسرحة دوحة محلال واسعة يحل تحتها الناس فى الصيف ويبنون تحتها البيوت وظلها صالح (٢) قد تكون « نلهو » (٣) أزهر : مشرق وضىء ، والفرع الشعر التام ، والشنب : ماء ورقة تجرى على الثغر مع برد وعذوبة فى الفم . «أحمد يوسف نجاتى»

وَاُهْتَزَّ عِطْفُ اُلْغُصْنِ مِنْ طَرَبٍ بِنَا
وَاُفْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ اُلْهِلَالِ اُلْمَغْرِبُ
فَكَأَنَّهُ وَاُلْحُسْنُ مُقْتَرِنٌ بِهِ
طَوْقٌ عَلَى بُرْدِ اُلْغَمَامَةِ مُذْهَبُ
فِي فِتْيَةٍ تَسْرِي فَيَنْصَدِعُ اُلدُّجَى
عَنْهَا، وَتَنْزِلُ بِالْجَدِيبِ فَيُخْصِبُ(١)
كَرُمُوا فَلَا غَيْثُ اُلسَّمَاحَةِ مُخْلِفٌ
يَوْمًا، وَلَا بَرْقُ اُللَّطَافَةِ خُلَّبُ(٢)
مِنْ كُلِّ أَزْهَرَ لِلنَّعِيمِ بِوَجْهِهِ
مَاءٌ يُرَقْرِقُهُ اُلشَّبَابُ فَيَسْكُبُ(٣)

***

وَقَالَ يَمْدَحُ اُلْأَمِيرَ أَبَا يَحْيَى بْنَ إِبْرَاهِيمَ : مدح أبي إسحاق للأمير أبي يحيي

(١) انصدع أى، انشق وانجلت ظلمته ، وانصدع الصبح اذا انشق عنه الليل والصديع الصبح لأنه يصدع الليل أى يشقه (٢) برق خلب لاغيث معه كأنه خادع خلاب ، يومض حتى تطمع بمطره، ثم يخلفك عدته (٣) يرقرقه أى يحركه ويجريه ، وترقرق الماء اذا تحرك وجاء وذهب، وترقرق الشيء اذا لمع ، والرقراقة: المرأة التى كأن الماء يجرى فى وجهها نضرة ونعمة وصبا ورفاهية « أحمد يوسف نجاتى »

سَمَحَ ٱلْخَيَالُ عَلَى ٱلنَّوَى بِمَزَارِ
وَٱلصُّبْحُ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِ نَهَارِ
فَرَفَعْتُ مِنْ نَارِى لِضَيْفٍ طَارِقٍ .
يَعْشُو إِلَيْهَا مِنْ خَيَالٍ طَارِى(١)
رَكِبَ ٱلدُّجَى أَحْسِنْ بِهَا مِنْ مَرْكَبٍ
وَطَوَى ٱلسُّرَى أَحْسِنْ بِهِ مِنْ سَارِى(٢)
وَأَنَاخَ حَيْثُ دُمُوعُ عَيْنِى مَنْهَلٌ
يُرْوِى ، وَحَيْثُ حَشَاىَ مَوْقِدُ نَارِ
وَسَقَى فَأَرْوَى غُلَّةً مِنْ نَاهِلٍ
أَوْرَى بِجَانِحَتَيْهِ زَنْدَ أُوَارِ(٣)

---

(١) عشا النار وعشا اليها اذا رآها ليلا من بعيد فقصدها مستضيئا بها، يرجو بها هدى وخيرا أو اصطلاء وقرى (٢) أظن «أحسن» فى صدر البيت مصحفة عن «أخشن» كما فى قول أبى تمام :

أعاذلتى ماأخشن الليل مركبا وأخشن منه فى الملمات راكبه
دعينى وأهوال الزمان أقاسها فأهواله العظمى تليها رغائبه

الا اذا أراد بكون الدجا أحسن مركب أن خيال محبوبه زاره فيها ، وأن لها يدا فى ستر الزائر من المحب والمحبوب كما قال أبو الطيب :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسرى اليهم وزارك فيه ذوالدلال المحجب

(٣) الغلة: شدة العطش وحرارته. والناهل العطشان، قال النابغة :

خَلَعَ ٱلْهَوَى ثَوْبًا عَلَيْهِ مِنَ ٱلضَّنَى
قَدْ شَفَّ عَنْهُ فَهْوَ كَاسٍ عَارِى
يَلْوِى ٱلضُّلُوعَ مِنَ ٱلْوَلُوعِ لِخَطْرَةٍ
مِنْ شَيْمِ بَرْقٍ أَوْ شَمِيمِ عَرَارِ (١)
وَٱللَّيْلُ قَدْ نَضَحَ ٱلنَّدَى سِرْبَالَهُ
فَانْهَلَّ دَمْعُ ٱلطَّلِّ فَوْقَ صِدَارِ (٢)

الطاعن الطعنة يوم الوغى   ينهل منها الأسل الناهل

والنهل أول الشرب ، والثانى العلل ، ونهلت الابل «كفرح» شربت فى أول الورد ، والأوار: حرارة العطش، مجاز عن الأوار حر النار و وهجها. والجانحة الضلع ، والجوانح أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر كالضلوع مما يلى الظهر ، أو الضلوع القصار التى فى مقدم الصدر، سميت بذلك لجنوحها على القلب، وأورى الزند استوقده: لاستخراج ناره «أحمد يوسف نجاتى»

(١) ولع به ولعا ، وولوعا فهو ولوع أى لج فيه وأغرى به ، وشام البرق اذا نظر اليه أين يقصد وأين يمطر ، والعرار بهار البر ، وهو نبت طيب الريح ، وهو النرجس البرى ، وللصمة بن عبد الله القشيرى من أبيات :

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

(٢) نضح رش. والسربال القميص ، وانهل انصب ، والطل المطر الضعيف والندى ، والصدار فى الأصل ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى، كانت نساء الأعراب تلبسه، وكانت الثكلى اذا فقدت حميمها فأحدت عليه لبست صدارا من صوف ، ويقال لما يلى الصدر من الدرع صدار ، أو هو قميص صغير يلى الجسد ، وفى المثل: كل ذات صدار خالة : أى من حق الرجل أن

مُتَرَقِّبٌ رُسُلَ ٱلرِّيَاحِ عَشِيَّةً
بِمَسَاقِطِ ٱلْأَنْوَاءِ وَٱلْأَنْوَارِ(١)
وَمَجَرِّ ذَيْلِ غَمَــامَةٍ لَبِسَتْ بِهِ
وَشْيَ ٱلْحَبَابِ مَعَاطِفُ ٱلْأَنْهَارِ
خَفَقَتْ ظِلَالُ ٱلْأَيْكِ فِيهِ ذَوَائِبًا
وَٱرْتَجَّ رِدْفًا مَائِجِ(٢) ٱلتَّيَّارِ
وَلَوَى ٱلْقَضِيبُ هُنَاكَ جِيدًا أَتْلَعًا(٣)
قَدْ قَبَّلَتْهُ مَبَاسِمُ ٱلنُّوَّارِ
بَاكَرْتُهُ وَٱلْغَيْمُ قِطْعَةُ عَنْبَرٍ
مَشْبُوبَةٌ ، وَٱلْبَرْقُ لَفْحَةُ نَارِ(٤)

يغار على كل امرأة كما يغار على حرمه (١) الأنواء جمع نوء ، وهو في الأصل النجم اذا مال للمغيب ، ولا يكون نوء حتى يكون معه مطر ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى الأنواء ، وقد يسمى المطر نوءا مجازا (٢) في الأصل « مائل » والتيار موج البحر ولجته تسيل وتضطرب (٣) التلع طول العنق وفعله « كفرح وكرم » وجيد أتلع وتليع : طويل قال الأعشى :

يوم تبدى لنا قتيلة عن جيـ د تليع تزينه الأطواق

(٤) مشبوبة : موقدة ملتهبة تتأرج رائحتها وتتوهج ، ولفحة النار : وهجها

وَالرِّيحُ تَلْطِمُ(١) فِيهِ أَرْدَافَ الرُّبَا
لَعِبًا ، وَتَلْثِمُ أَوْجُهَ الْأَزْهَارِ

وَمَنَابِرُ الْأَشْجَارِ قَدْ قَامَتْ بِهَا
خُطَبَاءُ مُفْصِحَةٌ مِنَ الْأَطْيَارِ

فِي فِتْيَةٍ جَنَبُوا الْعَجَاجَةَ لَيْلَةً
وَلَرُبَّمَا سَفَرُوا عَنِ الْأَقْمَارِ(٢)

ثَارَ الْقَتَامُ بِهِمْ دُخَانًا ، وَارْتَمَى
زَنْدُ الْحَفِيظَةِ مِنْهُمُ بِشَرَارِ(٣)

شَاهَدْتُ مِنْ هَيْبَاتِهِمْ(٤) وَهِبَاتِهِمْ
إِشْرَافَ أَطْوَادٍ وَفَيْضَ بِحَارِ

(١) فى الأصل « تطلع » (٢) يصفهم بالشجاعة والجمال ، والعجاجة الغبار يريد غبار الحرب (٣) القتام : الغبار . والحفيظة الحمية والغضب لحرمة تنتهك من حرمات المرء أو جار ذى قرابة يظلم من ذويه ، أو عهد ينكث أو نحو ذلك (٤) فى الأصل « من هيئاتهم » ويروى « هيباتهم » و « هباتهم » و « هماتهم » ففى البيت لف ونشر مرتب ، فأشراف الأطواد فى عجزه يعود الى الأول من صفتهم فى صدره ، والمألوف فى التشبيه بالأطواد « الجبال » اذا قصد الحلم أو الرزانة والوقار والثبات فيناسب ذلك « هيباتهم » أو القوة والصلابة والمتانة واحكام الخلق وشدة الأسر ، ويناسب ذلك « هباتهم » أو « هيئاتهم » . « أحمد يوسف نجاتى »

مِنْ كُلِّ مُنْتَقِبٍ بِوَرْدَةِ خَجْلَةٍ
كَرَمًا ، وَمُشْتَمِلٍ بِثَوْبِ وَقَارِ
فِي عِمَّـةٍ خُلِعَتْ عَلَيْـهِ لِلِمَّـةٍ
وَذُؤَابَةٍ قُرِنَتْ بِهَـا لِعِذَارِ
ضَافِي رِدَاءِ الْمَجْدِ ، طَمَّاحِ الْعُـلَا
طَامِي عُبَابِ الْجُودِ ، رَحْبِ الدَّارِ (١)
جَرَّارِ أَذْيَالِ الْمَعَـالِي وَالْقَنَا
حَامِي الْحَقِيقَةِ وَالْحِمَى وَالْجَارِ (٢)
طَرَدَ الْقَنِيصَ بِكُلِّ قَيْدِ طَرِيدَةٍ
زَجِلِ الْجَنَاحِ مُوَرَّدِ الْأَظْفَارِ (٣)

---

(١) العباب: معظم السيل وارتفاعه وكثرته ، أو الموج (٢) الحقيقة كل مايحق على المرء أن يحميه ويذود عنه ويجب عليه حفظه ومنعه ، قال عامر بن الطفيل :

لقد علمت عليا هوازن أنني أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر

جعفر هنا القبيلة ، وعامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب «أحمد يوسف نجاتي » (٣) يصف خروجهم الى القنص بالبزاة وجوارح الطيور المعلمة كما كان عادة الملوك. والطرد مزاولة الصيد، وطردت الكلاب الصيد طردا : نحته وراهقته « والطريدة : ماطرد من الصيد ، ويحسن قراءة «طردالقنيص» بجعل طرد اسما ،واضافةالقنيص اليه للمبالغةومشاكلة

مُلْتَفَّةٍ أَعْطَافُهُ بِحَبِـــيرَةٍ
مَــكْحُولَةٍ أَجْفَانُهُ بِنُضَارِ[1]
يُرْمَى بِهِ الْأَمَلُ الْقَصِىُّ فَيَنْثَنِي
مَخْضُوبَ رَاءِ الظُّفْرِ وَالْمِنْقَارِ[2]

« قيد الأوابد » والقنيص والقنص الصيد المقنوص أى المصيد ، وقيد الطريدة كناية عن البازى القوى السريع يقيد الطريدة لسرعة ادراكها ولحاقه اياها ، جعله قيدا لها لأنه سبقها فكأنه قيدها . وأقدم من سبق الى هذا الوصف امرؤ القيس فى قوله :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

والزجل الصوت والجلبة والصوت الرفيع العالى ، وزجل الجناح كناية عن السرعة والقوة ، ومورد الأظفار : أحمرها لما يصبغها من دماء الفرائس

(١) الحبرة ضرب من برود اليمن ، والحبير البرد الموشى ذو الخطوط ،وقد تكون « بحبيرة » مصغر حبرة ، ومادة « ح ب ر » تفيد معنى الحسن والبهاء والنقش والوشى ، ويقولون : لبس حبير الحبور ، واستوى على سرير السرور — والنضار : الذهب . وأحسن أنواع البزاة ماقل ريشه واحمرت عيناه مع حدة فيهما كما قال الناشىء :

لو استضاء المرء فى ادلاجه بعينه كفته عن سراجه

ومن أنواع الصقور مايسمى باليؤيؤ ، وهو خفيف الجناح سريع الطيران قصير الذنب ، وفيه يقول الناشىء أيضا :

ويؤيؤ مهذب رشيق كأن عينيه لدى التحقيق

☆ فصان مخروطان من عقيق ☆

(٢) راء . اما من الرؤية ، واما أنه يشبه ظفره ومنقاره بحرف « الراء » لأنهما معقوفان منحنيان ، وفيه خيال بديع أن شبه مسمى الظفر والنقار بطرفى اسميهما، وقد شبه ابن المعتز المنقار برأس حرف الجيم

وَبِكُلِّ نَائِى الشَّوْطِ أَشْدَقَ أَخْزَرٍ
طَاوِى الْحَشَى حَالِى الْمُقَلَّدِ ضَارِى(١)
يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ النِّصَالِ، وَإِنَّمَا
يَمْشِى عَلَى مِثْلِ الْقَنَا الْخَطَّارِ(٢)
مُسْتَقْرِيًا أَثَرَ الْقَنِيصِ عَلَى الصَّفَا
وَاللَّيْلُ مُشْتَمِلٌ بِشَمْلَةِ قَارِ(٣)

(١) يصف كلاب الصيد المضراة ــ وأشدق أى واسع الشدق ، وأخزر من الخزر وهو ضيق العين وصغرها ، أو هو النظر الذى كأنه فى أحد الشقين. وفى الديوان « أصدر » وهو العظيم الصدر ،وهو أحسن مما هنا . والطاوى الضامر ، والمقلد موضع القلادة ، والضارى المعود الافتراس المغرى به (٢) يصف حدة أنيابه و يشبهها بالنصال كما قال أبو نواس :

كأنما الأظفور فى قرابه موسى صناع رد فى قرابه

وله من أرجوزة أخرى

يطير فى الجد بلا جناح يفترعن مثل شبا الرماح

وكان أبو نواس من أوصف الشعراء لكلاب الصيد وجوارحه ،فقد لعب بالكلاب زمانا،وعرف منها مالا تعرفه الأعراب ، وترى كثيرا من نعتها فى شعره ــ ولاسيما فى أراجيزه ــ مع جودة الطبع وحسن السبك والحذق بالصنعة « أحمد يوسف نجاتى » (٣) مستقريا متتبعا . والصفاة : الحجر الصلد الأملس الضخم الذى لاينبت،وجمعه صفى وأصفاء وصفى ، و يصف فى عجز البيت شدة ظلام الليل ، والقار الزفت . والبيت يدل على شدة معرفة الكلب بآثار الصيد حتى فى صم الحجارة لتعوده ذلك ،و يدل على حدة نظره

مِنْ كُلِّ مُسْوَدٍّ تَلَهَّبُ طَرْفِهِ
تَرْمِيكَ فَحْمَتُهُ بِشُعْلَةِ نَارِ [١]
وَمُوَرَّسِ [٢] ٱلسِّرْبَالِ يُخْلَعُ قَيْدُهُ
عَنْ نَجْمِ رَجْمٍ فِي سَمَاءِ غُبَارِ
يَسْتَنُّ فِي سَطْرِ ٱلطَّرِيقِ وَقَدْ عَفَا
قِدَمًا فَتَقْرَأُ أَحْرُفَ ٱلْآثَارِ [٣]

---

(١) فى الديوان «تهديك» بدل «ترميك» يصف ألوان الكلاب ، فهو فى هذا البيت يصف كلبا أسود قد احمرت عيناه وتوقدتا ، كما قال أبو نواس :

كأن عينيه لدى ارتيابه فصا عقيق قد تقابلا به

(٢) يصف كلبا أصفر ، وخير الكلاب ما كان لونه يذهب الى ألوان الأسد من الصفرة والحمرة ، ثم الأسود ، قال الجاحظ وكل شىء من الحيوان اذا اسود شعره أو جلده أو صوفه كان أقوى لبدنه — والمورس الأصفر كأنه مصبوغ بالورس ، وهو نبات أصفر يصبغ به ، وأصفر وارس أى شديد الصفرة ، وورسه اذا صبغه بالورس ، والسربال القميص ، وشبهه فى عجز البيت بنجوم الرجم فى سرعة الانقضاض والقضاء على مايقع عليه ، و بسرعة العدو حتى يثير غبارا كالسماء — وراعى المناسبة بين النجم والسماء . وفى الأصل « نده » بدل « قيده ، وفى بعض النسخ « قده » والغرض أنه متى فك من قيده أو متى أطلق نفسه وراء الصيد انقض كالنجم مثيرا غبارا يملأ الفضاء « أحمد يوسف نجاتى » (٣) يصف شدة وقعه على الأرض وتأثيره فيها بأظافره ، واستن اذا جرى يعدو فى غاية النشاط وسار على سننه فى جهة واحدة . وعفا اذا محى أثره ودرس

عَطَفَ ٱلضُّمُورُ سَرَاتَهُ فَكَأَنَّهُ
وَٱلنَّقْعُ يَحْجُبُهُ هِلَالُ سِرَارِ (١)
وَلَرُبَّ رَوَّاغٍ هُنَالِكَ أَنْبَطٍ
ذَلِقِ ٱلْمَسَامِعِ أَطْلَسِ ٱلْأَطْمَارِ (٢)
يَجْرِى عَلَى حَذَرٍ فَيُجْمِعُ بَسْطَهُ
يَهْوِى فَيَنْعَطِفُ ٱنْعِطَافَ سِوَارِ (٣)
مُمْتَدِّ حَبْلِ ٱلشَّأْوِ ، يَعْسِلُ رَائِغًا
فَيَكَادُ يُفْلِتُ أَيْدِيَ ٱلْأَقْدَارِ (٤)

---

(١) يصفه بالضمور ودقة الجسم وشدة الأسر ، وعطفه : حناه ، والسراة الظهر ، والنقع الغبار ، والسرار : آخر ليلة فى الشهر (٢) راغ الثعلب ونحوه اذا مال وحاد عن الشيء وانحرف فى استخفاء ، وراغ الصيد : ذهب هنا وهنا ، وفى المثل « أروغ من ثعلب » والأنبط ما كان ذا بياض تحت ابطه و بطنه ، وربما عرض النبط حتى يغشى البطن والصدر ، وذلق أى حاد . وفى الأصل « خلق » وخلق الشيء املاس ، والذلق أيضا القلق . والأطلس ما كان فى لونه غبرة الى السواد ، والأطمار جمع طمر وهو الثوب الخلق والكساء البالى – ومن هنا أخذ يصف ماترسل الكلاب أو البزاة خلفه لصيده من ثعلب أو ذئب أو طير ، ثم أحسن التخلص من ذلك الى المدح (٣) بين كيف يروغ وكيف ينقبض فى عدوه و ينبسط (٤) الشأو : الغاية ، والأمد ، والسبق ، وعسل الثعلب أو الذئب أو الفرس « كضرب » اذا اضطرب فى عدوه وهز رأسه ، وفى الأصل « رانعا » بدل « رائغا » « أحمد يوسف نجاتى »

مُتَرَدِّدًا يَرْمِي بِهِ خَوْفُ ٱلرَّدَى
كُرَةً تَهَادَتْهَا أَكُفُّ قِفَارِ[١]
وَلَرُبَّ طَيَّارٍ خَفِيفٍ قَدْ جَرَى
فَشِلًا بِجَارٍ[٢] خَلْفَهُ طَيَّارِ
مِنْ كُلِّ قَاصِرَةِ ٱلْخُطَى مُخْتَالَةٍ
مَشْيَ ٱلْفَتَاةِ تَجُرُّ فَضْلَ إِزَارِ
مَخْضُوبَةِ ٱلْمِنْقَارِ، تَحْسَبُ أَنَّهَا
كَرَعَتْ عَلَى ظَمَإٍ بِكَأْسِ عُقَارِ
لَا تَسْتَقِرُّ بِهَا ٱلْأَيَادِي خَشْيَةً
مِنْ لَيْلِ وَيْلٍ أَوْ نَهَارِ بَوَارِ
وَلَوِ ٱسْتَجَارَتْ مِنْهُمَا بِحِمَى أَبِي
يَحْيَى لَأَمَّنَهَا أَعَزُّ جِوَارِ

(١) تهادتها أى تناولتها كأنها هدية ، وفى رواية « تهاداها » أى تهاداها . وقد وصف أبو نواس الثعلب وكيف أرسل وراء الكلب فصاده فى أرجوزة حسنة فى ديوانه أولها :

لما غدا الثعلب من وجاره يلتمس الكسب على صغاره

بما استعان به الشاعر هنا من المعانى والألفاظ « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) فى الأصل « بشلا بجار » يقول ان هرب الطير لا ينفعها لأن خلفها جاريا أسرع منها « أحمد يوسف نجاتى ».

حَرَمٌ إِذَا اشْتَمَلَ الطَّرِيدُ بِظِلِّهِ
لَمْ يَخْشَ مِنْ جَوْرٍ هُنَالِكَ جَارِ
خَدَمَ الْقَضَاءُ مُرَادَهُ ، فَكَأَنَّمَا
مَلَكَتْ يَدَاهُ أَعِنَّةَ الْأَقْدَارِ
وَعَنَا[1] الزَّمَانُ لِأَمْرِهِ فَكَأَنَّمَا
أَصْغَى الزَّمَانُ بِهِ إِلَى أَمَّارِ
وَجَلَا الْإِمَارَةَ فِي رَفِيفِ[2] نَضَارَةٍ
جَلَتِ الدُّجَى فِي حُلَّةِ الْأَنْوَارِ
فِي حَيْثُ وَشَّحَ لَبَّةً بِقِلَادَةٍ
مِنْهَا ، وَحَلَّى مِعْصَمًا بِسِوَارِ
جَذْلَانُ يَمْلَأُ مِنْحَةً وَبَشَاشَةً[3]
أَيْدِي الْعُفَاةِ وَأَعْيُنَ الزُّوَّارِ
أَرِجَ النَّدِيُّ بِذِكْرِهِ ، فَكَأَنَّهُ
مُتَنَفِّسٌ عَنْ رَوْضَةٍ مِعْطَارِ

(١) عنا يعنو اذا خضع وأطاع (٢) فى الأصل « رفيق » ولا بأس أن تكون « رفيق » ورف لونه رفيفا إذا برق وتلألأ . (٣) فى الأصل « منحه و بشاشه » يصفه بأنه يهش للعفاة و يشرق وجهه للزائرين .
« أحمد يوسف نجاتى » .

بَطَلٌ جَرَى[1] الْفَلَكُ الْمُحِيطُ بِسَرْجِهِ
وَاسْتَلَّ صَارِمَهُ يَدُ الْمِقْدَارِ
بِيَمِينِهِ يَوْمَ الْوَغَى وَشِمَالِهِ
مَا شَاءَ مِنْ نَارٍ وَمِنْ إِعْصَارِ[2]
وَالسُّمْرُ حُمْرٌ، وَالْجِيَادُ عَوَابِسٌ
وَالْجَوُّ كَاسٍ، وَالسُّيُوفُ عَوَارِى[3]
وَالْخَيْلُ تَعْثُرُ فِى شَبَا شَوْكِ الْقَنَا
قَصِدًا، وَتَسْبَحُ فِى الدَّمِ الْمَوَّارِ[4]

(١) فى الأصل « حوى » وفى بعض النسخ « سرى » ولا بأس بها

(٢) الاعصار الريح التى فيها نار ، قال تعالى « فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » والعصر المطر من المعصرات « السحائب التى فيها المطر » والعصر « بالتحريك » الملجأ والمنجاة ، وجمعهما أعصار (٣) كان صدر البيت فى الأصل والديوان « والشمس خمر والجياد عوابس » والسمر الرماح ، وحمرتها من الدم ، والبيت من قول الشاعر :

تبسمت والخيل العتاق عوابس　　وأججتها والحرب لم تتأجج
فما وطئت إلا عـلى هام سيد　　ولا عثرت إلا برأس متوج

يصف الشاعر شدة الهول وقد شمرت الحرب عن ساقها «أحمد يوسف نجاتى»

(٤) الشبا جمع شباة وهى طرف كل شىء حاد ، وفى الديوان « وتظل » مكان « قصدا » وقصد العود اذا كسره ، وانقصد الرمح انكسر نصفين حتى يبين ، وصارت الرماح قصدا أى قطعا ، والقصدة من كل شجرة شائكة أن يظهر نباتها أول ما تنبت ، والقصدة القطعة مما يكسر ، وجمعه

وَالْبِيضُ تُحْنَى فِي الطُّلَى[١] فَكَأَنَّمَا
تُلْوَى عُرًى مِنْهَا عَلَى أَزْرَارِ
وَالنَّقْعُ يَكْسِرُ مِنْ سَنَى شَمْسِ الضُّحَى
فَكَأَنَّهُ صَدَأٌ عَلَى دِينَارِ
صَحِبَ الْحُسَامُ النَّصْرَ صُحْبَةَ غِبْطَةٍ
فِي كَفِّ صَوَّالٍ بِهِ سَوَّارِ[٢]
لَوْ أَنَّهُ أَوْمَى[٣] إِلَيْهِ بِنَظْرَةٍ
يَوْمًا لِثَارٍ فَلَمْ يَنَمْ عَنْ ثَارِ
وَمَضَى[٤] وَقَدْ مَلَكَتْهُ هِزَّةُ عِزَّةٍ
تَحْتَ الْعَجَاجِ وَضِحْكَةُ اسْتِبْشَارِ

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ :

قصد ، ورمح قصد وقصيد أى متكسر ، ومار الدم سال وجرى على وجه الأرض ، والمور الموج والاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرك (١) الطلى الأعناق أو أصولها وصفحاتها ، جمع طلية أو طلاة ، وفى الأصل « تجنى » مكان « تحنى » (٢) سورة السلطان: بطشه وسطوته ، وسار الرجل : وثب وثار (٣) أو ما مخفف من أومأ أى أشار ، وفى بعض النسخ « أوحى » يصف هيبة الممدوح وقوة بأسه ، وأن السيف يخضع لاشارته ، ويعمل بنظرته ، وينتصر بعزته وصولته « أحمد يوسف نجاتى »
(٤) فى الأصل « وقضى » وفى بعض النسخ « نخوة » مكان « عزة »

وَأَرَاكَةٍ ضَرَبَتْ سَمَاءً فَوْقَنَا
تَنْدَى، وَأَفْلَاكُ ٱلْكُؤُوسِ تُدَارُ
حَفَّتْ بِدَوْحَتِهَا مَجَرَّةُ جَدْوَلٍ
نَثَرَتْ عَلَيْهِ نُجُومَهَا ٱلْأَزْهَارُ
وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جَدْوَلَ مَائِهَا
حَسْنَاءُ شُدَّ بِخَصْرِهَا زُنَّارُ
زَفَّ ٱلزُّجَاجُ بِهَا عَرُوسَ مُدَامَةٍ
تُجْلَى، وَنُوَّارُ ٱلْغُصُونِ نِثَارُ
فِي رَوْضَةٍ جُنْحُ ٱلدُّجَى ظِلٌّ بِهَا
وَتَجَسَّمَتْ نُورًا بِهَا ٱلْأَنْوَارُ
غَنَّاءُ يَنْشُرُ وَشْيَهُ ٱلْبَزَّازُ لِي
فِيهَا، وَيَفْتِقُ مِسْكَهُ ٱلْعَطَّارُ(١)
قَامَ ٱلْغِنَاءُ بِهَا وَقَدْ نَضَحَ ٱلنَّدَى
وَجْهَ ٱلثَّرَى وَٱسْتَيْقَظَ ٱلنُّوَّارُ

---

(١) البزاز : بائع البز أى الثياب ، وفتق المسك اذا خلطه بغيره كالعنبر اذا طيبه وخلطه بعود وغيره ، والعطار : بائع العطر «أحمد يوسف نجاتى»

وَٱلْمَاءِ مِنْ حَلْيِ ٱلْحَبَابِ مُقَلَّدٌ
زَرَّتْ عَلَيْـهِ جُيُوبَهَا ٱلْأَشْجَارُ(١)

وَقَالَ مُلْتَزِمًا مَالَا يَلْزَمُ(٢) :

(١) مقلد ذو قلائد وفى الأصل والديوان « الحياء » بدل « الحباب » وهو تصحيف « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) لزوم مالايلزم « ويسمى الالتزام والتضمين والتشديد والاعنات » هو من المحسنات البديعية اللفظية : وهو أن يأتى الشاعر فى أبيات شعره بحرف يلتزمه قبل حرف الروى - أو فى فواصل سجعه كذلك - أو أكثر من حرف مع عدم التكلف ، فابن عمار التزم فى أبياته حرف الراء قبل حرف الروى «الهمزة» والألف اللازمة، وهو انما يحسن كغيره من المحسنات اللفظية اذا كان غير متكلف، وكانت الألفاظ فيه تابعة للمعانى ، فان المعانى إذا تركت على سجيتها، وأسلمها الشاعر البليغ إلى الطبع طلبت لأنفسها ألفاظا تليق بها وتجلى فى معرضها ، فيحسن اللفظ والمعنى جميعا ، أما إذا جاءت الألفاظ متكلفة ، واقتسرت على أن تحل مواضع نابية بها تصنعا، وجاءت المعانى تابعة لها مرغمة على البروز فيها كان الكلام مموه الظاهر ،مشوه الباطن، كمن أثقل الفتاة التى لم ترزق حظا من الجمال بأنواع الحلى والحلل ، وأرهقها بكثرة الزينة والنقش، فلم يفدها ذلك غناء ولم يكسبها جمالا ولا بهاء ، ولله در ابن الرومى إذ يقول :

وما الحلى إلا زينة لنقيصة ... يتمم من حسن إذا الحسن قصرا
ولكن إذا كان الجمال موفرا ... كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

وما أحسن قول الآخر :

وإذا الدر زان حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا

ولأبى العلاء المعرى ديوان اللزوميات وهومشهور ،ولم يخل فيه من تكلف « أحمد يوسف نجاتى »

خُذْهَا إِلَيْكَ ، وَإِنَّهَا لَنَظِيرَةٌ[1]
طَرَأَتْ عَلَيْكَ قَلِيلَةُ النُّظَرَاءِ

حَمَلَتْ وَحَسْبُكَ بَهْجَةً مِنْ نَفْحَةٍ
عَبَقَ الْعَرُوسِ وَخَجْلَةَ الْعَذْرَاءِ

مِنْ كُلِّ وَارِسَةِ الْقَمِيصِ كَأَنَّمَا
نَشَأَتْ تُعَلُّ بِرِيقَةِ الصَّفْرَاءِ

نَجَمَتْ تَرُوقُ بِهَا نُجُومُ حَسْبُهَا[2]
بِالْأَيْكَةِ الْخَضْرَاءِ مِنْ خَضْرَاءِ

وَأَتَتْكَ تُسْفِرُ عَنْ وُجُوهٍ طَلْقَةٍ
وَتَنُوبُ مِنْ لُطْفٍ عَنِ السُّفَرَاءِ[3]

يَنْدَى بِهَا وَجْهُ النَّدِيِّ ، وَرُبَّمَا
بَسَطَتْ هُنَالِكَ أَوْجُهَ السَّرَّاءِ[4]

---

(١) لعله يريد أن لها نظائر منه قد سبق أن مدح بها ممدوحه وسيلحقها بمثلها وشبهها فى الحسن ، وليس مدحه إياه مقصورا على هذه وحسب ، وفى نسخة « نضيرة » والمعنى عليها أنضر وأظهر « أحمد يوسف نجاتى »
(٢) فى الأصل « حسنها » والخضراء الأخيرة « السماء » (٣) فى الأصل « الشعراء » (٤) فى الأصل « يندى بها وجه الندى ولربما » وفى بعض الروايات ، عجز البيت « بسطت هناك أسرة السراء » والأسرة جمع

فَاسْتَضْحَكَتْ وَجْهَ الدُّجَى مَقْطُوعَةٌ
جُمِلَتْ جَمَالَ الْغُرَّةِ الْغَـرَّاءِ

وَقَالَ أَيْضًا :

وصَـدْرِ نَادٍ نَظَـمْنَا لَهُ الْقَـوَافِيَ عِقْـدَا
فِي مَنْزِلٍ قَدْ سَـحَبْنَا بِظِـلِّهِ الْعِـزَّ بُرْدَا
قَدْ طَنَّبَ الْمَجْـدُ بَيْتًا فِيـهِ ، وَعَرَّسَ وَفْـدَا
تَذْكُو بِهِ الشُّهْبُ جَمْرًا وَيَعْبَـقُ اللَّيْـلُ نَـدَّا
وَقَـــدْ تَأَرَّجَ نَوْرٌ غَضٌّ يُخَالِـطُ وَرْدَا
كَمَا تَنَفَّسَ (١) ثَغْـرٌ عَـذْبٌ يُقَبِّـلُ خَـدَّا

***

وَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ مُتَنَزَّهًا : وصف متنزه
يَا رُبَّ وَضَّاحِ الْجَبِينِ كَأَنَّمَا
رَسْمُ الْعِذَارِ بِصَفْحَتَيْهِ كِتَابُ

سرار ، وهو خط الوجه والجبهة ، ويجمع أسرة على أسارير . وفى حديث عائشة رضى الله عنها فى صفته صلى الله عليه وسلم : تبرق أسارير وجهه ، وبسط الأسرة كناية عن السرور والبشر والطلاقة (١) ويروى «تبسم» كما فى الديوان وهو أحسن . « أحمد يوسف نجاتى »

تُغْرَى بِطَلْعَتِهِ ٱلْعُيُون مَهَابَةً (١)
وَتَبِيتُ تَعْشَقُ عَقْلَهُ ٱلْأَلْبَابُ
خُلِعَتْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلصَّبَاحِ غِلَالَةٌ
تَنْدَى، وَمِنْ شَفَقِ ٱلْمَسَاءِ (٢) نِقَابُ
فَكَرَعْتُ مِنْ مَاءِ ٱلصِّبَا فِي مَنْهَلٍ
قَدْ شَفَّ عَنْهُ مِنَ ٱلْقَمِيصِ سَرَابُ (٣)
فِي حَيْثُ لِلرِّيحِ ٱلرُّخَاءِ تَنَفُّسٌ
أَرِجٌ، وَلِلْمَاءِ ٱلْفُرَاتِ عُبَابُ (٤)
وَلَرُبَّ غَضِّ ٱلْجِسْمِ مَرَّ (٥) بِخَوْضِهِ
سَبْحًا كَمَا شَقَّ ٱلسَّمَاءَ شِهَابُ

(١) كذا بالأصل والديوان وفى نسخة «ملاحة» (٢) فى الأصل والديوان « السماء » (٣) شف عنه الثوب إذا نم على ماتحته، أو إذا قصر عنه، وشف الثوب يشف إذا رق فحكى ماتحتـه ورئى ماخلفه .وفى الديوان « شق » وفى موضع آخر منه يروى البيت هكذا :

وبعطفيـه للشبيبـة منهـل قد شف عنه من القميص سراب

(٤) الرخاء الريح اللينة طيبة الهبوب ، والفرات الشديد العذوبة القامع للعطش لشدة عذوبته ،سمى بذلك لأنه يرفت العطش أى يسكنه ويكسر سورته ، والعباب معظم السيـل وارتفاعه وكثرته أو موجه المتلاطم (٥) فى الأصل « مد » وفى الديوان « مد بخوضه صبحا » وجسم

وَلَقَدْ أَنَخْتُ بِشَاطِئَيْهِ يَهُزُّنِى
طَرَبًا شَبَابٌ رَاقَنِى وَشَرَابُ
وَعَبَرْتُ(١) دَجْلَتَهُ يُضَاحِكُنِى بِهَا
مَرَحًا حَبِيبٌ شَاقَنِى وَحَبَابُ
تُجْلَى مِنَ الدُّنْيَا عَرُوسٌ بَيْنَنَا
حَسْنَاءُ تُرْشَفُ وَالْمُدَامُ رُضَابُ
ثُمَّ ارْتَحَلْتُ وَلِلنَّهَارِ ذُؤَابَةٌ
شَيْبَاءُ(٢) تُخْضَبُ وَالظَّلَامُ خِضَابُ

غض أى ناعم رقيق ناضر (١) فى الأصل «وبكيت» وكذا بالديوان وفى موضع آخر منه «وركبت» وهى مثل «عبرت» (٢) قالوا هو أشيب على غير قياس لأن هذا النعت انما يكون من باب «فرح» وشرطه الدلالة على العيوب أو الألوان أو الحلى ، والأشيب المبيض الرأس، ولعلهم جعلوه وصفا من المصائب الخلقية كالأعمى والأعرج فعدوه من العيوب :

تعيب الغانيات على شيبى ومن لى أن أمتع بالمعيب

* * *

كفى الشيب عيبا أن صاحبه إذا أردت به وصفا له قلت أشيب
وكان قياس الأصل لو قلت شائبا ولكنه فى جملة العيب يحسب

ولكنهم لم يقولوا منه «شيباء» فلم يؤنثوه على فعلاء بل أهملوه ولم يرد فى كلام من بعدهم ، اكتفوا «بالشمطاء» عن «الشيباء» ولكن ابن خفاجة استعمله . وقدتكون مصحفة عن «شهباء» وفى الأصل «والنهار

تَلْوِى مَعَاطِفَ ٱلصَّبَابَةُ وَٱلصِّبَا
وَٱللَّيْلُ دُونَ ٱلْكَاشِحِينَ(١) حِجَابُ

وَقَالَ :

مَرَّ بِنَا وَهْوَ بَدْرُ تَمٍّ(٢) يَسْحَبُ مِنْ ذَيْلِهِ سَحَابَا
بِقَامَةٍ تَنْثَنِي قَضِيبًا وَغُرَّةٍ تَلْتَظِي شِهَابَا
يَقْرَأُ وَٱللَّيْلُ مُدْلَهِمٌّ(٣) لِنُورِ إِجْلَائِهِ كِتَابَا
وَرُبَّ لَيْلٍ سَهِرْتُ فِيهِ أَزْجُرُ مِنْ جُنْحِهِ غُرَابَا(٤)
حَتَّى إِذَا ٱللَّيْلُ مَالَ سُكْرًا وَشَقَّ سِرْبَالَهُ وَجَابَا(٥)
وَحَامَ مِنْ سُدْفِهِ غُرَابٌ طَالَتْ بِهِ سِنُّهُ فَشَابَا(٦)

خضاب» بدل « والظلام » فهو المناسب للخضاب الذى يدل عليه السياق ويؤيده البيت بعده « أحمد يوسف نجاتى » (١) الكاشح : من يضمر العداوة ويتولى عنك بوده ، والعدو المبغض . كأنه يطوى العداوة فى كشحه « أى خصره وجانبى بطنه » وفيه كبده والكبد بيت العداوة والبغضاء . ومنه قيل للعدو أسود الكبد كأن نار الحقد أحرقت كبده أو كأنه يوليك كشحه ويعرض عنك بوجهه. « أحمد يوسف نجاتى » (٢) بدر تم وتمام يقال ذلك للبدر إذا تم امتلاؤه ليلة البدر فبهر (٣) ادلهم الظلام إذا اشتد وكثف (٤) فى الأصل والديوان « نكابا » ؟ والجنح من الليل الطائفة منه أو أوله ، وقد يطلق على ظلامه (٥) جاب الشيء : خرقه ونقبه وقطعه (٦) السدفة : الظلمة كالسدف ، أو السدفة ظلمة فيها ضوء من أول الليل وآخره مابين الظلمة إلى الشفق ومابين الفجر إلى الصلاة

ازْدَدْتُ مِنْ لَوْعَتِي خَبَالًا[1] فَحَثَّ مِنْ غُلَّتِي شَرَابَا

وَمَا خَطَا قَادِمًا فَوَافَى حَتَّى انْثَنَى نَاكِصًا فَآبَا[2]

وَبَيْنَ جَفْنَيَّ بَحْرُ شَوْقٍ يَعُبُّ فِي وَجْنَتِي عُبَابَا

قَدْ شُبَّ فِي وَجْهِهِ شُعَاعٌ وَشُبَّ[3] عَنْ قَلْبِيَ الْتِهَابَا

وَرَوْضَةٍ طَلْقَةٍ حَيَاءَ غَنَّاءَ مُخْضَرَّةٍ جَنَابَا[4]

يَنْجَابُ عَنْ نَوْرِهَا كِمَامٌ يَحُطُّ عَنْ وَجْهِهِ نِقَابَا[5]

بَاتَ بِهَا مَبْسِمُ الْأَقَاحِي يَرْشُفُ مِنْ طَلِّهَا رُضَابَا[6]

وَمِنْ خُفُوقِ الْبُرُوقِ فِيهَا أَلْوِيَةٌ حُمِّرَتْ خِضَابَا

ويروى صدر البيت « وحام فى سدفة غراب » وهى أرجح لأنه لا يقال سدف بل « سدف » « بفتح الدال، إلا إذا كانت سدف اسم جنس جمعيا واحده سدفة » والشاعر يريد بهذا البيت وماقبله إقبال الصباح بعد ليل طويل قضاه ساهدا حتى شاب غرابه ، وشيب الغراب كما تعرف مستحيل، ففى البيت مبالغة فى طول الليل مع حسن تعليل (١) ويروى « جئت » والخبال العناء والهلاك وفساد العقل ، واللوعة : حرقة فى القلب وألم يشعر به ذو الحب أو الهم أو المرض أو نحو ذلك ، ويقرب من معنى البيت قول امرىء القيس :

* وما الإصباح منك بأمثل *

(٢) نكص إذا رجع على عقبيه عائدا ، وفعله « كضرب ونصر »

(٣) ويروى « فى قلبى » وفى الديوان « عن قلبه » . « أحمد يوسف نجاتى »

(٤) الجناب الناحية والفناء كالجانب (٥) انجاب انشق وانكشف ، والكمام جمع كم وهو غلاف النور وعطاؤه (٦) الأقاحى جمع أقحوان والرضاب الريق

كَأَنَّمَا أَنْمُلٌ وِرَادٌ (١) تَحْصُرُ قَطْرَ الْحَيَا حِسَابَا

وَلَهُ :

رَحَلْتُ عَنْكُمْ وَلِي فُؤَادٌ تُنْقِضُ (٢) أَضْلَاعُهُ حَنِينَا
أَجُودُ فِيكُمْ بِعِلْقِ (٣) دَمْعٍ كُنْتُ بِهِ قَبْلَكُمْ ضَنِينَا
يَثُورُ فِي وَجْنَتَيَّ جَيْشًا وَكَانَ فِي جَفْنِهِ كَمِينَا
كَأَنَّنِي بَعْدَكُمْ شِمَالٌ قَدْ فَارَقَتْ مِنْكُمُ يَمِينَا

وَقَالَ :

فَيَا لَشَجَا قَلْبٍ (٤) مِنَ الصَّبْرِ فَارِغٍ !
وَيَا لَقَذَى طَرْفٍ مِنَ الدَّمْعِ مَلْآنِ !

أو الريق المرشوف ، ورضب ريقها اذا رشفه وامتصه (١) جمع ورد أى أحمر ، والحيا: الغيث (٢) أنقض أى صوت، والنقيض من الأصوات مايكون لمفاصل الانسان وأضلاعه وأصابعه ونحوها . وفى التنزيل : « الذى أنقض ظهرك » أى أثقله حتى جعله نقضا أى مهزولا ، أو أثقله حتى سمع نقيضه أى صوته - ويصح أن يكون « تنقض » تنفعل من قضض لا من « نقض » قض الشيء اذا كسره ودقه، وانقض الجدار إذا تصدع، وقض الحائط: هدمه بالعنف ، ولكن الأولى أن يكون من الأول فهو المستعمل كثيرا فى صوت الأضلاع ونحوها، وفى الأصل والديوان « تنفض » «أحمد يوسف نجاتى» (٣) نفيس ثمين غال يضن به (٤) ويروى « فيالشجى صدر » كما يروى « جفن » فى عجز البيت بدل « طرف » والمعنى واحد، واذا فرغ القلب من الصبر، وضاق بالشجو الصدر ، قذيت العين بكثرة الدموع ، ونبا الطرف عن الهجوع . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَنفْسٍ إِلَى جوِّ الْكَنِيسَةِ صَبَّةٍ   وَقَلْبٍ إِلَى أُفْقِ الْجزِيرَةِ حَنَّانِ

تَعَوَّضْتُ مِنْ وَاهاً بِآهٍ ، وَمِنْ هَوًى

بِهُونٍ، وَمِنْ إِخْوَانِ صِدْقٍ بِخُوَّانِ[1]

وَمَا كُلُّ بَيْضَاءٍ تَرُوقُ بِشَحْمَةٍ[2]

وَمَا كُلُّ مَرْعًى تَرْتَعِيهِ بِسَعْدَانِ

فَيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِدَهْرِيَ عَطْفَةٌ

فَتُجْمَعَ أَوْطَارِي عَلَيَّ وَأَوْطَانِي! ؟

مَيَادِينُ أَوْطَارِي ، وَبَلْدَةُ[3] لَذَّتِي

وَمَنْشَأُ تَهْيَامِي ، وَمَلْعَبُ غِزْلَانِي

---

(١) « واها » كلمة تعجب من طيب الشيء وحسنه تقول : واهاله ما أطيبه كما قال أبو النجم :

واها لسلمى ثم واها واها   نلنا المنى لو أننا نلناها   الخ

أما « آه » فكلمة تقال عند التوجع والتألم ، والهون الذل والعذاب والهوان

(٢) في الأصل « بروق » ولعله مبالغة من « برق » أي أضاء ، وصدر البيت من المثل « ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة » وقال أبو الهذيل زفر بن الحرث الكلابي « وهو من التابعين » :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة   ليالي لاقينا جذام وحميرا

أي كنا نطمع في أمر فوجدناه على خلاف ما كنا نظن . وتقدم شرح المثل « مرعى ولا كالسعدان » قريبا . « أحمد يوسف نجاتي » (٣) في الأصل والديوان « ولذة لذتي » ويروى « وموطن » « أحمد يوسف نجاتي »

كَأَنْ لَمْ يَصِلْنِي فِيهِ ظَبْيٌ يَقُومُ لِي
لَمَاهُ (١) وَصُدْغَاهُ بِرَاحِي وَرَيْحَانِي
فَسَقْيًا لِوَادِيهِمْ وَإِنْ كُنْتُ إِنَّمَا
أَبِيتُ لِذِكْرَاهُ بِغُلَّةِ (٢) ظَمْآنِ
فَكَمْ يَوْمِ لَهْوٍ قَدْ أَدَرْنَا بِأُفْقِهِ
نُجُومَ كُؤُوسٍ بَيْنَ أَقْمَارِ نُدْمَانِ
وَلِلْقُضْبِ وَالْأَطْيَارِ مَلْهًى بِجَزْعِهِ (٣)
فَمَا شِئْتَ مِنْ رَقْصٍ عَلَى رَجْعِ أَلْحَانِ
وَبِالْخَضْرَةِ الْغَرَّاءِ غِرٌّ عَلِقْتُهُ (٤)
فَأَحْبَبْتُ حُبًّا فِيهِ قُضْبَانَ نُعْمَانِ

---

(١) اللمى سمرة فى الشفة كانوا يستحسنونها ، وفى البيت لف ونشر مرتب

(٢) الغلة شدة العطش وحرارته ، وفى معنى البيت قول المرحوم محمود باشا سامى البارودى :

أدعو إلى الدار بالسقيا و بى ظمأ   أحق بالرى ، لـكنى أخـو كرم

(٣) فى الأصل والديوان « بجرعة » وجزع الوادى : منعطفه أو وسطه أو منقطعه أو منحناه ، أو ما اتسع من مضايقه ، أو لا يسمى جزعا حتى تكون له سعة تنبت الشجر وغيره ـ ويروى « بأفقه » وهو ألطف (٤) الغر : الحدث السن الذى لا تجربة له ، والغرة الفتاة الشابة لم تجرب الأمور ولم

رَقِيقُ الْحَوَاشِي ، فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهِ
وَمَنْطِقِهِ مَسْلَى قُلُوبٍ وَآذَانِ(١)

أَغَارُ لِخَدَّيْهِ عَلَى الْوَرْدِ كُلَّمَا
بَدَا ، وَلِعِطْفَيْهِ عَلَى أَغْصُنِ الْبَانِ

وَهَبْنِيَ أَجْنِي وَرْدَ خَدٍّ بِنَاظِرِي فَمِنْ أَيْنَ لِي مِنْهُ بِتُفَّاحِ لُبْنَانِ

يُعَلِّلُنِي مِنْــهُ بِمَوْعِــدِ رَشْــفَةٍ
خَيَالٌ لَهُ يُغْرَى بِمَطْلٍ وَلِيَّانِ(٢)

حَبِيبٌ عَلَيْهِ لُجَّةٌ مِنْ صَوَارِمٍ
عَلَاهَا حَبَابٌ مِنْ أَسِنَّةِ مُرَّانِ(٣)

تــكن تعلم ماتعلم النساء من الحب ، ويقال فيها أيضا غرير وغريرة ، ومن ذلك قول الشاعر :

ولقد لهــوت بطفــلة ميالة بلهاء تطلعنى على أسرارها

أراد أنها غر لادهاء لها فهى تخبره بأسرارها ولاتفطن لما عليها فى ذلك « أحمد يوسف نجاتى (١) » رقيق الحواشى أى دمث الطباع سهل الأخلاق، لطيف المعاشرة ، وفى البيت بعد ذلك لف ونشر مرتب .

(٢) لواه دينه وبدينه ليا وليانا « وفتح اللام فى ليان أشهر » اذا مطله ، وقال ذو الرمة :

تطيلين ليــانى وأنت مليئــة وأحسن ياذات الوشاح التقاضيا

ومليئــة أى غنيــة غير محتاجــة الى المطال فليانك بخــل وضن بالحق . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) المران : الرماح الصلبة اللدنة واحدة مرانة ،

تَرَاءَى لَنَا فِى مِثْلِ صُورَةِ يُوسُفٍ
تَرَاءَى لَنَا فِى مِثْلِ مُلْكِ سُلَيْمَانِ
طَوَى بُرْدُهُ مِنْهَا صَحِيفَةَ فِتْنَةٍ
قَرَأْنَا لَهَا مِنْ وَجْهِهِ سَطْرَ عُنْوَانِ

وفى معنى البيت قول الطغرائى :

يحمون بالبيض والسمر اللدان به   سود الغدائر حمر الحلى والحلل

وصف حلاهن بالحمرة لأن الأحمر يزيد الحسن بهجة وحسنا ، كما قيل :

هجان عليها حمرة فى بياضها   تروق به العينين والحسن أحمر

والهجان: الخيار من كل شىء ، وللسراج الوراق .

من البيض تمشى البيض حول خبائها   شبيهة نومى ليس يأوى الى جفن
غزالة أنس والرماح كناسها   ومن حولها قوم يخالون كالجن
لهم غيرة قد ساء بالطيف ظنها   فضنوا عليها بالكرى خيفة الظن

وله أيضا وقد أحسن :

ومحجوبة أما الدجا فغدائر   عليها ، وأما الصبح فهو جبينها
عجبت لمسرى الطيف لى من كناسها   ومن حوله أسد الشرى وعرينها

ولابن النبيه :

وفى الكلة الحمراء بيضاء طفلة   بزرق عيون السمر يحمى احورارها
أثار لها نقع الجياد سرادقا   به دون ستر الخدر عنا ستارها

وما أجود قول بعضهم فى هذا المعنى :

وأرى لليلى العامرية منزلا   بالجود يعرف والندى أصحابه
قد أشرعت بيض الصوارم والقنا   من حوله فهو المنيع حجابه
وعلى حماه جلالة من أهله   فلذاك طارقة العيون تهابه

والقول فى هذا المعنى كثير لانطيل به . « أحمد يوسف نجاتى » .

مَحَبَّتُهُ دِينِي ، وَمَثْوَاهُ كَعْبَتِي
وَرُؤْيَتُهُ حَجِّي ، وَذِكْرَاهُ قُرْآنِي

وَقَالَ :

وَلَيْلٍ تَعَاطَيْنَا الْمُدَامَ وَبَيْنَنَا
حَدِيثٌ كَمَا هَبَّ النَّسِيمُ عَلَى الْوَرْدِ
نُعَاوِدُهُ وَالْكَاسُ يَعْبَقُ نَفْحُهَا
وَأَطْيَبُ مِنْهَا مَا نُعِيدُ وَمَا نُبْدِي(١)
وَنَقْلِي أَقَاحُ الثَّغْرِ أَوْ سَوْسَنُ الطُّلَى
وَنَرْجِسَةُ الْأَجْفَانِ أَوْ وَرْدَةُ الْخَدِّ(٢)

(١) يريد بعجز البيت الحديث ، ومنه قول ابن المعتز :

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما عداه كلام

فى الديوان « بعبق نفحة » (٢) النقل « بفتح النون وقد تضم » ما يتنقل على الشراب من الفواكه ونحوها « المزة » ولابن عمار من محبو به أزهار مختلفة وثمار غضة جنية هى خير ما يتنقل به وألذ وأطيب، ولابن النبيه :

رضابك راحى، آس صدغيك ريحانى شقيق جنى خديك، جيدك سوسانى

وقال عمر بن الفارض :

عليك بها صرفا فإن رمت مزجها فعدلك عن ظلم الحبيب هو الظلم

الظلم الأول بفتح الظاء وهو الريق أو الرضاب يرشف من الثغر .
« أحمد يوسف نجاتى »

إِلَى أَنْ سَرَتْ فِي جِسْمِهِ الْكَأْسُ وَالْكَرَى
وَمَالَا بِعِطْفَيْهِ فَمَالَ عَلَى عَضُدِي
فَأَقْبَلْتُ أَسْتَهْدِي لِمَا بَيْنَ أَضْلُعِي
مِنَ الْحَرِّ مَا بَيْنَ الثَّنَايَا(١) مِنَ الْبَرْدِ
وَعَايَنْتُهُ قَدْ سُلَّ مِنْ وَشْيِ بُرْدِهِ
فَعَايَنْتُ(٢) مِنْهُ السَّيْفَ سُلَّ مِنَ الْغِمْدِ

(١) استهدى: أطلب هدية ـ وفى الأصل والديوان «الضلوع» فى عجز البيت بدل «الثنايا» وهو خطأ لا يصلح المعنى المراد عليه بل قد يفسده فانه يقول انه لما مالت بمن يحب سنة الكرى طوقه ذراعيه، وبات يعل من رضابه وينهل، ويطفىء نار أشواق تتوقد فى ضلوعه ببرد رضاب من مقبل محبوبه العذب، وان كنت أخشى أن ذلك قد يزيد نار الوجد اشتعالا كما يقول ابن الرومى:

أعانقه والنفس بعد مشوقة ... اليه وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاه كى تزول حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذى بى من الجوى ... ليطفئه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يروى غليله ... سوى أن ترى الروحان تمتزجان

ولكن ذلك الحر بردوسلام يشفى من غلة الوجد. «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) ويروى «فعانقت» والبيت يصف محبوبه وقد تجرد من ثيابه للنوم وكأنى به ينشد عندذلك قول بعض الأدباء:

تجردت عن جسم كأعواد مرمر ... أغار عليه عند نظرة أحداق
ولما كشفت الساق قامت قيامتى ... فياويح قلبى يوم يكشف عن ساق

والبيت بعده يبين وجه الشبه بينه و بين السيف وان كانت تلك المحاسن تفوق مافيه

لِيَانَ مَجَسٍّ وَٱسْتِقَامَةَ قَامَةٍ
وَهِزَّةَ أَعْطَافٍ وَرَوْنَقَ إِفْرِنْدِ(١)

أُغَازِلُ مِنْهُ ٱلْغُصْنَ فِي مَغْرِسِ ٱلنَّقَا
وَأَلْثِمُ وَجْهَ ٱلشَّمْسِ فِي مَطْلَعِ ٱلسَّعْدِ

فَإِنْ لَمْ يَكُنْهَا أَوْ تَكُنْهُ فَإِنَّهُ
أَخُوهَا كَمَا قُدَّ ٱلشِّرَاكُ مِنَ ٱلْجِلْدِ(٢)

تُسَافِرُ كِلْتَا رَاحَتَيَّ بِجِسْمِهِ
فَطَوْرًا إِلَى خَصْرٍ وَطَوْرًا إِلَى نَهْدِ

فَتَهْبِطُ مِنْ كَشْحَيْهِ كَفِّي تِهَامَةً
وَتَصْعَدُ مِنْ نَهْدَيْهِ أُخْرَى إِلَى نَجْدِ(٣)

---

(١) فرند السيف وافرنده رونقه وماؤه وصفاؤه ، وجوهره ووشيه
(٢) هذا من قول الشاعر فى الخمر والعنب :

فالا يكنها أو تكنه فانه   أخوها غذته أمه بلبانها

ومع حسن الأبيات لا ترانى مستريحا جدا لتشبيه جسم المحبوب بالسيف من كل جهة، ولا فى جعله مع السيف والغصن والشمس أخا مثل قد الشراك من الجلد ، نعم ان الغرض بيان المساواة التامة ولكن كلمة الشراك أنزه المحبوب عنها . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) أراد بتهامة غور الخصر ، و بنجد علو النهد وارتفاعه . وتهامة تلك الأرض المعروفة وهى ما بين ذات عرق الى مرحلتين من وراء مكة « وذات عرق أول تهامة الى البحر »

وَقَالَ أَيْضًا :

وَرِدَاءِ لَيْلٍ بَاتَ فِيهِ مُعَانِقِي
طَيْفٌ أَلَمَّ بِظَبْيَةِ الْوَعْسَاءِ (١)

فَجَمَعْتُ بَيْنَ رُضَابِهِ وَشَرَابِهِ
وَشَرِبْتُ مِنْ رِيقٍ وَمِنْ صَهْبَاءِ

وَلَثَمْتُ فِي ظَلْمَاءِ لَيْلَةِ وَفْرَةٍ (٢)
شَفَقًا هُنَاكَ لِوَجْنَةٍ حَمْرَاءِ

وَاللَّيْلُ مُشْمَطُّ الذَّوَائِبِ كَبْرَةً
خَرِفٌ يَدِبُّ عَلَى عَصَا الْجَوْزَاءِ (٣)

وماوراء ذلك من الغرب فهوغور ، وقد يكنى بتهامة عن المكان المنخفض وبنجد عن المرتفع ، ومثل البيت قول ابن مطروح :

وكم تهت فى غـور خصر له وأشرفت فى نجد ذاك الكفل

وأنت تعرف الفرق بين النجدين نجد ابن عمار ونجد ابن مطروح ، وكل امرئ ومايهوى وقد هديناه النجدين . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) الوعساء : رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول ، والوعساء موضع بعينه فى بلاد العرب، وفيه يقول ذو الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين حلاحل وبين النقا آأنت أم أم سالم

ويروى و «لرب ليل » بدل « ورداء ليل » (٢) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس، أو ماسال على الأذنين منه، أو ماجاوز شحمة الأذن (٣) الشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده ، وفعله شمط « كفرح وأشمط » وفى

ثُمَّ انْثَنَى وَالصُّبْحَ يَسْحَبُ فَرْعَهُ
وَيَجُرُّ مِنْ طَرَبٍ فُضُولَ رِدَاءِ(١)

تَنْدَى بِفِيهِ أُقْحُوَانَةُ أَجْرَعٍ
قَدْ غَازَلَتْهَا الشَّمْسُ غِبَّ سَمَاءِ(٢)

وَتَمِيسُ فِي أَثْوَابِهِ رَيْحَانَةٌ كَرَعَتْ عَلَى ظَمَإٍ بِجَدْوَلِ مَاءِ
نَفَّاحَةُ الْأَنْفَاسِ إِلَّا أَنَّهَا حَذَرَ النَّوَى خَفَّاقَةُ الْأَفْيَاءِ(٣)

فَلَوَيْتُ مَعْطِفَهَا اعْتِنَاقًا حَسْبُنَا
فِيهِ بِقَطْرِ الدَّمْعِ مِنْ أَنْوَاءِ

وَالْفَجْرُ يَنْظُرُ مِنْ وَرَاءِ غَمَامَةٍ
عَنْ مُقْلَةٍ كُحِلَتْ بِهَا زَرْقَاءِ

البيت حسن تعليل لطيف ، وعلته كبرة اذا طعن فى السن ، وخرف الرجل « كفرح ونصر وكرم » فهو خرف اذا فسد عقله من الكبر (١) الفرع الشعر التام ، وفى بعض النسخ « ثم انثنى والسكر الخ » وأظنه سحب فرعه ليكون منه فى الصباح ليل يستره عن أعين الرقباء فلا يغريهم به بياض الصبح . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) يصف ثغره وطيب نكهته ، والسماء هنا المطر ، وغب بعد (٣) نفاحة أى دائمة النفح وطيب الرائحة ، وفى الأصل « الندى » وأراه مصحفا عن « النوى » ويريد بالأفياء الشعر ، والأفياء فى الأصل جمع فىء وهو الظل

فَرَغِبْتُ عَنْ نُورِ الصَّبَاحِ لِنُورَةٍ
أَغْرَى لَهَا بِبَنَفْسَجِ الظَّلْمَاءِ

انْتَهَى .

***

تنزه المعتمد ابن عباد بوادى الطلح

« وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى » كَثِيرًا مَا يَنْتَابُ وَادِيَ الطَّلْحِ مَعَ رُمَيْكِيَّتِهِ (١) وَأُولِي أُنْسِهِ وَمَسَرَّتِهِ، وَهُوَ وَادٍ بِشَرْقِ إِشْبِيلِيَةَ مُلْتَفُّ الْأَشْجَارِ ، كَثِيرُ تَرَنُّمِ الْأَطْيَارِ ، وَفِيهِ يَقُولُ نُورُ الدِّينِ بْنُ سَعِيدٍ (٢) :

سَائِلْ بِوَادِي الطَّلْحِ (٣) رِيحَ الصَّبَا
هَلْ سُخِّرَتْ لِي مِنْ زَمَانِ الصِّبَا

---

(١) تقدم التعريف بالرميكية جارية المعتمد وأم أولاده وفى الأصل «زملته» وهو تصحيف فاسد . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) سبقت ترجمته، وسيأتى حديث عنه طويل (٣) الطلح شجر عظام حجازية الأصل ومنابتها بطون الأودية، وهى أعظم العضاه شوكا وأصلبها عودا وأجودها صمغا، لها ظل وارف ممدود وخضرة شديدة ناضرة، وأغصان طوال عظام طيبة الريح، وساق ضخمة لاتلتقى عليها يدا الرجل، ولا ينبت الا فى أرض غليظة شديدة خصبة، قلت ووادى الطلح هو الذى خاطب نائحه المرحوم أمير الشعراء أحمد بك شوقى فى مطلع احدى أندلسياته الرائقة التى يجارى بها ابن زيدون وأولها :

يانائح الطلح أشباه عوادينا نأسى لواديك أم تأسى لوادينا

وسنعرض ان شاء الله للموازنة بين القصيدتين فى كتاب الأدب العربى . . « أحمد يوسف نجاتى » .

كَانَتْ رَسُولًا فِيــهِ مَابَيْنَنَا
لَنْ نَأْمَنَ الرُّسْلَ وَلَنْ نَــكْتُبَا(١)
يَا قَاتَلَ اللّٰهُ أُنَاسًــا إِذَا
مَا اسْتُؤْمِنُوا خَانُوا ، فَمَا أَعْجَبَا
هَــلَّا رَعَوْا أَنَّا وَثِقْنَا بِهِمْ
وَمَا اتَّخَذْنَا عَنْهُمُ مَذْهَبَا
يَاقَاتَلَ اللّٰهُ الَّذِي لَمْ يَتُبْ
مِنْ غَدْرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَاجَرَّبَا
وَالْيَمُّ(٢) لَا يَعْرِفُ مَا طَعْمُهُ
إِلَّا الَّذِي وَافَى لِأَنْ يَشْرَبَا
دَعْنِيَ مِنْ ذِكْرِ الْوُشَاةِ الْأُلَى
لَمَّا يَزَلْ فِكْرِى بِهِمْ مُلْهَبَا
وَاذْكُرْ بِوَادِي الطَّلْحِ عَهْدًا لَنَا
لِلّٰهِ مَا أَحْــلَى وَمَا أَطْيَبَــا

(١) مالى اليك سوى النسيم رسول   يحكى صبابات الهوى و يقول
(٢) البحر ،أو الذى لايدرك قعره ولا شطاه، ولكن يقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحا زعاقا، وعلى النهر الكبير العذب الماء ، وقد أمرت أم موسى حين

بِجَانِبِ ٱلْعَطْفِ وَقَدْ مَالَتِ ٱلْ
أَغْصَانُ وَٱلزَّهْرُ يَبُثُّ ٱلصَّبَا
وَٱلطَّيْرُ مَازَتْ(١) بَيْنَ أَلْحَانِهَا
وَلَيْسَ إِلَّا مُعْجَبًا مُطْرِبَا
وَخَانَنِي مَنْ لَا أُسَمِّيهِ مِنْ
شُحٍّ أَخَافُ ٱلدَّهْرَ أَنْ يُسْلَبَا
قَدْ أَتْرَعَ(٢) ٱلْكَأْسَ وَحَيًّا بِهَا
وَقُلْتُ أَهْلًا بِٱلْمُنَى مَرْحَبَا
أَهْلًا وَسَهْلًا بِالَّذِي شِئْتُهُ يَا بَدْرَتِمٍّ مُهْدِيًا كَوْكَبَا
لَكِنَّنِي آلَيْتُ أُسْقَى بِهَا أَوْ تُودِعَنْهَا ثَغْرَكَ ٱلْأَشْنَبَا(٣)
فَمَجَّ لِي(٤) فِي ٱلْكَأْسِ مِنْ ثَغْرِهِ
مَا حَبَّبَ ٱلشُّرْبَ وَمَا طَيَّبَا

ولدته وخافت عليه فرعون أن تجعله فى تابوت ثم تقذفه فى اليم وهو نهر النيل ، وقال تعالى : « فليلقه اليم بالساحل » لجعل له ساحلا ، وهولفظ معرب (١) فصلت بينها وتفاوتت أصواتها واختلفت نغماتها(٢) ملأها حتى فاضت(٣) أى أقسمت أن لاأشرب بها حتى تمزجها برضاب ثغرك ، والشنب ماء ورقة تجرى على الثغر مع برد وعذوبة فى الفم (٤) مج الشراب من فيه ألقى به ، ومج بريقه اذا لفظه. وحقيقة المج طرح المائع من الفم فاذا

وَقَالَ هَا لَثْمِي نُقْلًا وَلَا   تَشَمَّ إِلَّا عَرْفِيَ(١) ٱلْأَطْيَبَا

وَاقْطُفْ بِخَدِّي ٱلْوَرْدَ وَٱلْآسَ وَٱلنْـ
نَسْرِينَ لَا تَحْفِلْ بِزَهْرِ ٱلرُّبَا

أَسْعِفْتُهُ غُصْنًا غَدَا مُثْمِرًا   وَمِنْ جَنَاهُ مَيْسُهُ قَرَّبَا

قَدْ كُنْتُ ذَا نُهًى وَذَا إِمْرَةٍ   حَتَّى تَبَدَّى فَحَلَلْتُ ٱلْحُبَا(٢)

وَلَمْ أَصُنْ عِرْضِيَ فِي حُبِّهِ   وَلَمْ أُطِعْ فِيهِ ٱلَّذِي أَنَّبَا

حَتَّى إِذَا مَا قَالَ لِي حَاسِدٌ
تَرْجُوهُ وَٱلْكَوْكَبَ أَنْ يَقْرُبَا(٣)

أَرْسَلْتُ مِنْ شِعْرِيَ سِحْرًا لَهُ
يُيَسِّرُ ٱلْمَرْغَبَ وَٱلْمَطْلَبَا(٤)

فَقَالَ عَرِّفْهُ بِأَنِّي سَأَحْـ   تَالُ فَمَا أَجْتَنِبُ ٱلْمَكْتَبَا(٥)

لم يكن مافى الفم مائعا قيل « لفظ » وقد يستعمل المج فى غير المائع مجازا، نحو هذا كلام تمجه الأسماع بتشبيه اللفظ بالماء والأذن بالفم « لأن كلا منهما حاسة مدركة » (١) الرائحة الذكية . « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) حل الحبوة كناية عن الانبساط وترك التوقر ، وعن استخفاف شىء للمرء واستفزازه اياه ، وسبق شرح الاحتباء ، وفلان لاتحل حبوته أى انه حليم غير طائش ، ورزين ثابت (٣) فى الأصل « يغرب » والغرض ان رجاءه محبوبه كرجاء الكوكب أن يدنو منه ، كناية عن البعد وعزة المطلب (٤) أراد أن يؤثر فيه بشعره ويرقيه بتأثيره وغزله (٥) أثرت رقية الشيطان

فَزَادَ فِي شَوْقِي لَهُ وَعْدُهُ   وَلَمْ أَزَلْ مُقْتَعِدًا(١) مَرْقَبَا

أَمُدُّ طَرْفِي ثُمَّ أَثْنِيهِ مِنْ
خَوْفِ أَخِي ٱلتَّنْغِيصِ أَنْ يَرْقُبَا

أُصَدِّقُ ٱلْوَعْدَ ، وَطَوْرًا أَرَى
تَكْذِيبَهُ ، وَٱلْحُرُّ لَنْ يَكْذِبَا

أَتَى وَمَنْ سَخَّرَهُ بَعْدَ مَا   أَيْأَسَ بُطْئًا كَادَ أَنْ يُغْضِبَا

قَبَّلْتُ فِي ٱلتُّرْبِ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ
مِنْ حَصَرٍ(٢) ٱللُّقْيَا سِوَى مَرْحَبَا

هَنَّأْتُ رَبْعِي إِذْ غَدَا هَالَةً
وَقُلْتُ يَا مَنْ لَمْ يُضِعْ أَشْعَبَا(٣)

بِٱللهِ مِلْ مُعْتَنِقًا لَائِمًا
فَمَالَ كَٱلْغُصْنِ ثَنَتْهُ ٱلصَّبَا

---

(١) فى الأصل « معتقدا » واقتعده أى جعله مقعداً يجلس عليه، والمرقب: المكان المرتفع (٢) حصر « كفرح » العجز عن القول والعى فى المنطق لسبب من خجل أو نحوه (٣) الربع المنزل ، والهالة دائرة القمر ، وأشعب ابن جبير مولى عبد الله بن الزبير من أهل المدينة يضرب به المثل فى الطمع وهو مشهور « أحمد يوسف نجاتى »

فَقَالَ مَا تَرْغَبُ ؟ قُلْتُ أُتَّئِـدْ
أَدْرَكْتُ إِذْ كَلَّمْتَنِي الْمَرْغَبَا(١)
فَقَالَ : لَامَذْهَبَ(٢) عَنْ ذِكْرِ مَا
تَرْغَبُهُ ، قُلْتُ : إِذَنْ مَرْكَبَا
وَكَانَ مَا كَانَ ، فَوَاللهِ مَا ذَكَرْتُهُ دَهْرِيَ أَوْ أُغْلَبَا(٣)

وَسَتَأْتِي هَـذِهِ الْقَصِيدَةُ بِكَمَالِهَا فِي جُمْلَةٍ مِنْ نَظْمِ ابْنِ سَعِيدٍ الْمَذْكُورِ . وَقَالَ يَتَشَوَّقُ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ ـ وَهِيَ حِمْصُ الْأَنْدَلُسِ :

***

تشوق نور الدين الى اشبيلية

أَنَّ الْخَلِيجُ وَغَنَّتِ الْوَرْقَاءُ
هَلْ بُرِّحَا إِذْ هَاجَتِ الْبُرَحَاءُ(٤) ؟

---

(١) اتئد: تأن وتمهل، قالت الخنساء :

فتى كان ذا حلم رزين وتؤدة ... اذا ماالحبامن طائف الجهل حلت

والبيت مثال لقولهم « حل حبوته » وتؤدة أصلها وأدة من مادة «وأد» وفي بعض النسخ «المأربا» بدل «المرغب» آخر البيت «أحمد يوسف نجاتي»

(٢) أي لامعدل عنه ولا فرار منه ، وفي الأصل « لامرغب » (٣) من قول ابن المعتز :

وكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

(٤) الورقاء الحمامة « والأورق الذي لونه لون الرماد فيه سواد » قال :

وما هاج هذا الشوق غير حمامة ... من الورق حماء الجناح بكور

أَنَا مِنْـكُمَا أَوْلَى بِحِلْيَـةِ عَاشِقٍ
أَفْنَى وَمَا نَمَّتْ بِىَ ٱلصُّعَدَاءُ[١]
أَخْشَى ٱلْوُشَاةَ فَمَا أَفُوهُ بِلَفْظَةٍ
وَٱلْـكَتْمُ عِنْـدَ ٱلْعَاشِقِينَ عَنَاءُ
لَوْ لَا تَشَوُّقُ أَرْضِ حِمْصٍ مَا جَرَى
دَمْعِى ، وَلَا شَمِتَتْ بِىَ ٱلْأَعْدَاءُ
لَمْ أَسْتَطِعْ كِتْمَانَهُ فَكَأَنَّنِى
مَا كَانَ لِى كَتْمٌ وَلَا إِخْفَاءُ
وَٱلْبَدْرُ مَهْمَا رَامَ كَتْمًا مَنْ سَرَى
فِيـــهِ يَنِمُّ عَلَى سُرَاهُ ضِيَاءُ

وبرح به الأمر اذا جهده وألح عليه فهو مبرح به من البرح وهو الشدة والأذى والعـذاب الشديد والمشقة ، ويقال لقى منه برحا بارحا ، وبرحا مبرحا . وبرحاء الحمى وغـيرها شدة الأذى وقوة تأثيرها وشدة كربها

(١) الحلية الصفة والصورة وما يتحلى به ، والصعداء تنفس ممدود طويل يتوجع منه ، ومنه :

وتنفس الصعداء ليس شـكاية منى لحبك ياحيـاة الناظر
لـكن حر هواك آلم مهجتى فرأيت فيـه راحـة للخاطر

بَلَدٌ مَتَى يَخْطُرْ لَهُ ذِكْرٌ هَفَا
قَلْبِي ، وَخَانَ تَصَبُّرٌ وَعَزَاءُ[١]
مِنْ بَعْدِهِ مَا الصُّبْحُ يُشْرِقُ نُورُهُ
عِنْدِي ، وَلَا تَتَبَدَّلُ الظَّلْمَاءُ
كَمْ لِي بِهِ مِنْ ذِي وَفَاءٍ لَمْ يَخُنْ
عَهْدِي ، وَيَنْمُو بِالْوِدَادِ وَفَاءُ
فَتَرَاهُ إِذْ مَا مَرَّ ذِكْرِي سَائِلًا
عَنْ حَالَتِي إِنْ قَلَّتِ الْأَنْبَاءُ
يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي تَذَكُّرِ مُدَّةٍ
يَرْضَى بِهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
مَعَ كُلِّ مَبْذُولِ الْوِصَالِ ، مُمَنَّعٍ
مِنْ غَيْرِنَا ، تَسْمُو بِهِ الْخُيَلَاءُ[٢]
كَالظَّبْيِ ، كَالشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ ، كَالنَّقَا
كَالْغُصْنِ يَثْنِي مَعْطِفَيْهِ رُخَاءُ[٣]

(١) هفا فؤاده اذا ذهب فى أثر الشيء ، أو طرب ، وهفا الطائر خفق بجناحيه وطار (٢) الخيلاء الكبر والاعجاب عن تخيل مزية تتراءى للانسان من نفسه (٣) الرخاء : ريح سهلة لينة «أحمد يوسف نجاتى»

يَسْعَى بِرَاحٍ كَالشِّهَابِ ، بِرَاحَـةٍ
كَالْبَدْرِ ، وَالْوَجْهُ الْمُنِيرُ ذُكَاءُ[1]

مَا لَانَ نَحْوَ[2] الْوَصْلِ حَتَّى طَالَ مِنْـ
ـهُ الْهَجْرُ وَاتَّصَلَتْ بِهِ الْبَلْوَاءُ

خَيْرُ الْمَحَبَّةِ مَا تَأَتَّتْ عَنْ قِلًى[3]
تُدْرَى بِبُؤْسِ الْفَاقَةِ النَّعْمَاءُ

مَا زِلْتُ أَرْقِى بِالْقَرِيضِ جُنُونَهُ
حَتَّى اسْتَكَانَ ، وَكَانَ مِنْهُ إِبَاءُ[4]

فَظَفِرْتُ مِنْـهُ بِمُدَّةٍ لَوْ أَنَّهَـا
دَامَتْ لَدَامَتْ لِى بِهَا السَّرَّاءُ

صَفْوٌ تَـكَدَّرَ بِالتَّحَرُّكِ ، لَيْتَـهُ
مَا زَالَ ، لَـكِنْ لَا يُرَدُّ قَضَاءُ

---

(١) ذكاء اسم للشمس «معرفة لا تدخلها الألف واللام» وابن ذكاء الصبح ، وهو من ذكت النار تذكو اذا اشتعلت (٢) فى الأصل « تحت » (٣) القلى البغض والعداوة والكراهة (٤) استكان خضع وسكن وانقاد ، والاباء التمنع والنفار ، وتقدم لابن سعيد فى قصيدته مثل هـذا المعنى من أنه يجعل الشعر وسيلة لاستمالة من يهواه « أحمد يوسف نجاتى »

إِنَّ ٱلْفِرَاقَ هُوَ ٱلْمَنِيَّــةُ ، إِنَّمَا
أَهْلُ ٱلنَّوَى مَاتُوا وَهُمْ أَحْيَــاءُ
لَوْلَا تَذَكُّرُ لَذَّةٍ طَابَتْ لَنَا
بِذَرَى[1] ٱلْجَزِيرَةِ حَيْثُ طَابَ هَوَاءُ
وَجَرَى ٱلنَّسِيمُ عَلَى ٱلْخَلِيجِ مُعَطَّرًا
وَتَبَدَّدَتْ فِي ٱلدَّوْحَةِ ٱلْأَنْدَاءُ
مَا كَابَدَتْ نَفْسِي أَلِيمَ تَفَكُّرٍ
أَلْوَى بِهِ عَنْ جَفْنِيَ ٱلْإِغْضَاءُ[2]
يَا نَهْرَ حِمْصٍ لَا عَدَتْكَ مَسَرَّةٌ
مَاءٌ يَسِيلُ لَدَيْكَ أَمْ صَهْبَاءُ[3] ؟!
كُلُّ ٱلنُّفُوسِ تَهَشُّ فِيكَ ، كَأَنَّمَا
جَمَعَتْ عَلَيْكَ شَتَاتَهَا[4] ٱلْأَهْوَاءُ

---

(١) الذرا : الظل والستر والكنف والكن ، يقال أنا فى ظل فلان وفى ذراه أى فى كنفه وستره وحماه (٢) وفى نسخة « الاغفاء » أى النوم ، وألوى به التفكر عن جفنه أى ذهب به وأبعده ، وألوى برأسه أمال وأعرض (٣) لاعدتك أى لا تجاوزتك ولا فارقتك (٤) الشتات المتفرق المختلف ، يعنى أن الأهواء المختلفة والميول المتفرقة والأغراض المتباينة أجمعت كلها متفقة على الارتياح إليه والسرور به «أحمد يوسف نجاتى»

وُدِّى إِلَيْكَ مَعَ ٱلزَّمَانِ مُجَدَّدْ
مَا إِنْ يَحُولُ تَذَكُّرٌ وَعَنَاءْ
وَلَوَ ٱنَّنِي لَمْ أُحْيِ ذِكْرًا لِلَّذِى
أَوْلَيْتُهُ مَا كَانَ فِيَّ حَيَــــاءْ
مَا كُنْتُ أَطْمَعُ فِي ٱلْحَيَاةِ لَوَ ٱنَّنِي
أَيْقَنْتُ أَنْ لَا يُسْتَرَدُّ[1] لِقَاءْ
غَيْرِى إِذَا مَا بَانَ حَانَ[2] ، وَإِنَّمَا
أَبْقَى حَيَاتِى حِينَ بِنْتُ[3] رَجَاءْ

وَسَيَأْتِى - إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى - لِهٰذَا ٱلنَّمَطِ وَغَيْرِهِ مَزِيدٌ فِي أَثْنَاءِ ٱلْكِتَابِ بِحَسَبِ مَا ٱقْتَضَتْهُ ٱلْمُنَاسَبَةُ ، وَٱللّٰهُ تَعَالَى ٱلْمَرْجُوُّ فِي حُسْنِ ٱلْمَتَابِ[4] ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ .

(١) أن هنا مخففة من أن «الثقيلة» لأنها مسبوقة « بأيقن » ولذا رفع المضارع بعدها (٢) هلك وقضى عليه ، و بان : بعد وفارق (٣) فى الأصل «بان» وهو تحريف ظاهر (٤) لعلها « المآب » « أحمد يوسف نجاتى »

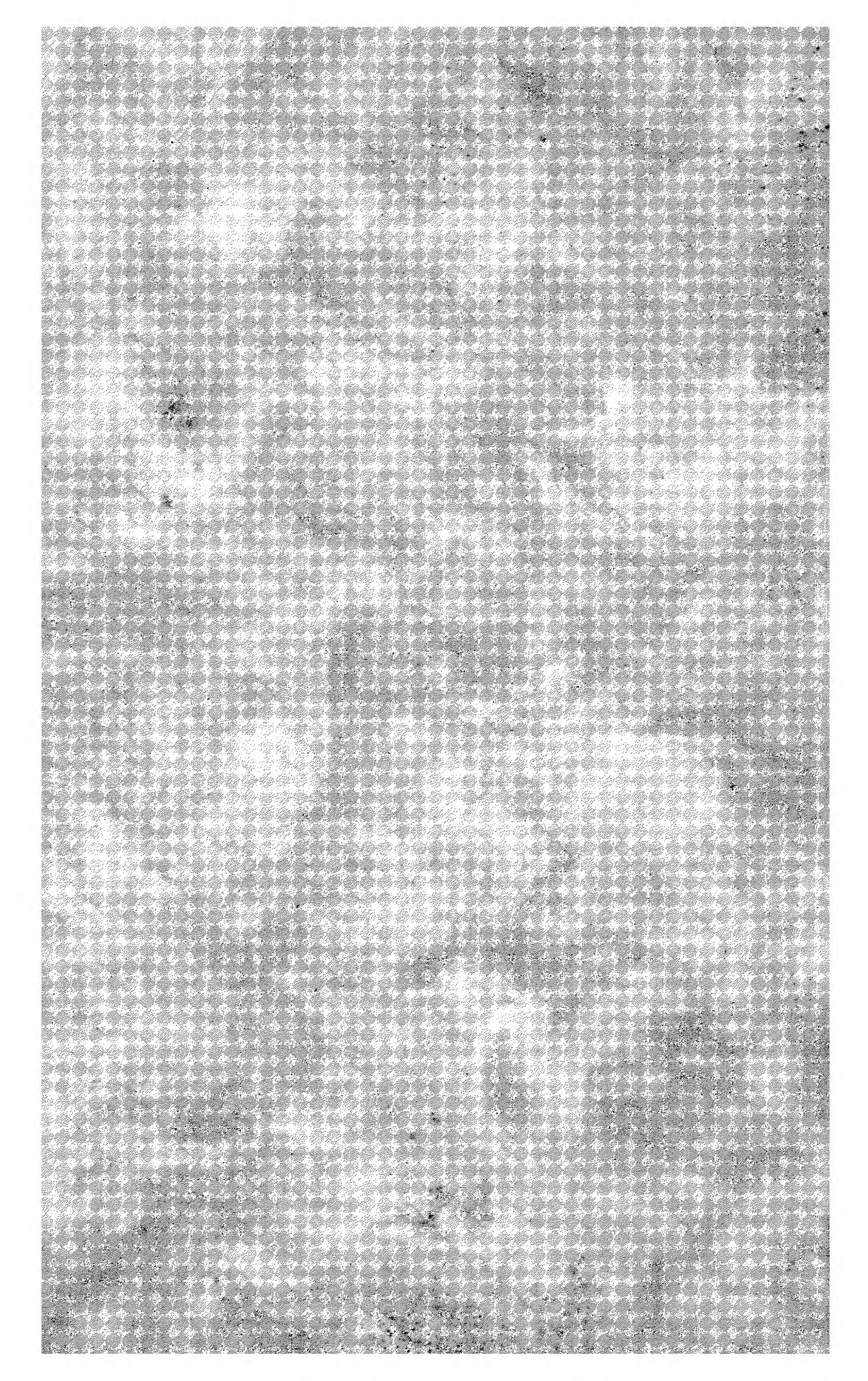
﴿ انتهى الجزء الخامس من كتاب نفح الطيب ﴾
ويليه الجزء السادس إن شاء الله وأوله

﴿ الباب الخامس ﴾

في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين الى بلاد المشرق

فهرست

الجزء الخامس من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب



مكتبة ومطبعة

عيسى البابي الحلبي وشركاه

بشارع خان جعفر بجوار سيدنا الحسين بمصر

صندوق بريد الغورية رقم ٢٦

تليفون رقم ٥٠٨٥٦

